شريف ثابت

رواية

البعث

عالم أفضل

شريف ثابت

البعث

عالم أفضل

دار كيان للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة©

عالمٌ أفضل

«إمَّا أنْ تَموتَ بطلًا، وَإمَّا أنْ تَعيشَ طَويلًا لِتَتَحَوَّلَ إلَى الشِّرِّيرِ».

هارفي دِنت- The Dark Knight

(قبل ما يزيد عن الخمس وعشرين عامًا):

انهمر رذاذ المياه الساقعة من الدُّش القديم الصدئ في تلك الشقة بإحدى عمارات العتبة القديمة، على جسد أمل الشافعي الذي سَرَت فيه قشعريرة قوية، اصطكَّت لها أسنانُها.

تشاغلَت عن هذه القشعريرة بدعك جلدها ببقايا صابونة عديمة اللون والرائحة والرغوة، في محاولة محمومة لإنجاز هذه المهمة الثقيلة في هذا الطقس البارد من دون سخان.

في سرها كالت السُّباب لبشير الهلالي، صديقها القديم ورفيق النضال، والذي سمح لها ولعريسها بقضاء ليلة دخلتهما في شقته القديمة. سُباب فاحشٌ لم تجرؤ يومًا على التفوه به، لإهماله إصلاح السخان القديم مما ترك جسدها نهبًا لسياط المياه المثلجة.

ولكنها في الحقيقة لم تكُ ساخطة لهذه الدرجة ... .

كانت القشعريرة تعبر جسدها وتدغدغ قلبها، من دون أن تميز إن كان مصدرها هو الماء البارد أو نشوة تلك الليلة الأسطورية التي لم يمض على انقضائها سويعات قليلة.

أسبلت جفنيها، ورفعت وجهها لأعلى مُستقبِلة الرذاذ البارد.

بعد أن أتيَا شهوتهما الأولى، فوجِئَت به يمد أصابعه ويمسد أسفل عينيها متسائلًا برفق:

- دموع!

حاولت أن تنفي، حاولت أن تمنع نزول المزيد، غير أن مقاومتها الواهية تبددت في الفراغ، فأومأت برأسها تاركة العنان لإفرازات قنواتها الدمعية.

نظر لها بعينين حائرتين.

ذابَ في عينيها المترقرقتين بحثًا عن علة ما يراه، وأرادت هي أن تتكلم، أن تحكي له عن وحدة وبرودة السنين، عن الوَحشَة التي ظلت تلتهم روحها منذ فقدت أحبابها.

عن الجسد الذي ذبل، والقلب الذي باضت عليه الحمامة ونسج حوله العنكبوت خيوطه.

عن الخطر والخوف والأمان الضائع في القلق والمطاردات من شارع لشارع، ومن بيت لبيت خلال العامين الأخيرين.

أرادت أن تفرغ كل هذا الركام على مائدته لتتحرر، ولكن الراحة التي غمرت روحها، والتنميل اللذيذ الذي سرى في نصفها السفلي بعد قحط سنين، جعلَا الكلام يبدو سخيفًا ثقيلًا.

خفضت رأسها لتدفنه في صدره.

أين هو الآن؟!

استيقظت ولم تجده إلى جوارها، وخطر ببالها للحظة أن كل ما مضى كان حُلمًا، غير أن أنفاسه التي لازالت تتردد في صدرها، ومذاق لعابه في فمها، أنبآها أنها لم تكن تحلم ... . سَرَت القشعريرة مُجددًا في بدنها، بينما المياه تنسدل من بين خصلات شعرها

الملتصقة بجبينها وأعلى ظهرها، وتتسابق على جسدها نحو أرضية البانيو الآدم المربع ... .

خرجت من غرفة النوم ملتحفة بالملاءة القديمة الممزقة حول جسدها العاري، بحثت عنه في أرجاء الشقة المكونة من غرفة أخرى وصالة وحمام ومطبخ ضيقين، من دون أن تعثر له على أثر ... تدافعت الخواطر في ذهنها بينما سبَّابتها تجرى على شاشة هاتفها النقال بحثًا عن رقم هاتفه ...

بعد أن فرغَا من المرة الثانية تحدثا طويلًا ... حديثٌ عذب تخللته ضحكات من القلب ومداعبات حَمَلَت شيئًا من الخشونة وأنفاس من سيجارة محشوة حصلَا عليها من ديلَر معروف بشارع شامبليون ...

شعرَا بالجوع، فنهضت هي لترتدي قميصه وتجلب الأكياس البلاستيكية التي تحوي أرغفة الفينو وعلبة الجبنة النستو والشيبسي ولتر البيبسي والتي أسقطاها لاشعوريًا عند باب الشقة مع استسلامهما لطوفان الشهوة الذي جرفهما بمجرد أن انغلق الباب عليهما ...

أخبرته –بشدقين متكورين- أنها تعلم الآن جزءًا من ماضيه المستعصي على ذاكرته، سألها مُتكِئًا بمرفقه على طرف المرتبة عمَّ تقصد فأجابته مبتسمة بمكر:

- أنتَ فيه ستات في حياتك ...

رفع حاجبيه وابتسم بدوره مرددًا:

- أستغفر الله العظيم! ...

ضحكت بطلاقة وقالت:

- مستحيل دي تكون أول مرة ...

نفث سحابة من دخان سيجارته باتجاهها وقال متهكمًا:

- طَب ما انتي كمان! ...

- فـ الحلال يا معلم ... أنا كنت متجوزة ... إنما أنت ... ! ...

- أنا إيه؟!

غمزت بعينها قائلة بلهجة عابثة:

- الله أعلم بقي!

وغابت في أثيرٍ من الأفكار للحظات توقفت خلالها عن المضغ قبل أن تقول بشرود:

- وجايز تكون في اللحظة دي مستنياك ترجع.

لم يرُد، تجوَّل بعينيه في وجهها واستداراتها من بين طرفي القميص المفتوح، في شدقيها المتكورين وشفتيها المبتسمتين والملطختين ببقايا الجبنة النستو، قبل أن يغوص في العينين السوداوين اللتين التمعتا رغم الشرود ومسحة الحزن، بمزيج من العاطفة والبهجة والمرح والارتياح وشيءٍ آخر أدركه فيما بعد أثناء استرجاعه لهذه اللحظة: اكتمال الأنوثة.

شعر بوجيبٍ في قلبه، همسَ:

- في اللحظة دي مش عايز أشوف أو افتكر واحدة

غيرك ...

ارتفع حاجباها وانفرجت شفتاها ...

أردف بصدق:

- والله العظيم ...

حاولت أن تداعبه أو تتهمه بالبكش، ولكن صوته وكلماته أصابَا وترًا في سويداء قلبها، فلم تَدر بنفسها إلا وهي تتمرغ في حضنه مجددًا، وتلوثت شفتاه بمعجون الجبنة النستو ...

وكانت الثالثة ...

غادرت الحمام وجسدها المُبتَل المُلتحِف بالملاءة ينتفض من البرد ... اتجهت رأسًا بخطوات متصلبة إلى حجرة النوم، ولم تَنس لدى عبورها للصالة أن تمسح أركان الشقة بعينيها أملًا في أن يكون قد عاد ...

داخل الغرفة التي تسلل إليها نور الشمس القادم عبر خُصاص ضلفة الشيش الخشبية التي تسد فتحة النافذة الطولية كما هو معمولٌ به في الشُقق القديمة، أتمت تجفيف جسدها والتقطت قطع ثيابها المتناثرة بعشوائية هنا وهناك، وقفت للحظات أمام مرآة قديمة مشروخة ذات إطار مترب معلقة إلى الحائط ... ألقت نظرة طويلة على انعكاس جسدها العاري على السطح الذي كان مصقولًا، وراحت تمسد بأطراف أصابعها برقة على انحناءاتها ... ابتسامة رضا تتسع على شفتيها، ثم بدأت تضع ثيابها عليها ...

مدت أصابعها تمسح برقة على بطنه العاري الذي تناثرت عليه مجموعة من الندوب متفاوتة الحجم والطول والعمق، أبشعهم ندبة عميقة تشق البطن طوليًا حتى أعلاه ثم تنحرف يمينًا لتنتهى بـ E.N. غائرة محفورة على الكتف الأيمن ...

حدقت فيها ثم رفعت عينيها إلى وجهه هامسة:

- دي ... ؟! ...

سرح بعينيه في ظلام الحجرة الذي أوهنه ضوء القمر، ثم هَزَّ رأسه قائلًا:

- مش فاكر ...

ساد الصمت بينهما للحظات عادت هي خلالها لتمسد على ندوبه وقد فاض قلبها بمشاعر مختلطة تسيدتها الشفقة، أرسلَت القشعريرة في جسدها، اعتدلَت تَضُم أطراف القميص وراحت تُحكِم إغلاق أزراره، فتأملها للحظات ثم قال:

- عايزة رأيي؟ مشهد واحدة بتدخُل جوا هدومها مُثير أكتر بكتير من واحدة بتخرج منها ...

ضحكت مُردِدة:

- والنبي إيه؟! ...

- (يبتسم): أنا عارف إنك مش هَتصدقيني ... بس دي الحقيقة ... الأنثى وهي بتدخل جوا هدومها بتكون أجمل ... بتغطي مفاتنها، أسلحتها، بتداري آثار المؤامرة اللي اشتركت فيها مع حبيبها ... ممارسة الحب –بالجنس ومن غير الجنس- هي مؤامرة على

العالم بيشترك فيها اتنين ... مؤامرة تشوفيها في الابتسامة ولمعة العين، النهجان والعرق الخارج من المسام ... مؤامرة بتكتمِل بإخفائها ... من غير ما الحمقى اللي حواليهم في الشارع والشغل والمواصلات يلاحظوا حاجة، المؤامرة الناجحة هي اللي مَحدِش يشعر بيها ... عشان كدا دايمًا بَشوف الأنثى اللي بتغطي نفسها أكثر إثارة من اللي بتقلع هدومها؛ لأنها بتستكمل شروط المؤامرة الأجمل في الدنيا.

فرغت من ارتداء ثيابها، أدَت صلاة الصُبح ثم اتجهت إلى النافذة الطولية الضيقة ... أزاحت ضلفة الشيش الخشبية واستندت بمرفقيها إلى حافة النافذة، وبعينين شاردتين راحت تتابع المظاهرة المارة في الشارع الرئيسي باتجاه وسط البلد، والمكونة من مئة أو مائتي شخص أغلبهم مُلتح، يحملون لافتات تندد بـ Egy- Nergy وجرائمها، بينما هتافاتهم تتوعد يهود خيبر بأن جيش محمد سوف يعود!! ...

تحسست بسبابتها الدبلة الفضية التي توسطت يُمناها منذ الأمس، ورغمًا عنها راحت هواجسها تأكل من بهجتها وهي تسأل نفسها عن السبب الذي دعاه للمغادرة ...

هل هبط ليجلب فطورًا؟ ... هل انطلق عائدًا للميدان؟ ... وإذا كان قد فعل، فلماذا لم يوقِظها

لتذهب معه؟ ...

أم لعله لم يَهنأ بغرام ليلة الأمس كما هَنَأت هي وتخيلت أنه فعل بالمِثل؟! ...

جعلت تسترجع تفاصيل الليلة الماضية ... أداءها وأحاسيسها ... حرارة قبلاته، حركته المحمومة داخلها، ارتعاشاته، علامات النشوة التي افترشت أساريره ... تنبش بقلق بحثًا عن إشارات للإحباط أو عدم الرضا ...

شعرت بصدرها يضيق، وبالقلق والحيرة يخنقاها مع مرور الوقت ببطء ثقيل ... بحثت عن علبة سجائرها، فوجدتها ملقاة بالقرب من المرتبة القديمة التي شهِدَت غرامهما، ولم تَبق بها إلا سيجارة واحدة، أشعلتها وعادت لتدخنها أمام فتحة النافذة ...

وبينما تنفث الدخان مُعبقًا بخواطرها السوداء، تلمَسَت الونس مجددًا في الملمس البارد للدبلة حول إصبعها، وتوعدته في سرها أن «تنفخه» عتابًا لدى عودته، وتخاصمه لإسبوع على الأقل جزاءً وفاقًا لهذه الهواجس التي تتصارع في صدرها ...

لم تكُ تعرف أن انتظارها سيطول ...

***

الجزء الثالث

البعث

لم يستغرق الأمر طويلًا ...

نصف دقيقة من الحركة العنيفة المهتاجة داخلها، واعتصار لحمها الأسمر بأصابعه الطويلة ذات الأظافر المتسخة، أغمضت صَباح عينيها، وحاولت أن تتغاضى عن رائحة عرقه النفاذة وأن تندمج بلَفِّ ذراعها حول عنقه على سبيل الحُضن، غير أنه لم يمهلها، سرعان ما تخشب جسده، وشعرت ببلله الدافئ.

فتحت عينيها على الشعر المفلفل الذي يعلو رأسه المدفون في صدرها، لهاثه يتردد ليمتزج بصيحات الضفادع وحشرات الليل التي تسرح في الحقل القريب، وصوت خطاب الرئيس المشوب بالاستاتيكية، والمنبعث من راديو التوكتوك المتوقف عن قرب.

ظلا جامدين في هذا الوضع للحظات قبل أن ينهض حسن من بين فخذيها ببطء ويرتمي على ظهره إلى جوارها.

«أيها الإخوة المواطنون، أتحدث إليكم اليوم في ظرفٍ عصيب تمرُ به مِصرُنا الحبيبة، بل ويمر به العالم أجمع».

سمعت صوت حكة عود الثقاب، وتسللت إلى أنفها رائحة البانجو المحترق لتطغي قليلًا على رائحة فضلات الغنم التي تمر من هذا المكان جيئةً وذهابًا كل يوم، مَدت يدها في الظلام الذي أوهنه ضوء القمر من بين أغصان الشجرة التي يرقدان تحتها، تناولت

السيجارة من بين شفتيه، سحبت منها نفسًا طويلًا ونفثت دخانه ببطء وتلذذ قبل أن تعيدها له.

أسدلت طرف جلبابها الأسوَد لتستر عري فخذيها، وأدارت رأسها لتتأمل ملامح وجهه التي كساها وجوم مُتَوَقَع.

«الإرهاب وحشٌ أسوَد، لا يفرق بين غني وفقير، رجلٍ أو امرأة، طفلٍ أو شيخ ... شعبٍ أو حكومة».

- ماتشيلش هَم.

قالتها بصوتٍ على شيء من الخشونة المكتسبة بفعل طول العهد بالدخان، فلم يُجِبها سوى نقيق الضفادع وصوت السيد الرئيس.

«لقد خَبرنا هذا المسخ اللعين من قبل، مَرات ومرَات، وفي كل مرة كان ينال من دماء الشهداء والضحايا الأبرياء قبل أن نَدحره ونعيده إلى جحره مذمومًا مدحورًا».

نفث سحابة من الدخان عبر منخاره وهو يرمق القمر الذي راح يناور قطعًا من الغيوم الداكنة، شعر بأصابعها تمسح على ضلوعه النافرة من قميصه المفتوح، وسمع صوتها الأجش يردد:

- كل الرجالة المتجوزين بيبقوا كدا.

أدار رأسه إليها يرمق وجهها المجدور الذي تتوسطه شفتين مكتنزتين ويعلوه شعرٌ أكرت لامع، وتساءل:

- كدا إزاي؟!

قالت مبتسمة بإشفاق:

- ماعندهُمش صبر.

«لقد وجهنا للإرهاب ضربة قاصمة قبل عقدين من الزمان، وها هو يطل برأسه من جديد ساعيًا لهدم كل مكتسبات شعبنا العظيم من رخاء وتقدم طيلة السنوات الماضية».

أزاح أصابعها عنه بشيء من العنف، واعتدل يربط أزرار بنطلونه الجينز حائل اللون، رمقته حتى انتهى وهَبَّ واقفًا بخفة، ثم انتزع ورقة نقدية من جيب قميصه، قذفها في وجهها قائلًا بقسوة:

- بَطَلي رغي!

ارتطمت الوريقة بوجهها وسقطت في حجرها، نظرت له بغِلٍّ وهو يبتعد متجهًا نحو التوكتوك، قبل أن ترفع عقيرتها مرددة:

- ربنا يشفيهالَك!

تجمد في مكانه والتفت بحركة حادة إليها، فتابعت بسخرية:

- بكرة تخِف وتعرف تنام معاها وترجع أبو علي الوَحش بتاع زمان،

ثم –في اللحظة التالية- شهقت بمزيجٍ من فزع وألم عندما وجدته فوق رأسها، وقد قبض بأصابعه على جمشة من خصلات شعرها الأكرت.

جذبها بقوةٍ انتزعت الصرخة من حلقها وهو يقول بغلظة:

- جبتي منين الكلام دا؟!

صرخت:

- سيبني يا خو ...

قاطعتها الصفعة التي هوَت على وجنتها، وامتزج دويها بصوت صياحه:

- منين يا بت الوسخة؟!

بصقت في وجهه وهي تسبه بأفحش الألفاظ، فتوالت صفعاته الرنانة بسرعة على وجهها بالتزامن مع صيحاته وشتائمه، حاولت أن تضربه ولكن ضرباته المتلاحقة لم تمنحها الفرصة، فتلوَّت وهي تحاول حماية وجهها ورأسها، بينما صرخاتها تشق عنان السماء المظلمة.

«الإرهاب يتخذ دومًا خطابًا تبريريًا يخفي وراءه نواياه التخريبية، خطابٌ يسهل به اجتذاب أنصار يدعمون خِسته وحقارته وغدره».

- انطقي!

صرخت بألم:

- الناس بتتكلم.

رفسها في معدتها هاتفًا بشراسة:

- ناس مين وبيقولوا إيه؟!

تكورت حول نفسها وهي تشهق متوجعة، فعاد يجذبها من شعرها وفتح مطواته، وبحركة سريعة، شق صدر جلبابها ودَسَّ نصلها الحاد أسفل منبت ثديها الأيسر وضغط مرددًا:

- اتكلمي بدل ما اخليكي ماشية بِبز واحد!

صرخت:

- بيقولوا انها مبقيتش تِنفع تتركِب بعد اللي حصلها فـ الخرابة، وانك ...

- أنا إيه؟؟

- لولا التوكتوك اللي جابهولَك ابو حطب كان زمانك رجعتها لبيت عمها من تاني يوم.

لمعت عيناه بغضبٍ مكتوم وسألها:

- هُما مين بقى؟!

- الناس!

ثم صرخت مُجددًا إذ شعرت بالنصل الحاد ينغرس في منبت ثديها ...

- الناس كلهم! صُحابك وزملاتك اللي بيجوني هنا، حتى الشيخ طُلبة إمام الجامع! أهل العزبة كلهم.

حدق في وجهها المرتعب بعينين يتطاير منهما الشرر، قبل أن يسحب مطواته ويستدير متجهًا نحو التوكتوك، بينما شتائمها المقذعة تلاحقه.

«إن ما تشهده شوارعنا ومدننا من أعمال عنف تحت ستار الاعتراض على الأوضاع المعيشية التي تردت بسبب الإرهاب هو في حد ذاته دعم للإرهاب، بل هو الهدف الذي يسعى إليه الإرهاب».

لم يشعر بالحركة الاهتزازية المستمرة لجسم التوكتوك الذي يكاد يتفكك في أي لحظة طيلة دقائق القيادة على الأرض الترابية غير الممهدة، كانت عيناه ترصدان الطريق المظلم إلا من ضوء مصباح التوكتوك، وصوت الخطاب الرئاسي المُخَروَش عبر الأثير يملأ أذنيه، أما

عقله فغائب، يسترجع كل حرف غرسته المومِس بصوتها الغليظ في كرامته ...

- ***بيقولوا انها مبقيتش تِنفع تتركِب بعد اللي حصلها فـ الخرابة.***

ألقى نظرة طويلة على الخرائب وتِلال الزبالة التي تتبدى عن بُعد، والتي تفصلها عنه مئات الأمتار وسورٌ عالٍ من الأسوار الشائكة، تم ترميمه مؤخرًا بفضل نفوذ الحاج أبو خَطب نائب الدائرة من بعد «الحادثة». ولوهلة، خيل له أنه يسمع أصداء صرخات ريهام التي ترددت هناك قبل عام، بينما عشرات المتشردون ينهشونها.

- ***لولا التوكتوك اللي جابهولَك ابو حطب كان زمانك رجعتها لبيت عمها من تاني يوم.***

أزيز طوافة تشق السماء المظلمة على ارتفاع منخفض لا يزيد عن بضع عشرات من الأمتار فوق رأسه باتجاه العاصمة.

«أعداؤنا كُثر، وهُم يستغلون حماس واندفاع وبراءة شبابنا ليدفعوا بهم وقودًا لحرق وطنهم».

- ***الناس كلها!***

أنوار الكلوب الذي يُضيء الغرزة القريبة من مدخل العزبة تقترب ...

- ***صُحابك وزملاتك اللي بيجوني هنا.***

عَبَرَ عن كثب، صَكت أذنيه أصوات ضحكاتهم وشتائمهم وقرقرة المياه في الجوزات، لاحظوه

فتصايحوا مُنادين إياه، لم يلتفت إليهم، فقط جَزَّ على أسنانه وهو يدير مقود التوكتوك لينحرف عند أقرب ناصية بعد أن تجاوزهم ...

- ***حتى الشيخ طُلبة إمام الجامع! ...***

«أعداؤنا ليسوا بالضرورة من خارجنا، بل والحق أقول لكم إن أعداء الداخل أشد خطرًا وفتكًا، الخونة من أصحاب المصالح، المختبئون في الظلال بانتظار وقوع البلاء حتى ينقضُّوا على الوطن ويلتهموا مقدراته، هؤلاء المجرمون أحذرهم».

- ***أهل العزبة كلهم.***

دفع باب العِشة، ودلف إليها.

ريهام كانت جالسة في الصالة إلى طرف الأريكة المجاورة للكوة المفتوحة على الزقاق المجاور، رَفعَت إليه عينين زجاجيتين عن شاشة التليفزيون صيني المنشأ، والذي ينقل خطاب الرئيس على الهواء، رمقها بنظرة سريعة وهو يلقي عليها تحية المساء، ثم عَبَرَ الصالة الضيقة المُضاءة بمصباح فلوروسنت، رَدَت تحيته بصوت رقيق وهي تنهض ببطء من جلستها، وأشارت إلى الأطباق المغطاة بفوطة قماشية، والمرصوصة على السفرة الخشبية الصغيرة في جانب الصالة، وسألته:

- أسَخَّن الأكل؟

- لأ.

قالها باقتضاب قبل أن يدلف إلى دورة المياه الضيقة

ويدفع الباب وراءه.

«لا تظنوا أنكم بمأمن من العقاب، أنتم مرصودون ومراقبون بالكامل، خيانتكم لوطنكم لن تمر بلا عقاب، تراجعوا عن غِيِّكُم قبل فوات الأوان؛ لأن الثمن بعد أن نفرغ من هزيمة الإرهاب سيكون فادحًا، وستسددونه بالكامل».

***

شعرت كاترين، ذات السنوات الاثني عشر، بأصابع والدتها الرقيقة تهزها بقدر غير مألوف من الخشونة، تسحبها من البئر المظلم الذي غرقت فيه بمجرد أن لامست رأسها وسادتها الناعمة ...

فتحت عينيها بصعوبة، وميزت من بين رموشها الطويلة وجه أمها، وقد بَدَت عليه علامات قلق وتوتر.

- مامي!

قالت لها:

- قومي والبسي هدومِك ... هَنتحرك حالًا!

تساءلت بصوت ملأه النعاس:

- الصُبح جِه؟!

- لسه.

- أومال بتصحيني ليه؟!

جذبتها أمها من ذراعها صائحة بعصبية:

- يالا مفيش وقت، كاتي!

انتزعت الصيحة الفتاة المراهقة من غياهب النوم، واختصرت عملية تحميل سريعة لمعطيات العالم من حولها، استقرت عيناها على حقيبة سفرها، وقد انفرجَت وتكومت قطع من ملابسها بين فكيها عشوائيًا، وسمعت مامي تقول وهي تغادر الحجرة بخطوات سريعة حادة:

- أنا طلعتِلِك شوية هدوم. جهزيها فـ الشنطة بسرعة ويالا بينا.

- هنروح فين، مامي؟!

- مش وقت رغي! هَحكيلِك فـ السكة.

وفي سيارته المُموَّهة المتوقفة بمحاذاة سور الفيلا، تثاءب الملازم إيهاب عبد الله وهو يلقي نظرة على أرقام ساعة التابلوه، ثم أدار رأسه إلى الشاب متين البنيان الواقف إلى جوار السيارة في زي عسكري ورتبة رقيب على منكبيه العريضين وردد بسأم:

- رابع عملية النهاردة، ومحدّش أخرنا بالمنظر دا.

فرَك الرقيب الشاب كفيه داخل قفازين صوفيين وهو يقول:

- معاليك، يمكن مَحدّش بلغهم يستعدوا؟

هَزَّ إيهاب رأسه قائلًا:

- صعب، الأسامي اللي معايا على الكمبيوتر كلها تلقت اتصال، جايز يكون الاتصال هنا اتأخر شويَّة، بس مش وارد يكون مَحَصلش ...

قال الرقيب والبخار الأبيض يغادر من بين شفتيه:

- لا وبنت الوسخة مش عاجبها، وراسها وألف صرمة قديمة العربية مَتدخُلش الجنينة ونستناها بره!

لم يهتم الضابط باللعنات التي انصبت من بين شفتي الرقيب على مهابل أمهات شركة Egy- Nergy بمديريها وكبار موظفيها المطلوب نقلهم وعائلاتهم على وجه السرعة إلى الثكنات العسكرية لحمايتهم، ألقى نظرة على صف الفيلات المظلمة المهجورة والمتراصة على الجانب المقابل من هذا الشارع العريض من شوارع بارادايس هايتس، وعاد بلا تركيز لخطاب الرئيس الذي

أذيع قبل ساعتين، ويُعاد بثه للمرة الثالثة على راديو ٩٠, ٩٠ ...

«أدعوكم يا أبناء مصر للاصطفاف، والوقوف يدًا واحدة في مواجهة الإرهاب الأسود الذي عاد ينهش في وطننا وفي عالمنا كله».

خارج السيارة، راح الرقيب يتحرك جيئةً وذهابًا على الرصيف بحِذاء سور الفيلا، بينما عيناه معلقتان بالحركة المحمومة داخل الفرجة بين ضلفتي البوابة نصف المفتوحتين، خدم يروحون، وخدم يجيئون، حقائب سفر مغلقة على عجالة تخرج من البوابة فيتلقاها الجنديان المدججان بالسلاح المرافقان له، ويضعانها في الجيب العسكرية الثانية المتوقفة خلف سيارة الضابط، ألقى نظرة على أرقام الساعة فوجدها تشير للرابعة والربع صباحًا ...

«وأقولُ للشباب ... شباب مصر الحر الواعي ... لا تدعوا أحدًا يخدعكم ... لا تدعوا أحدًا يستغل حماستكم وبراءتكم لتخريب وطنكم ... كونوا لِمصر ولا تكونوا عليها».

في تمام الرابعة وسبعٍ وثلاثين دقيقة، انزاحت ضلفتي البوابة بأزيز ناعم، وبدت الحديقة من بينهما نصف مظلمة، عبرت الدكتورة فيبي رزق الله -مديرة القسم الاقتصادي بـ Egy- Nergy- في ثياب ثقيلة، وذراعاها ملتفان حول كتفي ابنتيها كاترين ونيفين نصف النائمتين، ملامحها تموج بالقلق، وشفتاها تتحركان في

مكالمة متوترة غير مسموعة عبر هاتفها النقال، هبط الملازم إيهاب من سيارته، ودعاهم للانضمام إليه، شكرته الأم بصوت رقيق منهك وهي تقترب مع ابنتيها من الباب الخلفي المفتوح، بينما الجنديان المدججان بالسلاح يُحْكِمان إغلاق صندوق السيارة الأخرى التي تكدست فيها حقائب الأسرة.

وفي اللحظة التالية انفجر رأس الدكتورة فيبي وتناثرت نِتَف مخها على الأريكة الخلفية.

«الإرهاب مهما تشدق بشعارات براقة، فهو لا يسعى إلا إلى الخراب، فلا تكونوا أداة في يده».

انهمر سيل الطلقات بدويٍّ هائل وبسرعة لا تُصدَّق، وثب الضابط بحركة غريزية ليحتمي داخل سيارته المصفحة التي انغلقَت أبوابها أوتوماتيكيًا، لمح جثث الرقيب والجنديين والفتاتين وأمهما على الأسفلت، وقد مزقتهم الرصاصات إربًا، وضاعت صرخات الخدم داخل أسوار الفيلا التي نهشت الطلقات كِسوتها الحجرية الأنيقة، وسط الدوي المتصل للطلقات المنهمرة كالمطر.

وبينما كان جسم السيارة المدعم بالدروع يرتج بعنف بفعل مئات الرصاصات التي ترتطم به في هذه الدقيقة، هضم الملازم إيهاب الصدمة بسرعة المحترفين، فاعتدل آمرًا كمبيوتر السيارة المزوَد ببرامج عسكرية بعرض وإرسال تقرير عاجل للموقف إلى قيادة العمليات.

وفي اللحظة التالية كان ينظر لهولوجرام مسقط أفقي

مُلتقَط عن طريق القمر الصناعي للشارع والفيلات المتراصة على جانبيه، وقد توزعت نقاط خضراء في مواضع الجثث بالشارع، ونقطة حمراء أعلى سطح المبنى المقابل للفيلا تبين موضع السلاح الذي تهدر منه الطلقات، وسمع الصوت المميز للكمبيوتر يحلل نوع الطلقات والسلاح وإمكانياته.

نقر الضابط الشاب النقطة الحمراء، فتحولت لصورة ثلاثية الأبعاد للجيل السابع من مدفع الـ M١٦ مُثبَّت إلى درابزين السطح بمبنى الفيلا المقابلة، يقذف الرصاصات بلا توقف، سَمِعَ صوت قائده يتردد عبر موجة الاتصال متسائلًا عمَّ يدور، فأجابه بكلمات مختصرة وبصوت حاول أن يعلو على الدوي المتصل، وبدوره تجاوز قائده الصدمة وأنبأه بأن الدعم في الطريق وسيصله خلال دقيقتين، وأن عليه إبقاء الوضع تحت السيطرة حتى وصول القوة القادمة من المعسكر القريب.

- تمام يا فندم ...

«ستظل مصر صامدة بالالتحام بين وعي شعبها ووطنية جيشها وصلابة دولتها».

انطلقت السيارة.

دارت عجلاتها، ناورَت بما سمحت به دروعها وهي تعبر الشارع تحت وابل الطلقات التي لم تكف عن الارتطام بسطحها المقوى، بينما انتصب مدفعان آليان على جانبيها أطلقا وابلًا من الرصاص باتجاه الـ M١٦، ثم اندفعت مباشرةً باتجاه أسوار الفيلا التي تنطلق

النيران من على سطحها...

اخترقت البوابة بعنف فأطاحت بضلفتيها، ثم وثبَ قائدها مغادرًا إياها، وقد أحاط جسده بصديرية مضادة للرصاص، وغطى عينيه منظار الرؤية الليلية، تدحرج بمرونة على أرضية حديقة الفيلا المعشوشبة، قبل أن يَهِب شاهرًا سلاحه فيمسح به دائرة ٣٦٠ درجة حوله، ثمَ ينطلق ليركض بحِذاء الفيلا مبتعدًا عن النيران المتبادلة بين المدافع في مسارٍ خططه ارتجالًا قبل ثوان داخل السيارة.

دار حول الفيلا، وعند نقطة محددة وثب برشاقة يتسلق الجدار الخارجي للفيلا التي هجرها ساكنوها مع من هجروا المنتجع كله خلال الأيام القليلة الفائتة بعد التفجير الذي استهدف مقر Egy- Nergy في قلب بارادايس هايتس.

أقل من عشر ثوان بفضل التدريبات القاسية استغرقها في تسلق حجارة الواجهة، قبل أن يثب بجسارة ليعبر درابزين السطح، بينما فوهة سلاحه تدور بحثًا عن أي هدف متحرك، رغم تأكيد كمبيوتر السيارة له عبر مسماع جهاز الاتصال أن السطح والمبنى كله خاليين من أية أهداف بشرية أو غير بشرية. فقط الـ M١٦ المُثبَت إلى الضِلع القَصي من السطح.

كان سيل البيانات ينهمر أمام عينيه على عدستي منظاره الذكي المتصل بكمبيوتر السيارة عن الـ M١٦، مداه وزاوية إطلاقه وقاعدة تنشينه وسرعته وما تبقى

من ذخيرته وطرق التعامل معه، وما كاد يخطو نحوه خطوتين حتى تجمد في موضعه؛ إذ انخفض بغتة هدير وابل الطلقات المنهمرة واقتصر على الطلقات القادمة من مدفعي السيارة بالأسفل، فيما توقف الـ M١٦ عن إطلاق الرصاص، ثم دارت ماسورته آليًا حول محورها الرأسي بزاوية تقترب من المائة وثمانين درجة ليجد الشاب نفسه في مواجهة الفوهة التي يتصاعد منها الدخان مباشرةً من على مسافة لا تقل عن الخمسة عشر مترًا ...

كانت تلك هي اللحظات الأصعب في حياة الملازم إيهاب عبد الله كما خطر بباله بعد ما يزيد عن الدقيقة، تمرغ خلالها على بلاطات السطح، وشعر بلفح وابل الطلقات يشق الفراغ الذي كان يحتله بجسده قبيل جزء من الثانية، قبل أن يستدعي في الجزء التالي كل خبرات التدريبات الشاقة اللاإنسانية في معسكرات الصاعقة طيلة الأعوام الماضية، فيرتد واقفًا كاليويو ويركض واضعًا كل قوته في عضلات ساقيه، وشاعرًا بالطلقات تتطاير محاولة النيل منه، وعندما اندلع الألم الحارق في ساقه اليسرى، تخاذلت ساقاه عن الوثبة التي كان ينشد بها النجاة من هذا الوابل، فهوى أرضًا على مرمى حجر من سور السطح.

أغمض عينيه منتظرًا الموت الداني الذي يمزق دويُّه طبلتي أذنيه، غير أن دويًا من نوعٍ آخر دخل على الخط.

فتح عينيه غير مصدق، وحدق في الـ M١٦ الذي توقف عن إطلاق الرصاص بعد أن تحطمت ماسورته إثر قذيفة أطلقتها الطائرة بدون طيار التي مَرَقت من فوقهم على ارتفاع منخفض، زفر بعمق بينما صوت ضابط العمليات يتردد في السماعة المستقرة داخل أذنه، حدق في الدماء التي تنزف من ساقه التي اخترقتها طلقة المدفع، وغمغم بأنه بخير وبأن الطيران تعامل مع الهدف، وبأنه بصدد فحصه لمعرفة الكيفية التي يعمل بها أوتوماتيكيًا والجهة التي تتحكم فيه عن بُعد، لحين وصول بقية الدعم.

كان بإمكانه –مع إصابته- الانتظار وترك عملية فحص الـ M١٦ وتتبع مُطلقه للدعم القادم، ولكنه مدفوعًا بشعورٍ غير مبرر بالتقصير بسبب سقوط رجاله وإخفاقه في حماية أهداف مهمته قرر ألا ينتظر، تعاملت أصابعه باحترافية مع إصابته، ثم نهض بصعوبة ومشى بخطوات عرجاء وساق مُضمَّدة باتجاه المدفع المعطل.

دار حول ماسورته المحطمة التي تتصاعد منها بقايا الدخان، وتوقف أمام شاشة جهاز التوجيه خلف الماسورة، ضغط أزراره، ثم استل جهازًا صغيرًا من الجيب المتسع لبنطاله المموه، ألصقه بالشاشة بعد أن ضغط زرًا صغيرًا في قمته، ولثوانٍ وقف يراقب سيل الأرقام الذي انهمر على شاشة الجهاز.

- إشارة التوجيه من بره مصر.

قالها مخاطبًا ضابطه في غرفة العمليات والذي سأله

عن المَصدر، فأجابه وهو يرمق الخريطة الرقمية الهولوجرامية التي انبعثت من الجهاز الصغير:

- ثواني وهَنعرف القمر الصناعي اللي بينقـ ...

بتر عبارته بغتة عندما انبعث صفير حاد متصل من قلب جهاز توجيه الـ M١٦ اتسعت له عيناه، ونَدَت منه حركة سريعة في محاولة للابتعاد،

وفي نفس اللحظة تقريبًا، رصدت الطائرة بدون طيار التي كانت تحلق في دوائر عن قرب، ولمح أفراد قوة الدعم التي كانت قد بلغت مدخل الشارع، الانفجار العنيف الذي دوى على سطح الفيلا ودمر أرضيته وأطاح بأشلاء الملازم إيهاب عبد الله لمسافات واسعة.

***

أومأ إلى رأسها وتسَاءَل بفمٍ مملوء بالبيض والبسطرمة:

- من إمتى؟

ارتفعت أصابعها لتمسِد خصلات شعرها القصيرة فضية اللون التي التمعت في أشعة شمس الصباح التي غمرت المطبخ، وقالت مبتسمة بشيء من الخجل:

- من كام إسبوع.

- دا كان عشان الفيديو؟

أومأت برأسها مجيبة:

- فيه أجهزة بتنبِش ورا كل تفصيلة، وظهوري بالحجاب هَيدي فرصة لأسلمة الحِراك زي ما حصل زمان.

وأطلقت ضحكة قصيرة وكأنما تداري بها خجلها:

- وبعدين أنا خلاص من القواعِد يا ابني، يعني اقلع والبس براحتي، ياكش حتى انزل المية بـ البكيني!

ضحِك بدوره وهو يمسح ما علق بشفتيه من بقايا السمن بمنديل ورقي، تناول منها كوبًا تتصاعد منه أبخرة قهوة زكية الرائحة، شكرها ورشف باستمتاع، قبل أن يرفع عينيه إليها يرمقها بنظرة طويلة.

ابتسمت أمل مجددًا وقالت:

- منظرى alien أوي كدا؟!

هَز زين رأسه قائلًا:

- بالعكس.

- (ضاحكة): ربنا يجبر بخاطرك.

«وقد أثار خطاب الرئيس فتحي منصور الذي أذاعه التليفزيون المصري في ساعة متأخرة من ليلة أمس ردود فعل دولية وإقليمية واسعة».

سارا متجاورين على الأرضية المبلطة بالحجارة والتي تمتد بكامل مسطح السوق التجاري.

المحلات والبازارات وباعة الصحف الإلكترونية والكافيتريات التي تفوح منها روائح أطعمة صباحية شهية، بينما تحتل واجهة الهايبر ماركت العملاق قسطًا عظيمًا من المجال البصري، المناضد خالية، والوجوم يكسو وجوه المارة والعاملين الذين وقفوا أمام محال أكل عيشهم يتبادلون كلمات مقتضبة متبادلة تخفي وراءها توجسًا هائلًا.

لاحظ نظرتها التي طالت لصورة الرئيس المصري والتي تحتل مانشيتات جورنال الأهرام الإليكتروني على شاشة إحدى الأكشاك، وسمعها تتمتم:

- كإنه ما كبرش يوم واحد.

ألقى نظرة على صورة الرئيس، صاحب العينين الخضراوين والحاجبين الكثين والملامح القوية، وسألها:

- تعرفيه شخصيًا؟

نظرت للعينين الخضراوين، وتداعت أمامها ذكريات قديمة ذات أصواتٍ وألوانٍ ورائحة.

«قادم قادم يا إسلام» ...

خرجت مندفعة بحماس من حلق الشيخ فتحي الذي

تلقى المايك من خالد عباس، فرددتها خلفه آلاف الحلوق، ودَبدَبَ معها ضعفها من الأقدام داخل الأحذية على أسفلت الميدان ...

- أعرفه كويس.

قالتها من دون أن تنزع عينيها من على الصورة الهولوجرامية، ثم استطردت ببطء:

- بعد سنين من فض الاعتصام والصياعة والتنطيط في أوروبا، شوفته في المحطات الفضائية لما طرح نفسه كمرشح رئاسي قادم من قلب المؤسسة الاستخباراتية، افتكرت ساعتها الشيخ فتحي، واحد من أكتر شباب الإخوان تطرفًا وتعصبًا أيام الثورة والاعتصام، نفس الشخص اللي بيفتخر على شاشة التليفزيون بسنوات خدمته في جهاز المخابرات العامة.

وارتسمت ابتسامة مريرة على شفتيها بينما تردف:

- الليلة دي قضيتها في شقتي الصغيرة في نيس، أسترجع كل ذكرى وكل تفصيلة فاكراها عنه، تعصبه وشراسته ضد أعداء الجماعة، صوته الغليظ وهو بيصرخ في الهتافات، ضيق أفقه ومُزايدته على الكُل، أفتكر واضحك شوية وأعيط شوية، أعتقد إن فتحي منصور إداني أكبر درس تلقيته في حياتي.

بلغا نهاية السوق، ثم استدارا عائدين.

قالت له وهي تدور بعينيها من وراء المنظار الشمسي الداكن الذي يداري نصف وجهها -وكانت قد غطت شعرها الفضي بإيشارب داكن بعد أن تصدرت ملامحها

صفحات الصحف ومواقع الإنترنِت إثر البيان المُصوَّر الذي أذاعته بنفسها- في ملامح المارة والبائعين والشراة المسكونة بالقلق:

- تفتكر هَيسامحونا؟

التقط قطعة من الزلابية الساخنة المغطاة بعسل النحل الطازج من العلبة التي يمسك بها، والتي تحمل سلوجان مخبز قريب بالسوق ودَسَّها في فمه قائلًا:

- مِش مُهتَم.

حدقت فيه مرددة بدهشة:

- فعلًا!

أومأ برأسه وهو يمضغ بتلذذ، فتساءلت بصوتٍ خفيض:

- مش مهتم انهم يعرفوا انك ثائر، مش إرهابي أو فوضوي؟!

- آه.

بدا له صوته –رغم هدوئه- محملًا بنبرة عابثة عجيبة، ساد الصمت بينهما لبعض الوقت، قبل أن تنظر له وتقول بهدوء:

- عايزة اسألك سؤال.

لأ، سؤالين!

- اسألي زي ما انتي عايزة ...

قالها وهو يبادلها النظر.

- إيه اللي خلاك تسيب **Egy- Nergy**؟

- والتاني؟

- ليه بتتعاون معانا؟

غابت عيناه للحظة في السماء المبرقشة بالغيوم، تذكر مُحادثة سابقة دارت بينه وبين الكابتن تريفور في مُعسكر التدريب، فارتسمَت ابتسامة خفيفة على شفتيه، فقال:

- أنا بقيت بَتسِئِل السؤال دا كتير على فكرة.

«ففي استجابة سريعة لدعوة الرئيس المصري، أعلن السيد جون لي كوك، الأمين العام للأمم المتحدة، عقد قمة دولية طارئة لمكافحة الإرهاب غدًا صباحًا، وتوجيه الدعوة لجميع الدول الأعضاء».

- في آخر عملية صيد خرجت فيها، شوفت مشهد بشع.

الأظافر والأسنان والقضبان تنتهك كل ملليمتر من جسدها ...

تشعر باختناق وضغط شديد يحطم ضلوعها، تعجز عن التنفس، وقد فقدت إحساسها بنصفها السفلي الذي فشخت الأذرع ساقيه، وتناوبت القضبان على المهبل بعنف مجنون، الواحد تلو الآخر.

- ماستحملتِش منظرها.

قالها باقتضاب وهو يرمق قمم الأشجار من وراء حاجز الفراندة بنظرة خاوية.

يتساقطون من حولها، ويظهر من ورائهم جندي متشح بالسواد، وجهه مُغطى بالكامل بقناع أسود، يقبض على بندقية بين أصابعه.

لم تشعر به وهو يتحسس نبضها، ثم يميل عليها لينصت إلى صوت تنفسها.

- ضربت تقرير تشريح يفيد بوفاتها، وهربتها من المزرعة.

ونفث دخان سيجارته مستطردًا بشرود:

- نقلتها البيت عندي.

«المعدلات الحيوية بتتحسن، والجروح بتلتِئِم، إمبارح بالليل فاقت شوية وطلبت تشرب».

سألته أمل:

- عملت كدا ليه؟

«إقرا عقدك يا كابتن! سرقة وتهريب البطاريات جريمة، خيانة عظمى في غُرف الشركة، والخيانة عقابها واحد في كل الأعراف».

هَمَس بصوتٍ مختنق:

- عشان افتكرت أمي.

الباب في نهاية الممر المظلم.

خط دقيق من الضوء قادم من الداخل، يلامس الأرض عند موضع التقائها بالباب ...

صوت أمه الضعيف الواهن يئِن متألمًا من وراء الباب ...

يبكي بدوره ... يضرب الباب الموصد بقبضتيه الصغيرتين ... يصرخ مناديًا باسمها ...

مَدت أصابعها لتربت برفق على كفه، فنظر لها زامًّا شفتيه عن ابتسامة شاحبة.

ران الصمت عليهما لوهلة إلا من زقزقة العصافير فوق الأغصان القريبة، ثم قالت هي بخفوت:

- بس انت بعد ما هربت من الشركة كانت عندك خطط تانية.

أومأ برأسه قائلًا:

- صحيح.

«مش موضوعنا ... المهم إن البطارية تحت إيدي دلوقتي ... وانك انت يا كابتن خالد لو لقيتها ورجعتها، فـ دا الشيء الوحيد اللي ممكن يرفع أسهمك فـ الشركة ويخليك تجتاز التحقيق على خير، إن مكانوش يكافئوك كمان».

«تمثيلية صغيرة ... مداهمة ... تبادل إطلاق نار ... بوووم كبير يخلف جثة متفحمة مطموسة الملامح ... الصياد الهربان مات ... تم العثور على البطارية المفقودة ... case closed ... بس كده!».

- وإيه اللي خلاك تنضم لينا؟

ابتسم قائلًا:

- دا سؤالِك التاني؟

- آه.

مرت لحظة من الصمت، فوجئت بعدها بأصابعه تتسلل لتحتضن أصابعها، وسمعته يقول بنبرة دافئة غير متوقعة:

- إنتي.

حدقت غير مستوعبة في أصابعهما المتشابكة، ثم

رفعت عينيها إلى عينيه اللتين أطلت منهما نظرة حانية بدت متناقضة مع ملامح وجهه الحادة، وتمتمت بدهشة:

- أنا!

- إنتي يا أمل.

- أنا إيه؟!

***

(قبل أربع سنوات) ...

الحفل كان بارعَ التنظيم كما هو مُتوقَّع ومألوف من جهة مُضيفةٍ ومنظِمةٍ لها سمعتها العالمية التاريخية كـ ريتز-كارلتون بارادايس هايتس..

هذه الشُمعة التي جعلت قسم العلاقات العامة بشركة Egy- Nergy يرفع توصية لمجلس الإدارة بقبول عرض السعر الذي تقدمت به إدارة ريتز- كارلتون العالمية لتنظيم حفلات ومناسبات الشركة لخمس سنوات قابلة للتجديد، رغم اعتراض القسم الاقتصادي على هذا العرض الذي لم يكن الأقل سعرًا بين العروض التي تقدم بها عددٌ من كُبريات شركات الفندقة حول العالم.

القاعة الفسيحة مُجهزة على أعلى مستوى معماري تصميمًا وتنفيذًا، والمسار المرسوم باحترافية لدخول المَدعوين من كبار رجال السياسة والاقتصاد والإعلام ونجوم الفن والثقافة في العالم كله، ووصولهم إلى أماكنهم المُخصصة بتلك القاعة الفاخرة المؤثثة وفق أحدث الصيحات في عالم الديكور، ومُزوَدة بأعلى التِّقنيات الصوتية والبصرية، بالإضافة لمستوى الخدمة العالمي المرادف لعلامة «ريتز-كارلتون».

وبين الموائد العامرة بالضيوف من أصحاب السلطة والنفوذ والشهرة والجاه، والخدم ورجال الحراسة المنتشرون هنا وهناك بحركة دءوب لا تتوقف لحظة من أجل خدمة وراحة ضيوف الشركة الكبرى في حفلها

السنوي، وعلى خلفية من الاستعراضات البصرية المبهرة والأغنيات العالمية التي يؤديها أصحابها من النجوم لايف بعد أن حصلوا على المقابل اللائق الذي طلبوه لقاء حضورهم بالطائرات إلى PH (بارادايس هايتس) وأداء فقراتهم، راح موظفو قسم العلاقات العامة يتحركون بنشاط للإشراف على كل صغيرة وكبيرة من تفاصيل الحفل، وعلى رأسهم رئيس القسم الذي جلس في الجناح المخصص له بالفندق يراقب بعيني صقر الشاشات الهولوجرامية التي تنقل ما تبثه الكاميرات المُوَزعة بأنحاء القاعة ومدخلها والممرات المؤدية إليها والمطبخ الكبير ودورات المياه، هذه المرة تحديدًا - ورغم أنها ليست مهمته، بل مهمة مدير المناسبات بالفندق!- كان الرجل شديد الحرص والحذر، ويصرخ في معاونيه المنتشرين في القاعة لأيَّة هفوة تلتقطها عيناه، وذلك تفاديًا لأي لوم أو توبيخ يوجهه له المستر عمرو عزام، النائب الجديد الشاب للمستر آدم المصري، رئيس مجلس الإدارة، والغربال الجديد ذو الشدة، الراغب في إثبات جدارته بهذا المنصب رغم صِغر سنه.

ووَسَط هذا الكرنفال البصري المُبهِر والصوتي الصاخب، لم يلحظها أحد إذ انسلّت داخل القاعة بجسدها الضئيل في ثوبٍ أسوَد من الدانتيل، يكشف عن كتفين دقيقين، وعنق أبيض حليبي زُفِعَت عنه خصلات الشعر السوداء الطويلة، ومفرق ثديين صغيرين يتألق فوقهما عُقدٌ من الألماس رقيق التصميم، وقفازين

من المخمل يداريان أصابعها.

بَدَت كيمامة رقيقة وهي تخطو بقدمين دقيقتين على السجاد الفارسي الفاخر بين الحشود، والضحكات والثرثرات والكاميرات والموسيقى والهولوجرام الذي يخطف الأبصار، بينما عيناها السوداوان تتقافزان من وجهٍ لوجه من دون أن تقفا على أيٍّ منهم رغم شهرة أغلبهم، وكأنها تبحث عن وجه محدد سرعان ما التقَت صاحبه الشاب مُقبلًا عليها في بذلة سوداء أنيقة.

دنا منها فأشارت إلى السماعة الدقيقة في أذنها اليمنى قائلة:

- من غير دي ولا كُنت هلاقيك وسط الحشد دا!

ابتسم قائلًا:

- أنا هنا من ساعات.

- وعَمَلت إيه؟

مَدَّ كفه يلتقط كأسًا من على إحدى الصواني التي يحملها أحد الخدم المنتشرين جيئةً وذهابًا بأزياء القاعة ذات اللون القرمزى المميز، وكاد يرفعه إلى شفتيه لولا أنها سبقته فنزعت الكأس من بين أصابعه وأعادته برشاقة إلى الصينية قائلة:

- مفيش شُرب لغاية ما نخلص شغلنا.

نظر لها متبرمًا وقال:

- مَلوش أثر في القاعة.

التقى حاجباها المُزججان وهي تقول:

- زي ما توقعنا.

ودارت بعينيها في الملأِ المحيط، وكأنها تلقي نظرة اطمئنان أخيرة، مستطردة:

- كدا نُص المعلومة اللي اشتريناها سليم، باقي نتأكّد من صحة النص التاني.

ونظرت له فأومأ لها، ثم غادرا القاعة معًا إلى لوبي الفندق.

قال لها بينما يسيران على الأرضية البورسلين الشاهقة:

- سخيف أوي! آخر دور، وحاجز دورين كاملين تحت منه، دا لو رئيس الجمهورية اللي نازل مكانش عمل كدا ...

- لو رئيس الجمهورية هو اللي نازل هنا ماكوناش عرفنا ندخل أصلًا!

اتجها مباشرةً إلى موظف الاستقبال، الشاب الوسيم الذي استقبلهما بابتسامة فُندقيّة، وتبادل معهما حوارًا قصيرًا تخللته نقرات على لوحة المفاتيح أمامه واطلاع على بطاقتي هويتيهما، وتسجيل بصمتيهما الحيويتين، ثم لم يلبثا أن تسلمهما موظفٌ آخر اقتادهما –وقَد طوَّقَ الشاب خصر الفتاة بذراعه- لجناح بأحد الطوابق.

وما أن انغلق عليهما الباب حتى أزاحت الفتاة ذراع رفيقها من حول خصرها وهي تقول له بابتسامة ساخرة:

- ملهاش لزمة الأفورة دي!

أحاطها بكلتي ذراعيه هذه المرة وهو يقول مبتسمًا:

- كاموفلاج.

أفلتت منها ضحكة خافتة وهي تنفلت منه برشاقة وخرجت إلى التراس المُطِل من فوق منحدرٍ، تغطيه الحشائش الخضراء اليانعة على بحيرة صناعية واسعة، انعكست الإضاءة الاحترافيَّة على سطحها الرقراق، ومن ورائها سطعَت أنوار بنايات ومولات بارادايس هايتس كشموس في قلب الليل تنافس النجوم التي زانت ظلمة السماء ...

أما هو فجلسَ إلى طرف الفراش العريض الذي يتوسط الحجرة، وراح يفحص حقيبة ظهر جلدية كانت بانتظارهما بجانب الفراش، ألقى نظرة على محتوياتها، استخرج منها لوحًا حاسوبيًا رقيقًا جرَت أنامله على شاشته بسرعة ثم رفع عقيرته مناديًا رفيقته الواقفة في التراس.

قَدِمَت إليه وقد أطل التساؤل من عينيها، فرفع لها وجهه وقد كللته ابتسامة مُظفرة وهو يقول:

- It is done ...

وأدار شاشة التابلت لتواجهها، فألقت عليها نظرة سريعة تمتمت بعدها أن «جميل» لينهض هو بنشاط قائلًا:

- يالا بسرعة، مفيش وقت.

اتجهت للدولاب وأزاحت ضلفته المنزلقة لتستخرج من داخله زيًا رسميًا يحمل شعار الفندق المُكوَّن من قميص أبيض يحمل على صدره بطاقة هوية عليها

لوجو الفندق وجوب قصير داكن، فاستبدلت به ثوبها الدانتيل الأنيق وعقصت خصلات شعرها السوداء على هيئة ذيل حصان طويل متدلي خلف ظهرها، نظرت لصاحبها متساءلة:

- إيه النظام؟

التفت يتأملها وصَفَّرَ بشفتين مضمومتين إعجابًا، فتبسمت بدلال وهي تجلس على طرف الفراش لتستبدل حذاء السهرة بآخر من قلب الحقيبة قائلة:

- أنفع يعني؟

ضحك وهو يهز رأسه نافيًا بينما يستخرج زجاجة من النبيذ الفرنسي المُعَتَّق من ثلاجة الغرفة وقال:

- لأ، انتي برنسيس.

وانشغل برَصّ طاقم السرفيس على صفحة مائدة صغيرة ذات عجلات لتقديم المشروبات كانت بانتظاره إلى جانب الثلاجة، ألقت هي نظرة على الرَصة المُتقنة ثم قالت ضاحكة:

- انتَ بقى تنفع!

- كويس عشان لو اتعكشنا الاقي شغلانة تأكّلني عيش.

أنهيا ضحكاتهما التي بدت وكأنما يفتعلاها بصعوبة للتغلب على عواصف الترقب والانفعال.

التقط هو نفسًا عميقًا وقال بجدية، وكأنما يطوي صفحة الهزل:

- جاهزة؟

بَدَت أقل منه اكتراثًا وتهيبًا وهي تهز رأسها وتتقدم

لتلف أصابعها حول مقود عربة المشروبات قائلة:

- أنت جاهز؟

تجاهل سؤالها وهو ينقر مواضع الأزرار على شاشة التابلت لثوانٍ ثلاث، ثم رفع عينيه إلى الهولوجرام الذي انبعث على بُعد متر ونصف المتر منه والذي جَسَّدَ صورته من وجهة نظر رفيقته.

وضع على سطح عربة المشروبات حاسوبًا لوحيًا آخر أصغر مقاسًا، محفورٌ على ظهره حرفان RC واضحَان وهو يقول:

- حاولي خلال الثواني اللي هتقابليه فيهم إنك تركزي على وشه بَس. كل ثانية اللينسِز بتاعتِك (مشيرًا بسبابتيه ووسطيه إلى عينيها) هَتصورها وتنقلهالي هنا (يدير أصابعه إلى الهولوجرام المتلألئ) هَترفعنا فوق أكتر وتخلي القنوات والمواقع تجري ورانا.

أومأت برأسها متفهمة، فتنهد قائلًا:

- انا مش عارف ازاي طاوِعتِك فـ الجنان دا!

قالت وهي تتقدم منه:

- لازم نتجَنّن عشان نعرف نعمل اللي غيرنا مَعرِفش يعمله.

تعانقَا وتبادلا قُبلة دافئة، إحتوى وجهها بين كفيه، وهَمَس وهو ينظر في عينيها:

- خلي بالِك.

داعبت أنفه بأرنبة أنفها وهي تقول:

- في أسوأ الظروف لو سَلِّمني للبوليس، أنكِل ثروت

هَيخلص معاه فـ ساعة زمن.

كرَّر:

- خلي بالِك.

فتح باب الحجرة وأطل برأسه ذات اليمين وذات الشمال ثم أفسح لها لتعبر فتحة الباب، فسارت تدفع عربة المشروبات أمامها حتى بلغت المصعد، انتظرت حتى انزلقت أبوابه بنعومة، أومأت لرفيقها ثم دلفت وتلاقت الأبواب خلفها.

عاد هو إلى الحجرة، وطفق يراقب الهولوجرام الذي تنقله عدستا رفيقته.

انفرجَت أبواب المصعد على ارتفاع طابقين آخرين، فوجدت نفسها أمام ثلاثة من الحراس الشخصيين ضخام الجثث في بذات سوداء حالكة ... سمعها تقول لهم:

- Room service. سويت ٢٠٢٧، مستر آدم المصري.

رفعت أمام وجوههم التابلت الصغير الذي يحمل RC محفورَين على ظهره، فتفحص أحدهم الأوردر المُبَيَن بوضوح على شاشته المتصلة بشبكة الخدمات حاملًا رقم الجناح واسم شاغله وتاريخ الأوردر ومكوناته، في حين انهمك الثاني في فحص عربة المشروبات بجهاز صغير للكشف عن المعادن، ثم لم يلبث أن مَرَره على جسدها باحترافية قبل أن تضيء لمبة خضراء أعلاه، فيشير إلى زميله الثالث ليتقدمها نحو الجَناح المطلوب.

وفي جَناحه، عقد الشاب ساعديه أمام صدره وهو

يراقب الهولوجرام الذي تبثه عدسات رفيقته، وهي تتقدم خلال الممر المفروش بالبورسالين الفاخر والذي توزعت أبواب الأجنحة على جانبيه حتى بلغت إحدى الأبواب، فتوقفت وانتظرت الحارس الشخصي؛ إذ ضغط الزر المجاور للباب المنقوش عليه الرقم ٢٠٢٧ .

مرت ثوانٍ، حبس الشاب خلالها أنفاسه، وكذلك رفيقته التي تصاعدت ضربات قلبها رغم ما أبدته حتى الآن من رباطة جأش، وهي تسمع الحارس يخطر صاحب الجناح بما هنالك عبر الإنتركام المثبت.

في هذه الثواني بَدَت لها خطتها ورفيقها واهية شديدة السذاجة، وعجبت لحماسهما الصبياني لها بينما نجاحها أصلًا مرهون بالحظ، جَفَّ حلقها وانتظرت أن تسمع الأمر الصوتي عبر الإنتركام بصرفها أو الأسوأ: إلقاء القبض عليها، غير أن كل هذا التوجس انزاح في ثانية واحدة، وحَلَت محله دهشة عارمة عندما انفتح الباب أوتوماتيكيًا وأشار لها الحارس بكفه المفتوح داعيًا إياها للدخول.

خفق قلبها وهي تهز رأسها ثم تدفع عربتها إلى داخل الجَناح الفاخر.

وفي حجرته، حدق الشاب بانتباه شديد في الهولوجرام الذي تنقله العدستان للجناح، والذي يناهز الفيلات في الاتساع والفخامة، وتركز اهتمامه على الرجل طويل القامة الذي توقف في منتصفه والذي راحت ملامحه تتضح رويدًا رويدًا مع اقتراب العدستين

منه.

ألقى نظرة خاطفة على التابلت ليتأكد من أن عملية تخزين الهولوجرام مستمرة، ثم عاد يتابع.

الرجل ممشوق القوام في ثياب كاجوالية الطابع لم تقلل بساطتها من أناقتها، لا تخلو ملامحه الصخرية من قدر من الوسامة، وثمة لحية ناعمة تحيط بوجهه وتضفي عليه مزيدًا من المهابة.

أما عينيه فلمعتا بالاهتمام وهما تفحصان الفتاة الشابة التي تدنو بجِملها.

حَيته بصوت حاولت أن تتحكم في نبراته، ثم لم تلبث أن لم تتحمل نظرات عينيه الثاقبة فزاغت بعينيها بعيدًا عنه.

- Shit!

خرجت ساخطة من بين شفتي الفتى، وهو يرى الهولوجرام يدور في أرجاء الجناح الفاخر بعيدًا عن هدف المهمة الرئيس، كاد يهمس لها عبر السماعة المثبتة في أذنها كي تعود ببصرها إلى الواقف أمامها، غير أنه سمع صوته يتردد:

- اسمِك ايه؟

عاد الهولوجرام يستقر عليه مجددًا إثر عودة عيني الفتاة إليه، حدقت في وجهه برهبة ليست من شمائلها، ثم أشارت إلى بطاقة التعريف المثبتة إلى صدر قميصها وهي تخبره بالاسم المطبوع عليها، فهَز رأسه قائلًا:

- الحقيقي.

هوى قلب الشاب في صدره، وفي لحظة واحدة تيقنت الفتاة من أن خطتهما المهترأة من أساسها قد تشظَّت وتطايرت رمادًا منثورًا، والعجيب أن هذا اليقين لم ينَل منها بل على العكس بدَت كما لو كانت قد تحررت من عبء يثقل كاهلها، فشَدَّت قامتها وقالت بنبرة واثقة:

- اسمي حياة.

تراقص شبح ابتسامة على شفتي آدم المصري، وأطل الشغف من عينيه وهو يومئ لها لتستكمل تعريف نفسها.

- طالبة في نهائي إعلام.

مرت لحظة من الصمت بَدَت للشاب في جناحه دهرًا، قبل أن يرى هولوجرام آدم يمد كفه المفتوحة نحو رفيقته الشابة، ويسمع صوته يتردد هادئًا:

- العدسات من فضلِك.

***

الناظر لـ آدم المصري، وقد استرخى في مقعده وأسبلَ جفنيه مُنذُ أن أقلعَت طوافته الخاصة من المنصة المُخصصة بمقر E. N. بالهايتس، لن يساوره الشك في استغراقه في نعاسٍ عميق مع مرور ما يقرب من الثلاثين دقيقة لم يحرِك خلالها ساكنًا، غير أن هذا الشك كان لينفجر مرة واحدة عندما فتحَ عينيه وزفرَ بعمق وكأنه يدفع بتوتره خارج صدره.

أشعل سيجارًا، ونفث سحابة من دخانه وهو يخرق ببصره الكوَة الزجاجية المجاورة لمقعده، والتي ملأها اللون الرمادي الداكن للغيوم الهائجة التي تُحلِّق الطوافة خلالها.

ثوانٍ مرَت ثم أدار رأسه إلى صاحب الجسد الفارع المُتشِح بالسواد الجالس إلى مقعدٍ قريب، ألقى نظرة متفحصة على قامته المشدودة ومنكبيه العريضين وملامح وجهه التي لم يخفِ جمودها ملاحتها، سأله بصوتٍ فضح نذرًا من توتره:

- جاهِز؟

مرَت لحظة من الصمت إلا من أزيز خافت مُنبعِث من المُحركات، قبل أن يجيب صاحب السواد بإيماءة بسيطة برأسه.

- إنتَ الوحيد اللي البطارية متقدرش تنبش في مخاوفه.

قالها بصوتٍ خافت وكأنه يحدث نفسه، فلما لم يتلق

إيماءات من أي نوع هذه المرة، زَفر بحرارة مرةً أخرى وعاد ببصره إلى الرمادي العظيم خارج الطوافة مُطلقًا سحب الدخان بين الفينة والفينة، حتى قطعَ هذا الصمت صفير منغوم تصاعدَ تدريجيًا في فراغ كابينة الطوافة.

«عمرو عزام».

تردَدَت بالصوت الأنثوي المُسجَل في ذاكرة الهاتف الذي أمرهُ آدم بالإجابة، فتشكلَّ أمام عينيه هولوجرام متوسِط لنائبه الثلاثينى الذي بادره:

- نصير لبكي طالِب يكلِمَك، مستر آدم.

التقى حاجبَا آدم وهو يردد:

- عايز إيه دا؟!

- حاولت اعرف منه، لكنه أصر إنه ما يتكلُمش غير مع حضرتك، وأكَّد أن الموضوع في غاية الخطورة.

وزمَّ شفتيه لحظة ثم تابع بتوتر:

- وفـ الظروف الصعبة دي مكانش هَينفَع اتجاهل احتمال إنه يفيدنا بأي داتا، فاضطريت اتِصل بمعاليك رغم تعليماتك إن محـ ...

قاطعه آدم باقتضاب:

- وَصلني بيه.

في اللحظة التالية تماوج هولوجرام النائب الشاب توطئةً للتلاشي بالتزامن مع انبعاث هولوجرام آخر للبناني الأربعيني نُصير لبكي، المدير الإقليمي لمجموعة The Eye في منطقة الشرق الأوسط الكبير، والذي

ابتسم بحفاوة متمرسة زادت من وسامة وجهه المصقول بالبوتِكس وحيَّى آدم بحرارة:

- لعلِي لم أتصل في وقتٍ غير مناسب، مستر مصري؟

قالها بأمريكية قُحَة، فأجابه آدم بمثلها من وراء سحابة من الدخان الأبيض:

- فقط إذا كان اتصالك بخصوص البيزنس، عزيزى لبكي.

أطلق اللبناني ضحكة متكلِّفة وقال:

- نحن رجال أعمال، مستر مصري، وأنفاسنا نفسها عبارة عن بيزنس في صورة غازية.

عبرَت ابتسامة سريعة شفتي آدم لطرافة التشبيه، لم تفُت على عيني لبكي المتمرستين، واعتبرها خطوة أولى موفقة، سمع آدم يقول بعدها:

- على ما أذكر، فالتعاقد بيننا مفسوخ منذ ما يقرب من العام بسبب...

قاطعه:

- بسبب المشاكل التقنية التي تعرضنا لها، وتسببت في قصور خطير في تلبية الطلب الاستخباراتي.

صمَتَ آدم مُحدِّقًا في وجه مُحدثه الباسِم الذي تابعَ:

- أعترف أنها كانت مرحلة دقيقة في عُمر شركتنا، ربما لا تقل خطورة عما تمر به Egy- Nergy هذه الأيام.

قال آدم بصرامة:

- ما كانت E. N. لتتعرَّض لهذه التهديدات لولا تقصيركم، نُصير.

- أؤكِد لك، مستر مصري، أن الفاعِل واحد في الحالتين، والفايروس الذي تسلل إلى منظومتنا المعلوماتية كان تدبيرًا لتعطيلنا عن كشف ما يُراد بكم... واتصالي بك هو لتقديم الدليل وتعويضكم عن تقصيرنا ...

ردد آدم:

- تعويضنا!

اتسعت ابتسامة اللبناني من تحت شاربه الدقيق وهو يقول:

- لعلَكَ تابعت المعركة التاريخية في أروقة الأمم المتحدة خلال الأسابيع والأشهر الفائتة، مستر مصري.

أومأ آدم برأسه ببطء وهو يدفع بسحابة من دخان السيجار من بين شفتيه، فتابعَ لبكي:

- لقد تكللت جهودنا وجهود أصدقائنا حول العالم من التقدميين وأنصار المستقبل بإصدار قرار أممي تاريخي بتعديل قانون الآلة، ورفع درجة ذكائها من المستوى الرابع للمستوى السادس.

قال آدم ببرود:

- أخبرني بشيء لا أعرفه!

قال لبكي بحماس:

- ما لا تعرفه، مستر مصري أن هاتين الدرجتين من الذكاء، منحتا ديف، حاسوبنا الرئيس، من القدرة والعافية ما تغلب به على الأضرار الفادحة التي أحدثها الهجوم الفايروسي الإرهابي الذي أضعف قدرته وكفاءته

في أداء مهامه الاستخباراتية ...

رفع آدم حاجبيه متسائلًا:

- وَهل نجح هذا؟!

خبَطَ لبكي يُمناه المضمومة في راحة يُسراه المفرودة وهو يضحك هاتفًا:

- كما لا تتخيل يا صديقي، لقد عاد عزيزنا ديف لإحصاء أنفاس ما يزيد عن ٩٤٪ من سكان هذا الكوكب، وبكفاءة تفوق بكثير ما كان عليه قبل الأزمة الأخيرة ...

- حقًّا!

- ستتأكّد بنفسك.

سأله آدم باختصار:

- هل تملك لي عرضًا مُحددًا؟

- بالتأكيد.

قالها اللبناني بسرعة ثم استدرَك:

- ولكنني لن أقدمه لك الآن، سأمنحك أولًا دليلًا لا يقبل الشك على الصِّلة بين الهجمات التي تعرضت لها منظومتانا، وفي نفس الوقت على درجة الكفاءة التي أصبح عليها أداؤنا الاستخباراتي بعد أن اجتزنا أزمتنا، وأنا متأكد من أنك بعد أن تتأكد من قيمة بضاعتنا، لن تفاوضنا من أجل خفض أسعارنا الجديدة.

ابتسم آدم في سخرية هذه المرة مُرددًا:

- حقًّا!

- (بثقة): حقًّا.

ألقى آدم نظرة على أرقام الساعة في طرف

الهولوجرام ثم قال:

- يَجدُر بِكَ عزيزي ناصر أن تسارع بطرح دليلك الخطير هذا؛ لأن طوافتي على وَشَك الهبوط.

- حسنًا.

ومال بجذعه للأمام قليلًا في حركة مسرحية للإيحاء بالخطورة، ثم قال ضاغطًا على حروفه:

- دليلي هوَ تفاصيل ما يُدَبر لشركتكم خلال الساعات القادمة، مستر آدم. التفاصيل الكاملة!

***

همسَت أمل:

- أنا إيه؟!

«محليًا، انعقدت جلسة طارئة ضَمَّت كامل أعضاء مجلسي الشعب والشورى صباح اليوم، صدر عنها بيانًا مشتركًا يؤيد قرارات السيد رئيس الجمهورية، ويدعم أجهزة الدولة في مواجهة الإرهاب».

قال زين:

- إنتي السبب ورا كل الشغل والتدريبات والمعسكرات اللي اشترَكت فيها الشهور اللي فاتت.

دغدغَ شيء ما قلبها وهي تقول بصدق:

- مش فاهماك!

في اللحظة التالية سرَت قشعريرة في جسدها، وشعرت بسخونة مفاجئة في شحمة أذنها عندما مستها أصابعه التي داعبت الخصلات الفضية بينما هو يقول:

- أقصد انى مش فارقة معايا الشركة ولا الثورة ولا الناس.

وغاص بعينيه في عينيها مباشرةً وهو يستطرد:

- أنا من ساعة ما لقيت نفسي وحيد وضعيف وخايف، وملقيتش حُضن غير حُضنِك ...

«ضربني ... معلش ... آسف ... قولتله ... والله العظيم ... الكرباج ... ماما ... قوليله ... قوليله ... آخر مرة والله العظيم ... ماما ... قوليله ... ماما ... قوليله ... قوليله ... قوليله!!».

غمرتها شفقة كاسحة، لم تدر بنفسها إلا وهي تحتضن رأسه بقوة ... تعالى بكاؤه وجسده يرتعد بقوة بين ذراعيها.

- وانا مش عايز ابعِد عنِك، وكله اللي بَعمله، بَعمله عشانك.

ونمَت ابتسامة صافية على شفتيه وهو يردف:

- عشان هَيرضيكي.

حدَّقَت فيه للحظات قبل أن تستفيق لنفسها، فتزيح أصابعه المتخللة خُصلاتها الفضية، وتقول بابتسامة ساخرة:

- شوية تاني وهصَدقَك!

أطلق ضحكة خافتة وقال:

- لازم تصدقيني.

ردَدَت ضاحكة:

- أنا أد أمك!

- عارف.

هَزَّت رأسها قائلة بجدية:

- اللي انتَ حاسس بيه دا مش اللي فـ بالك!

- سَميه زي ما تسميه، المهم انه حقيقي.

نظرت له للحظة، ثم أشارت بسبابتيها ووسطيها إلى دماغها قائلة:

- شيل الفكرة دي من دماغك.

قال بلهجة تقريرية:

- مستحيل.

وهز رأسه مستطردًا:

- أنا بقالي شهور في الصحرا، مفيش يوم عدّى عليًا من غير ما افكر فيكي، من غير ما احلم باللحظة اللي هَشوفِك فيها.

قالت بقلق:

- انتَ قولتلي انك جِيت هنا بُناءً على تعليمات!

- إرحمي نفسِك شوية!

حدقته بنظرة متشككة فضحك قائلًا:

- يا ستي والله ما ضحكتِش عليكي، التعليمات وصلت اني اتحرَّك من المعسكر على هنا قبل بدء العملية.

- مفهِمتِش ليه.

أجاب بهدوء:

- ولا انا، اتحركت بمجرد ما التعليمات وصلتني.

وأطل اشتياقٌ جارف من عينيه وهو يردف:

- كان لازم أشوفِك قبل ما ...

أطبق شفتيه على بقية عبارته، وتضرخ وجهها هي بحُمرة وهي تتلقى نظرته في إنسانَي عينيها مباشرةً، قبل أن تتنهد وتقول له بخفوت:

- إنتَ عارف علماء النفس بيسموا اللي انتَ حاسس بيه دا إيه؟

ابتسم قائلًا:

- إيه؟

- عقدة أوديب!

رفع حاجبيه بدهشة، ثم لم تلبث ابتسامته أن تحولت

لضحكة قصيرة وهو يقول باستهانة:

- أوديب، إليكترا، وولفرين! قولتلِك مش مهم الأسامي.

ابتسمت رُغمًا عنها وقالت بشيء من الدلال بدا لها عجيبًا:

- وطلباتك إيه يا سي وولفرين؟!

احتوى كفها بين راحتيه وهو يقول برِقة:

- إني أفضَل جنبِك.

سَحَبَت كفها قائلة بجدية:

- أنا عايزاك ماتفكرش فـ حاجة غير العملية اللي هَتبدأ بعد كام ساعة... مصير الملايين مرهون بنجاحكم يا زين.

أومأ برأسه قائلًا:

- اطمني.

واكتسب صوته نبرة واثقة وهو يضيف:

- خلال أربعة وعشرين ساعة قواتنا المُدرَبة هَتجتاح مزارع E.N حول العالم، وهَتحرر البطاريات اللي جواها، وتنسف كل منشآتها وماكيناتها.

تمتمَت:

- بإذن الله.

- وبعدها.

- بعدها؟!

عادت الابتسامة الصافية إلى شفتيه وهو يقول:

- مش هَنفترِق.

«في اللحظة دي مش عايز أشوف أو افتكر واحدة غيرك» ...

ارتفع حاجباها وانفرجت شفتاها ...

أردف بصِدق:

«والله العظيم».

قالت بشرود:

- ماتفكرش غير فـ العملية يا أدهم.

بَهتَت ابتسامته فانتبهَت هي لزلتها وتمتمَت مُصحِّحَة:

- يا زين.

حدَّق في وجهها مُتسائلًا بخفوت:

- إنتي لسه؟!

أطرقت برأسها قليلًا ثم همَسَت بصعوبة:

- مِش زَي ما انت فاكِر.

عضّت على شفتها.

مَدَّ أصابعه ليحتوي ذقنها ...

- القصة إني ... طول السنين دي ...

رفع رأسها برِفق.

- كُل ليلة ...

رأى عينيها مرقرقتان بالدموع.

- أنا عايزة أعرَف ... بَس!

احتواها بين ذراعيه، واستكانت هي في صَدره لبرهة من الزمن، ساد خلالها السكون، وكأن العالم كله قد حبسَ أنفاسه، قبل أن تدفع هي نفسها خارج أحضانه وتمسح عينيها قائلة:

- العملية يا ...

رأت في عينيه نظرة تحذيرية تمثيلية فتابعَت بابتسامة شاحبة:

- يا زين.

رَفَعَ أصابعه المفرودة المتلاصقة إلى رأسه مؤديًا التحية العسكرية وهو يقول بمرح:

- تمام يا افندِم.

هنا فقط، أفرجت عن ابتسامتها كاملةً وقالت:

- أنا هَعمِل شاي.

- آجي اعمله معاكي.

- قولنا إيييه؟!!

قالتها باستنكار تحذيرى لم تُخفِ مرحه هذه المرة، فأجابها هو بتحية عسكرية ضاحكة أخرى صامتة.

وفي منتصف الردهة المؤدية للمطبخ توقفت أمام السطح الناعم المصقول للمرآة الزجاجية غير ذات الإطار، والتي تتوسط أحد الضلعين الطويلين للردهة ...

تفرست بتمعن في التجاعيد المنتشرة حول عينيها وجانبَي شفتيها، اللتين لم تلبثا أن انفرجتا عن ابتسامة رائعة أضاءت ملامحها، وأعادت لها قبسًا من ملاحة غابرة.

هذه الملاحة التي التقطتها عيناه لدى عودتها إليه في الفراندة حاملة صينية عليها مَجّين يتصاعد منهما البخار، وطبق ممتلئ بالبسكويت. ابتسم وهو ينهض بقامته الفارعة ليتناول منها الصينية، وفتح فمه ليقول

شيئًا عندما تجمدَت هي في مكانها إذ سمعت الأزيز الخافت يتردد داخل أذنها.

نظر مُندهشًا إلى وجهها الذي تبخرت ابتسامته في لحظة، وعاد ليكتسي بقناع الجدية المألوف ... سألها غيرَ فاهمٍ:

- فيه إيه؟

بَدَت وكأن روحًا مُختلفة قَد تلبستها وهي تُشير إلى السماعة داخل أذنها مُجيبة باختصار:

- تعليمات جديدة.

ثم أومأت لـ مَج الشاي مستطردة بلهجة عملية:

- إشرَب شايك على ما ارجعلك.

أغلقت باب حجرتها بإحكام، وضغطت زرًا وحيدًا في هاتفها النقال الذي ثبتته إلى حزامها، فانبعثت صورة هولوجرامية نقية رأتها خلال العدستين المثبتتين إلى عينيها والمُتصلتين بالهاتف مباشرةً، لرجل متوسط القامة، في أواسط الأربعينات، أصلع تمامًا، ملامح وديعة وبذة سوداء أنيقة، بادرته بإنجليزية سليمة:

- اتصال خارج الجدول، نظيم!

قال باقتضاب:

- مُستجدات.

حدقت في صورته باهتمام، فسألها:

- أين زين؟

أجابته مُندهشة:

- ينتظر بالخارج!

ثم تساءلت:

- ألهذا علاقة باستقدامه إلى هنا؟!

- بالتأكيد.

بدت لها نبرته، رغم هدوئها، مُحَمَلة بنُذُر غامضة غير مُطمئنة.

تابعَ:

- أصغِ لي جيدًا؛ لأن الوقت يداهمنا.

بعد ما يقرب من نصف الساعة، انقبض قلب زين وهو يحدق فيها، وقد عادت بغير الوجه الذي ذهبت به، غابت بسمتها، واكتست بشرتها بشحوب أميل للاصفرار، واحمرت عيناها بلونٍ كالدم خلف طبقة لامعة زلقة من دموعٍ حبيسة.

خَطَا نحوها وهو يسألها بجَزَعٍ عمَّا هُنالِك، فقالت بصوتٍ مُنهَك:

- استعِد.

- أستعِد لإيه؟!

- هَتتحرَك من هنا حالًا.

***

- سايب دقنك من إمتى؟
- بقالي فترة.
- (تضم شفتيها مُطلقة عمودًا من دخان سيجارتها): نيو لوك؟
- كَسَل.
- شكلها حلو عليك.
- شكرًا.
- (تبتسم): وشوية الشعر الأبيض دول عاملين شغل ...
- ... ...
- (بمرح): أغيب عَنَك شوية، ارجَع ألاقيك كلبَظت وعَجِزت وربيت دقنك؟!

أصغا عميلَا Egy- Nergy الميدانيان –الأصلع وزميله طويل الشعر- عبر سماعات الكمبيوتر داخل سيارتهما المتوقفة بمحاذاة رصيف الأمفتريون الكلاسيكي العتيق بمصر الجديدة، للمُحادثة الدائرة داخل سور الأمفتريون الحجري على بُعد ما لا يزيد عن الثلاثين مترًا ...

تساءلت إيمان:
- هَتفضَل ساكت كتير؟!

أجابها يحيى بهدوء:
- بَسمَعِك.
- أنا بَتكلِم من ساعة ما قعدنا.
- وأنا بَسمع.

ابتسمت قائلة:

- طب مش عايز تقولي حاجة؟

رَشفَ من فنجان القهوة المُستقِر على منضدته من دون أن يرد، فانطفأت ابتسامتها ببطء وأطرقت برأسها متسائلة بخفوت:

- أد كِدا شايل؟

ارتسمَت بسمة خافتة على طرف شفتيه وهو يقول باستخفاف:

- خالِص!

هَزَت رأسها المؤطَر بخصلات الشعر الأحمر وهي تغمغِم:

- ليك حَق.

قال بجدية:

- مفيش حاجة يا إيمان. بجَد.

«وقد جدَدَت وزارة الداخلية على لسان العميد محمود فياض، متحدثها الرسمي، تحذيرها للمُخربين من أصحاب دعوات التظاهر باكر الجمعة والتي انتشرت على صفحات التواصل الاجتماعي، وبعض القنوات المشبوهة على الإنترنِت باعتبارها غطاءً للأعمال التخريبية التي تكررت الأيام السابقة، وأكدَت استعدادها للتصدي لها وحماية أمن الوطن والمواطنين» ...

لدقيقة كاملة كان الصمت ثالثهما، فتشاغل هو بمتابعة التوك شو الصباحي على الشاشة الهولوجرامية التي تتوسط الكافيه، بينما استمرت هي في إطلاق أعمدة

الدخان من بين شفتيها المضمومتين، وهي ترمق من وراء منظارها الشمسي الداكن زوجًا من العصافير يتبادل حديثًا مجوسقًا على غصن شجرة قريبة ...

هَمَسَت:

- يحيى.

أدار إليها عينيه ... قالت بلهجة رجاء:

- من فضلك اسمعنى من غير مقاطعة.

ظل يرمقها بدعوة صامتة للاسترسال، فدفعت مزيدًا من الدخان خارج صدرها ثم قالت بصعوبة:

- إحنا ... أنا وانت ... كُنا مع بعض ... كانت فيه حاجة بينا ... حاجة حلوة، ليها مكانة كبيرة جوايا ... وعارفة إن نفس الحاجة كانت جواك.

وخمشت برفق السطح الخشبي للمنضدة بإظفر سبابتها الطويل وهي تستطرد:

- أنا متخيلة شعورك ناحيتي لما اختفيت مرة واحدة بدون سابق إنذار، من غير حتى phone call. من غير ماسدج أو إيميل، لكن ...

حدَّقَ فيها بنظرة لو لاحظتها لبَدَت لها خاوية، ولكنها كانت مُطرقة الرأس تحاول –بصعوبة- استجماع وصياغة أفكارها، فلم تلاحظ.

- لو كان الحال معكوس، وانتَ بكل اللي بتمثله ليا، كنت اختفيت من حياتي مرة واحدة كدا ... كُنت ... مش عارفة.

وصمتت للحظة ثم تنهدت قائلة:

- لأ، عارفة! ... كُنت هَكرهَك يا يحيى!

ورفعَت عينيها إليه وكأنما تستطلع أثر كلماتها على صفحة وجهه، فلما وجدتها مُسطحة لا تعكس انفعالًا مُحددًا وكأنه لم يسمع شيئًا، ازدردَت لعابها وتابعت:

- عشان كدا أنا حاسة باللي جواك ناحيتي في اللحظة دي، وبشكلٍ ما دا بيطمني على إن الحاجة الحلوة اللي كانت (وضغطت على حروف «كانت») بيننا، كانت حقيقية؛ لأن محدِّش بيكره إلا لما بينجرح، والجرح مابيكونش إلا في الحاجة الغالية.

رَشفَ مُجددًا من قهوته بينما صمتت هي للحظة ثم قالت:

- أنا مِش طمعانة فـ اننا نرجَّع اللي كان بيننا، مش بعد غياب سنة. فاهمة والله ومتقبلة، رغم انى كدا فعليًا جُثة ماشية على الأرض. بس خلاص، انا غلِطت ولازم أدفع تمن غلطتي، مش هَقدَر اقولَك إيه سبب الغلطة وإيه اللي حَصل، وماعتقِدش انك هَتهتَم تعرف؛ لأن خلاص الموضوع مُنتهي.

لاحَظَت نظرته التي عبرَت سريعًا على أصابعها الخالية من الدِّبَل، فومضَ أملٌ في قلبها، وهَزَّت خُصلاتها الحمراء قائلة:

- مفيش حَد تاني لو بتفكَر إن دا هوَ سبب الغياب.

وانتظرت لثوانٍ آمِلة تعليقًا منه، فلما لم يحدث خبى الأمل سريعًا. تابعت:

- كل اللي انا عايزاه مِنَك، انك بعد ما نفترق، تبقى

عارف كويس انى اتعذِّبت وبَتعذِّب نفس العذاب اللي انتَ اتعذِّبته.

لمحَ خيطًا لامعًا من الدموع ينسال من وراء المنظار الداكن.

- أنا آسفة انى اتسبِّبتلك في كل دا. حقيقي آسفة.

سحب منديلًا ورقيًا من الصندوق الخشبي الموضوع على جانب المنضدة، تناولته منه وخلعت منظارها لتمسح الدموع التي بللت وجهها الذي بدا له أكثر نحولًا وشحوبًا مما كان عليه قبل عام.

ران عليهما صمتٌ ثقيل لم تخدشه إلا أصوات البث التليفزيوني المُجسَّم، وزقزقات الطيور على الأغصان القريبة، وهمهمات الرواد القلائل من كبار السن الذين بدأوا يتوافدون على الكافيه الكلاسيكي، والذي خَلَت أغلب موائده على غير المعتاد في هذه الساعة من الظهيرة.

قالت له بصوتٍ مُنهَك:

- أرجوك يا يحيى اتكلم، قول أي حاجة.

ونظرت له برجاء بينما هو يأتي على ما تبقى من قهوته، ويمسح ما عَلِقَ منها بشفتيه الدقيقتين.

قال لها بهدوء:

- قولتلِك مفيش حاجة م اللي بتفكري فيها دي يا إيمان، ومفيش داعي تعتذري حتى! ...

رَدَدت وهي تحدق فيه بعينين حمراوين حاصرتهما هالات قلة النوم السوداء:

- فعلًا!

أومأ برأسه مؤكِدًا فتساءلت:

- إزاي؟!

قال بنبرة محايدة وهو يعبر الشارع ببصره ليتأمل أسوار ومباني قصر الاتحادية، والذي تحول لأثر سياحي بعد أن انتقلت أعمال الرئاسة للعاصمة الإدارية مُنذ سنوات بعيدة:

- أصلِك بتتكلمي فـ حوار مَرت عليه سنة. سنة! اتناشر شهر. يعني بفرض ان الحاجة الحلوة الكبيرة اللي بتقولي عليها دي كانت موجودة فعلًا، فزمانها ماتت خلاص وشبعِت موت والدود أكل جثتها!

تكوَّرَت دمعة جديدة في عينها وهي تردد مرة أخرى:

- فعلًا!!

ارتسمت ابتسامة متهكمة على شفتيه وهو يقول:

- إنتي كنتي متخيلة حاجة تانية؟!

لم ترُد، وتركت الدمعة السميكة تغادر مقلتها لتفسح الطريق لأخرى تتكوَّر حول نفسها، فتابع هو وابتسامته تتلاشى ببطء:

- مُتخيلة مثلًا انى قرَبت أتجَنن في الشهور الأولانية وانا مش لاقيكي؟! لا تليفون ولا إنترنِت، وروحتلِك البيت والشغل والجيم وسألت عليكي كل حَد ممكن يوصلني ليكي. مُتخيلة دا؟!

راح صدرها يعلو ويهبِط وهي تنصت له وقد اكتسى صوته بقدرٍ من الحِدة.

- ولا تكوني فاكرة مثلًا انى بَقيت عامل زي المدمنين اللي أعراض الانسحاب بتفترس أرواحهم وأجسامهم، عايشين ومش عايشين، بيروحوا وبييجوا وبيشتغلوا وبيعملوا شوبينج وهُما فعليًا بيصارعوا وحوش بتنهش جواهُم؟!

تقلصت ملامحه وكأنما تؤلمه الذكرى.

- أو متصورة ان الغيرة حرقتني شهور طويلة، وانا بَفكر ان حَد حَل محلي في قلبك؟!

حَمِلَت كلماته مرارة أوجعَت قلبها وهو يقول بشرود:

- أو انى خلال الشهور دي كُنت بَحارِب عشان اشيلِك من جوايا. بَسأل نفسي: ليه؟

ليه ظهرِت في حياتي وخلتني اتعلق بيها وأدمِنها وبعدين تختفي وتسيبني انكِوي؟

ليه كانت أنانية لدرجة انها ماشافيتش فيا غير ممرِض بيغيرلها على الجرح ويحقنها بالمسكنات؟!!

وحدجها بنظرة طويلة أرسلت القشعريرة في جسدها وهو يستطرد بهدوء:

- لو مُتخيلة حاجة من الحاجات دي، فـ ماتتعبيش نفسك يا إيمان، مفيش اعتذار في الدنيا يكافئ العذاب دا، اللي انا مُتأكِد انِك مادوقتيهوش ولا تعرفي حاجة عنه.

انهمرت دموعها وهي تغمغم بوهن:

- مش صحيح!

امتزجت السخرية بالقسوة في ابتسامته وهو يردد

هذه المرة:

- فعلًا!

هَمَسَت من بين عَبَراتها:

- مفيش عذاب أفظع من إني أشوف الكراهية في عينيك بعد ما كنت بَشوف عكسها زمان.

قال بلهجة باردة كالثلج:

- مفيش كراهية ولا حب ولا أي مشاعر يا باشمُهَندسة، سنة من العذاب كافية انها تحرق الأخضر واليابس، والأحسن انِك تقتنعي نفسِك ان مكانش فيه شيء حقيقي بيننا من الأصل، وانتا بَس كنا بنفضفَض لبعض، ودي حاجة سَهل كل واحد فينا يكررها مع أي حَد تاني.

هَزَّت رأسها متفهمة، مسحت دموعها مُجددًا ثم أعادت منظارها الشمسي إلى عينيها، نهضت قائلة بصوت ضعيف وهي تحاول رسم ابتسامة على شفتيها:

- أسمع عنك كل خير.

تابعها بعينين جامدتين وهي تبتعِد وتتضاءل بين الموائد، ثم تنحرف لتعبر مصراعي الكافيه وتغيب عن نظره.

وفي سيارتهما، تبادل عميلَا Egy- Nergy نظرة سريعة عقب «أسمع عنك كل خير» الأخيرة التي نقلتها لهم الشريحة التي زرعها صاحب الشعر الطويل في هاتف يحيى النقال قبل أيام في جراج كارفور.

نظرة سريعة ثم تحرك حليق الرأس، فتناول علبة أسطوانية صغيرة من تابلوه السيارة، دسها في جيب

بذته الداكنة، غادر السيارة ذات الزجاج الأسوَد المعتم ومشى بخطوات واسعة بمحاذاة ضلع الأمفتريون القصير حتى خرج إلى شارع الأهرام، حيث لمَحَ إيمان.

كانت تخطو على بلاطات الرصيف بخطوات متثاقلة، وكأن عمرها قد تضاعف عشرين عامًا دفعة واحدة، مُنفصلة عما يدور حولها من زحام وضجيج سيارات، فلم تنتبه للعملاق حليق الرأس، الذي يدنو منها في بذلة داكنة ومنظار شمسي.

إنحرفت إلى الشارع العمودى وسارَت باتجاه محطة المترو الطائر.

لم تكن قد قطعَت بضعة أمتار عندما أجفلَت، إذ شعرت بتلك الأصابع القوية تلتف حول معصمها وتجذبها إليها.

***

استغرق اجتماع مجلس الدفاع الوطني ما يقرب من الثلاث ساعات، استُعرِضَ خلالها عددٌ من القضايا المُلحة في هذه المرحلة الصعبة، خطط تأمين الحدود والمحافظات والطرق والمنشآت القومية، وأحدث المستجدات المعلوماتية بخصوص الوضع متأزم الذي تمر به البلاد، عُرِضَت خرائط هولوجرامية التقطتها الأقمار الصناعية لمواضع يُشتبه في تموضع ميليشيا «وعد الله» الإرهابية بها، مع خطط عاجلة لقصفها بالطيران الحربي خلال الساعات القليلة القادمة، استعرض وزير الداخلية التدابير التي اتخذتها وزارته لمواجهة التظاهرات الضخمة المتوقعة غدًا الجمعة، والتي انتشرَت دعواتها على مواقع التواصل الاجتماعى، وأكدَ على أن التعامل سيكون سريعًا وحاسمًا رغم تقديرات خبراء مباحث أمن الدولة، والتي حدَّدَت التصنيف الاجتماعي للكتلة الأكبر من المتظاهرين المتوقعين في شريحة من مواطني الطبقة الوُسطى الغاضبين من تدهور الخدمات، وهؤلاء ليسوا صداميين بطبيعتهم، وسيتراجعون لدى أول بادرة عُنف من جانب قوات الأمن.

أما رئيس الحكومة، فتحدث عن نتائج مساعي حكومته للتواصل مع عددٍ من شركات إنتاج الطاقة التقليدية القديمة واستطلاع استعداداتهم لتلبية الطلب المصري على الطاقة، الكمية والسعر والمدى الزمني،

وذلك تحسبًا لعجز المُوَرِد الرئيس الحالي Egy- Nergy عن الاستمرار في التوريد بسبب الضربات الإرهابية التي طالت منشآته وموظفيه حول العالم، وأضعفت من قدرته على الوفاء بتعهداته.

انتهى الاجتماع في تمام الواحدة ظهرًا، فصفا فراغ قاعة الاجتماعات بالقصر الرئاسي من الصور الهولوجرامية للحَضور من قيادات الجيش والحكومة باستثناء هولوجرام اللواء مُحيي الدين ذو الفقار، مدير المخابرات العامة، والذي ظل شاخصًا أمام عيني رئيس الجمهورية الجالس في صَدر القاعة.

تباحثَا في نِقاط مُحددة أعدها اللواء محيي سلفًا بخصوص الاضطرابات التي سادَت في أجهزة الدولة بسبب الأحداث الأخيرة، وعندما فَرغا، نظر للرئيس بعينين ضيقتين شبيهتين بعيني ثعلب وقال:

- وفيه نقطة تانية يا رَيِس.

رمقه الرئيس بنظرة ثاقبة متسائلًا:

- خير يا مُحيي؟

صمَتَ اللواء للحظة مدروسة ثم قال بتؤدة:

- التعيينات الأخيرة.

بدا وجه الرئيس -رغم علامات الإجهاد بعد سهرة خِطاب الأمس ومتابعة ردود الأفعال الإقليمية والدولية- مُصمتًا لا يعكس أية انفعالات بما يليق بخبرة السنوات الطويلة في الحقل الاستخباراتي، رغم علمه بما وراء هاتينِ الكلمتين اللتين نطق بهما مدير مخابراته

من تدابير وألاعيب لا نهاية لها.

تلقى مُحيي الدعوة من صمت رئيسه للاستفاضة، فتنحنح متابعًا:

- التعيينات اللي معاليك وقعتها امبارح بالليل، ونزلت على موقع الجريدة الرسمية.

وزمَّ شفتيه بحركة تمثيلية وكأنه يجِد صعوبة في عرض فكرته.

ساد الصمت للحظة قبل أن يقطعه الرئيس متسائلًا بهدوء:

- إنتَ عندك اعتراض معين على الأسامي الجديدة يا سيادة اللوا؟

أسرع يقول:

- العفو معاليك! الأسماء لا غبار عليها، وكلها كفاءات عظيمة، وقامات وطنية محل تقدير واحترام، إنما ...

أتصور إن أسماء جديدة في مواقع حساسة في ظروف صعبة زي اللي بنمُر بيها حاليًا، ممكن تضر أكتر ما تفيد.

- وَضَح أكتر.

تراجع اللواء مُحيي في مقعده بحجرة مكتبه وهو يقول:

- الأسماء الجديدة ... رغم إن اختيارها تَم على غير المُتعارَف عليه من دون علمي وإعلامي كمدير للمخابرات العامة رأيه -بحكم موقعه- لا غِنى عنه لما يتعلق الأمر بأجهزة الدولة السيادية (!) وتَم بسرعة

وبالليل بدون أي مُقدِمات، وبالتزامن مع الخِطاب الرئاسي اللي احتوى على تحذيرات مثيرة للجدل، رغم كل دا إلا إن اختيارات الأسماء الجديدة تَنُم عن دراسة مُدققة لتاريخهم وكفاءاتهم وتوجهاتهم، دراسة قام بيها متخصصين من خارج الجهاز اللي بَرَأسه طبعًا.

وضاقت حدقتاه أكثر وهو يتابع:

- كل دا عظيم، لكن معاليك أكيد عارف إن القيادات اللي استبدِلتها كانت مُستقرة في أماكنها من سنين، وخلال السنين دي عِرفِت تِمِد جذورها وتبني شبكات من المصالح والعلاقات، وإزاحتها بالشكل دا، وفي الظرف دا، بيخلق حالة من البلبلة والتخوين والتشكيك في الأسماء اللي اتشالِت من مناصبها، وبالذات مع الإشارة في خطاب معاليك لـ «أعداء الداخل» و«المتربصين» اللي ممكن تتفسَر تفسيرات كتيرة، منها ما يطعن في نصاعة القيادات المُقالة، وبالتالي يثير بلبلة وحفيظة مرءوسيهم اللي بتربطهم بيهم شبكات مصالح في وَقت البلد محتاجة فيه لتكاتف كل أجهزتها ومواطنيها.

أنهى كلماته وصَمَتَ مُستطلِعًا مردودها على وجه رئيسه الذي ظلت ملامحه مُستغلقة على القراءة باستثناء عينيه الخضراوين اللتين سُلطِتَا على وجهه، وكأنما تنفذان خلاله لتسبرا أغواره، ثُمَّ ...

- ولحِقت يا مُحيِي ترصد البلبلة بين قيادات المؤسسات اللي اتغيرِت رءوسها من كام ساعة؟!

تلاعبَت ابتسامة ثعلب على شفتي الاستخباراتي العجوز وهو يقول:

- دي مجرَد استنباطات بُناءً على الخبرة، ولقِيت ان من واجبي انى انقلها لمعاليك.

شبَّكَ الرئيس أصابعه تحت ذقنه الحليقة وقال:

- مُنتظِر من خِبرتَك أكتر من كِدا.

ارتفع حاجبا مُحيي الفضيانِ وهو يردد:

- معاليِك عندَك ملاحظات معينة؟!

أومأ الرئيس برأسه ثم قال:

- مِش محتاج اشرحلَك مدى صعوبة الظرف اللي بنمُر بيه يا مُحيي. وكمان مِش محتاج اقولَك انى حاطِط ثقتي الكاملة فيك.

أطبَق اللواء مُحيي شفتيه بائِعًا لا شار، فسأله الرئيس مُباشرةً:

- عندَك معلومات عن التحركات اللي بتحصل في اللحظات دي داخل النظام لاستغلال الاضطرابات الحاصلة لزعزعته؟

هوى السؤال كالصاعقة على الثعلب العجوز، ولكنه بمقدرة فائقة سيطر على مشاعره وأجاب بهدوء:

- عندي.

- وعن اللي ورا التحركات دي؟

أومأ مُحيي برأسه فتساءل الرئيس:

- زي؟

قال مُحيي باقتضاب:

- ناس من اللي كانوا مُجتمعين معانا من شوية.

- اتصلوا بيك؟

صمت مُحيي للحظة ثم قال ببطء:

- حصَل.

- مابلغتنيش ليه؟

قالها الرئيس ضاغطًا على حروفه فأجاب مُحيي:

- دي قضية دقيقة يا ريِّس ومُتَصِلة بأسماء خطيرة في صُلب الدولة، وكان لازم ملفاتي تكون كاملة قبل ما اعرضها على معاليك.

- رَدَيت عليهُم بإيه؟

- وافِقت. عشان اعرَف.

ساد صمتٌ ثقيل بينهما للحظات قبل أن يقطعه الرئيس قائلًا بصرامة:

- هَستنى مِنَك تقرير شامِل خلال دقايق.

- أمرَك يا ريِس.

- وأي **update** توصلني أول بأوِل.

أومأ مُحيي برأسه مرةً أخرى، ثم قال:

- لكن اسمحلي يا رَيس، أنا مُندهِش!

- مِن؟!

- أنا شايف تناقض بين ثقتك فيا، وبين استبعادي من مشاورات استبدال القيادات الأخيرة.

- المجموعة المرصودة هَتثِق فيك أكتر لما يعرفوا انَك مش ضِمن الجبهة المُضادة ليهم.

ابتسم اللواء بإعجاب، فاستطرَد الرئيس بحزم:

- مِش هَسمَح يا مُحيي إن الدولة تتعرض لخطر التفكك عشان شوية خَونة عايزين يحققوا مصالح شخصية، مِش هَسمَح ومش هتهاون مع أي حَد يتقاعس عن أداء واجبه، والعقاب هَيكون حاسم وناجِز مهما كانت الراس كبيرة، معايا؟

أجاب بآلية:

- إعتمِد عليا يا ريِس.

- شُكرًا، سيادة اللوا.

انتهى الاجتماع فبَهُتَ هولوجرام اللواء مُحيي وتلاشى، وغمغم الرئيس وهو ينظر صَوبَ الموضع الذي كان يشغله من الفراغ المقابل:

- طول عمري شغوف بقراءة التاريخ، المملوكي تحديدًا، حفظت ألاعيبه ومؤامراته وحكاياته ونهاياته عن ظهر قلب؛ لأنها خلاصة الصراع على السلطة على مر العصور، بما فيه عصرنا الحالي ... الديمقراطية، إرادة الصندوق، أصوات الناس، كلها إطار شيك لصراع المماليك في كل بلد على السُلطة ...

ورفع صوته قليلًا:

- تعليقَك؟

تكوَّنَ في نفس الموضِع –محل نظر الرئيس- هولوجرام جديد لـ اللواء فؤاد سلطان، مدير مخابرات الرئاسة الذي أجاب:

- مُحيي مش سهل.

قال رئيس الجمهورية:

- بس هَنكسَب وقت، على ما يفكروا إيه اللي ورا المناورة دي.

قال اللواء سلطان بقلق:

- الوقت سلاح ذو حدين، معانا وفـ نفس الوقت علينا.

انتبه الرئيس إلى علامات القلق التي تكسو ملامح مدير مخابراته، فتساءل:

- إيه الجديد يا فؤاد؟

- جديدين سيادتك؛ الأول انى لسه مخلص الاجتماع مع الفريق محمود عزمي، راجعت التشكيلات والتوزيع واتأكِدت ان وحدات الحرس الجمهوري على أتم استعداد للتحرك والسيطرة بمجرد إشارة البدء.

- إيه نسبة ثقتك في ولاء محمود عزمي؟

أجابه بهدوء:

- عزمي رفيق كفاح وصديق قديم من أيام الكلية الحربية، ولولا انى متأكد من إنه ظابط منضبط، ملفه نضيف وولاءه الرئيسي للشرعية ماكونتش أيِدت ترشيحه لمنصب قيادة الحرس الجمهوري.

- والموضوع التاني؟

تنهد سلطان قائلًا:

- دا الموضوع الأخطر، معاليك.

التقى حاجبَا الرئيس الكثان من فوق عينيه الخضراوين، بينما يقول:

- اتكلم يا فؤاد.

قال رئيس مخابرات الرئاسة بلهجة تشف عن خطورة

الأمر:

- من دقايق وصلنا ملف شديد الخطورة، والشباب عندي بيجهزوا تقرير.

- ملف من مين؟

- من آدم المصري.

***

كان الزحام حاشدًا حول السلالم المتحركة المؤدية إلى محطة المترو الجوي، والتي اصطُلِحَ شعبيًا على تسميتها بمحطة الكوربة، رغم اللافتة التي تشير بحروف هولوجراميَّة مُتألقة أنها «محطة الاتحادية». السبب في ذلك بطبيعة الحال هو القرار الذي اتخذته إدارة شركة المترو بتخفيض عدد الرحلات والقطارات من أجل التعامل مع مشكلة نقص إمدادات الطاقة اللازمة لتشغيل الخطوط.

ومن هنا نتفهَّم حِرص عميل Egy- Nergy حليق الرأس على ألا تغيب إيمان عن عينيه للحظة واحدة، وسعيه إلى بلوغها قبل أن تذوب وسط هذا الحشد.

أعاد العلبة الأسطوانية إلى جيب بذته بعد أن استخرجَ منها واحدًا من تلك الأقراص المُخدرة التي تَحمل كودًا محفورًا على وجهها يشير إلى زمن التخدير الذي يُحدِثه القرص بمجرد ملامسته لجلد الجسم المراد تخديره.

لمحها العميل على بُعد خطواتٍ منه تَندَس بين الأجساد الرائحة والغادية على الرصيف؛ فدفع المارة من حوله بشيء من الخشونة وهو يتقدم نحوها، ورَفعَ القرص المُخدِّر بين أصابعه ليلصقه بجيدها الطويل الذي انزاحت عنه خصلاتها الحمراء.

ثم لم يستوعِب بدقة ما جرى بعد ذلك.

في البدءِ ارتطم به أحدهم قادمًا من الجهة المقابلة،

وفي جزء من الثانية شعر بالأصابع الفولاذية تقبض على معصمه الممدود بالقرص المَخدِّر، في الجزء الثاني من الثانية لمحَ وجهًا مُغضنًا تتوسطه عينان حادتان، ويكلله شعرٌ أشيبُ بالكامل انسدلت خصلاته على الكتفين، وفي الجزء الثالث انفجر الألم المُبرح في ذراعه مقرونًا بصوت مكتوم لعظامٍ تتحطم.

خرجت منه شهقة مكتومة، ثم أظلمت الدنيا أمام عينيه، ومادت به الأرض من دون أن يدرك أن هذا من جراء حركة فنية خاطفة من حركات الجيجتسو لَوَت ذراعه حامل القُرص المُخدِّر لتلصقه بجلده فترسله لغياهب الغيبوبة.

وإذ تلقفه ذراعان مفتولان منعاه من السقوط، وسحباه بقوة مُدهشة بحيث بدا وصاحب الذراعين وكأنهما صديقين يسيرا متلاصقين إلى مدخل بناية عتيقة على بُعد خطوات قليلة.

لم ينتبه أحدٌ من المارة لهذا الأكشن السريع، الذي لم يستغرق ثوانٍ معدودة، وعلى رأسهم إيمان التي وجدت نفسها في لحظة واحدة محجوبة عن العالم كله بين ذراعي يحيى.

ارتجف جسدها وقلبها، وهي ترفع عينيها لتملأ بهما وجهه الممتلئ، وديع المحيا، دقيق القسمات، والمُحاط بلحية ناعمة الخصلات امتزجَ بياضها بسوادها، واستقرتا داخل عينيه اللتين غشيتهما غلالة من دموعٍ حبيسة.

سألها بصوتٍ مُتحشرِج:

- الفترة اللي فاتت دي ... كنتي مع سامِح؟

هزَت ملامحها المتأثرة نفيًا.

- مع هيثم؟

كررت النفي.

- مع حَد تاني؟

قالت بصِدق:

- لأ.

أغمض عينيه وقد غمر الارتياح أساريره، فهَمَسَت هي بصوتٍ متهدِج:

- أنا ماستاهِلش يا يحيى.

مَسَّ شفتيها بأنامله برقة داعيًا إياها للصمت، ثم ضمها برفق إلى صدره.

حاولت أن تقول له بصوت ضعيف أخير إن عالمه سيكون أفضل وهي خارجه، ولكن مقاومتها الواهية ذابت تحت لمساته، فاستسلمت شاعرة بخدرٍ عجيب وهي تغوص في حضنه، بينما الدموع تنهمر كالشلالات لتغرق وجهها.

أما عميل Egy- Nergy الآخر –طويل الشعر- الجالس في سيارته بانتظار عودة زميله الحليق بالهدف –إيمان- فكان آخر ما سمعه عبر جهاز الاتصال بينهما هو الشهقة المكتومة التي غادرت شفتي هذا الزميل عندما تحطمت عظام ساعده.

لم يفهم ما جرى، وراح يناديه شاعرًا بالتوتر من دون

مجيب.

طلب من كمبيوتر السيارة أن يحدد مكانه، فانبعث هولوجرام لمسقط أفقي للشارع المزدحم مُحددٌ عليه موضع العميل المفقود بنقطة خضراء مضيئة، حَددَ طويل الشعر الموضع بدقة، وتناول مسدسه من تابلوه السيارة، فدَّسه في غمده أسفل إبطه وأحكم إغلاق جاكيت البذة، ثم فتح الباب المجاور ليغادر السيارة.

هنا، ارتطم باب السيارة بجسد أحد المارة.

سمعه عميل E. N. يتأوه بألم، فألقى نظرة سريعة عليه من وراء منظاره الشمسي، وقد ارتكن إلى جانب مقدمة السيارة وارتسمَت علامات الألم على وجهه المغضن المكلل بشعر أشيب طويل الخصلات.

هنا، تجمدَّ العميل في مكانه، ووثبَ لذهنه موقفٌ مُحدد استدعاه من تلافيف ذاكرته مشهد هذا العجوز المتألِّم.

استغرقت وجبتهما في إحدى كافيهات المول ما يقرب من الثلاثين دقيقة، انطلقا بعدها عائدين لسيارتهما، وقبل أن يبلغاها بعِدة أمتار، ارتطم بذي الشعر الطويل كهلٌ أربعيني أشيب الشعر، يدفع أمامه عربة محملة بأكياس كارفور منتفخة بالمشتروات، تساقط بعضها على الأرض حول الكهل الذي سقط بدوره متأوِّهًا إثر ارتطامه بجدار العضلات هذا ...

ضاقت حدقتاه من وراء العدسات الداكنة وهو يُحدَق في الوجه المُغضن المألوف وهو يقول:

- إنتَ قاطرنا بقى من يوم المول!

توقفَ الكهل عن التأوه، وارتسمَت نظرة ثابتة في عينيه وهو يحدق في العميل الذي تابع متسائلًا:

- بس ازاي؟! لو كنت بتراقبنا كنا لاحظنا!

- آسِف!

قالها الكهل بصوت ضعيف وهو ينهض من سقطته بصعوبة، لم يرد عليه ذو الشعر وهو ينفض غبارًا افتراضيًا عن بذته الأنيقة، ثم يبتعد مع رفيقه الحليق متجهين نحو سيارتيهِما.

- يا أستاذ.

التفتا مُجددًا إليه، فوجداه وقد وقف على قدميه، ويمد كفه نحوهما.

- الموبايل دا وِقِع منك؟!

- الموبايل!

خرجت من بين أسنانه وكأنها بصقة، ثم وثبَت أصابعه لتستل سلاحه وترفعه بسرعة صَوبَ الكهل الذي دَبَت في جسده حيوية مباغتة لا تناسب سنه وتجاعيده وتأوهاته التمثيلية، فقبض على معصم العميل، وأداره لينتزع منه المسدس بحركة فنية خاطفة، ثم يُسقِطه أرضًا، وقد نزع عنه خزانة الطلقات في نفس اللحظة تقريبًا التي ارتفع فيها ساعده ليصُد ضربة وجهها له العميل بقبضته اليسرى المضمومة.

ومن بين اللكمات والركلات في الشارع الجانبي الهادئ العمودي على شارع الأهرام، هتف العميل بينما أصابعه

المضمومة تشق طريقها نحو فك خصمه:

- إنتَ مين يا جدو؟!

تلقى «جدو» اللكمة على مرفقه، ومال بجذعه متفاديًا أخرى خاطفة وقال:

- مِش انت وزميلَك اللي زين عَلِّم عليكم السنة اللي فاتِت في المستشفى؟

ارتبك العميل لوهلة، طاشت خلالها الركلة التي حاول تسديدها لركبة خصمه.

سمعه يقول:

- أنا خالد فضالي.

وتلقى تلك الضربة التي رَجَّت مخه داخل جمجته بينما الخصم يردف:

- زميل قديم.

ثم اصطدم مرفقه كعمود من الفولاذ بعظام جمجمته وهو يضيف:

- الكابتن بتاع زين!

ثوانٍ معدودة استغرقها هذا القتال الخاطف الذي استعرض طرفاه عصارة سنوات من التدريبات والخبرات القتالية، انتهَت باصطدام رأس العميل بجسم السيارة ثم سقوطه أرضًا مغشيًا عليه ...

ومع سقوطه، أدار الكابتن خالد رأسه فيما حوله ليتأكد من استمرار خلو الشارع الجانبي الهادئ، وأن أحدًا من قاطنيه أو المارة في الشارع الرئيس لم يلحَظ هذه المعمعة، ثم انحنى يجذب خصمه فاقد الوعى من

أسفل إبطيه، وهو يدفع باب السيارة نصف المفتوح بمقدمة حذاءه.

عندما بدأ يستعيد إدراكه لم يدرِ كم من الوقت ظل مغشيًا عليه، كان الصداع يطرق رأسه بإلحاح، وثمة مشكلة في الرؤية المعتمة غير الواضحة، غير أن هذا لم يمنع عقله المُدرَّب من إدراك أنه مُمَدَّد على الأريكة الخلفية لسيارته، وأن وثاقًا مُحكمًا يقيد كفيه وراء ظهره، وأن صاحب الوجه المطموس بالظلال الذي يطُل عليه من المقعد الأمامي الأيمن هو نفسه الشيطان الذي هزمه مُنذُ قليل.

- أعتقد انتَ سامعني كويس دلوقتي.

قالها الكابتن خالد بنبرة هادئة، فتساءل هو بصوتٍ مبحوح:

- فين زميلي؟

أجابه خالد ببساطة:

- الله يرحمه.

اخترقت العبارة وعيه بخشونة، فارتسم توتر عنيف على صفحة وجهه المُخضبة بآثار العراك الفائِت، مما دفع خصمه الكهل ليقول:

- لأ، اهدا! لسه بيننا كلام مهم.

ثم أردف وهو يجمع خصلات شعره الأبيض الطويل ويعقصها في خصلة ذيل حصان واحدة خلف رأسه:

- إحنا دلوقتي في العربية بتاعِتكو، يعني محَدِش م الناس اللي حوالينا فـ الشارع هَيشوف أو يسمع حاجة

بتحصل جواها، فـ متحاوِلش تصرخ وتنبح فـ صوتك.

واحتشدَت التجاعيد على جانبي شفتيه إذ ابتسم ملوِحًا بجهاز صغير مستقر في راحته:

- وقبل ما تفكر تطلب أي حاجة من كمبيوتر العربية (ينظر في ساعته) إحنا معانا لسه عشر دقايق شوشرة، وبعدها الكمبيوتر هيسترِد سيطرته ويرصد اللي بيحصل.

وعاد بعينيه إليه قائلًا:

- عشر دقايق يكفوا وزيادة.

تمالك العميل أعصابه بمقدرة احترافية، وتساءل:

- يكفوا لإيه؟

أومأ برأسه إلى كابينة السيارة من حوله قائلًا:

- إنَك تِدَخَل –بصفتك العميل اللي العربية الجميلة دي في عُهدِته- بصمتي الحيوية على سِستِم العربية.

رغم قيوده المُحكمة والرؤية المشوشة والصداع، حدق العميل في وجه خصمه بثبات ثمَ هَز رأسه ببطء، فقال خالد بهدوء:

- قبل ما ترفض، عايزك تشوف دي.

ورَفعَ كيسًا شفافًا مُبقعًا بدماء طازجة لزجة لم تمنع العميل الميداني من تمييز الكرية البيضاء الملوثة بالحُمرة الراقدة في قاع الكيس.

فَهِمَ على الفورِ لمَ بدَت له الرؤية معتمة منذ استعاد وعيه، فشحب وجهه وارتجف جسده رُغم ثباته الانفعالي الذي هو جزء من طبيعة عمله، وندَت شهقة

من أعماق روحه وهو يحدق بعينه الوحيدة في عينه الأخرى التي ترمقه من داخل الكيس النايلون الشفاف.

أشعل الكابتن خالد سيجارًا سَمينًا، صَمَت للحظات نفَث خلالها الدخان في فضاء السيارة وهو يراقب الانفعالات على وجه ضحيته المُمَددة على الأريكة بلا حول ولا قوة، شحوب ودموع وضمادة بدائية لوثتها الدماء تجويف العين المُقتلعة، قبل أن يقول:

- أنا اضطريت الجأ للأساليب السريعة دي رغم قسوتها عشان وقتي ضيق، وانتَ مش هَتتعاون بسهولة.

وأدار الكيس بين أصابعه كأنه في محاضرة علمية واستطرد:

- مش هَينفع يركبولَك خلية بصرية مكان العين اللي راحِت؛ لأني لو لاحِظت، استأصلت العين بالعصب البصري. (يبتسم) أخُويَا كان بيدرِس طِب واتعلمت منه شوية مهارات.

وتأمل الكرية الملوثة الراقدة في قاع الكيس وهز رأسه بإعجاب:

- جراحة بالدقة دي، بأدوات بدائية، في الكنبة الورانية، خلال الدقايق اللي نمتهُم.

نفَثَ سحابة كثيفة من الدخان:

- قطعة من الفن الرفيع.

انهمرت الدموع ساخنة من العين الباقية للعميل الميداني، وفقد السيطرة على مثانته فتصاعدت رائحة صنان منفرة من بين ساقيه، لم يعبأ بها خالد الذي تابع:

- أنا مِش هَقتلَك زي ما قتلت زميلَك، بَس الاختيار ليك، تعيش ضرير، ولا تكمِّل حياتك وانت شايف الدنيا زيَك زي أي حَد سليم؟!

صاح العميل بصوتٍ متحشرِج:

- عايز مني إيه؟

توهجَ طرف السيجار المُستقِر بين أسنان الكابتن خالد وهو يقول:

- إنت سمعتني.

- قولتِلَك مش هَينفَع!

- وانا قولتلَك انى زميل قديم وعارف بَطلُب منك إيه.

وأطلق سحابة جديدة بيضاء قائلًا:

- وماتقلَقش من الإدارة والتحقيقات والسَحلة والجو الرخيص دا. بعد ساعات مِش هتبقى فيه Egy- Nergy أصلًا.

تساءل العميل من بين دموعه:

- عايز العربية فـ إيه؟!

نَفَضَ الكابتن خالد ما علِقَ بسيجاره من رماد وأجاب بهدوء:

- عايز اللي انتو عايزينه.

والتقى حاجباه وهو يردف:

- زين.

***

تحولَ الطابق الثامن من تلك البناية الشاهقة في قلب العاصمة الجديدة، والذي تشغله قناة Egypt Now الإنترنتيَّة لخلية نحل طيلة الساعات التي استغرقها تصوير حلقة الليلة من التوك شو المسائي «مصر الآن».

البرنامج يُبَثُّ يوميًا على الهواء مُباشرةً في تمام التاسعة مساءً على حِساب القناة على أكثر من موقع من مواقع الإنترنت، منهم موقع القناة الرسمي، ولكن قرار مجلس التحرير أو للدقة قرار إبراهيم جودة مالك القناة ورئيسها هو تصوير الحلقات مُسبقًا قبل ساعات من موعدها الرسمي ثم بثها مع التنويه على أن البَث مباشر.

- عشان الظروف اليومين دول مش مستحملة مفاجآت الهوا.

كذا أجاب إبراهيم جودة مرءوسيه بنبرة حاسمة من موضعه على رأس منضدة الاجتماعات، نفث دخان سيجاره مستطردًا:

- أي استفسارات تانية؟!

خرج الاستطراد منه بنبرة بدت رغم هدوئها أكثر حسمًا، وهو يدير عيني ذئبٍ عجوز في الوجوه الشابة المحملقة فيه، والواقع أنه لم يكن بحاجة لهذا التأكيد على سيطرته، فأغلبهم شبانًا وشابات تخرجوا حديثًا من كليات الإعلام لا يملكون اعتراضًا أمام شخصيته الكاسحة، وسنوات عمره التي تفوق ضعف متوسط

أعمارهم، وما يكافئها من خبرات حياتية امتزجت بدناءة طويته وبذاءة لسانه، فصنعت منه كيانًا مخيفًا يُستحَب تجنبه، بالإضافة لعامل آخر حيوي هو أنه رب عملهم وحارس بوابة الخبرة العملية التي تنقصهم ...

الوحيد الذي «كان» يملك مناقشته هو (النجم)، وهو اللقب الذي يُنَادَى به مُذيع التوك شو، الشاب العشريني الذي التقطه إبراهيم جودة ببصيرة نافذة من على صفحات السوشيال ميديا بعد بحث مُدقق كلَّفَ به مرءوسيه الشبان عن صاحب العدد الأضخم من الفولورز واللايكات والشير أيًا كان ما يقوله.

دعاه إلى مكتبه وقدَّمَ له عرضًا يصعب رفضه:

- إنتَ عملت شغل حلو على الفايس والكام موقع اللي بينقلوا مِنَك. كويس بس دي مجرَد بداية.

وناوله علبة باردة من المياه الغازية المستوردة واستطرد:

- أنا مِش هَكدِب عليك يا ابو حميد، إحنا مش أحسن قناة إنترنِت ممكن تشتغل معاها، فيه قنوات تانية أكبر وأغنى مننا، بس دول بيتعاقدوا مع النجوم بَس، وانتَ رغم الشغل الجميل بتاعَك، إلا إن نجوميتك محصورة على السوشيال ميديا، دا انتَ حتى مَحدِش من الفانز بتوعَك يعرف شكلك بالصورة العجيبة اللي انت حاططها بروفايل بيكتشر دي!

العرض بتاعي بقى انَك تسيبلى نفسك سنة، سنة واحدة بَس تاخد خلالها رقم كويِس يرضيك، ومعاه

لقب «الأعلى مُشاهدةً» تتفاوض بيه مع القنوات الكبيرة وانت حاطط رِجل على رِجل بعد السنة بتاعتنا ما تخلص.

- طَب وبالنسبة لـ ... ؟

- (مقاطعًا): هَتقول اللي عايز تقوله. إحنا منبر إعلامى حُر.

كان هذا أقوى من مقاومة الشاب الصغير الذي جاوز العشرين من عمره بثلاثة أعوام بالكاد؛ ليكتشف بعدها أن المنبر الإعلامى حُر بالفعل، ولكن هذه الحرية لا تنسحب إلى العاملين فيه، والخاضعين لسطوة صاحب المال، وأنه –وهو من انبثَت شهرته السوشيال ميدياوية على كتابة وأداء فيديوهات لـ shows لاذعة جريئة تنتقد كل شيء في البلد- مُضطر لتسخير خفة ظله وسرعة بديهته لطرح وجهات نظر ربما تتطابق مع ما كان يسخر منه قبل أشهر على صفحته الفايسبوكية، فوجئ أن سطوته كـ (نجم) لا تمنحه إلا حيزًا ضئيلًا للمناقشة أو الاعتراض سرعان ما تقلصّ خلال أيام قلائل من بدء العمل، واقتصر على مناقشة الإعداد في تفاصيل جانبية بسيطة لا تمَس جوهر الاسكريبت الذي يشرف السيد إبراهيم جودة بنفسه على كتابته.

لم يتسَن لـ (النجم) حضور هذا الاجتماع الطارئ بحكم كونه من القلائل المسموح لهم بالحضور متأخرًا بسبب طبيعة وضعه كمذيع توك شو مسائي، يسهر أحيانًا في الاستوديو حتى ساعة متأخرة من الليل،

وبالتالي أبلِغَ تليفونيًا بالحضور مبكرًا عن موعده بساعات لتصوير الحلقة التي ستُعرَض ليلًا باعتبارها بثًا مباشرًا، وبالفعل هرع من فوره لتلبية أمر رئيسه الذي جلس إلى جوار مخرج البرنامج وباشرَ بنفسه كل صغيرة وكبيرة ابتداءً من موضوع الحلقة وفقراتها واختيار الضيوف والمداخلات الهاتفية، وصولًا للمونتاج وحتى اختيار الفواصل الإعلانية.

قال المُذيع الشاب:

- أعزائي المشاهدين، نتيجة استطلاع الرأي المنشور على صفحاتنا على مواقع السوشيال ميديا: هل تعتقد أن الدولة المصرية قادرة على صَد الموجة الإرهابية الحالية، وتأمين احتياجاتها من الطاقة على المدى القريب والمتوسِط والبعيد؟ الإجابة «نعم» بنسبة ٧٤٪ و«لا» بنسبة ٢٦٪.

(يلتفِت إلى الضيف الجالس قبالته في الاستوديو)

٢٦٪ نسبة مش بسيطة يا دكتور جمال!

- وليها دلالة خطيرة.

- اللي هيَ؟

- اللي هي فقدان أكتر من رُبع المُشاركين في الاستطلاع -واللي هُما عينة عشوائية غير مُسيَسة ممكن نعتبرها بتمثل الشباب المصري- ثقتهم في إدارة الدولة الحالية وقدرتها على مواجهة الأزمات، فضلًا عن إيجاد حلول لها، الرُبع!! وشباب!! يعني ٢٥٪ من طاقتك وإمكاناتك كنظام سياسي فقَدِت فاعليتها وأصبحت

عبء عليك وعلى البلد.

قرأ المذيع الشاب كلمات الاسكريبت الهولوجرامية المنتصبة أمامه بزاوية بعيدة عن حدود كادر الكاميرا:

- وإيه تفسيرك للتراجع في ثقة الشباب في إدارة الدولة؟

- كل اللي احنا فيه دا مِش تفسير كافي؟! إحنا بقالنا شهور بننام ونصحى على أخبار التفجيرات والاغتيالات، حياتنا كلها اتشلّت بسبب نقص الطاقة، الأسعار بَقِت نار، دي مسئولية الدولة العاجزة عن حماية مصادر طاقتها.

- (يلامس السماعة الدقيقة في أذنه): معانا اتصال تليفوني أخير من أحد مُشاهدينا، مساء الخير.

اقترب مُعتز حشاد في هذه اللحظة بذراعٍ مجبورة ووجه منتفخ بآثار الضرب من مدخل الاستوديو، وتمكن من تمييز صوت يارا البديري زميلته الشابة، وقد تلاعب به الكمبيوتر فجعله أكثر امتلاءً ودسامة بما يليق بربة منزل في منتصف العمر.

- مساء النور يا أستاذ أحمد.

- ممكن تعرفينا بحضرتِك؟

- أنا مدام غيداء، ربة منزل.

- أهلًا بيكي، اتفضلى قوليلنا رأيِك في موضوع الحلقة.

من وراء الحاجز الزجاجي، انتظرت يارا إشارة إبراهيم جودة التي أتت بعد ثلاث ثوان بالضبط، ثم قالت بصوتٍ يحمل المرارة:

- أنا عيلتي اتعرضِت من يومين لمحنة صعبة بسبب الأحداث الحاصلة، أختي وضعت طفل، واضطروا يدخلوه الحضانة عشان الولادة جَت مبكرة، بَس بسبب عجز الطاقة الحضانات في المستشفى توقفت عن العمل، ولؤى الطفل الرضيع اللي اختي وجوزها انتظروه سنين، اتوفى بعد ساعة واحدة من دخوله الحضانة (تبكي).

ارتسمَت علائم التأثر على وجهي الضيف والمذيع الذي قال:

- البقاء لله يا مدام غيداء.

رفعَ إبراهيم كفه المفتوحة لأعلى، فقالت يارا بانفعال مُتصاعَد:

- إحنا خلاص مبقيناش قادرين نستحمل أكتر من كدا، احنا بنموت، واللى عايش عايش بيتعذِب، دي مسئولية مين؟! لو المسئولين في البلد مش قادرين يسيطروا يتفضلوا يمشوا وييجي حَد غيرهم!! خلاص! مفيش حَد فـ الحكومة أو النظام أو الجيش يقدر ياخد خطوة جريئة ويريَح الشعب الغلبان من معاناته؟!

«ستوووووووب».

خرجت غاضبة عاتية ارتعدَت لها أبدان الجميع، وتعلقت عيونهم بإبراهيم جودة الذي هَب من مقعده بوجه محمر وعينين تقدحَا شررًا وصاح بصوتٍ هادر مخاطبًا المُذيع الشاب الذي غادرت الدماء وجهه:

- جرى إيه يا ابني؟! أنا مِش قايلَك ومفهِمَك، وهي

بتتكلِم تهِز راسك وتزم شفايفك؟!! تهز راسك وتزم شفايفك ... تهز راسك وتزِم شفايفك ... ايييه؟! آجى اهزهالَك أنا؟!

بينما تنفس الكل الصعداء –بمن فيهم المُخرج المُنكمش في كرسيه- لأن الغضبة جاوزتهم هذه المرة، انسكبَت كلمات الاعتذار من بين شفتي المذيع الشاب من دون أن تحول دون تناثر الشتائم وكلمات التقريع القاسية كالرصاص حتى هدأت العاصفة، وعاد الإمبراطور إلى عرشه

ونقر الشاشة أمامه قائلًا:

- عيدلي تاني من أول البقاء لله يا مدام نيلة!

انتظر معتز لساعة كاملة حتى انتهى التسجيل والمونتاج وخرج إبراهيم من باب الاستوديو ليجده أمامه، بُهِتَ وهو يحدِق في آثار الضرب المتناثرة على وجهه من كدمات وسجحات وخياطة وانتفاخات زرقاء، بالإضافة لذراعه المُضمدة والمربوطة إلى عنقه، ثم لم يلبث أن ابتسم قائلًا برفق:

- حمد الله على السلامة.

هَز معتز رأسه، فقال له إبراهيم:

- تعالى معايا على مكتبي.

في الغرفة ذات الجدران الزجاجية، لم يَمَس معتز المشروب الساخن الذي جلبه له رئيسه، والذي انشغل لدقائق في إجراء مكالمات هاتفية ثم عاد إليه فكرر تهنئته بسلامته وشبك أصابعه أسفل شعيرات ذقنه

مستطردًا:

- أنا أول ما بلغني انك اتمسكت امبارح في الأزبكية، عملت اتصالاتي لغاية ما عرفت مكانك وماسكِتّش لغاية ما خليتهُم يخلوا سبيلَك، اسأل أي حَد هيقولَك في الظروف المنيلة دي مَحدِش بيتمِسك وبيتعرف مكانه – مش بيُخلى سبيله!- في أقل من أربعة وعشرين ساعة.

أطرق معتز برأسه ولم يرد، فجاس إبراهيم ببصره في وجهه المُلوَّن بالأحمر والأزرق والأسود ثم أردف:

- بس واضح انهم مكانوش بيلعبوا فـ الكام ساعة دول!

ساد صمتٌ ثقيل لثوانٍ، قبل أن يرفع معتز رأسه وينظر إلى رئيسه من بين أجفانه المنتفخة ويقول بصوتٍ ضعيف:

- عايز اسأل سؤال.

قال إبراهيم وهو يشعل سيجاره:

- إسأل.

- ليه المُداخلة الأخيرة في البرنامج؟

خرجت الكلمات مدغومة من فك تحملت عظامه الكثير، وحنجرة أنهكها الصراخ والأنين. حدق إبراهيم في مرءوسه الشاب وقد فاجأه سؤاله، قبل أن تنفرج شفتاه عن ابتسامة ذئبية وهو يقول:

- ابتديت تسأل الأسئلة الصَح.

صمت الشاب بانتظار الإجابة، فقال الكهل باقتضاب:

- رسالة.

وأطلق سحابة كثيفة من الدخان ثم استطرد من بينها:

- فيه غبار جوا دواير النظام، جناحين وسط الدوامة دي بيضربوا فـ بعض، متسألنيش عرفت ازاى، الشعر دا (مُشيرًا للشيب على جانبي رأسه) مابيضِش من فراغ، المهم ان تدهور الحال الحاصل فـ البلد سبب من أسبابه ان جزء من السُلطة بيستغل القلق والإرهاب عشان يكوِش، لعبة قديمة وبتنجح.

إحنا بقى دخلِنا إيه بـ دا؟

نظريًا مَلناش دَخل، احنا موقع وقناة شبابية إنترنتية بتقدم خدمة إخبارية، تمويلنا من الإعلانات، الكل عارف إن Egy- Nergy هي اللي شايلانا، مهما حققنا نِسَب مشاهدة عالية تخلينا أصحاب صوت وتأثير عند شريحة كبيرة من المُشاهدين، هَنفضَل برضه بتوع Egy- Nergy.

إنما عمليًا بقى، السُلطة وخصومها عارفين كويس ان الواقع اللي الناس بتصدقه بيتعمل هنا (يشير للشاشة الهولوجراميّة) مش فـ مكان تاني، المداخلة التليفونية اللي انت سمعتها والحلقة كلها كانت عبارة عن استمارة تقديم على وظيفة مفادها: إحنا اهو. وممكن تعتمدوا علينا.

السُلطة مش هتمولنا ... لكن هَتأمِننا ... ولو حصل والسُلطة الحالية خرجت من الصراع دا على خير، فاحنا كنا بنشوف شغلنا في تغطية المُمَوِل بتاعنا اللي هي مَتستغناش عنه، ولو اللعبة نجحت وجَت سُلطة جديدة

فاحنا هَنبقى الناس بتوعها اللي عرفوا يراهنوا عليها ووقفوا معاها وقت الصعب ...

أنهى حديثه وصمت يدخن سيجاره من دون أن ينزع عينيه عن عيني مرءوسه، وكأنما يرصد أثر كلماته على وجهه ...

قال معتز بعد هنيهة:

- إنت مِش فارقة معاك حاجة خالص؟

بدا السؤال في إسلوبه ومحتواه مفاجئًا غير معتاد فيما بينهما كمرءوس ورئيس من أحاديث، غير أن إبراهيم ابتلع المفاجأة بسرعة وأومأ لوجه الشاب قائلًا:

- إنتَ بعد اللي حصلّك فارقة معاك حاجة؟

عاد معتز للصمت مُجددًا، فتنهد إبراهيم وقال:

- خُدها قاعدة يا ابني من واحد أد ابوك، الناس كلهم ولاد كلب، كلهم بلا استثناء ... الغني زي الفقير، الابيض زي الاسود، الكبير زي الصغير، الراجل زي السّت، المؤمن زي الكافر، الحكومة زي المعارضة، كله ساعة الجَد بيقول يلا نفسي، فمَتخليش ولاءك غير لنفسك. لمستقبلك. لا تقولى قِيَم ولا وطن ولا أخلاق ولا حتى دين. اهو انا مسلم وحاجج بيت ربنا وبقولَك كل الدين اللي اتعلمته فـ بيتكو وفـ المدرسة والجامع دا مش دين!

أطلَت نظرة متهكمة لأول مرة من بين الجفون المتورِمة، فتابع إبراهيم بجدية:

- اضحَك براحتك، بس دي الحقيقة! الدين يا ابني هو الصِدق مع النفس، مكانش النبي قال المؤمن يسرق

ويزني ولا يكذب، أنا مابمثِلش لا على نفسي ولا على غيري، عشان كدا أنا أنضف واحد ممكن تقابله فـ الشغلانة بنت الوسخة دي.

نقرَت الباب الزجاجي السكرتيرة ذات الملامح الآسيوية ثم دخلَت حاملة قدحًا خزفيًا يتصاعد منه البخار.

- أنا عايزَك تتجاوز التجربة اللي مريت بيها دي بسرعة يا معتز، انت كنت محتاج خبرة قاسية تخلصَك من شوية المراهقة اللي لسه جواك، خبرة ترسم النظرة اللي انا شايفها فـ عينيك دلوقتي، عارف أنا بَفكر فـ ايه؟

نظر له معتز مستطلعًا، فقال:

- بَفكر اعمِلَك توك شو، بجد والله! إنت لو ظهرت للمشاهدين بشوية اللخبطة اللي فـ وِشَك دي هَيصدقوا أي حاجة تقولها، هَتبقى المُناضل الثوري اللي دفع تمن مواقفه، نجم بجَد مش زي الأراجوز اللي قاعد بره فـ الاستوديو.

احتفظ وجه معتز بتعبير ثابت محايد خالٍ من أية انفعالات.

- (مبتسمًا): دا غير التعاوير والجروح بيعملوا شغل حلو مع المُزَز، كدا ولا إيه يا رشا؟

ابتسمت السكرتيرة التي كانت قد وضعت القدح الخزفي على سطح المكتب ووقفت تتابع المحادثة عن كثب، وقالت بلهجة عابثة وهي ترمق معتزًا:

- بَس تكون التعاوير من فوق بَس يا مستر إبراهيم.

- وسخة!

قالها إبراهيم مجلجلًا بالضحك، وشاركته سكرتيرته بضحكة مُتهتِكة، في حين ظَلَت الشفتين المتورمتين على حالهما.

***

قاربَ زمن الـ break على الانتهاء من دون أن تتحرك هِند شعلان من وراء مكتبها بمقر عملها، والذي أوصدت بابه الزجاجي بإحكام. الهالات السوداء حول عينيها، ومنفضة السجائر إلى جوارها مُمتلئة بالأعقاب المُحترقة، تأملَت الشاشة الهولوجراميَّة المُنتصبة أمامها بعينين فاترتَين أنهكهما الملل والإحباط.

مَدَّت طرف سبابتها لتنقُر الصورة الهولوجراميَّة لتنزاح وتَحِل محلها أخرى، سرعان ما أُزيحَت بدورها بنقرةٍ أخرى.

توهَجَ طرف السيجارة بين شفتيها المضمومتين، ثُمَ انهمر الدخان الأبيَض من طاقَتَي أنفها الدقيق، قبل أن تنقر الشاشة مُجددًا فوق أحرُف الـ Customer Service هذه المرة، فتمُر ثوانٍ تمتلئ الشاشة بعدها بصورة متوسطة لموظفة خدمة العملاء، الشابة العشرينيَّة الجميلة ذات الملامح الآسيويَّة والتي حيَّتها بابتسامة جذابة، وحدثتها بالانجليزيِّة، فعرَّفتها باسمها –مالا- وسألتها عمَّا يمكن أن تفعله لمُساعدتها.

أجابت هِند بالإنجليزيَّة:

- لم أجِد طلبي.

سألتها الشابة بتهذيب:

- هل بإمكانِك أن تشرحي لي طلبِك؟

ولزمَت الصمت طيلة الثواني التي استغرقتها هِند بين التفكير المُتردِد وإطلاق الدخان، قبل أن تقول:

- طلبي هو ... السعادة.

قالت مالا:

- كثيرات عَثرنَ على السعادة بفضل مُنتجاتنا.

- ولكنني لم أفعل.

- هل يمكنك أن تشرحي لى مفهومِك للسعادة؟

صمتت هِند مُفكرة للحظات ثُمَ قالت:

- علاقة حقيقيَّة.

قالت مالا بثقة:

- العلاقات الجنسيَّة الحقيقيَّة مُتاحة ضمن مُنتجاتنا بفضل جهاز RSL٠١٢ ونُسخته المُحدثة RSL٣٠٠ والتي تُتيح علاقة افتراضيَّة تفاعليَّة كاملة بين شريكين -أو أكثر- من المُسَجلين على موقِع الشركة حول العالم، وبدرجة مُحاكاة حسيَّة وشعوريَّة ١٠٠٪ بفضل الـ ...

قاطعتها هِند مُلوحة بطرف سيجارتها الذي تطايرت من شذرات من الرماد:

- أمتلِك هذا الجهاز، وخُضت هذه التجربة مرتين أو ثلاثة.

وهَزَت رأسها مُردِفة:

- كانت زائفة.

ردَدَت مالا من دون أن تفقد ابتسامتها:

- زائفة!

أومأت هند:

- في لحظات الذُروة، كُنت واعية تمامًا؛ لأنني وحدي في فراشي وبيتي، وأن الأصابع التي تداعب جسدي

هي مجسَّات الجهاز، وأنَّ ما يهتز بداخلي ليس إلا أنسجة صناعيَّة تُغلِّف حِزمة من الألياف القابلة للتمدُّد وفقًا لأوامر كمبيوتر الجهاز التفاعُلي، واللُهاث والفحيح وكلمات الغزل والشتائم البذيئة التي تتردد في أذني هي في واقع الأمر تَصدُر من شريك على بُعد آلاف الأميال من جسدي.

رمقتها مالا باهتمام وهي ترفع السيجارة بأصابع مُرتعشة إلى شفتيها وسألتها:

- أنت لا تُفضلين العلاقات الافتراضيَّة التفاعُليَّة من الأساس.

- لَم تُحقِق لي ما أصبو إليه.

- وماذا عن العلاقات الحقيقيَّة؟ أقصد مع شريك له حضور فيزيائي.

- (بضجر): لم تَعُد تجدي أيضًا.

- لِمَ؟

هزَت هِند كتفيها وهي تجيب:

- لا أدري، ربما لَم يَعُد الرجال يملكون ما يُقدِّمونَه.

وعادت للشرود قليلًا، ثم استطردَت بعينين لامعتين وكأنما تُكلِّم نفسها:

- كُلهم، مهما ثرثروا وتظرفوا وتظاهروا بالانفتاح والتعاطف والفيمنستيَّة، كلهم يبحَث عن ثُقب يتبول فيه لا أكثر.

تساءلت مالا:

- هل أنتِ مُتزوجة؟

لوحَت هِند بكفها بازدراء التقطته مالا المُدربة على دراسة وتقييم عملائها، فصمتت للحظة ثُمَ عادت تسأل باهتمام:

- وماذا عن الحُب؟

ابتسمَت هِند مُجيبة بسخرية:

- ماذا عنه؟

التمعَت عينا مالا المائلتين وهي تنصت فيما تابعت هِند بمرارة:

- لم يعُد الرجال قادرين على الحُب يا صغيرتي، هذه حِكمة من امرأة تَكبُرِك بخمسة عشر عامًا على الأقل.

اتسعت ابتسامة الشابة وهي تومئ قائلة بغموض:

- يُمكنني أن أرى، مسز شعلان.

***

مع اكتمال شبكة خطوط القطارات السريعة بين المحافظات المصرية قبل سنوات، انخفض الإقبال على استخدام الطرق البرية التقليدية بشكل ملحوظ، وذلك بسبب المزايا الكبرى التي تتيحها القطارات الكهرومغناطيسية السريعة من تقليص زمن الرحلات بين المدن والمحافظات، واحتوائها على كافة وسائل الراحة والرفاهية والتسلية، الأمر الذي جعل من الرحلة في حَد ذاتها متعة، بالإضافة إلى الاستيفاء الكامل لشروط الأمان وفقًا للمعايير الدولية، وبخاصةً أن بعض هذه الطرق البرية القديمة يخترق مساحات شاسعة غير مأهولة من صحراء مصر الشرقية والغربية، ومنها ما لا يبعد كثيرًا عن مستعمرات الهَمَج والمتوحشين من سكان الصحراء.

كل هذه العوامل، بالإضافة طبعًا لانتعاش حركة الطيران الداخلي، أدَّت إلى هجرة شبه جماعية من هذه الطرق الأسفلتية التي خدمَت البلاد والعباد لعشرات السنين، فأغلِقَ بعضها وقررت الدولة الاحتفاظ بالبعض الآخر في الخدمة لاستخدامها في أغراض نقل البضائع ومُعِدات ومركبات الجيش، الأمر الذي استلزم إعدادًا وتأمينًا وصيانة دورية تحملت عبئهم بالكامل الهيئة الهندسية للقوات المسلحة.

وبالرغم من أن طريق القاهرة- الغردقة الذي يربط العاصمة بهذه المدينة الساحلية الجميلة الواقعة على

شاطئ البحر الأحمر، واحدُ من هذه الطرق التي تم تحديثها وِفق أحدث المواصفات العالمية إلا أنه ظل دومًا يحمِل لقب «الطريق القديم»، واقتصر استخدامه لسنوات على الأغراض العسكرية والتجارية.

لذا كان عجيبًا غير مألوف، وبالذات في هذا اليوم الغائم المُنذِر بطقس غادِر، أن يرى موظفو الكارتة القائمة على مُفتَتح الطريق، ومعهم عساكر الجيش المنتشرين حولها بأسلحتهم، سيارة مدنية تقترب من إحدى مدخل الكارتة المقطوع عرضيًا بحاجزٍ من الصلب.

توقفت أمام أحد شبابيك الكارتة يطل منه موظفٌ خمسيني، ثم لم يلبث الزجاج الفيميه الداكن أن انزاح لأسفل؛ ليظهر من ورائه السائق صاحب الملامح الحادة والشعر الأبيض الطويل المعقوص في خصلة واحدة طويلة وراء الرأس، والسيجار المشتعل بين شفتيه المحاطتين بلحية بيضاء.

- الغردقة.

قالها السائق باقتضاب من دون أن يتخلى عن السيجار المحشور بين فكيه، وهو يمد يده ببضعة وريقات مالية، بينما دار اثنان من الجنود في ثياب الجيش المموهة حول السيارة بأجهزة الكشف عن المتفجرات.

تساءل الموظف وهو يومئ برأسه للسماء الرمادية المُلبدة:

- فـ الجو دا؟!

لم يرد الكابتن خالد فضالي عليه، وإن ظلَت يده ممدودة بالوريقات، فقال الموظف بلهجة رسمية:

- تبَع ايه؟

أومأ الكابتن خالد إلى لوجو E. N. المُلصَق على زجاج السيارة الأمامي مجيبًا:

- Egy- Nergy.

- Egy- Nergy بيدفعوا رسوم الكارتة أونلاين!

أضاف خالد وريقتين أخريين إلى الوريقات الممدودة وهو يقول:

- السِستِم واقع.

تناول الموظف منه المال، وضغط أزرار حاسوبه لثوانٍ، ثم ناول خالدًا بطاقة ممغنطة دقيقة قائلًا:

- خلي بالك، الراديو بيقول ان الجو لسه هيقلِب أكتر.

- شكرًا.

كان هذا هو آخر ما سمعه الموظف قبل أن ينغلق الزجاج الفيميه تمامًا، ثم تنطلق السيارة مبتعدة بعد أن انزاح الحاجز المعدني الذي يَسُد مخرَج الكارتة.

- أشكال وِسخة!

قالها الرجل وهو يدس الوريقتين الماليَّتين في جيب سترته، ألقى نظرة سريعة أخيرة على «السِستِم» السليم تمامًا على الشاشة، ثم تراجع ليسترخي في مقعده.

أما الكابتن خالد، فقد تأكد من ضبط بيانات السرعة والمسار والزمن على كمبيوتر السيارة، ثم لم يلبث أن استرخى في مقعده، وأسبل جفنيه تاركًا قيادة سيارته

التي نهبت سيارتها أسفلت الطريق بسرعة مائتين وخمسين كيلومتر/ ساعة، للسائق الآلي ...

***

في المعتاد، لا تتسبَب تقلبات الطقس في تعطيل أو تأخير أو إلغاء الرحلات الجوية، وذلك مع إدخال أنظمة الملاحة المتطورة والمؤهلة للتعامل مع أعتى الظروف الجوية والفنية، وتولي قيادة الطائرة في حالات الطوارئ القصوى نيابةً عن الطيار، ومساعده لو استلزم الأمر لتأمين هبوط الطائرة بالركاب مهما ساءت الظروف، غير أن نُذُر الاضطرابات الجوية المقبلة وتحذيرات الأرصاد، وجو التوتر العام المخيم على الأجواء بسبب الأعمال الإرهابية الأخيرة وبخاصةً حادث قطار شرم الشيخ المروِّع قبل أسابيع، والذي ألقى بظلاله الداكنة على قطاع النقل بكامله، كل هذا دفعَ مسئولي مطار الغردقة الدولي –أحد أكبر محطات الترانزيت في العالم بحكم الموقع والتجهيزات- لتأجيل إقلاع الرحلات المتوجِهة إلى عددٍ من بلدان العالم، ومنها الرحلة المتوجهة إلى مطار القاهرة والتي كان من المفروض ألا تستغرق أكثر من عشرين دقيقة ...

وهكذا ربَضت الطائرات المدنية مختلفة الأحجام والجنسيات كطيور عملاقة أمام ممرات الإقلاع، وتحت سماء رمادية غاضبة تزحف الغيوم عليها بسرعة، وتكدسَ الركاب في صالات الانتظار والوصول، وانتشروا في الممرات والكافيتريات، ومنهم زين الذي استقر في مقعده وسط الزحام يرمق –من وراء الجدار الزجاجي العظيم لصالة الركاب الرئيسية- الأمطار التي

راحت تضرب الأرض وأجساد الطائرات المتراصة عليها، وعُمال المطار يهرولون تحت وابلها داخل سترات الووتر البروف، بينما ذهنه مُنصرِف بالكلية لـ أمل التي تركها خلفه في المنزل الآمن بالكومباوند المُتاخِم للغردقة.

- مستحيل!

- المستحيل انك دلوقتي تخالف التعليمات.

- التعليمات اللي عندي انى بعد ساعات هَكون ضِمن القوة اللي هَتجتاح مزرعة الفرافرة.

*- التعليمات الجديدة اللي بَقولهالك من الـ **source** نفسه.*

- (بإصرار): مَليش فيه، انا مش مَرمي فـ الصحرا بالشهور بَصمّم برامج التدريب وخِطط اقتحام المزارع عشان ساعة الجَد اهرَب يا أمَل.

- (بصوت مُنهَك): مِش هروب يا زين! دا دورَك الجديد.

- دوري أنا عارفه كويس.

- الظروف اختلفِت، فيه أبديتس.

- أعرفها.

- مَينفعش!

- أفندِم؟!

- زين، هوَ فيه ايه؟! انت من إمتى بتحَدِد وبتختار دورَك؟!

- أنا مِش عسكري عندكم!

- أومال عملت كل اللي عملته دا على أساس إيه؟!

- لسه قايلِك انه عشان...

- (تنظر له بعتاب): ... ...

- عشان خاطرِك.

يسترجع وجهها الشاحب وملامحها المُجهَدة، عينيها الحزينتين اللتين تحملان لازالتا بقايا دموع.

- مش هَقدَر اسيبِك وانتي كدا!!

- لو عايز ترضيني فعلًا لازم تتحرك حالًا.

- مِش هيحصل!

- زين! من فضلك!

«تتقدم إدارة مطار الغردقة الدولي للسادة ركاب الرحلات المُنطلقة من المطار باعتذارها عن تأخر قيام الرحلات، وذلك حرصًا على سلامتهم بسبب سوء الأحوال الجوية، وتنوه بأن تأجيل الرحلات سيمتد لأجلٍ غير معلوم، حتى توافينا بيانات مُطمئِنة من الهيئة العامة للأرصاد الجوية، كما تنوِه الإدارة إلى استعدادها لتقديم كافة الخدمات المتاحة لتيسير فترة التأجيل للسادة الركاب، بما في ذلك خدمات الحجوزات على نفقة الإدارة في فنادق الغردقة، وشركات النقل البري للسادة ركاب الرحلات الداخلية».

تكرر النداء باللغات العربية والانجليزية والفرنسية والإسبانية والروسية والعبرية مرات ومرات عبر مكبرات الصوت المنتشرة في أرجاء المطار، وفي كل مرة يُصاحب النداء جلبة ضخمة حركية ولسانية بلغات مختلفة.

- رِفعَت هو مهمِتَك الأساسية دلوقتي يا زين، مفيش حَد هَقدَر استأمنه عليه غيرَك.

- المكان؟

- أي مكان سري خاص بيك محدِش يعرفه.

- حتى انتي؟!

- بالذات أنا.

- كلامِك دا زوِد قلقي!

- متخافش، أنا فـ أمان.

- مِش مقتنع.

- (بابتسامة شاحبة): بَس هَتنفِذ عشان بَطلب مِنَك.

- (يتنهَد): هَطمِن عليكى إزاي؟!

- (تربت على وجنته): هَوصلَك في المكان اللي أنتَ فيه.

- (يحتضن كفها بين أصابعه ويلثمها).

- مفيش وقت، إوعدني.

- بـ ...؟

- إنك تحافظ على الأمانة اللي هَسلِمهالَك.

أدار زين عينيه ليرمق رفعت المستكين في المقعد المجاور لمقعده في صالة الانتظار.

ضئيل، جامدٌ كتمثال، ظهره مستقيم، كفاه متعانقان في حِجره، وجهه الدقيق الذي يختفي أغلبه خلف منظارٍ داكن عريض شاخِص للأمام، وكأنه مُستغرقٍ في تأمل الأمطار الغزيرة عبر الزجاج؛ إذ تؤرجحها الرياح العاصفة في ساحة المطار المفتوحة.

- رفعت، انت هَتِنزِل مع زين دلوقتي ...

لم يحرِك ساكنًا منذُ استقر في مقعده وكأنه متوحد، مُنفصلٌ بكيانه عن الصخب والضجيج المحيطين، غير أن مشاعر الخوف والرعب كانت تصله بسلاسة من الآلاف المتكدسين حوله، يسمع أنينهم وأنفاسهم الثقيلة ودقات قلوبهم، تفور حمم الكراهية في أعماقه، ويلجم نفسه بصعوبة عن إطلاق عنان مارِدَهِ من القمقم ليُجسِّد مخاوف وكوابيس هؤلاء الكلاب -بمن فيهم زين نفسه الجالس إلى جواره- حتى تتوقف قلوبهم عن النبض من فرط الرعب.

صوت أمل لا يزال عالقًا بأذنيه.

- أنا عارفة انَك مَبتثِقش فـ حَد غيري، بس انا عايزاك تثِق في زين.

يذكر جيدًا أنه تفرَّس آنذاك في ملامحها بخليتيه البصريتين من وراء منظاره الداكن، في علامات الحزن والإرهاق المضاعفة على تضاريس وجهها، ونظرة الهلَع في عينيها –هو وحده يستطيع التقاطها- والتي بدَت له دعوة صريحة لم يتردد في تلبيتها.

- عايزاك تسمع كلامه فـ أي حاجة يقولهالَك.

في نفس اللحظة كان يقرأ سجلاتها الأكاشية، تحرك على عجالة بين المخاوف العادية الصغيرة التي تمرح بين صخور الكهف الذي تداري فيه أمل مخاوفها؛ خوف من الفئران، خوف من العناكب، خوف من الحُقَن، إلخ ... تجاوز كل هذا بخطوات أقرب للعدو، وإن أثار انتباهه

أن كهفها يبدو هذه المرة، على عكس المرات التي زاره فيها من قبل، أكثر إظلامًا، ورائحته أكثر عطنًا عما اعتاده.

ثمة شيء ما مختلف هو السبب في نظرة الهلع التي استقرت في عيني أمل، وميزها هو بوضوح منذ دخلت عليه حجرته، شيء شرير يعرف هو جيدًا كيف وأين يجده ...

- هياخد باله مِنك ... وعايزاك انت كمان تاخد بالك منه ...

وصل بسرعة إلى هدفه.

الباب الخشبي الضخم الذي ينتهي إليه الكهف، والذي يختفي وراءه الكابوس المروِع الذي يؤرِق أمل ويرسم نظرة الرعب في عينيها.

الظلام هنا أشد كثافة، وأصوات أنين وأنفاس ثقيلة تتردد في كل شَق من شقوق الكهف حول الباب.

بلا تردد هذه المرة رفع كفه ليمسح على أخشاب الباب الجافة، وعلى الفور لمح من وراءه أمل وقد عاد بها الزمن امرأة جميلة في منتصف العمر، عارية إلا من ملاءة قديمة تضم أطرافها لتستر عريها، الرعب مطبوع على ملامحها، تحيط بها نيران هائلة من جميع الجهات تلفحه حرارتها، وأعاصير من دخانٍ أسوَد حالك السواد، وثمة أصابع قوية مُلتفة حول عنقها تعتصره فتجحظ عيناها ويتدلى لسانها خارج شفتيها.

- (بتوتر شديد): فيه خطر بيقرَّب، خطر شديد.

زحف ببصره من الأصابع المُلتفة حول عنقها إلى الذراع، المِنكَب، العنق.

ببطء، التفت الرأس إليه. التقت عيناهما.

- خطر مَحدِش يقدر يصدُه غيرَك.

ولأول مرة منذ اكتشف قدرته على نبش مخاوف الآخرين وتجسيدها وهمًا ذي ملمَس ولون ورائحة، سَرَت رعدة في بدن رفعت.

- بس مش دلوقت، أما تبقى مُستعِد.

ملامحه قاسية ذات طابع شيطاني مخيف، وقد انعكست عليها ألسنة اللهب المُحيطة به، وبأمل التي تحشرج صوتها والتفَت أصابعها حول معصمه في مُحاولة للتحرر من قبضته، وحول أحدها لمحَ تلك الدبلة الفضية اللامعة ...

- ولما يِحصَل، هتحتاج دي.

كان يحدِق في الدبلة الفضية المستقرة في كفها المفرودة، ورغم أنها بَهتت وفقدت بريقها، إلا أنه لم يبذل جهدًا ليعرف أنها نفس الدبلة التي رآها حول إصبعها قبل ثانية واحدة داخل كهف مخاوفها.

- ***رفعت.***

- ***(يحدق صوبها) ...***

- إنتَ أملي الوحيد. مش انا بس، أمل كل اللي بيتعذبوا العذاب اللي انت اتعذبته جوا مكَن الشركة، هَعتمِد عليك؟

رده كان عمليًا، تناول منها الدبلة ودسها في إصبعه.

مجرد ذكر الابتسامة الدافئة التي ارتسمت على شفتيها آنذاك وأصابعها التي ربتت على وجنته بعث شيئًا من الطُمأنينة داخل قلبه، بينما هو جالس وسط آلاف الغرباء في صالة المطار.

أما زين، الذي انمحَت خبرة صدامهما القديم -في جراج داندي مول قبل عام- من ذاكرته الواعية، وإن لم ينمحِ معها شعوره بالانقباض تجاه هذا «الشيء» صاحب القدرات المخيفة، والذي أوصته به أمل الحبيبة خيرًا، فقد عاد ببصره إلى مشهد غضبة الطبيعة بالخارج.

ومضَ البرق فانعكِس وميضه على الوجوه والموجودات، ولكن هزيم الرعد المكتوم من وراء الجدار الزجاجي العازل ضاع وسط ضجيج الآلاف والشاشات الهولوجرامية التي تبث أغنيات ومواد ترفيهية ودعائية للمناطق السياحية على سواحل البحرين الأبيض والأحمر، والآثار ومنتجعات الواحات، استجابةً للأوامر المُشددة بحظر بث القنوات الإخبارية في المطارات المصرية، كي لا تؤثر أخبار الاضطرابات والتفجيرات والمظاهرات على حركة تدفق السائحين على مصر.

- ***مفيش وقت، إوعدني.***

- ***بـ ... ؟***

- ***إنك تحافظ على الأمانة اللي هَسلِمهالَك.***

تنهد.

حاضر يا أمل، حاضر.

لن يمسه سوء.

هذا وعد.

***

ساعة كاملة انقضَت على أمل الشافعي جالسة إلى أحد المقاعد بالشرفة الرئيسية للشقة التي اتخذتها ملاذًا آمنًا وِفقًا للبرنامج الأمني المُصَمَّم لتضليل أي جهة تسعى خلفها.

ساعة كاملة مَضت منذ لوَّحَ لها زين بذراعه من نافذة التاكسي المُنطلِق به وبرفعت للمطار قبل أن يغيب عند ناصية صَف العمائِر، استقرَت في مقعدها غير شاعرة بالوقت ولا بالبرد الذي صَاحَب تكاثف الغيوم الرمادية، ثم بدأ تساقط قطرات خجولة من المطر، حول كتفيها النحيلين التفَّ شالٌ من الصوف، بينما تحجرَت الدموعُ في عينيها الشاردتين ...

لم ينزعها من شرودها إلا التماع البرق الذي انعكس على شعرها الفضي القصير، رَفَعَت عينيها لأعلى، للسماء الرمادية الداكِنة التي أغلقت غيومها كل مَنفذ تتسرب منه شمس العصاري، ومنها انهمرَت زخات غزيرة من الأمطار.

بَدَت وكأنها انتبهَت لبرودة الجو لأول مرة على إيقاع هزيم الرعد، ضمَت الشال أكثر حول كتفيها، ونهضَت لتقترب من الدرابزين المصنوع من الفيرفورجيه المشغول بالليزر، أغرق المطر المنهمر وجهها وشعرها وثيابها في ثوانٍ، غير أنها لم يبدُ عليها أي رد فعل وكأن شيئًا لم يحدث.

تجمدت في وقفتها، ترمق المشهد المفتوح أمامها

والذي تسيدته الأمطار بجدارة جعلت الشوارع الخالية من المارة أشبه بمجارٍ مائية.

جسدها يرتعش من تحت ثيابها المبتلة وأسنانها تصطّك من البرد، بينما عيناها مُثبتتان على مدخل الشارع المؤدي للمجاورة السكنية التي تقع فيها بنايتها.

كلمات نظيم الدين كمال –الديك الرومي- لا تفارق أذنيها:

- خسرنا محمودًا، أمل.

الغيوم الرمادية الكئيبة تحتشد، والدنيا تزداد ظلمتها.

- ليس هذا كل شيء.

المطر، وميض البرق، المطر، هزيم الرعد، المطر، الهواء المثلج، المطر،

جسدها يرتعش، يرتعش.

- ما سأخبرك به الآن.

كم من الوقتِ كان قد مضى عندما لمحَت أضواء المصابيح الأمامية لتلك السيارة تفترش الأرض الغارقة عند مدخل الشارع؟

لم تَدرِ، فعليًا كانت قد انفصلَت عن البرد ورذاذ المطر والمكان والزمان وارتدَت بوعيها ساعة إلى الوراء، ليظل صدى صوت نظيم يتردد بين جنبات عقلها.

- أعلم أنه سيؤلمك.

وكأنما استردها من أثير الذكريات، مرأى هذه السيارة الهامر السوداء التي انزلقت عجلاتها ببطء بين مياه البحيرة التي تحول الشارع إليها.

- ولكنني مُضطر.

زال عنها جمودها، ضاقت حدقتاها وهي تحاول التغلب على خيوط المطر المنهمرة من بين الخصلات الفضية الملتصقة بجبينها، واختراق الهواء الرمادي والزجاج الفيميه الداكن ببصرها لتسترق النظر إلى ركابها.

لم تميز شيئًا بطبيعة الحال، وإن أنبأت بالعكس قبضتها المعروقة المتقلصة على حديد الدرابزين، واصفرار وجهها، ورعشة شفتها السفلى، وأنفاسها المتلاحقة التي غادرت صدرها شحُبًا من البخار الأبيض.

انطفأت أنوار مصباحي السيارة، وإن ظَلَّت المساحات تزيح قَطر المطر عن زجاجها الأمامي بلا كلل.

هنا، استدارت أمل عائدة إلى داخل الشقة.

انزلق مصراعي الباب لينغلقا أوتوماتيكيًا بعد دخولها بثوانٍ معدودة لم تمنع اجتياح الهواء البارد ورذاذ المطر لفراغ المعيشة الدافئ، الأمر الذي دفعَ كمبيوتر الشقة لرفع درجة حرارة التكييف المركزي لمعادلة الحرارة واستعادة الدفء الذي خدشته الرياح والأمطار خلال هذه الثواني القليلة.

- هذه الأرقام أملِك وأملنا الوحيد يا أمل، فهمتيني؟؟

سارت بقامة محنية يقطر منها الماء، خطواتها متثاقلة وكأنما ناء كاهلها بعشر سنوات فوق سنواتها الستين، دلفَت لغرفتها، فأبدلت ثيابها المبتلة بأخرى جافة،

توضأت بالماء الدافئ وأحاطَت رأسها بحجاب بسيط، ثم آوَت إلى مقعدٍ وثير مجاور لفراشها.

- كلمة السِّر هي Plan B.

التمع وميض البرق من وراء الستارة التي تغطي النافذة الزجاجية التي تتوسَط أحد جدران الغرفة، أعقبه هزيمٌ للرعد أقرب لزئير الضواري.

تناولَت مُصحفًا من على الكومود، فتحته، وعلى ضوء الأباجورة بدأت تقرأ بصوت خفيض مبحوح.

بدأت الدموع تتكور ثم تنسال من عينيها.

«بعد أن أتيا شهوتهما الأولى، فوجِئَت به يمد أصابعه ويمسد أسفل عينها متسائلًا برفق: دموع!» ...

تهانَفت عاجزة عن التلاوة.

- عارفة، حاجتين، مش عايزة اعرف غيرهم ...

- اللي هُما؟

- إنك أدهم.

نبض قلبها بعنف عندما سمعت صوت باب الشقة الخارجي إذ ينفتِح.

- واني بَحِبّك.

أغمضت عينيها الممتلئتين بالدموع.

- في اللحظة دي مش عايز اشوف أو افتكر واحدة غيرك ...

صوت خطوات ثقيلة واثقة تقترب ...

رجفة لا إرادية انتابَت أصابعها، بينما الدموع الصامتة تنهمر بغزارة أكثر.

- والله العظيم ...

لم تشعر بانطفاء ضوء الأباجورة المجاورة لها، وأنوار الإضاءة الذاتية بالبيت كله.

الخطوات تدنو أكثر وأكثر.

الرجفة تنتشر في جسدها كله.

أغمضت عينيها بقوة أكبر.

انخفض صوتها وتهدج وهي تردف:

- إنتَ أدهم!

الخطوات تتوقف.

حدق في وجهها، غاص في عينيها السوداوين.

الباب ينفتح ببطء.

بسمة حانية تسللت إلى شفتيه.

من دون أن تتوقف عن الانتفاض، فتحت عينيها ببطء.

- وانتى أمل.

الضوء الشحيح المتسلل من بين ثنايا الستارة لم يساعدها على تمييز ملامح صاحب الجسد الممشوق الذي يسد فتحة الباب.

تضرخ وجهها بحمرة خفيفة.

مُجددًا، لمع وميض البرق فوقع على الملامح، ورُغمًا عنها غادرت الشهقة أعماق قلبها ليبددها هزيمُ الرعد الأقرب لزئير الضواري.

- أملي!

وفي اللحظة التالية، شعرت بضغطة قوية أسفل

أذنيها، وكأن أصابع خفية تلتف حول مؤخرة عنقها، وتضغط.

ثم أظلم المشهد تمامًا أمام عينيها.

***

(قبل أربعة سنوات) ...

- آلو.

- ازيّك يا حياة؟

- هاني؟

- كويس انِك مانسيتيش الصوت.

- ايه النمرة دي؟!

- مادام مِش بتزُدي على نمرتي!

- ... ...

- عايز اشوفِك.

- بَس انا ...

- انا خلاص الماسِدج وصلتني، وكل اللي بَطلبه إني اشوفِك one last time.

- ... ...

- رُبع ساعة مِش أكتر.

- ... ...

- حياة، اللي كان بيننا يستاهل نهاية أشيَك من كدا.

- (بعد لحظات من الصمت): أوكاي. إمتى وفين؟

- كوستا الداون تاون بعد الشغل، يناسبِك؟

- يناسبني.

ذهبت إليه وهي على أتم استعداد، استجمعت شجاعتها خلال الدقائق الذي استغرقها المشوار من مقر الجورنال الإلكتروني إلى الداون تاون، وعززتها برغبتها الجادة في اتخاذ هذه الخطوة التي تأخرت

كثيرًا، وظلت تنخسها وتعذبها طيلة الأشهر الثلاثة الماضية، وبالذات خلال الأسابيع الأخيرة التي امتنعت فيها عن الرد على مكالماته الهاتفية، وتجنَّبَت لقاءاته.

في جلستها إلى الأريكة الخلفية لسيارة أوبر التي تقطع شوارع باراديس هايتس إلى المول الضخم، راجعت كلماتها التي أعدتها واختارت أن تكون قليلة ومُحددة وقاطعة، بحيث لا تفتح أبوابًا للمراجعة أو الابتزاز العاطفي رغم علمها بأن رفيقها ليس من هذا النوع، هذه النقطة تحديدًا كانت مبعث توترها الحقيقي، فلو كان هاني مراهقًا أو لزجًا أو سافلًا لكان هذا قمينًا باستدعاء رصيد القسوة، وتيسير قطع كل ما تبقى من الخيوط بضربة واحدة، تعود بعدها لنفسها ولعالمها حُرة بلا قيدٍ أو ضغط، ولكنها تعرف أنه ليس كذلك، وأنه ناضج نبيل عزيز النفس، بالإضافة لذلك فهو ذكي، ويحبها، وكلها أمور تزيد من صعوبة المواجهة.

ورغم استعداداتها والسيناريوهات التخيلية التي دارت في ذهنها، إلا أن ما أذهلها هو تبخر كل ما أعدته من ذهنها بمجرد رؤيته ينهض لاستقبالها من وراء تلك المنضدة الصغيرة في ركن الكافيه الشهير، تداعت أعمدة وأساسات شجاعتها وهي تصافحه ثم تجلس قبالته.

- مبروك الشغل.

- الله يبارك فيك.

قالتها مُتحاشية التقاء عينيها بعينيه.

- مبسوطة هناك؟

- الحمد لله.

النادل الشاب يصب الكولا في كأس طويلة ممتلئ قاعها بمكعبات الثلج.

- (مبتسمًا): انتى أكيد النجمة بتاعتهم دلوقتي.

رفعت عينيها لترمقه، ثم قالت بخفوت:

- كان المفروض تبقى جنبي.

قال بهدوء:

- ريبورتاج آدم المصري كان بتاعِك.

- بتاعنا! انتَ كنت معايا خطوة بخطوة.

ابتسم بزاوية فمه وهز رأسه قائلًا بشيء من المرارة:

- مِش صحيح، وانتى عارفة.

صَمتت وقد مستها مرارته، وخَط بينهما صمتٌ ثقيل لم تخدشه الضجة والثرثرة والضحكات القادمة من الموائد الأخرى.

«أرجوك يا هاني، ياللا!». ترددت في عقلها وقلبها بنبرة متوسلة.

قال أخيرًا وكأنه سمع توسلها:

- هوَ آدم المصري؟

ظلت جامدة مُطرقة الرأس كتلميذة مُذنبة، قبل أن تومئ مجيبة.

التقط نفسًا عميقًا ودار بعينيه في المكان وهو يقول:

- دا أد ابوكى الله يرحمه!

تجمعَت دمعة في ركن عينها وهي تومئ مرةً أخرى، فاستطرَد ببطء:

- ويمكن هوَ دا السبب.

سال خيط لامع على وجنتها المضيئة أكدَ له صحة تحليله، زفرَ بعمق محاولًا السيطرة على انفعاله، ثم قال:

- أنا بَس عايز اعرف حاجة واحدة.

رفعت عينيها لامعتين إليه.

- أنا فعلًا كُنت فاهم اللي بيننا غلط؟! ...

خرجت الكلمات من بين شفتيه مطبوعة بحيرة صادقة، وألم حقيقي ضارب بجذوره تحت الجلد، هذا المزيج الحزين وخزَ قلبها وهدم مقاومتها فانهمرت دموعها غزيرة وهي تقول بحرارة:

- أنا كُنت صادقة.

ناولها منديلًا ورقيًا لتمسح به وجهها، وعاد الصمت ليبسط حكمه بينهما لثوانٍ قبل أن يزيحه هو متسائلًا بهدوء:

- بتحبيه؟

بعد هنيهة، أجابته بصوت متهدِّج:

- مش عارفة.

وصمتت للحظة ثم همست بشرود:

- بس مش قادرة ماشوفوش، مش قادرة ابعِد عنه، بَحِس انى عريانة وبردانة طول ما انا مش معاه.

هوَت حروفها كخناجر لتمزق نياط قلبه، وكاد لجزء من الثانية ينفجر باكيًا، ولكنه سيطر على مشاعره بقبضة من حديد، مَدَّ أصابعه ليربت برفق على كفها الرقيق المستقر على سطح المائدة قائلًا:

- خلي بالِك من نفسِك.

حدقت فيه ثم عادت دموعها لتنهمر من جديد وهي تغمغم:

- أنا آسفة.

أشار للنادل بكفه طلبًا للشيك ثم قال لها:

- مَتتأسفيش يا حياة؛ لأنِّك مغلطتيش، المشاعر حاجة out of control، لا انتي ولا أنا ولا أي حد يعرف يسيطر عليها.

- إنتَ مَلِكش ذنب!

- طالما دخلت المقامرة يبقى لازم اتحمل الخسارة زي ما استمتعت بالمكسب.

- الحب مقامرة!

ابتسم بحزن وهو يستخرج بطاقة حسابه البنكي من حافظته الجلدية قائلًا:

- أكبر مقامرة.

أنهى حسابه وأعاد للنادل التابلت الرقيق الذي يحمل الفاتورة، ثم تبادل معها نظرة طويلة وقال:

- أنا هَغيب فترة عشان استرِد نفسي، معرفش أد

إيه، بس لما ارجع هَكون available كصديق، لو احتاجتيني –بَس- كصديق، هتلاقيني.

قالت بحزنٍ صادق:

- هَتوحَشني.

تصافحا، وراقبته هي بعينيها الغائمتين وهو يبتعد بجسده الممشوق بين الموائد حتى ابتلعته ضلفتا الباب.

تركت نفسها تسقط على مقعدها، ودفنت وجهها في كفيها، القطرات تنسال لازالت، بينما ملأ عقلها وجهٌ وحيد ذو ملامح جادة ولحية أنيقة وخطها الشيب، أزاح كل ما سواه وبعث الدفء في قلبها.

وبلا إرادة منها، استخرجت أصابعُها هاتفها النقال من قلب حقيبة يدها.

***

لم تتوقف خيوط البرق عن التقاطع والتصارع في قلب السماء المظلمة، التي تحلق فيها طوافة آدم المصري الخاصة تحت وابل لا يتوقف من المطر الغزير، وانعكس وميض هذه الخيوط مرات ومرات على جانب وجه آدم نفسه من خلال الكوَة الزجاجية المستديرة المجاورة لمقعده، ولكنه كان في هذه اللحظات العصيبة أبعَد ما يكون عن الانشغال بمظاهر غضب الطبيعة واهتزازات الطوافة المستمرة.

تركيزه بالكامل كان مُنصَبًا على المكالمة الطويلة بينه وبين اللواء فؤاد سلطان مدير مخابرات الرئاسة، والتي بدأت مع دوران مراوح الطوافة تمهيدًا لإقلاعها العمودي من مطار الغردقة، وتناوبت خلالها على ملامحه انفعالات عديدة وَشَت بعاصفةٍ أخرى لا تقل شراسة ترعد داخل صدره.

من آنٍ لآخر كانت عيناه تنحرفان عن هولوجرام مُحدِثه إلى الجسد الضئيل المُستلقي على الأريكة الوثيرة المقابلة، وكان تغيرٌ ما يطرأ حينئذٍ على ملامحه قبل أن تنتظم بسرعة وهو يعود إلى مُحدثه، والذي يبدو أنه لاحظ هذا التشتت المتكرر فتساءل:

- فيه مشكلة عندَك في الطوافة يا آدم بيه؟

أجابه آدم على الفور بنبرة طبيعية:

- خالص، معاليك.

وكاد ينتقل إلى النقطة التالية من الحديث لولا أن

رجل المخابرات اليقِظ بادره:

- هي معاك دلوقتي؟

- هي مين؟

- أمل، أمل الشافعي.

صمت آدم واجمًا، فاستطرد اللواء فؤاد سلطان:

- أنا مش مُحيي ذو الفقار يا آدم بيه.

استمر آدم جامدًا كصنم للحظات قبل أن يلقي نظرة على أمل المُخدَرَة على الأريكة ثم يومئ برأسه.

- والبطارية بتاعتكو؟

- مكانِتش موجودة.

- مابلغتناش ليه؟

هَز آدم رأسه قائلًا:

- أي قوة عسكرية مهما كانت تجهيزاتها مِش هَتصمُد أمام قدراته النفسية يا سيادة اللوا.

التقى حاجبا اللواء وهو يقول:

- أومال هَنصطاده إزاي؟

قال آدم بثقة:

- مَيقدرش على سوبرمان غير سوبرمان.

كان الطيار الأوتوماتيكي يخاطب أبراج الدفاع الجوي لمحافظة الإسماعيلية التي بدأت أنوارها تشرق عن بُعد في قلب الظلام عندما قال اللواء لـ آدم:

- آدم بيه، مفيش وقت للأفلام!

- أؤمُرني يا فؤاد بيه.

قال اللواء بصرامة:

- عايز كل الداتا اللي عندك عشان اعرف أساعدك.

قال آدم بسرعة:

- البطارية دلوقتي في صالة الوصول رقم (٢) في مطار الغردقة.

- لوحدها؟

- معاه صياد قديم كان عندنا.

- زين العابدين منصور.

- بالظبط.

رمقه اللواء فؤاد للحظة ثم قال:

- هَيبقى لينا كلام تاني بخصوص الإرهابية اللي معاك

...

بمجرد انتهاء المكالمة، تَكَوَّنَ هولوجرام جديد أمام آدم لوجه عمرو عزام نائبه ومدير مكتبه، قَصَّ عليه آدم فحوى المكالمة بينه وبين رئيس مخابرات الرئاسة، فتجمعت علامات الدهشة والانزعاج على وجه الشاب.

- مستر آدم، إنتَ بلغتهم بموقع البطارية!

أشعل آدم سيجارًا جديدًا وهو يقول:

- خليهم يجربوا.

- هيمسكوا البطارية!

- مِش هَيعرفوا.

ونفثَ الدخان مستطردًا:

- إنتَ نسيت فريق الصيادين بتوعنا اللي حاولوا يصطادوه من سنة في مدينة نصر؟

تساءل عمرو:

- ممكن توضحلي بتفكر فـ إيه يا مستر آدم؟

- هُما عايزين البطارية، أهي عندهم! يصطادوها لو يعرفوا! فـ الآخر محَدِش غير الراجل بتاعنا هَيقدر عليه.

وتوهَّجَ طرف السيجار بين أسنانه وهو يجيب:

- خليهُم يحاولوا قدر استطاعتهم، ولما يفشلوا، نتدخَّل احنا ونضرب ضربتنا.

- دا إذا ما هربش قبل ما نوصله.

- هيهرب مننا فين؟

وألقى نظرة على هولوجرام ثانٍ لـ رفعت وزين تنقله كاميرات المراقبة بصالة الوصول بمطار الغردقة، وأردف:

- مَتنساش ان أصدقاءنا في **The Eye** عايزين يسترجعوا سمعتهم القديمة.

ومع آخر حروف عبارته، اهتزت إضاءة الطوافة الداخلية، وارتفع أزيزٌ متقطِّع امتُقع له وجه آدم وهو يرفع عينيه لأعلى.

انقطع الاتصال الهاتفي مع مرءوسه الشاب، فتلاشَت صورته الهولوجرامية بغتة، وسمع آدم صوت كمبيوتر الطوافة يردد:

- هجوم بصواريخ أرض- جو.

ارتفع حاجبا آدم واكتملت على وجهه علامات الذهول بينما الكمبيوتر يتابع:

- جاري التعامل مع الهجوم وفقًا للبروتوكول الأمني، الرجاء التزام المقاعد وربط أحزمة الأمان.

جرى كل شيء بسرعة لا تُصَدَّق.

حَدَّدَ الكمبيوتر حجم وطبيعة الهجوم بثلاثة صواريخ -ميزَ نوعيتها واستخرج قدرتها ومزاياها ونقاط ضعفها من ذاكرته في جزء من الثانية- قادمة من ثلاثة زوايا رصدها بدقة، ثم اختار أقصر مسار لأقرب وحدة من وحدات دفاع الإسماعيلية التي صارت وراءهم كتكتيك لدفعها إلى إسقاط الصواريخ المُهاجَمة، في نفس اللحظة التي أطلق فيها استغاثة عاجلة لهذه الوحدات.

- نوعية مُطورة لمطاردة البصمات الحيوية.

قالها الكمبيوتر وهو ينحرف بالطوافة بزاوية حادة نحو المسار الجديد المُختار، ويميل بها مناورًا أول الصواريخ الذي مَرَق كلسانٍ من النار على بعد ثلاثة أمتار فقط من بطنها، ليقطع عشرات الأمتار في لمح البصر، ثم يستدير عائدًا إليها، صانعًا مسارًا من قطع ناقص عملاق.

الصاروخ الثاني التقى قبل بلوغه هدفه المراوِغ بمجموعة من الجسيمات المعدنية أطلقها هذا الهدف، التصقت به فتشوشَت إشاراته وانحرف عن مساره، ثم هوى نحو أمواج المتوسط المظلمة.

وبينما مالت الطوافة مرةً أخرى مُراوِغة الصاروخ الأول الذي عاد يطاردها، لمح آدم عبر زجاج الكوَة المستديرة المجاورة لمقعده، خيطًا من اللهب –الصاروخ الثالث- يرتفع بسرعة هائلة من قلب الظلام متجاوزًا الجسيمات المعدنية الدفاعية ومتجهًا صوبَ مُنتصف

الطوافة مباشرةً.

بعدها بثانية واحدة، رصدت رادارات خفر السواحل وأجهزة الدفاع الجوي بمدن القناة انفجارًا هائلًا على ارتفاع كيلومترات فوق أمواج المتوسط بالقرب من ساحل الإسماعيلية، وميزته في الظلام أعين الساهرين من أبناء المدينة.

***

هدأ الضجيج نسبيًا بعد سويعات من منتصف الليل في قاعات الانتظار والوصول بمطار الغردقة المُكتظة بالعالقين بسبب توقف الرحلات الجوية، حتى تهدأ العواصف الرعدية بطول البلاد وعرضها.

استوعبَت فنادق وقرى الغردقة السياحية ما استوعبَت، وافترش من تبقى أرضيات واستراحات المطار مُستسلمينَ للنعاس والراحة بعد يومٍ شاقٍ مُلئ بالمفاجآت والمشاحنات.

رءوس شقراء وحمراء وكستنائية وسوداء وملساء مالت لتتكئ على الأكتاف المجاورة، وتصاعد الشخير من حلوق كثيرة تتحدث لغاتٌ مختلفة، وسَرَت حالة عامة من الخدَر عززها امتلاء البطون بالوجبات الجاهزة التي وزعتها إدارة المطار مجانًا على الجميع، والدفء الذي كرسته مكيفات الهواء المركزية العملاقة، بالإضافة لخفوت الإضاءة بأمرٍ من السيد اللواء مدير المطار للاستفادة من غياب الأغلبية في النعاس، وذلك لتوفير كل ما يمكن توفيره من الطاقة.

زين كان واحدًا من الفئة القليلة التي لم تستسلم لنداءات الراحة، ظل جالسًا في مقعده أمام الجدار الزجاجي العملاق، يراقب الغضبة الجوية التي لم تهدأ منذُ ساعات النهار، الظلام هو السيد بالخارج إثر انطفاء الكشافات العملاقة بالساحات، والتي شملتها أوامر الإدارة بتوفير الطاقة مادامت الملاحة مُعَطلة، ومن آنٍ

لآخر يهزأ البرق بسيادة الظلام، فينعكس نوره على وجه زين الجالس مفرود الساقين، يقاوم نعاسه وخَدَر عضلاته بكوبٍ من القهوة السوداء، من آنٍ لآخر يلقي نظرة روتينية على رفعت المُستقِر في المقعد المجاور.

لا شخير يُنبئ إن كان نائمًا أم لا بجلسته التي لم يبدلها مُنذ عاد من زيارته الأخيرة لدورة المياه قبل ما يزيد عن الساعة، لا حركة لضلوعه من تحت الثياب الثقيلة توحي بدخول وخروج أنفاس أصلًا، المنظار الداكن يغطي أغلب صفحة وجهه الأسمر الصغير ذي الشعر الأكرت والزغب الخفيف أعلى الشفتين الغليظتين المُنطبقتين، ساقاه متقاطعتان، وإلى جوار حذاءه الكاوتشوكي ترقد حقيبة بلاستيكية تحوي بقايا الوجبة التي التهم منها النزر اليسير.

رفع –زين- عينيه إلى أرقام الساعة الهولوجرامية القريبة، وتنهد.

يمكننى يا أمل أن أصِف لكِ ما يحدث الآن كما لو كنت أراه رأي العين.

هل ترينَ الطوافة الضخمة التي تحمِل على جانبها المطلي بالسواد شعار E. N. بارزًا؟ لقد غادرت مزرعة الوادي الجديد –مقر خدمتي القديم- وها هي تلفظ حمولتها من الصيادين بالقرب من الموقِع الذي حددته صور الأقمار الصناعية التي دسسناها نحن على شبكة بياناتهم.

هؤلاء المُقنعون المتشحون بالسواد هُم زملائي

القدامى من الصيادين، ها هُم يحثون الخُطى في هذا القفر المظلم قُرب حدود محافظة أسيوط، أسلحتهم مُشهَرة، وأصابعهم على الأزندة وأعينهم من وراء مناظير الرؤية الليلية تمسح الدائرة المحيطة بهم، هُم متوترين، متحفزين، لم تُهدِّئ من روعهم طمأنة قائدهم لهم أن الصيد هذه المرة حقيقي، ولن يستغرق وقتًا.

أراهم يستجيبونَ لإشارة الكابتن الذي يتقدمهم إثر اقترابهم من موضع احتشاد البطاريات بين أنقاض مدينة صناعية بدائية مهجورة، فيضغطون أزرار أسلحتهم لضبطها على استعمال الخزينة المحشوة بالطلقات المُخَدِرة بدلًا من الرصاص الحي.

وهناك، في الظلام، وراء جدران الوِرَش المهجورة نِصف المُهَدمة، يربُض رجالنا المُدربين شاكيي السلاح يرقبون من بين فتحات المباني وشقوق الأبواب الخشبية وصول صيادي Egy- Nergy إليهم.

تلفتَ يمنةً ويسرة ليتأكد من انصراف مَن حوله إلى ملكوت النعاس، فتاة شابة صاحية تقرأ من تابلت بين كفيها، وتجلس واضعةً ساقًا على ساقٍ في مقعدها، يفصلها عن موضعه صفان من المقاعد، التقت عيناها بعينيه فابتسمت له وهي تزيح بأصابعها خصلات شعرها المُنسَدِلة على أذنها، لم يتوقف عندها، وضغط أزرار هاتفه النقال بتتابع سريع هامسًا بالكود السري بصوت لم يكَد يغادر شفتيه، وبعد ثوان جَرت خلالها عمليات تأمين بالغة الدقة والحساسية لموجة الاتصال،

رأى عبر العدستين الملتصقتين بعينيه هولوجرام للكابتن دونالد تريفور، المارينز القديم وقائد مُعسكر التدريب، وسمع صوته يتردد عبر السماعة الدقيقة المُستقِرة في أذنه بالأمريكية:

- زين، هل جننت؟!

نهض من مقعده وسار ببطء باتجاه الجدار الزجاجي المطِل على الظلام بالخارج، همَس بنفس الطبقة غير المسموعة التي يلتقطها جهاز الاتصال الحساس:

- أردت فقط أن أبلغك بأني لازلت عالقًا هنا في مطار الغردقة بسبب العـ ...

- هذا ليس من شأني يا بُنَي، التعليمات هي أن تختفي تمامًا من دون أن يعلم أحد موقعك.

- لماذا؟

- (بإصرار): هذا ليس من شأني.

- (بإصرار): أخبرني يا كابتن.

- أنا نفسي لا أعلم. زين، القرارات قادمة من الأدوار العليا.

- هذا الغموض يثير توتري حقًا.

- حاول ألا تشغل نفسك بغير المهمة التي كُلِّفتَ بها.

تنهد زين، واستدار يلقي نظرة على رفعت ثم تساءل:

- هل انطلق الرجال؟

صمَت تريفور للحظة بدا خلالها وكأنه سيصُد السؤال بإجابة مُفحِمة تغلق باب المناقشة والمكالمة كلها، غير أن علامات القلق الشديد التي حفرت الوجه

الهولوجرامي لمُحدثه الشاب جعلته يعدل قائلًا:

- المجموعات الثلاث أقلعت في موعدها.

حَدثَ كل شيء في ثانية واحدة يا أمل.

كيف؟

ربما لأن صيادي الشركة قنصوا ثلاثة من المُشردين كانوا يمرحون بين الأنقاض، فاسترخَت أعصابهم واطمأنوا إلى أن هذا الموقع المقبِض ليس شَرَكًا منصوبًا لاصطيادهم، كما حدث مرارًا لهم ولزملائهم طيلة الشهور السابقة.

وربما لأن رجالنا كانوا مستعدين ومنتشرين باحترافية في أرجاء المكان، وعندما تحركوا فعلوها في لحظة واحدة أطلق خلالها كل واحدٍ منهم طلقة وحيدة مكتومة أسقطت واحدًا من صيادي N .E ... طلقة واحدة لكل رأس.

في ثانية واحدة سقط ما يزيد عن العشرين صيادًا برءوس توسطتها ثقوب سوداء تنبثق منها الدماء، لم يجدوا وقتًا للصدمة حتى!

وعندما تلقى الطيار -وكان يمسح المكان بطوافته بحثًا عمّ يَريب- إشارة العودة من قائد المجموعة، لم يشُك في شيء، هبط بطوافته في موضع خالٍ من الأنقاض، ضغط أزراره فانفتحَت الأبواب للصيادين العائدين بحمولتهم، ليُفاجأ بتلك الفوهة الباردة تلتصق بمؤخرة رأسه.

- هل بلغوا الأهداف؟

قالها زين وهو يتابع عامل النظافة، الذي وقف يحدق بنظرة طويلة في هيئة رفعت العجيبة، قبل أن يواصل جمع المُخلفات المُلقاة من عِلَب وأطباق من الفوم الأبيض تتدلى منها بقايا أطعمة.

أجابه الكابتن تريفور من مقره الخاص بمعسكر التدريب وهو يرمق الشاشات والخرائط الهولوجرامية من حوله:

- مجموعتا الوادي الجديد والعلمين تكادان أن تصلا إلى هدفيهما. مجموعة أسوان متأخرة بمقدار سبعة دقائق عن الجدول الزمني بسبب العاصفة.

وزفر مستطردًا:

- لقد أبلغنا المجموعتين الأولى والثانية بهذا التأخير حتى تؤخِرا ساعة الصفر بنفس المقدار؛ كيلا تسبقا المجموعة الثالثة فتطير أخبارهما لمزرعة أسوان ونخسر عامل المفاجأة.

انتبه زين لنبرة صوته التي غشتها نغمة من التوتر، فرمق الهولوجرام الذي يسبح في الفراغ أمام عينيه وتساءل:

- فيمَ قلقك تحديدًا، كابتن؟

سألته يا أمل وأنا بالإجابة عليم.

العملية ضخمة وحاسمة، مزارع الطاقة الثلاث المُستهدفة بالعلمين وأسوان والوادي الجديد هي المزارع الأكبر في مصر، بل وفي المنطقة كلها. المزارع التي تمِد الجيش والمؤسسات وخدمات البنية الأساسية

بحاجتها من الطاقة، وأنتِ تعلمين يا عزيزتي أنها تقريبًا المزارع المتبقية في الخدمة في مصر، بعد أن شَلَّت ضرباتنا عمليات الصيد والإنتاج من المزارع الأخرى الأصغر؛ لذا فالحراسة عليها مُشَددة، واجتياح هذه المزارع الثلاث وتحرير البطاريات هو الضربة القاصمة، رصاصة الخلاص التي ستُسقِط ما تبقى للشركة الأم من قدرة.

العملية ضخمة وحاسمة، وما يدور في هذه اللحظات في مصر، يجري مثله في كل دول العالم، التوقيت هو اسم اللعبة هنا.

قال الكابتن تريفور:

- لا أعلم هل ستفهمني أم لا يا بُنَي. الجدول الزمني لم يتأثر بشكل جاد بالعاصفة.

- كل شيء على ما يُرام، وهذا في حد ذاته يقلقني.

قال إنه اعتادَ طيلة أعوام خدمته بمشاة البحرية الأمريكية على متاعب حقيقية تهدد العمليات التي خاضها بالإخفاق، والإخفاق يعني الموت أو ما هو أسوأ: الأسر. تعوَّدَ أن يظل مشدودًا مُهدَّدًا على حافة الخطر حتى تنتهي العملية.

- أما أن تسير عملية بهذا الحجم بهذه السلاسة فأمر يُوَتِرَني بأكثر مما يُطمئني.

كنت أنصت إليه بأذُن واحدة وبنصف وعي يا أمل ...

النصف الآخر كان هناك، في الطوافة التي تُحلِّق في الظلام غربًا عائدة صَوبَ مزرعة الوادي الجديد تحت

وابل المطر وقصف البرق والرعد. ظلام بالأعلى وبالأسفل، يمينًا ويسارًا، أمامًا وخلفًا، بالخارج والداخل، داخل الصدور.

رجالنا الذين أسقطوا صيادي الشركة واستولوا على ثيابهم وعتادهم، واتخذوا أماكنهم في الطوافة هُم ماكينات مبرمجة على القتال والقتل بلا هوادة، مُرتزقة مُنتقون بعناية فائقة من بؤَر الحروب الأهلية بسوريَّة والأناضول خلال العقدين الماضيين، دُرِّبوا طويلًا على هذه العملية وِفقَ برنامج شاركت بنفسي في إعداده وتطويره، وأشرفت على تنفيذه باعتباري عينًا قادمة من داخل الهدف، وتم تعميمه على معسكرات التدريب في كل دوَل العالم من أجل الإعداد لهذه اللحظة.

هؤلاء الشياطين جاهزون ومُدرَبون ليفاجِئوا الكتيبة التي تحمي مزرعة الوادي الجديد مفاجأتها الأخيرة، عضلاتهم منتفخة وعروقهم نافرة، العيون المتحجرة رأت الكثير ولم يعد الخوف يعرف طريقًا لنظراتها، لا قيمة -باستثناء المال- يمكن أن تثيرهم أو تتحكم في دوافعهم، حتى الموت فقد رهبته داخل قلوبهم الميتة بعد ما واجهوه وأفلتوا من بين فكيه مرارًا.

كم عددهم؟ المئات يا عزيزتي أمل وربما الآلاف، لا تنسَي أنه خلال هذه اللحظات تقطع مئات الطوافات سماوات العالم باتجاه مزارع Egy- Nergy حاملة أمثال هؤلاء.

أضواء الكشافات المُوَزعة على أسوار مزرعة الوادي

الجديد تظهر عن بُعد، الآن يُجري الطيار اتصالًا لاسلكيًا يشتمل على الأكواد الأمنية التي تفيد بأن كل شيء طبيعي، الأكواد التقليدية والأكواد الجديدة التي استحدثتها القوات المُسلحة التي تسلمَت مهمة حماية مُنشآت E.N. يُدلي الطيار بهذه الأكواد طوعًا وبطريقة طبيعية بعد أن خضع لسيطرة عقلية مؤقتة بفعل الإبرة التي انغرست في وريده وحقنِه بعقارٍ كيميائي ألغى إرادته وجعله عجينة طرية بين أيدي القوة التي قتلت رفاقه واختطفت طوافته.

صمت الكابتن تريفور قليلًا ثم هَز رأسه وابتسم قائلًا:

- أن أعود إلى العالم بعد زَوج من الساعات، هذا الأمر مُربِك بعض الشيء!

المارينز القديم لم يغادر معسكر التدريب المُقام في بقعة نائية جنوب الصحراء الغربية، قرب الحدود المصرية الليبية منذ ما يزيد عن العام. قَدِمَ إليه مُرتزقًا وسيغادره مليونيرًا بهوية جديدة واسم مختلف وحساب بالملايين في بنوك سويسرا.

- التقاعُد حلمُ عزيزُ على أمثالي تحقيقه.

لم يسمع زين العبارة الأخيرة.

كان في هذه اللحظة يُحدِّق في الشاب الواقف خلف ماكينة الاسبريسو، والذي تفصله عنه عشرات الأمتار.

الشاب الوديع في زي عُمال كافيتريا القاعة، التقَت عيناهما فوجده زين يحدِّق فيه عن بُعد بإمعان، وما أن تلاقت الأعين حتى زاغ الشاب ببصره، ليدُق جرس

الإنذار بقوة في رأس زين وتتدافع الصور إلى مقدمة رأسه.

فتاة شابة صاحية تقرأ من تابلت بين كفيها، وتجلس واضعةً ساقًا على ساق في مقعدها الذي يفصلها عن موضعه صفان من المقاعد، التقت عيناها بعينيه فابتسمت له وهي تزيح بأصابعها خصلات شعرها المُنسَدِلة على أذنها.

عامل النظافة الذي وقف يحدق بنظرة طويلة في هيئة رفعت العجيبة قبل أن يواصل جمع المُخلفات المُلقاة من عِلَب وأطباق من الفوم الأبيض تتدلى منها بقايا أطعمة.

- زووم ... ٨٠٪.

لم يميز الكابتن تريفور ما هَمَس به زين لأول وهلة، وكاد يسأله مستوضِحًا، قبل أن يستوعب ذهنه المُدرَب طبيعة ما قيل فأطبَقَ شفتيه منتظرًا التفسير.

أما زين، فضاقت حدقتاه وهو يراقب التفاصيل أمامه تزداد وضوحًا، بعد أن استجابت العدستان الذكيتان الملتصقتان بعينيه والمتصلتان بكمبيوتر هاتفه الخلوي لأمره الصوتي وقامتا بتكبير النقطة التي يتعامد عليها بصره، وشيئًا فشيئًا، مَيَّزَ السواد داخل أذن عامل الكافيتريا الشاب.

- فتى الاسبرسو، توجَد سماعة اتصال في أذنه!

قالها همسًا بتوتر، وفي اللحظة التالية اختفى هولوجرام تريفور من أمام عَدستيه إثر قطع الأخير

للاتصال، كإجراء أمني فوري عَلِمَهُ الشاب، فلم يستغربه ولم ينشغل به للحظة.

انصرف ذهنه وعيناه إلى المئات المحيطين به في قاعة المطار الفسيحة، من افترش منهم الأرض وغاب في النوم، ومن ظل مستيقظًا يتبادل الأحاديث مع جيرانه أو يتصفح الإنترنت.

ضاقت حدقتاه وهو يتنقل بينهم مُتفرسًا ومتفحِصًا.

هذا الواقف مُرتكِنًا إلى الجدار قُبالة المصاعِد يا أمل، يمكنني أن أقسم لكِ أنه لم يتحركْ من موقعه مُنذ أكثر من ساعتين!

مُنتفِخ العضلات الذي يرتدي زي الأمن، ويَسد المخرج المؤدي للطابق السُفلي حاملًا عصا مُكهربة بين أصابعه، هل ترينَ هذه النظرة العدائية التي يرمقنا بها؟!

أغصان الخوف تنمو بسرعة وتلتَف حول روحه، بينما هو يدير عينيه فيما ومَن حوله.

هل انتشار هذا العدد من رجال أمن المطار أمر طبيعي؟ هل هي تداعيات الحَشد الذي سبَبتهُ العاصفة بالخارج؟ أم أنهم هنا خِصيصًا من أجلنا؟!

لم يَدرِ إن كان الانطباع الذي تَشكَّلَ في ذهنه وسرى في عروقه كالسُم بأن كل مَن بالقاعة يختلسون النظر إليه وإلى رفعت هو انطباع حقيقي، أم وليد القلق الذي أسفر عن مغص انقبضت له أحشاؤه.

للحظات تجمد في مكانه شاعرًا بالعجز عن التفكير في أي شيء، قبل أن يلتقط نفسًا عميقًا يملأ به صدره

ويفرغه ببطء، كرر هذه العملية لتسريب ما احتشدَ بأعماقه من مشاعر سلبية، ثم عاد ببطء إلى مقعده بجوار رفعت.

أغمضَ عينيه، وكرر التنفس بعمق.

إهدأ يا زين ... إهدأ.

هؤلاء الصبية لن يمسكوا بِكَ، أنت تعرف ذلك، لو كانوا هنا من أجلك، فدورهم فقط هو حِصارَك حتى يأتي الكِبار بأسلحتهم ومعداتهم، رجال الشرطة أو الجيش أو زملاء العمل القدامى بـ E. N ... الصيادون والعملاء الذين سيصلون بين لحظة وأخرى.

كيف حدث هذا؟! كيف وصلوا إلينا؟!

إهدأ واندهِش لاحقًا يا فتى، أما الآن ففكِّر في كيفية الإفلات من هذه المصيدة!

تذكر أن أمل تعتمِد عليك.

أمل يا زين!

خفق قلبه.

بالضبط! ماداموا قد وصلوا لكما، فالاحتمال كبير أنهم وصلوا إليها.

أمل بحاجة لك، ولكي تغيثها فعليك أولًا الخروج من هنا.

فَكِّر ... فَكِّر ... فَكِّر ...

سيكون ضربًا من العبث أن تنهض لقتال كل هذا العدد، أنت تفوقهم تدريبًا بالتأكيد، ولكن القوة ليست كل شيء، فطلقة واحدة مُخدِرة تنطلق من مُسدس أحدهم

عن بُعد ستحسِم المعركة، وهُم منتشرون بشكل جيد يُصعِّب من مهمة قتالهم.

فَكِّر.

أنت بحاجة لأن تختفي مع رفيقَك من أمام أعينهم، كيف يمكن أن يتحقق هذا؟

القاعة هادئة نوعًا ما بعد أن غَطَّت الغالبية في نومٍ عميق، لو كانوا مُستيقظين لكان الأمر أهوَن.

وقتك ينفد بسرعة يا فتى! فَكِّر أسرع.

أنت بحاجة لأن تختفي؛ لأن تزدحم الصالة مُجددًا ويعلو الضجيج، فتذوب أنت ورفيقك.

كيف توقِظ هؤلاء الحمقى؟

كيف تضِج مضاجعهم؟

حسنًا، أنت تعلم كيف.

كابوس!

وهنا فتح عينيه وأدارهما إلى جاره.

إلى رفعت.

***

استغرق نبأ إسقاط طوافة آدم المصري، رئيس مجلس إدارة Egy- Nergy المصرية ومالك أغلب أسهمها، والمدير الإقليمي للمجموعة الدولية فوق مياه البحر المتوسط قبالة سواحل الإسماعيلية زمنًا ليبلغ وسائل الإعلام، فيتصدر عناوين ومانشيتات جميع الصحف وبرامج البث المرئي والمسموع والمقروء ويحقق تريند على كل مواقع السوشيال ميديا بلا استثناء.

الخبر –وإن لم يأتِ على أن الإسقاط تم بواسطة صاروخ أرض جو انطلق من موضعٍ ما من جنوب شرق البحر المتوسط- كان مفاجئًا وبالذات في تلك الأجواء المشحونة بالقلق والترقب، تَلقته حكومات العالم بقدر هائل من الصدمة، واهتزت له أسواق المال كأشجار في قلب إعصار، غاضت قلوب البلايين الساهرة أمام الشاشات الهولوجرامية، وقد بدا لهم الخبر علامة على قُرب سقوط المنظومة التي بُنِيَت عليها حيواتهم، على عكس المتظاهرين ضد E. N. حول العالم، والذين ألهب الخبر حماستهم فتعالت هتافاتهم المُندِدة بلغاتٍ مختلفة، وهم يجوبون الشوارع باتجاه مقرات الشركة في العديد من الدوَل.

وعلى كل الشاشات والمواقع وعبر الأثير وفي البيوت والشوارع وداخل العقول والقلوب، أصبح التساؤل ضخمًا بارزًا حول مصير شركة E.N خلال الأيام، بل والساعات القليلة القادمة.

بعد الحادث بدقائق غشيت ظلمة هذه البقعة من البحر المتوسط أضواء كشافات طائرات الجيش، وسُفن خفر السواحل، وقوات البحرية المصرية التي بدأت في التوافد على موضع الحادث وفقًا للإحداثيات التي حددتها الرادارات وصور الأقمار الصناعية، رغم الأمواج الهائجة وسيول الأمطار، ظلت النيران المشتعلة في حطام الطوافة المتناثر على مساحة واسعة من دون أن تنكسر شوكتها، وعلى الفور ضُرِبَ سياجٌ حول المكان لمنع كاميرات الصحافة ووكالات الأنباء من الاقتراب، الأمر الذي أُخطِرَ به إبراهيم جودة من مصادر داخلية مُطلِعة حذرته من أن الجيش لن يتهاون هذه المرة، فألغى الرحلة التي كانت على وشك نقل مراسل محطته التليفزيونية إلى موقع الحادث، نظر بوجه محتقن وعينين جاحظتين لسكرتيرته فهَزَّت رأسها، وعادت تحاول للمرة الألف الاتصال بعمرو عزام على جميع أرقامه.

أما فؤاد سلطان ومحيي الدين ذو الفقار، فقد كانت المكالمة بينهما في دقائقها الأولى أقرب للمقدمات الرسمية، أو لتمارين التسخين التي تسبق المباريات الرياضية المهمة، ورغم دقة وصعوبة الوضع وما فرضه من توتر طبيعي، بدا الاستخباريَّان المُخضرمان، وهما يُناقِشان المعلومات الأولية المُتاحة عن الحادث أشبه ما يكونان بذئبين عجوزين يدوران حول بعضهما البعض؛ كي يقيس كلٌّ منهما قوة وإمكانيات الآخر قبل أن

يلتحما.

وفي لحظة معينة، قال ذو الفقار فجأة:

- سيادة اللوا، ما تيجي نكشف ورقنا؟

رغم مفاجأة السؤال إلا أن فؤاد سلطان كان بشكلٍ ما ينتظره أو للدقة ينتظر نقلة معينة على رقعة هذه المكالمة غير المألوفة تكشف هدفها، وعلِمَ أن محاوره الأريب سينتظر حتى تظهر له إشارة كالتي يراها الآن على طرف الهولوجرام، تُطمئنه أن التشويش قد بدأ، وأن المكالمة لم تعُد مُراقبة ولا مسجلة حتى يكشف أوراقه؛ لذا فلم يبدُ أي تأثير يُذكر على ملامحه لهذه الانعطافة المباغتة في الحوار، وقال بهدوء:

- اتفضل يا مُحيي بيه.

تساءل ذو الفقار بلهجة لم تخلُ من حزم:

- هتاخد القرار الصحيح إمتى؟

- إيه القرار الصحيح؟

- القرار المسئول.

- تجاه؟

- تجاه البلد ... الشعب.

وصمت لحظة ثم أضاف:

- تجاه نفسك ... ولادك.

لم يبدُ أي انفعال على صفحة وجه فؤاد سلطان وهو يتلقى ما وراء الكلمات، وقال:

- بعد السنين دي كلها لسه مش عارفني يا مُحيي؟!

ابتسم ذو الفقار قائلًا:

- أنا مش بَهدِدك يا فؤاد.

نظر له سلطان من دون أن يُعَقِّب، فاستطرد:

- التشبث بسفينة بتغرق مش شجاعة ولا مسئولية.

قطب سلطان متسائلًا ببرود:

- وإغراقها هو اللي شجاعة ومسئولية؟

- لولا انها سفينة ضعيفة مكانِتش تغرق.

- الخيانة تُضعِف وتغرَّق أي حاجة.

مَطَّ ذو الفقار شفتيه قائلًا:

- مش فـ مجال تراشق بالاتهامات دلوقتي. خلاص، المركب بتغرق يا قبطان أيًا كان السبب. هَتغرق معاها ولا هَتنُط للسفينة الأقوى؟

تساءل سلطان بازدراء:

- سفينتك؟

هز ذو الفقار رأسه وأجاب:

- سفينة نوح.

- زمن الأنبياء وَلَّىَ.

- بس الطوفان لسه، والسفينة كمان لسه.

- وانت متصور ان سفينتك هتقاوم الطوفان لما ييجي؟

تشققت شفتا ذي الفقار عن بسمة قاسية وهو يقول:

- الأيام مفيش اسرع منها.

مال سلطان للأمام قليلًا وهو يقول:

- إيه اللي خلاك متخيل انى ممكن اقبل أخون البلد؟!

قال ذو الفقار باستنكار مسرحي اللهجة:

- مين طلب منك تخون البلد؟! دا انا بَقولّك تنقذها!

- أنقذها بإني أخون سلطتها الشرعية؟!

- السلطة الشرعية هي السلطة المُتمكنة، المسيطرة. «المُتغلِبة» زي ما الدقون كانوا بيقولوا زمان.

- وفتحي منصور مش مسيطِر؟!

أجابه ذو الفقار بهدوء:

- فتحي منصور حاليًا أقرب لريشة في مهب الريح، هو مُتخيِل انه لسه عنده قدرة وهامش مناورة يقدر يلاعبنا من خلاله ويوقف قطرنا، بس الحقيقة اللي انت عارفها انه مش مسيطر غير على أقل من ١٥٪ من مُقدرات السُلطة في البلد.

وحدَّقَ في عيني صاحبه مستطردًا:

- لو كان فعلًا عنده السلطة الحقيقية، ماكُوناش نقدر نكبر ونتغلغل في كل مكان في البلد أودام عينيه من غير ما يشوفنا.

قال سلطان:

- إنتو تحت المنظار من أكتر من سنتين.

أومأ ذو الفقار برأسه وهو يقول:

- أيوا، من ساعة ما انت مسكت منصبك، إنما إحنا أولريدي بدأنا نتحرك من قبلها بكتير، وفعليًا البلد بقت فـ إيدينا.

- وكل دا عشان ايه؟

عادت الابتسامة إلى شفتي ذو الفقار القاسيتين وهو يقول:

- عيب تسأل السؤال دا يا سيادة رئيس مخابرات الرئاسة!

كرر سلطان بإصرار:

- عشان ايه؟

أجابه ذو الفقار هذه المرة:

- عشان معادلة فتحي منصور- آدم المصري لازم تتغير.

- وَضَّح يا مُحيي.

- منظومة Egy- Nergy مينفعش تكمِّل أكتر من كدا.

- و؟!

- المنظومة دي مش هَتستمِر من غير دعم الأنظمة السياسية، وعلى رأسها نظام فتحي منصور.

- وانت عايز تزيح منظومة Egy- Nergy ليه؟

- لو قولتلك عشان عالم أفضل هَتصدقني؟

- لو قولتلي بيزنس هَتبقى المناقشة جادة أكتر.

هَز ذو الفقار كتفيه قائلًا:

- أي أكشن مِش مَحمي بمظلة البيزنس هو أكشن محكوم عليه بالفشل.

تساءل سلطان:

- بيزنس بعيد عن Egy- Nergy؟!

ران الصمت للحظات قليلة قبل أن يقول ذو الفقار:

- من أكتر من عشر سنين الهيئة الهندسية للقوات المسلحة اشتركت مع قسم الفيزياء النووية بجامعة القاهرة في أبحاث تطوير تقنيات الاندماج النووي في

الفضاء الخارجي. فاكره؟

أومأ سلطان برأسه قائلًا:

- المشروع دا وقف من سنين.

- وقف بأوامر عليا صدرت من ديوان رئيس الجمهورية، فاكر مين كان رئيس ديوان رئيس الجمهورية من عشر سنين؟

أطبق سلطان شفتيه، فتابع ذو الفقار:

- فتحي منصور كان ساعتها بيحمي استثمارات صديقه القديم آدم المصري، وبيحمي النسبة الضخمة اللي بتتحول دوريًا لحساباته السرية، انت عارف انه استصدر قرار جمهوري بوقف الأبحاث دي، عشان لو كانت اكتملت كانت هتبقى بديل مناسب مقبول لطاقة Egy- Nergy.

أكملَ سلطان:

- والأبحاث وقفت علنًا، بس انتو كملتوها فـ السر.

ابتسم محيي وقال:

- مش بس الأبحاث!

صمتَ فؤاد سلطان وبانت أمارات الصدمة على شفتيه المزمومتين وعينيه اللتين حدقتا بغير تصديق في هولوجرام محيي الدين ذو الفقار الذي أكمَل:

- الشغل دا اتعمل على مدى سنين، وتأمين سريته بس كان بيستهلك ملايين شهريًا ... والنتيجة كانت مبشرة لغاية ما سَلَفَك القديم كشف اللعبة، وأوقفها وطار فيها كام رتبة من الثقال، ساعتها أدركنا ان فتحي منصور

هيفضل عقبة أودام المشروع، وان إزالتها شرط الاستكمال.

- تاني: عشان إيه كل دا؟

- لو البيزنس هيرضيك كإجابة.

- وتفتكر البيزنس سبب كافي لإنى اقبل اخون شرعية نظام البلد واعرضها لخطر الفوضى؟

تأمل ذو الفقار ملامح مُحدِثه المُغضنة، الشيب الذي اكتسح رأسه وشاربه، عينيه المنهكتين الصريحتين، والبقعة الداكنة التي تظلل موضع السجود من جبهته.

قال:

- انا اعرفك من زمان يا فؤاد، إنت راجل مستقيم وبتؤدي واجبك بإخلاص، وعشان كدا بَقولَّك: حتى لو اللي بنعمله دا بيزنس، فالبلد مستفيدة منه، المصريين اللي بيتقطعوا جوا ماكينات استخلاص الطاقة مستفيدين منه.

وصمت لحظة تلقى فيها دفقة صامتة من الاستخفاف من عيني نظيره، ردَّ عليها:

- إنت مش صغير عشان تفتكر ان الخير في الواقع زي ما بيعرضوه في الأفلام والروايات، الخير في الواقع هو أقل الشرور، أنفع الشرور.

- وهو المقامرة بالبلد وبالشعب مش شرور؟

- الشر هو انك يبقى فـ إيدك إنقاذ البلد والشعب من المقامرة دي وتتقاعس!

- تقصد ايه؟

قال ذو الفقار بحزم:

- اتخلى عن فتحي منصور.

قال سلطان بحزم مماثل:

- مش هَيحصل.

- بيك ومن غيرك اللي عايزينه هَيتحقق يا فؤاد. خلاص، فات أوان تحجيمنا.

- أومال عايزني معاك ليه؟

- عشان الأزمة تتحَل بأقل خسائر ممكنة، عشان توفر على البلد دم أكتر وفوضى أخطر ... إحنا حريصين اننا مَندخلش في صدام مع الحرس الجمهوري، وانتَ اللي تقدر تمنع حاجة زي دي كفيلة انها تحرق مصر كلها.

وخرج صوته أقرب للفحيح وهو يتابع:

- فتحي منصور لو خرج من الورطة دي هيصفي حساباته معانا، مش هَيسيب حَد مننا، زي ما قال في الخطاب بتاعه، خلاص الدور قَفَل وبقينا يا احنا يا هو.

- هوَ الرئيس الشرعي.

قال ذو الفقار بغضب:

- انتَ بتراهن بالبلد كلها على حصان خسران يا فؤاد بعقلية الموظف الحكومي دي. انتَ عارف ايه اللي بيحصل في اللحظات دي بالتحديد، واحنا مش هَنتحرك عشان ننقذ فتحي منصور فيقوم معلقِلنا المشانق بعدها. لو الطوفان غرَّق مصر خلال الكام ساعة الجايين، اعرَف انك شريك في دا بتعنُتَك وتمسُكَك بالسفينة الغرقانة.

- لو جه الطوفان، فكلنا هنغرق.

- إلا اللي هيركب السفينة.

وأردف من بين أسنانه:

- دا أهم وأخلص قرار هتاخده فـ حياتك يا فؤاد، الوقت ضيق، خلينا ننقذ اللي باقي من مصر.

ساد صمت مشحون بعد أن ألقى حروفه الأخيرة، تبادل خلالها الرجلان نظرة طويلة التهَمَ خلالها ذو الفقار بعينيه المصورتين هولوجرام مُحدِثه الذي غابت عيناه في طوفان الأفكار الذي راح يهدر داخل جمجمته، حاملًا أصداء كل حرف قيلَ منذ بداية المحادثة ...

صمت استمر لما يقرب من الدقيقة، ثم لم يلبث أن رفع عينيه إلى هولوجرام ذي الفقار متسائلًا:

- إنتو اللي أسقطتوا طوافة آدم المصري؟

***

- فتى الاسبرسو. توجَد سماعة اتصال في أذنه!

انفجرت العبارة في أذني الكابتن دونالد تريفور وقرقعت أصداؤها بعنف بين جنبات عقله.

وعلى الفور وكإجراء أمني احترازي لاإرادي قطع الاتصال الهاتفي مع زين شاعرًا بنبض في صدغه، وبدقات قلبه تتصاعد لتناهز ضرب الطبول ضجيجًا.

مساعدوه موَزعون أمام الشاشات الهولوجرامية التي تشِع من حوله وسط ظلام قاعة العمليات بمعسكر التدريب، الشاشات تنقل بثًا مباشرًا للعملية التي تنفذها المجموعات الثلاث التي دربها بنفسه على اقتحام مزارع الطاقة بالعلمين وأسوان والوادي الجديد، وذلك من خلال العدسات الذكية الموزعة على أفراد المجموعات لنقل الحدث على الهواء.

عشرات التفاصيل من داخل طوافات Egy- Nergy الثلاث التي استولى عليها رجاله، وحلقت بهم في الظلام عائدة إلى المزارع إياها تحت وابل من المطر المنهمر، وجوههم القاسية المنحوتة من الصخر في الإضاءة الليلية، همهماتهم القليلة وسط أزيز المحركات والتشويش الاستاتيكي الذي سببته العاصفة.

يرى تريفور ويسمع ولكن بذهن مُنصرِف بالكلية إلى آخر ما سمعه من زين.

سماعة اتصال داخل أذن عامل ماكينة الاسبرسو بإحدى صالات الوصول بمطار الغردقة! هو يعلم جيدًا،

وزين يعلم كذلك بأن أنظمة الاتصالات المُعتمدة بين الإدارة والعاملين في الأماكن ذات الأنشطة الخدمية والسياحية منها على وجه الخصوص لا تخلُ من الأوامر الصوتية التي تنتقل عبر سماعات أذن، يُزوِّد بها العاملون طيلة زمن الشيفت الخاص به، فما الذي أثار توجس زين من أمرٍ كهذا؟!

أهما القلق والتوتر انتقلت عدواهما منه هو في مركز التدريب إلى الشاب القابع في مطار الغردقة عبر آلاف الكيلومترات؟ أم أنَّه رأى أمرًا آخر فجَّرَ ريبته؟

ومضة برقية أنارَت ظلام الصحراء مترامية الأطراف خارج زجاج القاعة لجزء من الثانية.

نهض يتناول علبة من البيرة المثلجة من المبرد، عَب منها جرعة طويلة، ثم خفضها وعاد لأفكاره.

ما الذي يخشاه حقًّا؟

أن يكون زين واقعًا تحت نوع من المراقبة أو الحصار؟ صعب، التنسيق منذ البداية كان على قدرٍ عالٍ من الدقة والحرفية، بدليل عدم سقوط فرد واحد من أفراد المجموعات التي تقوم بالأعمال العسكرية ضد E.N بطول البلاد وعرضها طيلة العام المنصرم، فرد واحد حول العالم لم يسقط! أيَّة براعة!

ما الذي قد يطرأ فينجم عنه اختراق هذه المنظومة شديدة الكفاءة والوصول إلى عنصر مهم بها كـ زين، ومن ثم الإيقاع به؟!

أنت تعلم، عزيزي دون –هكذا فكر مخاطبًا نفسه- أن

كل الاحتمالات مفتوحة، وهناك دومًا بداية لكل شيء. «كل ما يمكن أن يحدث، سيحدث»، وأمنيتك دومًا كانت أن تنتهي من كل هذا الـ shit لتكتمل ملايينك في البنك، ثمَّ تذوب قبل أن يحدث كل ما يمكن أن يحدث.

نفخ محاولًا طرد التوتر من صدره، ارتشف من علبة البيرة وعادَ إلى البَث الهولوجرامي المتواصل من داخل الطوافات الموشكة على الهبوط في مزارع Egy-Nergy الكبريات الثلاث.

ترددت عبر سماعات القاعة العبارات المُشفرة من قائد كل مجموعة، يُبَلِغونَ بأن طوافاتهم على وشك الهبوط، سمعها بالتزامن مع اجتياز الطوافات الثلاث لأسوار المزارع في نفس التوقيت تقريبًا.

عقد ساعديه وهو يطلب من أحد أفراد مجموعة العلمين أن يغير من زاويته بمقدار ٢٠ درجة غربًا ليسمح لعدستيه بتغطية أوسع للجناح الغربي للمزرعة.

مسح بعينيه ما ينقله بَث العدسات داخل الأسوار من منشآت خرسانية وأعمدة وأبراج ضغط وكشافات ضوئية قوية وحركة منتظمة لمركبات ذات عجل في الممرات بين المنشآت، وإلى الساحة الخالية المُطلة على مهابط الطوافات بالمحطات الثلاث.

زوايا التصوير تنخفض مع الهبوط العمودي الناعم للطوافات.

فرك أصابعه بتوتر.

ها هي اللحظة التي عَمِلَ لأجلها طويلًا تقترب.

بعد شهور من التدريبات المتواصلة التي أشرف عليها بنفسه، يثق تمام الثقة بقدرة رجاله على أداء المهام المطلوبة منهم، عاشرهم طويلًا حتى أدرك نقاط قوتهم فعززها، ونقاط ضعفهم فاستأصلها، تأكد من إتقان كل منهم لدوره المرسوم في الخطة الهجومية المُعَدة وفقًا للمعلومات التي أدلى بها زين عن أنظمة واستعدادات الأمن والحراسة داخل المزارع، والمُخططات الهندسية التي استخرجوها من على الشبكة وسمحت لهم ببناء مُجسمات دقيقة للمزارع، تدرب داخلها المقاتلون لما يقرب من العام، حتى صار بإمكانهم اقتحامها والقتال داخل فراغاتها وشَق طريقهم عَبرَ ممراتها بأعين مُغمضة إلى أجنحة احتجاز البطاريات.

الطوافات تستقر على المهابط الأسفلتية المُجهزة.

التقط نفسًا عميقًا، تراجعت مخاوفه وخواطره وقلقه بشأن زين إلى ركن صغير بمؤخرة وعيه، الذي انصرف بالكامل للمزارع التي تراءت له مع بدء مغادرة جنوده – في ثياب وخوذات الصيادين- للطوافات واصطفافهم إلى جوارها.

الفنيون بالمزارع الثلاث يتقدمون في أزيائهم البرتقالية المغطاة بسترات الووتر بروف ذات أغطية الرأس لتفريغ حمولة الطوافات التي يُفترَض امتلاء بطونها بالبطاريات المُخَدرة والمَوَثقة.

العدسات على أعين المقاتلين تمسح الأجواء بدقة، أعداد الفنيين، تمركزات رجال الأمن، أبراج الحراسة،

الفتحات المؤدية إلى داخل المُنشآت، كل التفاصيل سليمة ومماثلة لما خبروه مرارًا في تدريبات المحاكاة.

نظر إلى أرقام الساعة، وإلى العَد التنازلي المجاور لها، والذي يعلم أن ثمة مثيلًا له، متزامنًا معه في كُل غرف العمليات التي تتابع العمليات المماثلة التي تجري في هذه اللحظات داخل المئات من مزارع الطاقة حول العالم.

نفسٓ آخر طويل ملأ به صدره، ثم نطق بكود الاستعداد فسمعه رجاله في المجموعات الثلاثة شمال وغرب وجنوب مصر.

تحفزت عضلاتهم للعمل، وركز كلٌ منهم على أهدافه التي سيسقطها بنيرانه بعد ثوان بمجرد وصول العَد التنازلي لنهايته وسماع كود الهجوم.

الفنيون يقتربون منهم، يتقدمهم رئيس الوردية.

العدسات تلتقط وتَبُث، وتريفور يتحرك على الشاشات التي تتلقى البث بعيني صقر، يدرس التفاصيل ويحللها بعقل أمني احترافي بحثًا عن أي متغير مخالف لما جرَت عليه التدريبات.

العد التنازلي يقترب من مُنتهاه.

وبينما يتنقل من هولوجرام لهولوجرام، دق جرس الإنذار بغتة في عقله،

لكسر من الثانية لم يَدرِ لمَ ... أدرك أن عقله الباطن التقطَ شيئًا ما غير طبيعي، لم ينتبه له عقله الواعي بعد.

عاد إلى الشاشات التي مَر بها خلال الثواني الأخيرة عكسيًا، يتفحصها بسرعة ودقة وتيار من القلق يَشُق مجراه بسرعة في أعماقه.

لا شيء، لا شيء، لا شيء، لا شـ ...

- (ينقر زرًا): B-٩.

انتبه له على الفور المُقاتِل صاحب الكود الذي ذكره من ضمن مجموعة الوادي الجديد.

أمره وهو يرمق الشاشة بتغيير زاوية بصره بضع درجات شَمَالًا. أطاعه المُقاتل وأدار رأسه ببطء نحو مجموعة الفنيين الذين يقتربون منهم، حتى صاح به تريفور أن يثبت.

نَقَرَ على موضِع من الشاشة الهولوجرامية التي تنقل بَثًا من عدستي المُقاتل وهو يقول:

- زووم ٥٠٪.

فقامت الشاشة بتكبير النقطة التي نقرها بالنسبة التي طلبها، وحَدَّق هو في وجه الفني الذي يتوسَط الكادر إذ يتقدم بين زملائه.

الوجه النحيف الذي امتلأ بالسحجات والكدمات والانتفاخات الملونة بالأزرق والأحمر، وثمة ندبة واضحة أعلى شفته العليا.

قفز بصره إلى وجوه زُملائه من الفنيين عن يمينه وشماله، فرأى ذات العلامات.

لثانية شُلَّ عقله بالكامل عن فهم ما يراه، وفي الثانية التالية هَبَط الفهم على وعيه كاملًا.

تذكر ما لَحظَه زين في المطار.

ثم سمعه مساعدوه ومُقاتلوه في المواقع الثلاثة يهمس:

- يا إلهي! ...

***

خطوات معدودة استطاع بَصَلة قطعها داخل أسوار مزرعة الوادي الجديد عندما قامت القيامة.

في الثواني القليلة السابقة على هذا الدوي المرعب الذي صَمَّ أذنيه وزلزلَ كيانه، والدماء التي تناثرت على وجهه وثيابه البرتقالية التي ألبسوه إياها قبل ساعة واحدة كي يخرجوه من زنزانته؛ ليصطف مع رفاقه تحت المطر ... في الثواني السابقة على كل هذا، كان ذهنه مشغولًا بوجبة الغد، كم بقي على موعدها؟ وهل سيكون محظوظًا بقطعة أكبر من اللحم المسلوق كما كان بالأمس؟

الحق أنه كان سعيدًا راضيًا، ولِمَ لا يفعل؟

خرج من جحيم السجن الذي قَضَى فيه أيامًا لا يعلم عددها مُنذ أُلقِيَ القبض عليه عند حدود محافظة قِنا في أعقاب تلك العاركة الكبيرة -«الغزوة» كما يقول الأخ أبو أنس- والتي خاضها ورفاقه، وخرجوا منها بأشوِلة دقيق وصفائح جبن وزيت حاولوا العودة بها إلى العِب الصحراوي الذي تعيش فيه عشيرتُهم.

أخرجوه -لا يدري من هُم الذين فعلوا، ولم يهتم بالسؤال- من جحيم السجن بعد زمن بدا له أزليًا ثقيلًا تلقَّى فيه صنوفًا من العذاب والضرب المُبرح باللكمات والركلات والكرابيج، التعليق، الصعق بالكهرباء، الكلاب التي نهشت من لحمه، الحرمان من الطعام والنوم، ومن الهواء النقي الذي عاش يتنفسه في الصحراء طيلة الربع

قرن الأخير من عمره.

أخرجوه من هذا الجحيم وجاءوا به إلى هنا، فلِمَ لا يكون سعيدًا راضيًا بل ومُمتنًّا؟!

خطوته الأولى عندما قامت القيامة كانت أقرب لوثبة لاإرادية للوراء إثر انفجار رأس هذا «الشَّحط» الذي كان يبعد عنه ببضعة أمتار، المتشح بالسواد، المُدجج بالسلاح، والذي رآه بَصَلة يهبط مع زملائه من الطوافة قبل قليل.

اقترن هذا الانفجار الناجم عن طلقة صائبة اخترقت جمجمته بدماء وشظايا وأشلاء تناثرت بعنف من هذه الجمجمة المُنفجرة في كل الاتجاهات ونال هو –بَصَلة- نصيبًا منها لَطَّخَ وجهه وثيابه، بالتزامن مع الدوي العنيف الذي هَدَر من جميع الجهات من حوله.

أجفل وانتفض قلبه في قفصِه الصدري، ودفع جسده للوراء بحركة غريزية، بينما الجثة التي انفجرت رأسُها أمامه تهوي أرضًا.

ولِمَ لا يهنأ وقد طَعِمَ من جوعٍ وأمِنَ من خوف؟!

مُنذ أخرجوه من الحفرة المظلمة –زنزانته بالجحيم- ونقلوه إلى هذا المكان وهو يعيش نعيمًا لم يذقه طيلة أعوامه التي زادت عن الثلاثين بعامين أو ثلاثة، عولِجَت جراحه، نامَ بعمق، أكلَ وذاق الشبع الذي لم يعرفه يومًا، ولأول مرة بدأت طبقة اللحم المحيطة بعظامه وعضلاته تزداد سمكًا.

لم يهتم بالسؤال عن هذا المكان وعِلة بقائه فيه،

اكتفى بالانقضاض على وجباته بشراهة الحيوانات الضارية كلما دفعوا بها له داخل زنزانته حتى يأتي عليها بالكامل، ثم يستلقي بعدها على ظهره مستمتعًا بالأورجازم المصاحب لامتلاء معدته، وشاعرًا بامتنان شديد لسجانيه ذوي الأزياء الرماديَّة المُوَحدة، يسرح ذهنه بعيدًا، هناك في العِب؛ حيث العشيرة؛ حيث المرأة والعيال. تناوشه الرغبة؛ إذ يتذكر سخونة جسدها -قليل اللحم والشحم- وحرارة أنفاسها في الليالي الباردة، يفتقد الصِّغار، ويتمنى لو كانوا معه هاهنا ينعمون بالطعام الذي حُرِموا منه طيلة أعمارهم.

الطلقات الخارقة للدروع تنهمر من جميع الجهات كالمطر حاملة الموت.

لم يرها أو يميز مصدرها، ولكنه لمحَ وميضها ورأى الدماء تتفجر على إثرها من الأجساد المتشحة بالسواد، نيران من هنا ومن هناك، ونيران من أعلى تصبها طيور سوداء -لم يعلم أن اسمها: درونات- تحوم في سماء الميدان.

سادَ الهرج والمرج وانفرط الجمع، الكل يحاول الجري والهرب في أي اتجاه، ولكن الموت كان هو الأسرع بامتياز، فراح يحصد أرواح الكل، لا يفرق بين أحد، سواء من أبناء العشيرة ممن أُخرِجوا من جحيم أجهزة الأمن وجيء بهم جميعًا إلى هنا؛ حيث طعموا وارتاحوا، ثم أُلبِسوا تلك الثياب البرتقالية، وسِيقُوا ليموتوا في هذه المصيدة، أو مِن المرتزقة المُدربين الذين علمتهم

خبرات الحروب في الصحاري والأحراش أن يستهينوا بالموت، فنَشِطَ الأخير يتخطفهم بسرعة وثقة تليقان بكونه حقيقة أزلية لا يجوز الاستهانة بها.

حاول بعضهم ممن لم تُصفِّيه الطلقات الخارقة للدروع في الثواني الأولى أن يرفع سلاحه ويطلق نيرانه عشوائيًا باتجاه الأسوار، لكن الموت كان حاسمًا. لا مزيد من الألعاب أيها الصِّبية، هذه المرة سترحلون جميعًا مع بابا «موت».

وبينما هو –بَصَلة- يحاول الركض في أي اتجاه مدفوعًا بالرعب الذي عَصَفَ بقلبه إثر هذه المقتلة المباغتة، التي لم يعِ عقله بعدُ أبعادها، كان كل إحساس بالأمان داعبه إثر راحة وشبع الأيام القليلة الماضية قد تبخَّر تمامًا.

لجزء من الثانية لمح وجه جِنِّش، صاحبه مُذ سني الطفولة، على الأرض المُغطاة بالأسفلت، وقد أطاحت طلقة بما يقرب من ثلثه وتركت الثلثين مُخضبين بالدماء والأشلاء، وأجزاءًا عارية من الجمجمة المحطمة.

لم يَجد وقتًا لمزيد من الهلع أمام هذا المشهد؛ لأن ألمًا حارقًا اندلع بغتة في ساقه إثر اقتلاع واحدة من تلك الطلقات لكل ما تحت ركبته من جلد ولحم وعظام وأنسجة.

أطلق صرخة عاتية غابت وسط هدير المدافع الأوتوماتيكية وهو يهوي على البلاطات الخرسانية التي غطتها الجثث وامتزجت عليها بِرَكُ الدماء ببرَك الأمطار.

صفيرٌ تصاعد ثم في اللحظة التالية ارتج المكان بانفجار الطوافة التي حاول أحد المرتزقة الإقلاع بها للنجاة بحياته، فتفحم بداخلها بقذيفة مضادة للطوافات، وتطايرت شظاياها الملتهبة لينغرس بعضها في ظهر بَصَلة الذي لم يبرأ بعد من آثار الكرابيج.

في الثواني الخمس المتبقية من حياته وَمَضَت فلاشات خاطفة أمام عينيه.

رغم هدير الطلقات والصراخ والآلام الشنيعة في ساقه وظهره الذي اشتعلت في جلده النار، رآهم.

وجوه امرأته وعياله ورفاق العشيرة، رأى الأخ أبا أنس –ابن الوسخة!- وسمعه يرتل: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ} ... ثم صورة مُهتزة غائمة لأمه التي نسي ملامحها منذ زمنٍ بعيد، وسمع صوتها وكأنه قادم من حفرة عميقة يردد بلوعة «ولاد الكلب الكفرة خطفوا أبوك وقتلوه يا فوزي».

فوزي! نعم! هو اسمه القديم الذي لم يـ ...

***

رغم الأوامر المُشددة بحظر بث القنوات الإخبارية في المطارات المصرية حرصًا على السمعة السياحية المرموقة للبلاد من الاهتزاز تحت وطأة أخبار الإرهاب والاضطرابات الشعبية، إلا أن نبأ إسقاط طوافة مدنية فوق مياه البحر المتوسط بدأ يتسرب بعد فترة وجيزة من حدوثه بين القلة المتبقية على قيد اليقظة في هذه الساعة المتأخرة من تلك الليلة الظلماء، إلا من وميض ألسنة البرق المتوالية.

تناثرت الهمهمات بلغات مُختلفة وحدقت أزواج متسعة من الأعين في المانشيتات المخيفة على شاشات الهواتف النقالة وألواح التابلت، وقد خَلَت متون أخبارها من تفاصيل دقيقة مُشبعة، باستثناء ترجيح وجود عمل إرهابي وراء إسقاط الطوافة التي لم تُعرَف بعد جنسيتُها أو وجهتُها أو هويةُ ركابها أو عددُهم.

غير أن شيئًا من هذا التوتر لم يصل لمسامع ناديا بتروفسكي، السيدة البولندية الستينية التي شاء حظها أن تهبط طائرتها القادمة من طوكيو لساعات ترانزيت في مطار الغردقة من أجل استكمال رحلتها إلى وارسو.

أعادت هاتفها النقال إلى حقيبة يدها بعد أن طمأنت ابنتها نستاسيا التي تركتها وراءها في طوكيو؛ حيث تعيش مع زوجها الأستاذ الجامعي الياباني، ثم احتضنت الحقيبة وأسندت رأسها المُكلل بشعر أبيض ناصع إلى مسند الرأس بمقعدها، وراحت تسترجع تفاصيل هذا

اليوم الطويل العجيب، الذي أبَى أن ينقضي عليها إلا وهي عالقة هاهنا في هذه المنطقة من الكوكب، والتي قرأت على الإنترنت أنها صارت الأكثر توترًا على الإطلاق بعد الأحداث الخطيرة التي داهمت دول العالم كلها خلال الأسابيع القليلة الماضية. في أعماقها تمنَّت لو كانت في هذه اللحظات جالسة تستدفئ بنيران المدفأة في شقتها الصغيرة الآمنة التي شهدت زهرة عمرها بـ وارسو القديمة، المكان الذي عاشت وترجو من الربِّ أن تموت فيه.

شيئًا فشيئًا راحت الأصوات المحيطة بها تخفت، وتثاقل جفناها واستسلمت للنوم بعد أن هدَّها تعب اليوم العصيب.

ساعة؟ ساعتان؟ كيف كان لها أن تعرف؟!

عندما التقط أنفها الأفطس رائحة الدخان، وأزاحت جفنيها لترى ألسنة النار البرتقالية تتراقص على بعد أمتار قليلة فتلفحها حرارتها، فإن آخر ما كان ليخطر ببالها هو أن تفكر فيه هو النظر إلى أرقام ساعتها لحساب الوقت الذي استغرقه نومها.

الصرخة المجلجلة سبقت أي رد فعل، حتى الاستيعاب نفسه، دَوَت من بين شفتيها لتقرع طبول الآذان المحيطة بها بعنف وتنتزع أصحابها من آبار نومهم بقسوة، وقبل أن تنقضي اللحظة كانت صرخة أخرى هائلة تجلجل عن بُعد بالقرب من الكافيتريا.

انفجرَت موجة عنيفة من الهلع، استيقظ النائمون

مفزوعين على وقع الصرخات التي راحت تتوالى، وترددت لفظة «نار» بلغات ولهجات عديدة رغم أن كاميرات المراقبة وأجهزة الرصد والإنذار لم تلتقط نُذَر للحريق من دخان أو ارتفاع زائد في درجات الحرارة.

أصبح الصراخ كتلة أوبرالية واحدة هادرة لا يمكن تفكيكها أو تحديد مصادرها من بين آلاف الحلوق التي تصرخ بهلع حيواني صاحبته حركة جماعية عشوائية هيستيرية في جميع الاتجاهات، دوامات عنيفة متداخلة بَدَت للمذهولين خلف الشاشات الهولوجرامية في مكتب الأمن، وكأنَ أصحابها يهربون من خطرٍ غير مرئي مُحدِّق بهم أينما ولوا وجوههم.

سقطت أجساد عديدة على الأرض لتطأها الأقدام والأحذية بغير رحمة أو عمد، فسالت الدماء وتعالت وتيرة الصرخات، انكسر الزجاج في مواضعِ عدة، وتخوطِفَت أنابيب إطفاء الحريق من داخل صناديقها بهيستريا، وأطلِقَت سوائلها الرغوية بعشوائية وانعدام خبرة، فامتلأ الهواء نفسه بسحابٍ أبيض كثيف، وهنا فقط خرج المراقبون من ذهولهم، فعَوَت صافرات الإنذار، وانهمرت المياه من رشاشات الإطفاء بالسقف لتغرق الكُل.

ومن بين السحاب الأبيض الذي تسبح فيه ذرات سائل الإطفاء، رأى الحارس مُنتفِخ العضلات الذي يَسِد المخرج المؤدي للطابق السُفلي ظِلينِ داكنين يقتربا منه، ضيق عينيه محاولًا تمييزهما، وقال بالإنجليزيَّة مُشددًا

قبضته على طرف العصا المُكهرِبة:

- إلى أين؟

فوجئ بأصابع قوية تلتف حول ساعده وتلويه بسرعة وعنف، فصرخ وهو يفلت العصا المُكهرِبة من يده لتسقط على الأرض صانعة رنينًا معدنيًا مميزًا، ابتلعته الضجة المحيطة، في نفس اللحظة التي جذبته خلالها أصابع القبضة الأخرى من ثيابه، وارتفعت ركبة خصمه لتضرب خصيتيه كمطرقة من فولاذ.

جحظت عيناه وهو يشهق بألم، فأخرسه زين بضربة عنيفة من مرفقه رَجَّت عظام فكه، ثم رفعه من تلابيبه بحركة خاطفة وطوَّح بجسده الضخم عبرَ فتحة المخرَج ليهوي متدحرجًا على السلالم المؤدية للطابق السفلي ويهمد أسفلها فاقد الوعي مُهَشَّم العظام.

جرى كل هذا بسرعة شديدة خلال زمن جاوز الثانيتين بالكاد، وفي الثالثة التقط زين العصا المُكهرِبة من على الأرض، ثم جذب رفعت من ذراعه وهو يدور بعينيه في الهَرَج من حوله قائلًا بحزم:

- ياللا بينا.

هبطَا درجات السلالم المؤدية للطوابق السفلية، وأثناء تجاوزهما الجسد الضخم الذي تمدد مُهشمًا، انحنى زين بخفة لينزع السماعة الدقيقة من أذنه ودسها في أذنه هوَ، تنقلَا بين السلالم والممرات متجنبين التحركات التي نقلتها سماعة الأذن السليبة، حتى بلغَا البوابة التي تُفتَح على ساحة الجراج الفسيحة التي اصطفت فيها

مئات السيارات تحت هياكل معدنية مسقوفة.

كانت صفارة الإنذار تعوى لا زالت، وأصوات أحذية تهرع على السلالم صعودًا وهبوطًا والصراخ القادم من القاعة بالأعلى لم ينقطع، عندما توقفَا -زين ورفعت- أمام البوابة المغلقة ذات الزجاج المضاد للصدمات، ومن ورائها بَدَت ساحة الجراج مظلمة غارقة في مياه الأمطار، تحسس زين إطارها بحثًا عن الأزرار التي تفتحها، فلم يجد، هوى على زجاجها المُقوَّى بالعصا المُكهرِبة مرة واثنتين، وقبل أن يهوي للمرة الثالثة أتاه الصوت الحاد المتوتر من وراءه:

- مكانك.

أدار رأسه فوقعت عيناه على أحد رجال أمن المطار في زيّه الرسمي يقبض على مسدسه بكلتا يديه وقد كسا التوتر ملامحه.

- إيديكو لفوق.

صاح بها الحارس الشاب وهو يومئ إلى العصا المُكهرِبة في قبضة زين، الذي خفضها ببطء وهو يستدير بكامل جسده حتى وضعها أرضًا، ثم عاد يعتدل بنفس البطء ورفع ذراعيه أعلى رأسه من دون أن تفارق عيناه فوهة المسدس المُشهرة تجاههما.

- رفعت.

انتبه الفتى الصموت لهمسة رفيقه فأدار إليه خليتيه البصريتين من وراء منظاره الداكن، بينما الحارس الشاب يطلب دعمًا من خلال جهاز الاتصال المثبت إلى

أذنه من دون أن يخفض سلاحه:

- لقيتهُم، الاتنين. باب «٩».

تمتم زين وهو يومئ برأسه:

- البوابة.

نظر له رفعت بإمعان وكأنه يقرأ أفكاره، ثم لم يلبث أن افتر ثغره عن بسمة خافتة.

لَم يَر الحارس الشاب هذه البسمة على الشفتين الممتلئتين، ولم يميز الوميض الذي لمع من وراء المنظار الداكن، وبالطبع لم يَر سحابة الإكتوبلازم تندفع نحوه، ولكنه بوغِتَ بانعكاس وهج النيران على زجاج البوابة المغلقة أمام عينيه وشعر بحرارتها تلفح ظهره.

التفت بحركة حادة وانخلع قلبه رعبًا لما رأى الجحيم يلتهم العالم من خلفه على بعد خطوات منه، فشهق وتراجع بخطوات متشنجة وهو يصرخ بفزع آمرًا بفتح البوابة.

تلقى كمبيوتر الأمن أمره الصوتي وقارن البصمة الحيوية لصاحبه بالمُسجلة في ملفاته، ثم في اللحظة التالية انزلق مصراعَا البوابة الزجاجية.

هنا، انتفض جسد الشاب بشدة عندما انغرست العصا المُكهرِبة بين ضلوعه ثم هوى أرضًا مُتشنِّج العضلات.

- برافو.

قالها زين مخاطبًا رفعت وهو يلقي بالعصا المُكهرِبة جانبًا ويلتقط المسدس، ثم جذبه وانطلقَا يركضان تحت السيل المنهمر بلا توقف بين مئات السيارات الرابضة

في الظلام، حتى لمحا أضواءًا خافتة مُنبعثة من داخل ليموزين متوقفة على بُعد ثلاثة صفوف، فتوجهَا صَوبها مباشرةً، وجذب زين بابها بلا تردد ليطالعه وجه سائقها الذي أجفل وصاح بانزعاج:

- انتو مين؟

وقبل أن يُشهِر زين المسدس في وجهه، انبعث الوميض مجددًا من وراء منظار رفعت الداكن، ثم لم تلبث أبواب الليموزين أن انغلقت عليهم وانزلقت عجلاتها بسرعة ورعونة على الأرض الزلقة، وكأن سائقها يَفِر من خطرٍ داهم يطارده، وبينما كانت تنهب الطريق الأسفلتي المُظلِمة أعمدتُه والمؤدي إلى قلب الغردقة، نظر زين خلال زجاج الكابينة الدافئة إلى المدرعات خاكية اللون المُحملة بالجنود التي مرقت بسرعة كبيرة إلى جوارهم في الاتجاه المعاكس المؤدي للمطار.

- دول علشانا.

قالها بخفوت، فلم يَبدُ على رفعت أنه سَمِع شيئًا، وكذا السائق الذي اتسعت عيناه وفغر فاه وهو قابضُ بأصابع متشنجة على عجلة القيادة هربًا من الخوف الذي استخرجه إكتوبلازم رفعت من سياله الحيوي. قال بصوت مرتعش:

- والله العظيم يا باشا هُما قِسطين تلاتة مش أكتر اللي اتأخروا عشان الظروف المنيلة بنيلة اللي وَقعِت السياحة.

لم يُعلِّق زين الجالس إلى جواره مُثبَتًا بصره على

الحركة الدءوب لمساحات السيارة في إزاحتها لقطر السيل المنهمر بلا هوادة على الزجاج الأمامي.

- لولاها كان زماني نايم فـ الدفا وسط عيالي بدل الفحتة اللي أنا مفحوتها دي! إنما مين يقدَّر ومين يرحم؟!

ثيابه التي أغرقتها الأمطار جعلت الرعدة التي تبدو وكأنها تنبعث من أعضائه الداخلية.

- ولاد الكلب دول (مومِئًا تجاه مرآة السيارة الخلفية) لو مسكوني هَترمي فـ السجن، والعربية هتروح مني.

الإدرينالين يتراجع ببطء في دمه، ومعه تتراخى عضلاته، وتتعارك الأسئلة في رأسه، يسترجع ما جرى تفصيلة تفصيلة في محاولة للفهم، للتحليل.

خطر بباله خاطر، فضغط أزرار هاتفه النقال باحثًا عن ...

- كابتن تريفور.

- زين! أأنت بخير؟

داهمته النبرة اليائسة غير المألوفة في صوت المارينز شديد البأس، وعلامات الهلع المحفورة على وجهه الهولوجرامي، اهتزت أوتار خوفه، وهو يتساءل بلسانٍ جاف:

- ماذا هناك، كابتن؟

صاح الأمريكي بهيستريا:

- كان فخًا، زين. فخ!

- فخ!

- كانوا يعلمون، أبناء الزوانى عرفوا خطتنا وكانوا بانتظارنا، وقتلوا الكل.

ردد زين مبهوتًا:

- الكُل!!

- الكُل ميت يا زين، رجالنا كلهم ماتوا، مجموعات العلمين وأسوان والوادي الجديد فَتَت عن بكرة أبيها، ناكحو أمهاتهم أخرجوا البطاريات وألبسوهم ثياب الفنيين لخداع رجالنا، وانتظروا هبوط الطوافات في المزارع ثم ...

فوجئ زين به يقطع صراخه ويحدق بعينين متسعتين في الشاشات المقابلة له ثم يتمتم:

- ياليسوع المسيح!

ارتعدت فرائص سائق الليموزين عندما صاح زين:

- ماذا حدث، كابتن؟

- لقد وصلوا، زين! طوافاتهم تقترب على الرادار ... (صوت صفير) زيييين!

اختفى الهولوجرام بغتة إثر انقطاع الاتصال، وكأن هذا كان القشة التي قصمت ظهر البعير.

انفجر زين في وَصلة من الصراخ والشتائم وسَب الدين والدنيا ارتعد لها بَدَن السائق -من دون رفعت الذي لم تهتز له شعرة- وإن لم يجرؤ على الاعتراض على قبضة زين المضمومة التي راحت تضرب التابلوه والزجاج الأمامي مرارًا، ثم لم يلبث -السائق- أن انتفض بعنف عندما التصقت فوهة مسدس باردة

بصدغه، ورأى من ورائها عيني زين تقذفان شررًا،

سمعه يقول بشراسة:

- تسَجِّل العنوان اللي هقولك عليه وتنزل من العربية حالًا.

***

تقرير إخباري بنشرة أخبار رأس الساعة بإذاعة راديو مصر:

«في بيان مُقتضب قصير قبل قليل أفادَ المتحدث الإعلامي باسم هيئة عمليات القوات المسلحة المصرية بأن هجومًا واسعًا شَنته ميليشيات إرهابية مسلحة على مزارع استخلاص الطاقة المملوكة لشركة E.N بالعلمين وأسوان والوادي الجديد، وأكَّدَ البيان على أن القوة المُشتركة المكونة من وحدات الجيش المصري التي خُصِّصَت بقرارٍ جمهوري لحماية مُنشآت الشركة وقوات أمن الشركة نفسها قد نجحت في إحباط هذا الهجوم الثلاثي، وقامت بتصفية الكثير من أفراد هذه الميليشيات وأسر من تبقى منها.

فحوى هذا البيان يتفق مع ما نشرته وكالات أنباء عالمية من صور التقطتها الأقمار الصناعية تم تسريبها على شبكة المعلومات الدولية تُظهِر آثار انفجارات ومعارك عنيفة في المواقع الثلاثة التي جاء ذكرها بالبيان الصحفي.

وفي نفس السياق أقام المتحدث الإعلامي الرسمي باسم Egy- Nergy مؤتمرًا صحفيًا أكَّدَ فيه على دقة ما ورد ببيان هيئة عمليات القوات المسلحة، وذكر أن المزارع التي تعرضت لهجوم الميليشيات لم تُمَس بسوء، ومازالت تعمل بكامل طاقتها.

وكانت بيانات صحفية عديدة أصدرتها جهات

حكومية وغير حكومية في عددٍ من الدول قد أفادت بوقوع هجمات إرهابية مماثلة على مزارع شركة Egy- Nergy حول العالم بالتزامن مع هجمات مصر، الأمر الذي يشير إلى هجمة واحدة منظمة تُعَد تصعيدًا كبيرًا في سلسلة العمليات الإرهابية التي استهدفت منشآت وآليات وأفراد الشركة العملاقة العابرة للقارات خلال الأشهر الفائتة، والتي أعلنت الإرهابية المصرية الشهيرة أمل الشافعي مسئوليتها عنها كمتحدثة باسم ما عَرفَته بـ ثورة عالمية على شركة Egy- Nergy.

وجديرٌ بالذكر أن أكثر من سؤال وُجِّهَ للمتحدث الإعلامي باسم E.N المصرية في مؤتمره الصحفي حول مصير السيد آدم المصري رئيس مجلس الإدارة، والشائعات التي تشير لمصرعه في حادث إسقاط طوافته الخاصة فوق مياه البحر المتوسط قبالة سواحل مدينة الإسماعيلية، وجاءت الإجابة غامضة مثيرة للمزيد من الشكوك؛ إذ أجاب بأنه سَمِعَ هو أيضًا هذه الشائعات، ولا يملك تعليقًا بشأنها».

***

مع طلوع الفجر هَدَأت وتيرة السيول التي ظلت تنهمر طيلة الليل على كافة أنحاء الجمهورية المصرية، ورغم أنه لم يذُق طعمًا للنوم خلال هذه الليلة الليلاء إلا أن عينًا الرئيس المصري فتحي منصور لم تفقدا حيويتهما وهما تجريان على سطور آخر التقارير التي وصلته بشأن نتائج الفحص الأولى لحطام طوافة آدم المصري التي تم العثور عليها مُتناثرة على مساحة واسعة جنوب شرق المتوسط.

ارتسم الوجوم على وجهه؛ إذ انتهى التقرير المُذَيَّل بخِتم البحرية المصرية من دون إشارة للعثور على جثث أو حتى أشلاء ركاب الطوافة، وإن أكَّدَ على أن حجم الدمار الناتج يشير لصعوبة نجاة أي منهم وبخاصةً مع ضيق الحيز الزمني بين لحظة استقبال وحدات الدفاع الجوي للاستغاثة التي أطلقها كمبيوتر الطوافة، ولحظة رصد انفجارها وسقوطها بما يقلل من فرص النجاة.

نَفَخ بشدة وتقلصت ملامحه فوَشَت بما يحتبس داخل صدره من انفعال لم يكن ليسمح له بالخروج في حضرة أي من مرءوسيه، أزاح صفحة التقرير الهولوجرامية بلمسة خفيفة من أنامله فتلاشَت، وتَفَكر هو للحظات قبل أن ينظر إلى أرقام ساعته ثم يرفع عقيرته آمرًا الهاتف بالاتصال باللواء فؤاد سلطان.

مَرَّت ثوانٍ أخرى ثم بدأ هولوجرامٌ يتشكل أمام عينيه،

فوجِئَ بأنه يخص اللواء مُحيي الدين ذو الفقار، مدير المخابرات العامة!

- صباح الخير فخامة الرئيس.

حَدَّقَ فيه الرئيس مأخوذًا وردد بدهشة:

- معقول السَّهَر خلاني اغلط في الاتصال!

ابتسم ذو الفقار قائلًا:

- العفو معاليك.

لم تَزُق الابتسامة للرئيس وبَدَت وكأنها تداري وراءها شيئًا ما ليس على ما يُرام.

- إحنا كُلنا في خدمة الوطن، بالذات في أوقات الشِّدة.

تصاعد جرس الإنذار في أعماق الاستخباراتي القديم الذي صار رئيسًا للجمهورية، ولكنه قال بهدوء دارئ ما يعتمل بداخله:

- إيه آخر التطورات؟

أجابه ذو الفقار:

- التنسيق مستمر مع كل حلفائنا، والهجمات الإرهابية انضربت في أغلب مزارع E. N. في العالم كله، مِش بَس عندنا، الساعات الأخيرة كانت حاسمة، ولولا المعلومات اللي وصلتنا من آدم المصري قبل الحادثة بتاعته كانت هَتبقى الضربة القاصمة للشركة ولينا وللنظام العالمي كله.

هَزَّ الرئيس رأسه إيماءً لعلمه بهذه المُستجدات، وتساءل:

- وبالنسبة للوضع الداخلي؟

- المظاهرات إيقاعها أقل خلال الـ ٢٤ ساعة الأخيرة، لكن الشحن تصاعد على مواقع التواصل الاجتماعي عشان مظاهرات بُكرة، اللي هو النهاردة أقصد، الجماعة في الداخلية والأمن الوطني اتخذوا التدابير بتاعتهم، وفيه حملة اعتقالات ضخمة بدأت امبارح بالليل بموجَب قانون الطوارئ للأسماء اللي استخرجناها من التقرير الاقتصادي الـ ...

قاطعه الرئيس بنفاد صبر:

- محيي، أنا بَسألك على المجموعة إياها.

حدق ذو الفقار في عينيه مباشرةً قبل أن يقول بهدوء:

- فات الأوان، معاليك.

ساد صمتٌ ثقيل مع تلاشي أصداء آخر حروف كلماته القليلة.

شعر الرئيس بتفريغ مفاجئ للهواء من صدره وبدوار خفيف يَلِم برأسه مصحوبًا بذلك الإدراك الذي لمع في ذهنه، غير أن شيئًا من هذا لم يطفُ على ملامحه، التقط نفسًا عميقًا عبَّأ به رئتيه بالمزيد من الهواء المُكيَّف، وخاض بعينيه الخضراوين مبارزة بصرية استمرت لثوانٍ مع مُحدثه الذي تحجرت ملامحه، قال بعدها بهدوء:

- يبقى انا كدا ظلمت السهر.

أومأ ذو الفقار ببطء.

تساءل الرئيس:

- فؤاد فين؟

عادت الابتسامة تتراقص على شفتي ذو الفقار وهو يحدجه بنظرة مُتحدِية قبل أن يرفع عقيرته مناديًا:

- سيادة اللوا.

وأمام عيني الرئيس، انبثقت مجموعة من النقاط المضيئة في قلب الفراغ، راحت تحتشد وتتكامل صانعة هولوجرام متوسط لذلك الجسد محني الظهر، صاحب الوجه المُنهَك المُزدان بالتجاعيد والمُكَلل بالشعر الأبيض.

اللواء فؤاد سلطان، مدير مخابرات الرئاسة.

ثبّتَ الرئيس بصره على قسمات وجهه التي اكتسَت رغم إنهاكها بقناعٍ من الصلابة وكأن صاحبها قد استعد جيدًا لهذه المواجهة، لدرجة أنه لم يهرب بعينيه من عيني الرئيس الثاقبتين اللتين راحتا تنبشان عن الحقيقة في وجهه.

لحظة طويلة بدَت وكأنها الدهر كله، شَحَّ فيها الهواء، وتباطأت حركة الجزيئات، وخَشعت الأصوات كلها عدا صوت دقات قلبه، لحظة قرأ خلالها فتحي منصور مصيره كاملًا في وجه ذراعه الأيمن ومرءوسه المُخلِص، وأيقنَ أن اللعبة قد انتهَت بالنسبة له ماداموا قد بلغوا هذه اللحظة.

تنهَّد بعمق فبَدَت تنهيدته أقرب لإعلان استسلام.

تنقل بعينيه بين الهولوجرامَين ... فؤاد سلطان المتجهِّم، ومُحيي الدين ذو الفقار، صاحب البَسمة

المخيفة.

- سيادة اللوا.

خرجت من بين شفتيه هذه المرة وبنبرة محايدة خالية من أي انفعال، كأنما يدعوه للإدلاء برأيه في واحدة من اجتماعاتهما الدورية.

قال فؤاد سُلطان:

- فخامة الرئيس.

بَدَت جُملته أقرب لمفارقة تهكمية بالنظر لطبيعة الموقف، وظهر هذا بوضوح في نظرة ذو الفقار الذي لم ينبس ببنت شفة، غير أن سُلطان كان يتكلم بجدية.

قطب الرئيس سائلًا:

- ليه يا فؤاد؟

التقى حاجبَا سُلطان وهو يجيب:

- اتأخرنا كتير، معاليك.

- كانت فيه فرصة.

- كانت هتبقى مقامرة، مصر مش هتستحملها.

- ومصر هتستحمل صِدام بين الجيش والحرس الجمهوري؟!

شدَّ سُلطان قامته قائلًا بحسم:

- مِش هَيحصل الصِّدام دا.

- الفريق محمود عزمي مش هَيسـ ...

تدخل ذو الفقار مُقاطعًا بلهجة ساخرة:

- بلاش تَبخس صداقة وزمالة الكلية حقها يا رَيِس.

رفع الرئيس حاجبيه مندهشًا وهو ينقل بصره بينهما،

قبل أن يخفضهما قائلًا بهدوء:

- برافو!

- (بنفس السخرية): إحنا تلامذتك.

وساد الصمت لبُرهة تراجع خلالها في مقعده واضعًا ساقًا على ساق، وأطرق مُفكرًا قبل أن يعود إلى الهولوجرامين متسائلًا:

- منتظرين مني إيه؟

قال ذو الفقار بسرعة:

- معاليك مُحددة إقامتك داخل مكتبك، جميع الاتصالات بأنواعها مقطوعة تمامًا، المطلوب بيان تنحي لظروف صحية ونقل مؤقت للسلطة لرئيس المحكمة الدستورية العليا حتى إجراء انتخابات رئاسية مبكرة.

هَزَّ الرئيس رأسه ببطء ثم قال:

- وأسرتي؟

تساءل ذو الفقار بحذر:

- مالها؟

قال الرئيس بحزم:

- عايز ضمانة مُقنعة لأمانهم من بعدي.

ردد شلطان:

- بعدك!

رَفَت بسمة مريرة على زاوية فم الرئيس وهو يقول:

- قولتلَك انى طول عمري شغوف بقراءة التاريخ المملوكي يا فؤاد. ألاعيبه ومؤامراته وحكاياته.

ونهاياته.

***

لم يَغمُض جفنٌ للغالبية العظمى في البيوت خلال هذه الليلة العصيبة أمام التطورات المتلاحقة التي راحت تتوالى على الشاشات الإخبارية ومواقع السوشيال ميديا، إلا أن عددًا قليلًا لم يتجاوز أصابع اليدين من سكان ذلك الكومباوند على تخوم الغردقة، استطاع مقاومة إغراء الكسل والدفء والخروج من تحت الأغطية الثقيلة للشوارع المظلمة، التي تمرح فيها العواصف الثلجية المُشبعة ببقايا المطر لأداء صلاة الفجر حاضرة في المسجد الذي يتوسط الكومباوند، والمفارقة أنهم جميعًا من أرباب المعاشات ممن جاوزوا العقود السابعة والثامنة من أعمارهم باستثناء الإمام الشاب العشريني الخَلوق صاحب الصوت العَذب في التلاوة وفي دعاء القنوط.

انتهت الصلاة، وعاد المصلون لبناياتهم وقد عمر الدفء قلوبهم، وبعدما خلا الشارع من آخرهم بدقائق، اخترقته عجلات ليموزين عريضة نهبت أسفلته المبتل بسرعة عالية لا تتوافق وقوانين المرور داخل الكومباوندات السكنية، وبالفعل التقطها أكثر من ردار وتم تسجيل مخالفاتها على حسابها بالإدارة العامة للمرور، وأخطِرَ كمبيوتر السيارة بهذه المُخالفات إنترنتيًا فترجمها لإخطار مسموع تردد داخل كابينتها الدافئة لم يلق له راكبوها بالًا.

كانت تمرق كالرصاصة بين الشجيرات المغسولة التي

تزين الأرصفة على جانبي الطريق عندما بدأ الكمبيوتر يخفض من سرعتها أوتوماتيكيًا بعد وصول إخطارات المخالفات، الأمر الذي ضاعف من حنق زين وجعل أصابعه تتقلص حول عجلة القيادة حتى كاد لينزعها من مكانها، وسمع رفعت ذلك الصوت الشبيه بزمجرة خافتة ينبعث من بين أسنانه، وما أن لاحت البناية عن بُعد حتى صاح به زين:

- حَصِّلني.

وفي اللحظة التالية كان يثب من السيارة التي هدأت سرعتها، وضَخَّ كل قوته في عضلات ساقيه اللتين تحولتا لماكينتي ركض على الأسفلت، فقطع الأمتار الثلاثمئة التي تفصله عن البناية المنشودة في ثوانٍ قليلة، صعدَ بعدها درجات السلم كالصاروخ حتى الطابق الثالث قبل أن يتجمد أمام باب الشقة.

مَرَّت لحظات فارَت خلالها مشاعر القلق والفزع والغضب بأعماقه على إيقاع نبضات قلبه المتسارعة، وهو يحدق في الظلام الذي يشع من فرجة باب الشقة الموارِب.

صدره يعلو ويهبط، وعقله يحاول استجماع شتات نفسه التي طارت شعاعًا لمرأى الباب الموارب على غير الطبيعي عندما سمع الخطوات الخفيفة تقترب من ورائه، فميزت أذناه المدربتان وقع قدمي رفعت الدقيقتين اللتين تناوبتا على درجات السلم صعودًا.

وكأن هذه الخطوات كانت الصدمة التي يحتاجها

لتحرير عقله وعضلاته من الشلل المُسيطِر عليهما، استل المسدس الذي استلبه من الحارس الشاب بالمطار، فشَهَرهُ ضاربًا الباب الموارب بقدمه واندفع يقتحم الشقة وهو يهتف مناديًا باسم المرأة التي انتفض قلبه بين ضلوعه خوفًا عليها.

أمل.

كادت أبواب الغُرَف أن تنخلع من مفاصلها تحت وطأة ركلاته العنيفة، بينما يتنقل بينها كعاصفة هادرة بحثًا عنها من دون أن يكف عن الصراخ باسمها، لَحِقَ به رفعت وهو يلهث إثر الركض وصعود السلالم قفزًا، الخليتان البصريتان في مِحجري جمجمته تتكيفان بسلاسة مع درجات الظلام.

أراد أن يندفع وراءه تجاه حجرة أمل في نهاية ممر الحجرات عندما شعر بتلك الأصابع الفولاذية الباردة.

(مَن؟) ...

تلتف حول عنقه، تجذبه ترفع جسده النحيف من على الأرض.

(وكيف لم يشعر به؟) ...

وجد نفسه يُحدِّق في انعكاس وجهه على السطح المُعتِم لخوذة رأس داكنة.

(كيف لم يشم رائحة مخاوفه؟) ...

ثوانٍ مرَت ثم أدار آدم رأسه إلى صاحب الجسد الفارع المُتشِح بالسواد الجالس إلى مقعدِ قريب، ألقى نظرة متفحصة على قامته الممشوقة ومنكبيه

العريضين وملامح وجهه التي لم يخفِ جمودُها ملاحتها ... سأله بصوتٍ فضح نذرًا من توتره:

- جاهِز؟

مرَّت لحظة من الصمت إلا من أزيز خافت مُنبعِث من المُحركات، قبل أن يجيب صاحب السواد بإيماءة بسيطة برأسه.

- إنتَ الوحيد اللي البطارية متقدرش تنبش في مخاوفه.

وبينما الأصابع تضغط على حنجرته وتخنق أنفاسه، لم يُضِع رفعت مزيدًا من الوقت، انزلق سريعًا داخل إكتوبلازم خصمه مُفتِشًا عن كوابيسه؛ ليبعثها أوهامًا ذات لون وملمس ورائحة تُحَوِّل صاحبها لطفل مذعور يبول في ثيابه.

غير أن شيئًا من هذا القبيل لم يحدث!

لم يَجد المشهد المُعتاد للكهف المظلم وأصوات الأنين والبكاء والأنفاس الثقيلة والباب الخشبي المُعتاد في نهاية الكهف؛ حيث يختفي الكابوس الأعظم الذي يُداريه صاحبه عن نفسه، حتى لا يطير عقله شعاعًا من فرط الرعب.

الجدران من حوله ملساء ناعمة ذات ملمس معدني بارد، لا أصوات، لا مشاعر، لا مخاوف، فقط ممر طويل بلا أبواب على جانبيه.

غمرته الدهشة وهو يمر بأصابعه على الجدار الأملس الذي يشع برودة معدنية، سَرَت رعشة في جسده، ومَدَّ

بصره خلال الممر ثم خطى على أرضيته شاعرًا ببرودة قارسة اصطكت لها أسنانه، وغادرت أنفاسُه صدرَه في صورة أبخرة بيضاء.

تسارعت خطواته لتصبح أقرب إلى الهرولة وهو يفرك كتفيه في محاولة لبَث الدفء في جسده، حتى انتهى الممر أمامه بحائط مُصمَت.

ضَمَّ أصابعه، طرق الحائط بقبضته هنا وهناك في أكثر من موضع، فبدت له المواضع متباينة بين صماء تُصدِر صوتًا مكتومًا، وجوفاء تُصدِر صوتًا أقرب للرنين، ثم لم يلبث أن مَيَّزَ أثر اللحام الخافت، اقتفاه بأصابعه للحظات، ثم اعتدلَ مُحدِّقًا في الحائط المعدني، وقد بدأت الفكرة تتشكل في عقله.

هذا باب! (البخار الأبيض يغادر طاقتي أنفه) أو كان بابًا قبل أن يُلحَم بإطار الحائط المحيط به.

مَدَّ أصابعه المرتعشة ليمسح على السطح البارد الناعم كما اعتاد أن يفعل داخل إكتوبلازم ضحاياه طيلة العام الفائت مُذ استكشف قدرته النفسية المُذهلة، يمسح سطح الباب الموصَد برفق فتتراءى له صورة ما يختفي وراءه من خوف.

مَسَحَ بكفه يمنةً ويسرة، صعودًا وهبوطًا.

وبينما يرتعش بردًا، تردد من بين أرفف ذاكرته صوتًا مألوفًا، صوت الدكتور محمود.

«الخطوة اللي بعدها، إنك تجتاز الباب دا».

- رفعت!

سمع صوت زين يأتي من بعيد وكأنه قادم من أعماقٍ سحيقة.

ثلاث ثوان فَصَلَت بين اللحظة التي اقتحم فيها زين حجرة أمل في نهاية الممر شاهرًا مسدسه وماسحًا أركانها الخالية ببصره، واللحظة التي سمع فيها صوت الحشرجة يأتي من خلفه.

التفتَ بحركةٍ حادة ليرى أول ما يرى الوميض المُنبعِث من وراء منظار رفيقه الداكن، ثم في ضوء الصُبح المُتسلِّل من نافذة قاعة المعيشة، مَيَّزَ أنَّ جسده مُعلق من عنقه في قبضة شبح فارع القوام مُتَخوِّذ ومُتشِح بالسواد.

سمع صوت حشرجته ورأى قدميه المرتفعتين عن الأرض تتأرجان في الهواء فصاح:

- رفعَت!

رفع سلاحه بحركة خاطفة وضغط الزناد مرتين متتاليتين، فغادرت رصاصتان الماسورة بدويٍّ مكتوم، شَقَّتَا الهواء في جزء من الثانية لترتطِما في موضعين بالساعد المفتول الذي تقبض أصابعه ككلابة من الفولاذ على حنجرة رفعت، ثم ترتَدَّا عنه برنينٍ معدنيٍ مسموع.

حَدَّقَ زين مذهولًا في الموضع البعيد في طرف الممر الذي نُتِرَت فيه الرصاصتين، ثم عاد ببصره إلى خصمه الواقف أمامه في زيٍّ أسوَد وخوذة داكنة أدارها جهته ببطء.

مَرَّت ثوانٍ من طنينٍ غزا الأجواء، تبادل خلالها الاثنان

النظر، أفلت صاحب الزي والخوذة رفعت من بين أصابعه، فتكوم الأخير على الأرض وهو يسعل ويشهق بعنف طلبًا للهواء.

تيار بارد سرى من باب الشقة المفتوح.

ومن دون أن يرفع عينيه من على خصمه ألقى زين المسدس جانبًا وقد هضم المفاجأة، كَوَّرَ قبضته، ثم وفي لحظة واحدة تقريبًا اندفع كلٌّ منهما نحو الآخر.

على الأرض، راح رفعت يسعل بشدة آلمت صدره، وكادت أن تقذف الخليتين البصريتين خارج محجري جمجمته، جاهد ليُعَبئ الهواء داخل رئتيه، ورفع رأسه إلى الأكشن الدائر على مبعدة أمتار قليلة منه.

في البدء لم يميز ما يجرى جيدًا، ثم مع انخفاض حدة سعاله بدأت أذناه تميزان أصوات الخبط والتكسير، ومعهما بدأت خليتاه البصريتان تعتادا الإيقاع فتملكته الدهشة، وحَدَّق مأخوذًا.

لما يقرب من الدقيقة لم تُصِب ضربة هدفها، اللكمات والركلات طاشت وصُدَّت كلها تقريبًا، بدا كلٌّ من المتعاركين وكأنه يعرف هدف واتجاه كل ضربة يوجهها له خصمه، ومع قوة وسرعة الضربات التي صدها انتاب زينًا شعورٌ ديجافوي بأنه عاش هذا الموقف من قبل، الأمر الذي شتت انتباهه للحظة كانت كافية لترتطم أصابع خصمه المضمومة بجدار معدته كمطرقة من حديد.

جَزَّ على أسنانه وهو ينثني –وقد تحملت عضلات

بطنه الضربة بصلابة- متفاديًا اللكمة التالية، ثم حمل على خصمه حملة شعواء مُستدعيًا عصارة تدريبات الجيجتسو والأيكيدو والكونج فو كي ينال منه ولكن دون جدوى، الأمر الذي استفزه ودفعه للتهور في هجومه، فانفتحت ثغرة جديدة في دفاعاته سمحت بضربة ثانية ارتج لها مخه داخل جمجمته، أعقبتها ركلة عنيفة خبطت ضلوعه وأطاحت به مترين للوراء ليرتطم بمنضدة صغيرة ويسقط معها أرضًا.

رغم الدوار الذي هاجمه إلا أنه لم يكد يلمس الأرض حتى انثنى ثم ارتدَّ واقفًا على ساقيه برشاقة رائعة، بَدَت له الرؤية مُهتزة بعض الشيء، والتقى حاجباه وهو يحدق بمقت في خصمه الذي يتقدم منه بخطواتٍ هادئة لامبالية.

بَصَق الدم من بين شفتيه ومعه واحدة من أسنانه السُفلية، ثم زمجَرَ وانقض عليه.

أما رفعت الذي يراقب العِراك من موضعه، فكان لايزال يسبح داخل السيال الحيوي[1] لذلك الخصم المُتشِح بالسواد، وقف أمام الباب المَلحوم في نهاية الممر ذي الجدران المعدنية مُنصِتًا لصوت الدكتور محمود المُنبعِث من بين أرفف الذاكرة:

«هتحتاج حاجة تكسر بيها الباب ... عشان كده، قبل ما تبدأ عملية اختراق سياله الحيوي لازم تكون ماسك حاجة فـ إيدك».

امتدت أصابعه لتتحسس محتويات جيبه.

«ولتكن مثلًا ميدالية مفاتيحَك».

بالخارج كانت الأمور تجري بوتيرة أسرع، وأعنف.

أورث الغضب زينًا قوة إضافية فكال الضربات لخصمه بقوة وعنف أكثر، غير أن هذا الخصم بدا وكأنه قد حُصِّنَ تمامًا، فحتى اللكمات التي كان قد تلقاها خلال الثواني الأولى من القتال وشعر زين معها وكأنه يلكم جدارًا من الصُلب، حتى هذه اللكمات عجز زين عن تسديدها الآن، وشعر أن غريمه قد ازدادت سرعته على نحوٍ مفاجئ، أو كأنه صار يعلم بالضبط متى وأين سيسدِّد ضربته، فطاشت ضرباته كلها هذه المرة ولم تُصِب إلا الفراغ، على عكس ضربات هذا الغريم التي عجز زين عن ملاحقتها بالصَّد أو التفادي، فانهالت كالمطر على وجهه وجسده وبعنف شديد ليجد نفسه مرة أخرى مطروحًا أرضًا، وقد أنَّت عظامه ولطخت الدماء وجهه.

لمح من بين جفنيه المنتفخين المسدس الذي ألقاه أرضًا قبيل الاشتباك فانتعش الأمل في قلبه وبعث الحيوية في عضلاته المُنهكة، تدحرج بجسده ومَد ذراعه ليختطف المسدس الذي صار على بُعد خطواتٍ قليلة، غير أن الحذاء الثقيل هوى على كفه فأفلتت صرخة مكتومة من حلقه واستنفر قوته كي ينهض لاستكمال القتال، ولكن ركلة سديدة من القدم الفولاذية ردته إلى موضعه، وكَسَت المشهد أمام عينيه بلونٍ أحمر دام.

«الميدالية دي فـ وعيك هتتحول لأداة ممكن تستخدمها فـ كسر الباب».

داخل الممر ذي الجدران المعدنية، نظر رفعت إلى المنشار الكهربائي بين يديه، ثم رفع رأسه إلى مواضع اللحام في الحائط أمامه.

بالخارج، أدار الغريم رأسه داخل الخوذة الداكنة إليه في موضعه الذي لم يفارقه مذ سقط أرضًا، الوميض وراء المنظار لا يزال.

رآه رفعت يتقدم منه بخطوات واثقة.

تعلق بصره بالأصابع الفولاذية -التي كادت تنتزع حنجرته قبل لحظات- وهي تقترب، ولاإراديًا بدأ يزحف بظهره للوراء.

«إبدأ اضرب يا رفعت!».

ضغط زر التشغيل فدارت إسطوانة المنشار الكهرباء حول محورها بسرعة شديدة.

شعر بملمس الأصابع الباردة على جلد عنقه فسَرَت القشعريرة في جسده.

وفي اللحظة التالية ارتطم جسد زين بجسد هذا الغريم. رآه رفعت يطوِّق خصره بذراعيه ويدفعه بكل قوته نحو الحائط، وسمعه يصرخ به:

- إهرب يا رفعت.

ارتطما بالحائط الذي لم يتحمل ثقل جسديهما وعنف الصدمة فتهاوى تحتهما مفتتًا إلى قوالب من الطوب وملاط وغبار كثيف.

اعتلى زين جسد خصمه واختطف واحدًا من قوالب الطوب رفعه لأعلى صارخًا:

- اهرررب.

وهوى بالقالب الثقيل على الخوذة الداكنة التي تحيط برأس خصمه الذي رفع ذراعه بسرعة البرق ليتلقى القالب في راحته، التقا حاجبا زين عندما رآه يضم قبضته فيسحق القالب بين أصابعه وكأنه قالب من البسكويت.

- اهرب يا رفـ ...

بُتِرَت صيحته إثر القبضة المضمومة على مسحوق الطوب، والتي انقضت على صدغه فاقتلعت أحد ضروسه، وأطاحت بجسده من فوق غريمه والذي وثب برشاقة ليعتليه؛ حيث سقط بين قوالب الطوب المُفَتتة وكال له الضربة تلو الأخرى من دون أية مقاومة منه، حتى عندما أحاط عنقه بأصابعه الفولاذية واعتصر حنجرته.

جحظت عيناه واحتقن وجهه وهو يجاهد لسحب الهواء، وراحت بقع مُظلمة تغشى أطراف الكادر أمام عينيه.

هنا، حانت التفاتة مُفاجئة من صاحب الخوذة إلى الوراء، وكأنه تلقى تحذيرًا ما، عَبَرَ بصره الفجوة في الحائط، والردهة القصيرة المؤدية إلى قاعة المعيشة ليسقط على الموضع الخال الذي كان يشغله رفعت قبل قليل.

أدار رأسه بحدة، فرأى باب الشقة مفتوحًا على مصراعيه.

***

---

1 فكرة استخراج السيال الحيوي عن طريق التعذيب هي نظريَّة مُتخيلة للدكتور أحمد خالد توفيق في روايتيه «كليمنجارو» و«الظاهرة».

بدا الإجهاد واضحًا على قسمات عمرو عزام خلال محادثته الهولوجرامية مع إيفان إيفانوفيتش، الشريك الروسي ورئيس مجلس إدارة E. N. الإقليمية الروسية، والتي لم يتجاوز زمنها الدقيقتين واقتصر فحواها على استفسار الروسي عن حقيقة الأخبار التي انتشرت في وسائل الإعلام كالنار في الهَشيم حول إسقاط طوافة آدم المصري قبالة السواحل المصرية.

كرر الشاب بكياسة ودبلوماسية ما سبق وقاله للشريكين الهندي والصيني قبل دقائق من أن طوافة مستر مصري قد تعرضت بالفعل لهجوم بالصواريخ فوق مياه البحر المتوسط أدى لإسقاطها، وأن قوات البحرية المصرية تمسح موقع سقوطها بحثًا عن ناجين أو جثث أو بقايا، ولم تَرِد بعد أية معلومات أو بيانات من طرفهم.

قال هذا ثم أضاف بأنه مهما كان ما سيسفر عنه البحث من نتائج، فإن نظام العمل بالشركة لن يتأثر، في إيماءة مُطمئِنة منه إلى أن قواعد الشراكة المُحكمة غير خاضعة لأحكام الطوارئ والنوازل، وأن توريدات العقار المُخدِر للحواس الذي يشترطه القانون الدولي للسماح باستخلاص الطاقة النفسية من أجساد البشر، وتحتكر إنتاجه وتوريده واحدة من شركات مجموعة E. N. المصرية لن تتأخر عن جداولها الزمنية المُلحَقة بالعقود.

شكره إيفانوفيتش وتمنى بكلمات مقتضبة أن يسمع

أخبارًا طيبة عن مستر مصري «صديقي الحكيم» على حدِّ قوله، ثم رمق الهالات السوداء حول عيني عمرو واستطرد قائلًا:

- وحاول أن تحصل على قسط من الراحة، سيِّد عزام.

ترجم الهاتف كلماته الروسية أوتوماتيكيًا إلى عربية مُتقنة في نفس اللحظة، فهَز عمرو رأسه مُبتسمًا بإنهاك، وانتهت المُحادثة بكليشيهات دبلوماسية مُختصرة، أراح بعدها الشاب جمجمته إلى مسند الرأس بمقعده الوثير خلف مكتبه، وأسبل جفنيه للحظات قبل أن يفتحهما وكأنه كان يشحن بطاريته خلال هذه اللحظات مُردِّدًا:

- Waiting.

وانتظر حتى اكتمل هولوجرام إبراهيم جودة أمامه مُجدَّدًا على مسافة لا تزيد عن المتر ونصف المتر، ثم قال بهدوء:

- اتأخرت عليك يا ابراهيم.

أسرع إبراهيم جودة يقول:

- Never mind يا مستر عمرو.

- السكرتيرة بلغتني انك بتحاول تتصل بقالك ساعات.

- صحيح.

فرك عمرو جفنيه وهو يقول بإرهاق:

- انا ليا يومين صاحي يا ابراهيم وعندي اجتماع مع الشئون المعنوية بعد (يلقي نظرة على أرقام ساعته) ساعة تقريبًا. فممكن باختصار تقولي سبب الاتصال؟

أجابه إبراهيم بهدوء:

- مَحدِّش عارف ينام في الظروف اللي زي دي يا عمرو بيه، وسبب الاتصال هو الاجتماع دا بالتحديد.

التقى حاجبا عمرو وهو يتساءل:

- وانتَ عرفت منين؟!

هز إبراهيم كتفيه قائلًا ببساطة:

- توقعت.

تفرَّس عمرو في وجهه بعينين يشع منهما الشَّك، فابتسم مستطردًا:

- Come on يا عمرو بيه! البلد في حالة حرب، والحرب يعني الجيش، والإعلام هو السلاح الأخطر في حروب السنين الأخيرة.

قال عمرو باقتضاب:

- هات اللي عندَك.

قال إبراهيم:

- اللي عندي هو سيناريو إجهاض المظاهرات الشعبية اللي هَتنفجر ضِد Egy- Nergy خلال ساعات، بعد صلاة الجمعة.

ردد عمرو بمزيجٍ من الاستخفاف والازدراء:

- حقيقي!

ابتسم إبراهيم قائلًا:

- مع احترامي لحضرات الظُباط في الشئون المعنوية، أساليبهم في إدارة المعركة خلال الفترة اللي فاتت متخبطة جدًا ونتايجها واضحة للعَيان، بدليل الوضع المنيِّل اللي وصلناله، دا غير ان عدوكم دارس الأساليب

دي كويس، وبيتعامل معاها بتدابير مُضادة.

فيه مكاسب اتحققت على الأرض في الساعات اللي فاتت؟ حصل. إحباط الهجمات الإرهابية على مزارع الشركة، واعتقال عدد من مُموليها من رجال الأعمال، بس كل دا ممكن يضيع عشان اللي البهوات مِش قادرين يستوعبوه ان نُص النجاح –ان مكانش أكتر- هو إدارة اللعبة الإعلامية.

- مُقترحاتك؟

تحولت ابتسامة إبراهيم لضحكة خفيفة وهو يقول:

- أنا مُجرَد مدير لحملة N .E. الإعلانية، مِش مُستشارها الإعلامي.

رماه عمرو بنظرة نارية وهو يقول:

- بس احنا عندنا already مستشار إعلامي، الدكتور عدنان الإسلامبولي. ما انتَ عارفه!

أومأ إبراهيم برأسه موافقًا وقال:

- واجهة براقة، إعلامي مُخضرَم وشخصية محترمة، بس مِش دي المواصفات المطلوبة في المرحلة دي.

لم يُعلِّق عمرو، فتابع إبراهيم بجدية:

- عمرو بيه، هَكون صريح معاك.

خروج آدم المصري من الصورة في التوقيت الحَرِج دا ضربة مِش هَينة، انتَ أكتر واحد مُدرِك أد إيه هوَ كان مسيطر ونفوذه وعلاقاته مُنتشرين في قارات العالم السِتة، وان غيابه هَيفجَّر أطماع وهَيثير أزمات، مِش وقتها خالص، ومع احترامي، معاليك هَتحتاج وقت

ومجهود عشان تقدر تحتل مكانه.

احتفظ عمرو بقناع الملامح الهادئة التي دارت خلفها ما جاش بقلبه من انفعالات أثارتها الكلمات، وحاول إبراهيم استبيانها بعينيه الخبيرتين، والتقط بالفعل نذرًا يسيرًا منها مَيزهُ في انقباض عضلة صدغه الأيمن.

- لو استمرِت المظاهرات الشعبية المُتوقعة ضِد E. N. بنفس القوة والزخم لـ ٤-٧ أيام متوالية، ودا وارد يحصل بسبب نقص إمدادات الطاقة اللي بيضغط على أعصاب قطاعات عريضة من الشعب، النظام مِش هيستحمل يسدد فاتورة Egy- Nergy أكتر من كدا.

انتَ محتاج مُستشار إعلامي يحققلك هدفين.

الأول: يرسملك خارطة الطريق اللي هَتكسب بيها الحرب الإعلامية لامتصاص الضغط الشعبي.

التاني: يمسِكلَك الحملة الإعلامية اللي هَتسوِّق للحكومات والمؤسسات -وأولهم شركاؤك الأعزاء- الرأس الجديدة لـ Egy- Nergy.

أنصت له عمرو بتركيز حتى انتهى، فتساءل ببطء:

- وانتَ شايف نفسك الشخص المناسب للمهمتين دول يا ابراهيم؟

أومأ إبراهيم برأسه مجيبًا وقال:

- أنا مُخلِّصَك المُنتظَر يا عمرو بيه ... فـ قلب الدوامة، استثمارك لازم يكون في غطاس محترف.

- استثماري؟

- (ساخرًا): Sure. أنا مش بَشتغل لوجه الله.

- والمُخلِّص المُحترف عايز كام؟

- تقصد عايز إيه؟

- وَضّح.

- أسهُم.

ران الصمت لفترة وجيزة أطرق خلالها عمرو مُفكِّرًا لثوانٍ قبل أن يهز رأسه قائلًا:

- استعِد، هَستصدِرلَك تصريح عشان تحضر معايا اجتماع الشئون المعنوية بعد شوية.

ارتسمت ابتسامة ظافرة على شفتي إبراهيم وهو يقول:

- طب وبالنسبة للـ ... ؟

قاطعه عمرو بحسم:

- بعد ما اشوف شغلك في الـ meeting هَتقعد مع الـ HR وتتفاوض معاه على طلباتك بتزكية مُباشرة مني.

- Fair enough.

لم يسمع إبراهيم السُبة البذيئة –وإن كان قد حدسها- التي نالت من عرض أمه بمجرد انتهاء المكالمة وانقشاع هولوجرامه، ثم لم يلبث عمرو أن طلب محادثة المهندس إسماعيل عياد، رئيس قسم الـ IT والذي استغرق ثوانٍ قليلة ليتشكل هولوجرامٌ ذو شعرٍ أشيب وعينين لم يغادرهما بعد أثر نُعاس ذبيح وهيكل عملاق مستقر في بذلة مُبعثرة قليلًا خلف مكتبه.

- وصلت لفين يا باشمهندس؟

أجاب المهندس عياد بصوتٍ أجَش:

- إحنا مَكملناش ساعتين لسه يا مستر عمرو!

قال عمرو:

- وانا مش بَطلب المستحيل يا باشمهندس!

- المستحيل إننا نخترق سيستِم بالقوة دي في ساعات.

- إنتَ الـ ITHD!

- سَبَق وشرحت لحضرتك إن نظام (س-١٨) تحديدًا كان خارج نطاق مسئولياتنا، صندوق إسوِد مُستَغلق علينا، ومستر آدم كان هو الوحيد اللي (س-١٨) مُبَرمَج للتعامل مع بصمته الحيوية.

قال عمرو من بين أسنانه:

- ومجرد ما يغيب مستر آدم، نلبس احنا فـ حيطة! مانعرفش حتى ندخل على ملفات الشركة! وفـ الظروف المنيلة دي!

قال عياد:

- لاحظ إن (س-١٨) مُبرمَج على الاستمرار في أداء مهامه وإدارة عمليات الإنتاج والتوزيع بكفاءة من دون الحاجة لتدخل بشري، دا على الأقل يضمن إن الـ ...

- مفيش ضمانات.

قاطعه عمرو بحسم ثم أردف:

- غير مقبول تحت أي ظرف إن البيزنس بتاعنا يُدار أوتوماتيكيًا من غير ما نقدر نتدخل!

قلب عياد كفيه وهو يتنهد قائلًا باستسلام:

- أنا والـ team بتاعي بنبذل قصارى جهدنا يا مستر

عمرو.

- عارف يا باشمُهندِس، وبرضه هَطلب منك تبذل أكتر، السكينة على رقبتنا كُلنا.

لم يتَلق تعليقًا على عبارته، فرَدَّدَ:

- باشمُهَندِس!

أجابه صمتٌ مُطبق إلا من الهَسيس الخافت المسموع بالكاد لمُكيِف الهواء المركزي، فانتبه هنا مُندهِشًا إلى أن المُكالمة الهاتفية انقطعت بالفعل، ثم لم تلبَث دهشته أن تضاعفت عندما تَذبذبَت الإضاءة المُنبعثة من جدران قاعة مكتبه.

رفع عينيه إلى مواضع انبعاث الإضاءة من الجُدران حوله عاجزًا عن استيعاب ما يحدث، وفي اللحظة التالية وقَفَ شعر رأسه وانخلع قلبه من مكانه عندما طرق الصوت المألوف أذنيه:

- اسمع كلام صاحبَك يا عمرو.

انتفضت كل خلية من خلاياه وهو يلتفت إلى باب القاعة الذي انزاح ببطء.

- (س-١٨) صندوق إسوِد.

ومن ورائه، رأى آخر شخص كان ينتظر رؤيته.

- مُفتاحُه معايا أنا بَس.

***

عوازل الصوت مَنعَت أصوات الطلقات والخبط والتكسير من اجتياز حوائط الشقة التي تُبطِّنها؛ لذا فخلال هبوطه درجات السلالم لم يُصادف رفعت أحدًا من سكان شُقق البناية في هذه الساعة المُبكِرة من الصباح.

هبَطَ الطوابق الثلاثة وثبًا وقلبه يخفق في صدره بانفعال يذوقه لأول مرة مُنذَ استيقاظه من غيبوبته قبل عام.

«أنا عارفة انَك مَبتثِقش فـ حَد غيري».

بينما صيحة زين «اهرررررب» تدوي في رأسه.

انزلق مِصراعَا بوابة البناية الزجاجية بنعومة لدى اقترابه منها، فعبر من بينهما ركضًا.

«بس انا عايزاك تثِق في زين».

اهرب يا رفعت!

أكان عليه –فكَّرَ- أن يبقى؟

«هياخد باله مِنَك».

ما كان ليفعل لو بقي؟!

ينقذ رفيقه؟! ينقذ زينًا؟!

«وعايزاك انت كمان تاخد بالك منه».

غاض قلبه بين ضلوعه.

كيف وقد عجزَ لأول مرة عن الوصول لمخاوف أحدهم مُنذ تعلم ممارسة قدرته الخارقة؟!

اجتاحهُ الهواء المُثلَّج بمجرد خروجه من بهو البناية

الدافئ المُكَيِّف، فارتعد جسده.

لم يكُن هناك سبيل لمساعدة زين بالنسبه له هو – رفعت- على الأقل وقد أخفقت قدرته النفسية لأول مرة.

عَلِمَ جيدًا أن صاحب الخوذة هذا قد جاء هنا خصيصًا للنيل منه، لتصفيته، وكاد لينجح بالفعل لولا تدخل زين واستماتته في الدفاع عنه،

غادرت الأبخرة البيضاء طاقتي أنفه وهو يَجِد الركض قدر المُستطاع على الرصيف المُبتل.

«عايزاك تسمع كلامه فـ أي حاجة يقولهالَك».

اهرب يا رفعت!

أراده زين أن يهرب من هذا القاتل، وخاطر بحياته ببسالة من أجله، أفكان الأصوَب إذن أن يبقى في مكانه ويموت معه فتضيع تضحيته بحياته هباءً؟!

كيف حدث كل هذا؟!!

وأين اختفت أمل؟!!

أمل!!

«فيه خطر بيقرَّب ... خطر شديد».

سمع الصوت قادمًا من عِل، صوت زجاج ينكسر.

وقبل أن يرفع رأسه لأعلى، كان قد هَبَطَ أمامه وانغرست قدماه في أسفلت الطريق.

توقف رفعت بغتة عن الركض الأقرب للهرولة، فكاد أن ينزلق ويسقط على ظهره.

القامة الفارعة المُتشحة بالسواد.

الساقان المزدانتان بالعضلات مشدودتان إلى الأسفلت.

الخوذة الداكنة التي بدأت تنعكس عليها زرقة السماء الشاحبة.

تَقَدَّمَ منه فتراجع رفعت للوراء وقلبه ينبُض بعنف.

تسللت أصابعه إلى جيبه، شعر بالملمس البارد لميدالية بها مُفتاح وحيد.

وكمحاولة يائسة أخيرة، دفع بسياله الحيوي ليلتحم بسيال هذا المتشِح بالسواد.

داخل الممر البارد ذي الجدران المعدنية، قبض على مقبض المنشار الكهربائي، ضغط زناده فتصاعدَ أزيز دوران إسطوانته حول محورها، ومن دون تردد دس شفرتها الحادة في موضع لحام الباب بالحائط فانبعثت نافورة من الشرار.

أما بالخارج، على رصيف ذلك الكومباوند الغردقي، فكانت خمسة أمتار لا أكثر من الهواء البارد المُشبَع ببخار الماء تفصل بينهما عندما دَوَت تلك الصرخة، وهوى جسدٌ من ارتفاع ثلاثة طوابق ليرتطم بجسد المُتشِح بالسواد فيسقط معه أرضًا.

جسد زين.

لم يك يقاتل، لمح رفعت وجهه وقد طمست الدماء والكدمات ملامحه ورآه وعدوه يتدحرجان حتى وسط الشارع.

- اهرب، اهرب.

هذه المرة، لم يتزحزح رفعت من موضعه قيد أنملة،

زمَّ شفتيه بتصميم، وانبعث الوميض مُجددًا من وراء عدساته الداكنة.

جَز على أسنانه –داخل الممر المعدني- وهو يدفع بالمنشار الكهربائي أكثر وأكثر، وضيق من حدقتيه لاتقاء الشرر الذي ملأ المكان وأفعمت أنفه رائحة شياط.

أما زين، فعجزت أصابعه عن مزيد من التشبث بخصمه الذي دفعه عنه وانفلت منه بيُسر، ولم يلبث زين أن رأى خوذته الداكنة تطل عليه من عل.

رفع رفعت سبابته عن زناد المُنشار الكهربائي فتوقفت إسطوانته عن الدوران، نظر إلى الشَّق الطولي الضئيل الذي أحدثه المُنشار في موضع لحام الباب مع الحائط، الشَّق ذي الأطراف المُسوَدَة والذي تتصاعد منه الأبخرة.

انحنى، مَدَّ رأسه ليسترق النظر عبره.

الصورة التي رآها كانت مشوشة مُهتَزة، وكأنها بَث تليفزيوني في منطقة عشوائية تَضعُف فيها إشارات استقبال الأقمار الصناعية، والأصوات مُتداخِلة تَغلُب عليها شوشرة استاتيكية قوية، رأى حَيزًا غير واضح المعالم، ولمَحَ في قلبه شابًا فارعًا أنبأته أنفاسه المُتلاحقة المذعورة بأنه هو نفسه المُتشح بالسواد صاحب السيال الحيوي، كان جاثيًا على ركبتيه، مُنكفِئًا على وجهه، ذراعه الأيسر مَلوي خلف ظهره في قبضة شخص آخر متين البُنيان، لا تكاد تَبين ملامحه في الإضاءة الضعيفة المُتَذبذِبة.

- هتحتاج سايبورج جديد يا وِل.

سمعها تتردد بصوت بدا له -رغم الشوشرة الاستاتيكية- مألوفًا.

صاحب الإكتوبلازم المُنكفئ على وجهه يقاوم بحركة محمومة، ثم لا يلبث أن يصرخ عندما تنكسر عظام ذراعه المَلوي، وسمع رفعت الصوت المألوف يتردد مرة أخرى:

- *التالتة تابتة يا وليد.*

وهنا لمعت الإضاءة المتذبذبة لجزء من الثانية، فلمح رفعت وجه الشخص الآخر الذي كسر ذراع صاحب الإكتوبلازم، اجتاحته الدهشة، وعرف عندئذٍ لِمَ بدا له صوته مألوفًا.

كان الصوت هو نفس صوت رفيقه المُمَدَّد أرضًا وسط الشارع تحت رحمة خصمه المَوتور.

صوت زين الذي رأى من بين جفنيه المتورمين هذا الخصم الجبار يبتعد عنه مُتجهًا نحو رفعت.

وبينما كان يُنازع عضلاته المُنهكة لاستعادة التحكُم فيها، اخترقَت ضجة مباغتة هذا السياق وبعثرته تمامًا.

أدار المُتشِح بالسواد رأسه المُتخوِّذ بحركة حادة تجاه مصدر النفير العالي الذي شَقَّ صمت الصباح، فرأى سيارة داكنة قادمة من ناصية الشارع بسرعة هائلة، أنبأته البيانات التي بَثها له كمبيوتر خوذته بنوعية السيارة وسرعتها، وبأنها واحدة من أسطول سيارات Egy- Nergy التي يعمل لحسابها، وقبل أن يحرك ساكنًا فوجئ بها تنقض عليه بسرعتها التي تتجاوز

المائة وخمسين كيلومتر في الساعة.

وفي الجزء التالي من الثانية كانت قد صدمته بعنفٍ شديد فاقتلعت جسده من مكانه، وأطاحت به لعشرات الأمتار إلى الوراء ليسقط مُمددًا على أسفلت الطريق.

فرملة بارعة دارت معها السيارة وتوقفت على بُعد عدة أمتار.

رأى رفعت بابها ينفتح ويغادرها رجل متين البُنيان، أشيب الشعر معقوصه في خصلة ذيل حصان مدلاة خلف ظهره، اتجه نحو زين بخطوات سريعة وانحنى على جسده المُمَدَّد.

تحفزت حواسه وتماوجَ سياله الحيوي للذود عن رفيقه، وأرهف السمع، فالتقطت أذناه صوت زين إذ ردد بدهشة واهنة وهو يحدق في الوجه الدخيل المُنحني عليه:

- كابتن خالد!

ألقى الكابتن خالد فضالي نظرة متفحصة على وجه تلميذه القديم الذي امتزجت ألوانه، ثم قال بصوت خالٍ من أية انفعالات:

- عَدَّى زمن يا زين.

سعل زين فتناثرت قطرات من الدماء من بين شفتيه وقال:

- توقيت ممتاز.

- لسه وقت الحساب مجاش.

وأدار عينيه ليرمق رفعت الواقف عن كَثَب وتساءل:

- البطارية؟

أومأ زين برأسه، ثم تساءل بدوره:

- متابعنا من إمتى؟

كانت الضجة قد بلغت أسماع القلة التي استيقظت مبكرًا من سكان العمائر المحيطة، وأطلَّت وجوهٌ مذعورة من النوافذ والشُرفات، ألقى الكابتن خالد نظرة سريعة عليهم ثم قال بعجالة:

- هَتفهَم فـ السّكة، قوم معايا.

وأعقب هذا بأن لَفَّ ذراعه حول كتفه ودفع كفه أسفل إبطه ثم جذبه بذراعه الأخرى ليُنهضه على قدميه.

- قول لصاحبَك يركب العربية.

قالها خالد بلهجة آمرة وهو يتجه به نحو السيارة، فتساءل زين بصعوبة:

- على فين؟

أجابه بصرامة:

- مفيش وقت، (مومِئًا برأسه نحو الجسد المُتشِح بالسواد) هَيفوق بين لحظة والتانية.

استقر رفعت على أريكة السيارة الخلفية، بينما زين يسأل قائده القديم:

- إنتَ تعرفه؟!

انطلق الكابتن خالد بالسيارة مُرددًا بتهكم:

- إنتَ لسه مَعرفتوش؟!

تعلقت عينا رفعت عبر زجاج السيارة الخلفي بالجسد المُتشح بالسواد والذي راح يتضاءل مع ابتعاد السيارة

بسرعة، وخُيِّل له، قُبيل انحرافها، أنه لمحه ينهض من رقدته.

- وليد، زميلك القديم.

***

- مِش هتقولي حمد الله على السلامة يا عمرو؟!

سمع عمرو عزام الكلمات المغلفة بنبرة ساخرة، وكأنها أصداء قادمة من بعيد عبر زجاج سميك كاتم للصوت، استغرق ثوانٍ لينتزع نفسه من براثن الصدمة الهائلة التي زلزلت أركانه وعَطَّلَت حواسه، ويفتش عن صوته الحبيس وهو ينهض من خلف مكتبه قائلًا بلهجة حاول أن يمزج دهشتها بالفرحة:

- مستر آدم! الحمد لله على السلامة!

استنفر بحق قصارى جهده ليغالب ذهوله والقلق الذي تفجرَ في أعماقه، وليَضخ أكبر قدر ممكن من الحرارة في صوته وحركة جسده، بينما يندفع ليصافح آدم المصري، بل وراودته فكرة أن يقفز فوق أسوار الكُلفة الرسمية بينهما ويعانقه، لولا وقفة آدم الثابتة وذراعه التي مدها نحوه على امتدادها وكأنه يدعوه للاكتفاء بمسافة المصافحة بينهما.

- أنا مِش مصدق نفسي!

تلاعبت بسمة غامضة على شفتي آدم وهو يقول:

- عُمر الشقى بَقِي.

وتجاوزه موغِلًا بقلب القاعة وهو يجيل بصره في أرجائها وكأنه يعاينها للمرة الأولى، ثُمَّ دار حول المكتب والتفَت إلى عمرو قائلًا:

- تسمحلي؟

بالرغم من حياد لهجته إلا أن أذنا عمرو لم تُخطئا

تمييز الرنة الساخرة فيها، ففارَ قلقه وإن لم يَطفُ على صوته وهو يردد بحرارة:

- يا خبر يا مستر آدم!

جلس آدم خلف مكتب عمرو، وضع ساقًا على ساق ودَسَّ سيجارًا بين شفتيه، سارعَ الشاب بإشعاله له وجلب له قهوته المُفضلة، ثم جلس قبالته يجوس بعينين مأخوذتين في ملامحه.

تقاطيعه المنحوتة من صخرٍ أصم، اللحية الناعمة التي خطها البياض تؤطِر وجهه، ثيابه التي ظلت على حالها منذ غادر بها ليلة أمس، وكأنه يستوثِق مما يراه.

قال له آدم مبتسمًا:

- بتبُصلي كدا ليه؟

هَز عمرو رأسه بلا معنى، ثم لم يلبث أن غلبه فضوله فتساءل:

- إيه اللي حصل، مستر آدم؟!

نظر له آدم مليًا وهو ينفث دخان سيجاره ثم قال بهدوء:

- إنتَ مش متابع الإعلام؟

نفذت عيناه مباشرة في عيني عمرو الذي ازدردَ لعابه وقال مرتبكًا:

- متابع طبعًا أول بأول ووصلتني تقارير القوات البحرية، أنا بَسأل عن... إزاي يعني؟! أقصد ان ... ! ...

واختنقت -ربما لأول مرة في حياته- حروفه وأعجزه الانفعال عن استكمال سؤله مما أورثه خنقًا مُضاعفًا

على نفسه وعلى رئيسه العائد، فالتقط نَفَسًا طويلًا وزفر بعمق لكبح جماح توتره ثم قال:

- أقصد اسأل معاليك، إزاي نجيت من حادث إسقاط الطوافة؟

نَفَثَ آدم المزيد من دخان سيجاره وقال باقتضاب:

- قولتِلَك غُمر الشقي بقي.

حدَّقَ عمرو في وجهه وفتح فمه ليعرب عن حيرته، ولكن آدم بادره:

- سمعت ان فيه أخبار حلوة.

بدا هذا الانحراف في مسار الحديث مفاجئًا غير مريح أو مُشبِع للفضول الذي ينهَش أعماق عمرو، خاصةً أنه يعلم جيدًا أن أنظمة الطوارئ بالطوافة –رغم تطورها- لا تتجاوز قدرتها مناورة الصواريخ، ولا تشمل إنقاذ الرُكاب من إصابة مُباشرة بصاروخ، غير أنه –كعادته- جارى رغبة رئيسه فقال بسرعة:

- الأخبار ممتازة، الشبكة كلها بتتداعى، الميليشيات المُسلحة سَقطِت في معارك العلمين والوادي الجديد وأسوان، وأغلب أفراد شبكة التمويل اللي فالقايمة اللي وصلتنا من The Eye في قبضة السُلطات، ومسألة وقت لغاية ما كُلهم يتمسكوا، البلد دلوقتي مقفولة (رفع أصابعه مضمومة) كده.

- وبَرَه؟

- نفس الأخبار تقريبًا في العالم كله.

وابتسم مُضيفًا:

- بالإضافة لنجاتك طبعًا يا مستر آدم، دا خبر هَيهِز العالم كله.

- فعلًا!

مرة أخرى لَم تَرُق الرنة الساخرة في صوته لعمرو الذي ردد:

- أكيد.

جَثم صمتٌ ثقيل لما يقرب من دقيقة كاملة، استمر خلالها آدم في ارتشاف القهوة وإطلاق سُحُب الدخان الأبيض من دون أن يتفوه بحرف وهو يرمق مرءوسه الشاب بنظرات نافذة، شعرَ الأخير بوطأتها على كيانه المُثقَل بالأسرار.

- قلِقت عليا يا عمرو؟

ارتفعَ حاجبَا الشاب وأجاب مُندهِشًا:

- طبعًا!

- ليه؟!

ارتبك عمرو للحظة ثم قال:

- دا سؤال يا مستر آدم؟! حضرتَك أستاذي ورئيسي واخويا الكبير، واتعلمت مِنَك كتير، بالإضافـ ...

قاطعه آدم:

- أقصد ليه سَمَحت برَصد وتتبُع مكالمتنا الأخيرة؟

هوى السؤال كالصاعقة على عمرو، فاتسعت عيناه وغاضت الدماء من وجهه، وخرج صوته مُختنقًا أدغمَ بعد لحظة من الصمت المذهول:

- بتقول ايه يا مستر آدم؟!

- إنتَ سمعت السؤال.

وأطلق دفقة من الدخان في وجهه مُباشرةً واستطرد:

- بمعنى أدَق: ليه سَمَحت للأمريكان بتعقب المكالمة ورَصد مسار طوافتي وإسقاطها بالصواريخ؟

بدا وجه عمرو ذو الملامح الدقيقة والرأس المثلث المُغطى بشعر أسود قصير أقرب لنَحت مُعَبِر موضوعه الصدمة والذهول، تلاحقت أنفاسه وارتعشت شفته السفلى، شعر بدخان السيجار يصعد في أنفه ويحرق شعيراته، فدمعت عيناه وهَمَّ بقول شيء ما على سبيل دفع الاتهام الخطير عن نفسه، غير أن آدم قطع عليه الطريق:

- عمرو، انتَ شاب ذكي، وبقالك سنين بتشتغل معايا، يعني المفروض انك خلاص فاهِم إنى مادام بَوجِهلَك اتهام بالحجم دا، يبقى انا عندي فكرة عن اللي بَقولهولَك (نفثَ دُخانًا) فبلاش نضيع الوقت في مُهاترات.

تبخرت الكلمات من على طرف لسان عمرو، ولاذ بالصمت إلا من الأنفاس الثقيلة التي غادرت صدره بصوتٍ مسموع.

- جوليا فرانكلين وعدتَك بإيه؟

خيمَ الصمت للحظاتٍ أخرى تراقصت خلالها سُحُب دخان السيجار بينهما، قبل أن يجيب عمرو بهدوء ظاهري:

- وعدتني انها تدعم رئاستي لـ E. N. المصرية بعد

الانفصال.

هَزَّ آدم رأسه قائلًا:

- من ساعة ما قابلتَك وانا مُعجَب بطموحَك.

- أنا آسف يا مستر آدم.

رفع آدم حاجبيه متسائلًا بسخرية:

- بتتأسَّف على خيانتك؟!

- إنت اللي اضطريتني.

- (بصرامة): أنا اللي عملتك.

سحب عمرو مُسدسًا من باطن سترته، سَدده نحو رئيسه قائلًا بتوتر:

- إنتَ السقف اللي مِش هَعرَف اتخطاه.

نظر آدم إلى الفوهة التي تواجهه، وقال بابتسامة هازئة:

- فقررت تهِد السقف دا.

ازدردَ الشاب لعابه وهو يقول:

- دي سُنة الحياة، الجديد (يضغط زناد المُسدَس) بيزيح القديم.

تكة خافتة صاحبت خروج الطلقة عبر الفوهة بسرعة تفوق سرعة الصوت نحو منتصف جبهة آدم الذي يبعد عن الفوهة بما يقل قليلًا عن الأمتار الأربعة، الأمر الذي يعني أن الرصاصة ستخترق جمجمته في نفس لحظة ضغط الزناد تقريبًا.

غير أن هذا لم يحدث.

نظر عمرو غير مُستوعِب لرئيسه الذي رفع فنجان

القهوة إلى شفتيه ليرشف آخر قطراتها، ولوهلة تشكك في أنه لم يضغط زناد المسدَس بعد.

- إنت غلطان يا عمرو.

قالها آدم بهدوء.

- سُنة الحياة إن القوي.

هنا، بدأ عمرو يُميِّز الجسم الضئيل الذي يسبح ببطء في الهواء متمردًا على قانون الجاذبية، في منتصف الخط غير المرئي الذي يفصل بين فوهة المسدس وجبهة آدم.

الرصاصة التي أطلقها!

- بيغلب الضعيف.

استغرق عقله وقتًا ليحلل ويستوعب تفاصيل المشهد غير الطبيعي، وعندما فعل، عصف رعبٌ حيواني بكيانه كله، دفعه ليقفز إلى الوراء بحركة متشنجة كادت تسقطه أرضًا.

- نصيحة أخيرة من أستاذك ورئيسك وأخوك الكبير.

ضغط الزناد بهيستريا مرات متتاليات حتى فرغت خزينة المُسدَّس، وفي كل مرة كان عدد الطلقات السابحة في الهواء يزداد طلقة إضافية، بَدَت الرصاصات كما لو كانت قد انغرست كلها في جدار شفاف يفصل بين السلاح والهدف.

- لما تفكر تقتل حَد نجا من انفجار طوافة بصاروخ أرض- جو.

جحظت عينَا عمرو وهو يتراجع للوراء مَشدوهًا، حتى

كادتَا أن تقفزَا من محجريهما.

- إسأل نفسَك الأول.

الطلقات العالقة في الهواء فقدت بغتة قدرتها الميتافيزيقية على مقاومة الجاذبية، فسقطت متناثرة بصوت مسموع على الأرضية البورسيالينية.

- هوَ نجا إزاي؟!

اختنقت أنفاسه بغتة عندما اعتصرت أصابع قوية غير منظورة حنجرته، ورفعت جسده كله لبضعة سنتيمترات عن الأرض، نظر بعينين جاحظتين تشعان هلعًا إلى المسدس الذي في يده، وقد فقدت جزيئاته تماسكها فاستحال مسحوقًا تفتت وانسلَتَث ذراته من بين أصابعه.

رفع بصره لآدم فرآه لا يزال على جلسته، خُصلة من شعره تهدلت على جبينه، يُحدِّق فيه بعينين دمويتين ضاعفتَا من رعبه.

في هذه اللحظة، قفز إلى مقدمة رأسه مشهدٌ ظل يناوشه ويَلِح على ذاكرته الواعية طيلة الأيام الماضية –من دون أن يعرف لِمَ- مُنذُ يوم تفجير مقر الشركة الرسمي في بارادايس هايتس.

أما آدم المصري، فظل ثابتًا في مكانه ... رفع عمرو عينيه إليه، فرآه جالسًا في مقعده، منتصب الظهر، لم تمسسه شظية واحدة من الشظايا المتطايرة من زجاج النافذة التي تبعد عنه خطوات قليلة ...

الآن يعرف لِمَ!

جاهد ليلتقط أنفاسه بمشقة، وخرج صوته متحشرجًا:

- إنت مين؟!

جاءه صوت آدم عميقًا مخيفًا من وراء سحاب الدخان الأبيض:

- دا سؤال كويس.

آلام مبرحة راحت تزحف على جسده، كل عظمة من عظامه تئِن.

- أنا ليا ٣ أسامي.

كل خلية من خلاياه تصرخ.

- عايز أي إسم فيهم؟

رُغمًا عنه، غادر صدره أنينًا طويلًا مُعَذبًا.

- آدم؟

اشتعلت النيران ببطء في ثيابه.

طوح ذراعيه وقدميه بجنون.

- ولا نور؟

الأنين الخارج من صدره يستحيل صراخًا مُدوِيًا.

قال الجالس وراء المكتب بينما وَهَج اللهب ينعكس على وجهه:

- ولا أدهم؟

كان هذا آخر ما سمعه عمرو قبل أن يَصُم صراخُه هو نفسه أذنيه.

***

تشخيص حالة وليد بعد لقائكما الأخير يا عزيزى زين قبل عامٍ فائت في عربة المترو بمدينة نصر كان كسرًا في عظام الفك والجُمجُمة، وارتجاج ونزيف شديد في المُخ، وتهتُّك في الفَص الأيمن، بالإضافة طبعًا للكسور المُضاعفة في ذراعه التي خرجت سليمة من قتالكما الأسبق على مَتن طوافة الشركة.

حالة الفتى كانت حَرِجة بالفعل، النزيف غزير وكان ليترك أثرًا فادحًا على وظائفه الحيوية لو نال الفرصة الضئيلة التي تبقت له في النجاة؛ لذا فعندما طُرِحَت فكرة علاجه بإحدى التِّقنيات الحديثة التي لم تبارح طور التجارب بَعد، لم يستغرق اتخاذ القرار وقتًا، أنتَ تعلم أن وليد بلا أهلية، وقام قسم الـ HR بالتقاطه صغيرًا لم يجاوز الرابعة عشر من إصلاحية رعاية الأحداث، وإلحاقه ببرنامج تنشئة الصيادين، لم يكن له أهلٌ أو أقارب معروفين يشترط القانون طلب موافقتهم على إجراء التجربة العلاجية عليه، دَعَك من أنه كان ينزلق وبسرعة نحو الموت.

أنا متأكِّد من أنك لاحظت في قتالك معه قبل دقائق أن سرعته ومهاراته قد تضاعفت أثناء القتال نفسه. أتدرى لِمَ؟ لأنه دَرَس سرعتك وقدراتك خلال لحظات القتال الأولى، ومِن ثَمَّ قام بزيادة سرعته وتطوير أدائه باستخدام تكنيكات مُضادة لتكنيكاتَك.

شعر أن غريمه قد ازدادت سرعته على نحوٍ مفاجئ

أو كأنه صار يعلم بالضبط متى وأين سيسدِّد ضربته، فطاشت ضرباته كلها هذه المرة ولم تُصِب إلا الفراغ، على عكس ضربات هذا الغريم التي عجز زين عن ملاحقتها بالصَّد أو التفادي، فانهالت كالمطر على وجهه وجسده وبعنف شديد ...

لا، ليس وليد بالضبط هو من فعل، ولكنها تلك الشريحة التي تم تثبيتها في مخه، وتتصل بضفائره ونهاياته العصبية وتتحكم في نِسَب الصوديوم والبوتاسيوم ومسارات الشُّحنات الكهربائية وبالتالي تُسيطِر على أفعاله وردود أفعاله، وليد هو النموذَج الأكثر اكتمالًا لنجاح تجربة مُقاتِل سايبورج حقيقي ترتفع نسبة المُكوِن الآلي في آلية اتخاذ القرار لديه لأكثر من ٨٠٪ في المواجهات المُسلحة والأعمال القتالية والعسكرية.

الشريحة المزروعة في رأس وليد، والمحمية بجمجمة صناعية من التيتانيوم بدلًا من تلك التي شققتها ركلتك أيها الفتوة (!)، هذه الشريحة مُتصلة مباشرةً بـ (س-١٨). تُزوده بـ ...

- (س-١٨)؟!

تساءل زين وهو يدير عينيه إلى الكابتن خالد الجالس إلى مِقود السيارة المُنطلقة على أسفلت طريق الغردقة/ القاهرة تحت شمس الصُبح الوليد.

- (س-١٨) الكمبيوتر المركزي اللي بيتحكم في كافة عمليات الإنتاج والتوزيع والأمن لشركة Egy- Nergy،

قاعدة بيانات عملاقة تتلقى المُدخلات المعلوماتية من حول العالم ثانية بثانية، أعلى درجات الذكاء الاصطناعي المُتاحة في العالم، تخطيط استراتيجي ومركزي متكامل.

كل اللي بتستقبله أجهزة وحواس وليد من بيانات ومُعطيات بتتنقِل من خلال الشريحة لـ (س-١٨)، بيحللها ويدرسها وبيتخذ القرارات ويبعتها للشريحة في جزء من الثانية، والشريحة المُتصلة بأعصاب وحواس وليد بتنفِّذ القرارات دي. فاهمني؟ يعني انت فعليًا كُنت بتتعارك مع (س-١٨) مِش وليد!

قال زين وهو يمسح الدماء من على وجهه بالمناديل:

- اللي اعرفه انك سايب الشركة من سنة!

ألقى خالد نظرة سريعة عبر مرآة السيارة على رفعت الجالس كتمثال إلى الأريكة الخلفية ثم أجاب:

- سِبت الشركة قبل دخول وليد العمليات بأيام.

كوَّرَ زين المناديل التي اصطبغت بالأحمر وتركها تسقط في سلة المُهملات، ثم استدار بصعوبة نصف استدارة إلى قائده القديم وتساءل:

- إيه اللي بيحصل بالظبط يا كابتن خالد؟

سَحَبَ خالد سيجارًا من علبة في تابلوه السيارة، دسه بين أسنانه، أشعله، ثم نفث سحابة من الدخان.

أنا هنا من أجلِك يا بُنَي، ومن أجل رفيقك صاحب القدرات الخارقة.

أعرف أنَك مُندهِش، وأن عقلك سيذهب إلى أن هدفي

هو الإيقاع بك بعدما كان بيننا في الماضي وتسبب في خسارتي لوظيفتي بالشركة، وإلقائي إلى الشارع. حسنًا، يبدو شهور التدريبات في مُعسكرات الصحراء أنسَتكَ دماغ أستاذك العجوز!

لربما كنت أحتقر ما فعلته أنتَ، لربما لا أبتلع لوثة الجنون التي أصابتك قبل عام وجعلتك تفسِد كل شيء من أجل بطارية موشِكة على الموت، لربما كان انقلاب حياتي رأسًا على عقب من وراء فعلتك الطائشة هذه، ولكنني –رغم كل شيء- لستُ ناقمًا عليك!

لِمَ؟

الأمر مُعقَّد بعض الشيء؛ لأنك في النهاية مدفوع بشيء أكبر منك، شيء يَكمُن في ذكرياتك البعيدة، في علاقتك بأمك، بأبيك، شيء مُعَقَّد يضغط على أعصابك، لمحته في غضبك الزائد وعُنفك غير المُبرَر في عملنا، ثم استوعبته كاملًا عندما زُرتُ بيتك –كي ألقي القبض عليك- ولمَست تعلقك بذكرى أمك. هذا الاضطراب مع طيش الشباب بالإضافة لعاطفة لم أزَل أحملها لتلميذي ومرءوسي، كل هذا سَهَّل عَلَيَّ توجيه شُحنة الغضب والنقمة نحو الجلاد الحقيقي: الشركة.

هل أحكي لكَ أيها السهم المكسور عن جلسات التحقيق المُطَوَلة التي مَضغ فيها مُحققو Egy- Nergy لحمي بين ضروسهم وشربوا من دمي حتى ارتووا؟!

أأصِف لك تقلبي كسمكة على مقلاتهم بينما أجيب الأسئلة المُكررة صاغرًا مُنكَّس الرأس؟ سنوات عُمري

التي أفنيتها في خدمة الشركة توشِك على التلاشي من ورائي، وسنواتي القادمة معتمة لا يظهر منها شيء ... الماضي والمستقبل مُعلقان بخيط واحد رفيع، سرعان ما انقطع بنصل الحُكم القاطع الذي غادر لجنة آلهة التحقيق. في لحظة واحدة هَويث، بلا مُدخرات أمَّنها الماضي، ولا أمل في عمل يصلح لعسكري سابق قطع شطرًا لا بأس به من النصف الثاني من عمره.

صَدَرَ الحُكم ولا استئناف له، إلى الشارع يا كابتن خالد، ولا مستحقات مالية أو مكافآت نهاية خدمة لك في ذمتنا (وهُنا بيت القصيد يا زين، السبب الحقيقي لسرعة التخلص مني ومن أعباء مستحقاتي المتراكمة لديهم). هذا هو عقاب الخاسرين في شريعتنا، لا يشفع لك أنك من الرعيل الأول من صيادي الشركة، لا تشفع لك أرقامك التي حققتها طيلة العقدين الماضيين، لا شأن لنا بأسرتك وأبنائك الموزعين على مراحل التعليم المختلفة، كان أولى بِك أنت أن تفكر فيهم عندما تخاذلت في أداء عملك وتسببت في حالة سهم مكسور.

من فضلك، لا تعقيب على قرار لجنة التحقيق. وداعًا، نشكرك على الرحيل بهدوء.

لذا، عزيزي زين، لم أتردد كثيرًا في الموافقة على العرض الذي تلقيته هاتفيًا في منتصف ليلة ربيعية بعد ثلاثة أشهر من خروجي مهيضًا مُفلسًا من داخل أسوار مملكة Egy- Nergy.

- عَرض إيه؟!

تساءل زين باهتمام، فأجابه الكابتن خالد وهو يرسل بصره عبر زجاج السيارة المُنطلقة أوتوماتيكيًا:

- الثورة.

مُحدِثي –لغته الانجليزية، وقَدَم لي نفسه باسم نظيم الدين- كان مُختصرًا ووافيًا.

أخبرني عَبر اتصال هاتفي مُؤمَّن أنه مُنسِق لدى عددٍ من الجهات التي يهمها إسقاط استثمارات Egy-Nergy. قال لي: إنهم عَلِموا بشأن فَصلي من الشركة، وما أتعرض له من أزمات مالية حادة، وعَرَض عليَّ الانضمام إليهم بمقابل مادي مُغر كفيل بتأمين مستقبل أبنائي، بالإضافة لفرصة لا تُعَوَّض للثأر مِمَّن أذلوني وسرقوا مالي.

لم أستغرق –كما لك أن تتخيل- وقتًا لحسم أمر موافقتي.

- (بذهول): إنتَ يا كابتن خالد معانا!!!

نفَثَ خالد حلقة من دخان السيجار في وجهه الممتلئ بالكدمات وقال:

- إنتَ اللي معانا يا زين.

دعنا نقفز فوق التفاصيل غير المهمة يا بُنَي، فالوقت يُداهِمنا.

دخولى المُعترَك يعني أمرين اثنين، الأول –ولابُدَ أنكَ أدركته بنفسك- هو أن الخطة قد فشلت؛ الهجوم العسكري على مزارع Egy- Nergy حول العالم أحبِطَ، ورجالنا تمت تصفيتهم بالكامل، حتى مُعسكرات

التدريب تم اجتياحها بطائرات وصواريخ، ثم مُدرعات الجيش وقوات مكافحة الإرهاب، وأغلب شبكات التمويل سقطت في قبضة الأمن.

ثمة من سَرَّب خطة المراحل النهائية من العملية كاملةً إلى **E. N.** في لحظة مفصلية.

- وأمل؟؟؟

- فـ إيدهُم.

هوى قلب زين بين قدميه، تقلصت ملامحه المتورِّمة ونَدَّ أنينٌ أشبه بالنحيب من بين أسنانه، رمقه الكابتن خالد بنظرة حَمِلَت الاستنكار وشيء من الازدراء.

لا تَخش عليها يا فتى، هي في أمان طالما هذا المخلوق العجيب الجالس إلى الأريكة الخلفية بعيدٌ عن أيديهم. الخطر الحقيقي يتهددنا نحن. للدقة، يتهددك أنت ما دُمت مُرافقًا له –للمخلوق العجيب- ولي أنا ما دُمت قَبلتُ مهمة نجدتكما.

لقد خرج الكل لاصطيادكما يا زين، في هذه اللحظات وبينما نتحدث، تمتلئ الشوارع برجال وأفراد ومُرشدي الشرطة وعملاء استخبارات الشركة، ينبشون كل شبر منها كالذئاب المسعورة بحثًا عنكما، صورتاكما مُذاعتان على جميع المحطات ومواقع الإنترنِت، لا مكان بوسعكما الاختفاء فيه؛ لأن البيوت والفنادق والمتاجر والمولات والمطارات ومحطات القطارات والباصات تحت الرقابة الدائمة لأنظمة The Eye التي عَثَرَت عليكما قبلًا في مطار الغردقة بعد أن زُوِدَت ببصمتيكما

الحيويتين، وتتحين ظهوركما مرة أخرى.

باختصار، المكان الوحيد الآمن بالنسبة لكما –وبشكل مؤقت- هو صالون هذه السيارة.

- والحاجة التانية؟

لفظ زين السؤال بعد بُرهة من الصمت، فالتقى حاجبَا خالد الأشيبين وهو يردد:

- التانية!

- قولتلي ان ظهورك معناه حاجتين، الأولى ان خطة الثورة فشلت. التانية إيه؟

قال الكابتن باقتضاب:

- إن plane B بدأت.

- Plane B!

لا مزيد من التفاصيل يا بُنَي، دورنا الآن هو البحث عن ملاذٍ آمن لإخفاء حمولتنا الثمينة، صديقك العجيب هذا، خلال الساعات القادمة، حتى تصلنا التعليمات الجديدة، مكان بعيد عن عيون الأمن والاستخبارات، والأخطر: أنظمة The Eye.

طال الصمت بينهما هذه المرة، فرفع الكابتن خالد عينيه ليرمق خيوط الشمس التي تقاتل للنفاذ من خلال طبقات الغيوم الرمادية فوق الطريق المُمتَد لمئات الكيلومترات حتى حدود العاصمة، أما زين فأطرق برأسه مُفكرًا وشاعرًا بآلام جسده ورأسه تنبُض بعنف، ألقى نظرة على المرآة الجانبية التي عكسَ زجاجها صورة رفعت الغارق في صمته.

قال بصوتٍ ضعيف:

- كابتن خالد.

أدار الكابتن رأسه إليه وهو يطلق حلقة أخرى من الدخان.

- أنا اعرف مكان نقدر نختفى فيه.

***

(قبل ما يزيد عن الخمس وعشرين عامًا):

حينما استيقظت ذلك الصباح، لم تفهم شيئًا.

رأسها كان ثقيلًا مُصمتًا كجلمود صخر، لدرجة أنها عجزت حتى عن استدعاء السؤال الكليشيهي الشهير «أنا فين؟» وإن كان –للحق- السؤال الأقرب لدماغها والأكثر إلحاحًا لما بدأ الجليد يذوب من حول مراكز التفكير في مخها هو «أنا مين؟».

ظمأ شديد يصحو في حلقها.

مُمَددة في فراش صغير، مُغطاة بأغطية بيضاء، الخراطيم تخرج من جسدها مُتصِلة بأجهزة ذات أزرار وشاشات ينبعث منها أزيز رتيب خافت.

الغرفة الصغيرة من حولها هادئة، نظيفة، مُضاءة بالنيون، وثمة نافذة زجاجية عريضة تلتهم نصف الحائط المواجه لها.

حاولت أن ترفع أصابعها بوهَن لتُخلِّص نفسها من الخرطوم الذي يخترق حلقها عبر فتحة أنفها، فعَجَزَت إلا عن إصدار همهمة غير مفهومة، في نفس اللحظة التي انفتح فيها باب الحجرة واندفعت داخله فتاة شابة في زي وردي اللون تعتمر قبعة بيضاء.

سمعتها تتكلم بحروف سريعة متداخلة عجزت عن تمييزها، زاغت عيناها وبذلت مجهودًا لترفع جفنيها عنهما.

امتلأت الحجرة بآخرين لم تقدر على إحصائهم،

ليس لكثرتهم، فعددهم لم يَزِد عن الطبيب النوبتجي الشاب ومُمَرِّض ممشوق القوام بالإضافة للممرضة الشابة أول من وصلَت، سمعتهم يتحدثون فيما بينهم، يوجهون إليها الكلام بابتسامات عريضة مُرحِبة وبلغة استغرقت وقتًا لتميِز أنها الفرنسية، يداعبونها ويهنئونها على سلامتها ويخاطبونها بـ مودمازيل شادية.

شادية!

وخز الاسم ذاكرتها الصماء، ليس لأنه بدا لها مألوفًا، بل العكس، والأصح أنه لفرط غربته عنها، كان أقرب لصدمة كهربائية انتفضت لها تلافيف ذاكرتها الميتة، فعادت تنبُض ببطء مُستعيدة أول ما استعادت اسمها الأصلي.

أمل!

اسمها هو أمل. أمل الشافعي.

إحساسها التائه بالزمن، وتأرجحها بين الوعي واللاوعي لم يسعفاها في الإمساك بطرف الخيط واسترداد تاريخها ببساطة، فاستغرقت أيامًا لَم تُحصِها؛ لترتب قِطع البازل ترتيبًا صحيحًا بالتزامن مع استعادتها لصحتها.

أخبرها أطباؤها أنها أتَت إلى هذه المستشفى الباريسية على مَتن طائرة خاصة قادمة من القاهرة، بعد أن أُصِيبَت في أحداث الفوضى الأخيرة التي صاحبت الصدامات المسلحة بين أجهزة الأمن

المصرية والجماعات الإرهابية الإسلامية.

في البَدء لم تفهم عَمَّ يتحدثون.

آخر ما استطاعت تذكره هو هذه الأيام العصيبة التالية لاختفاء أدهم، الأيام التي عادت لتنطبع على ذاكرتها ببطء عذبها وكأنها قطرات من الحمض تنسكب ببطء في حلقها.

الميدان الذي ضَجَّ بمعتصميه، رجال ونساء، أُسَر وأطفال وشيوخ، أنشطتهُم مُوَزعة بين التظاهر والهتاف والعبادة والابتهال إلى الله بعاجل نصره على القوم الكافرين (!)، المنصة لا تَكُف عن سَكب المزيد والمزيد من الآيات والأحاديث فوق جذوة حماستهم؛ سواء بصوت الشيخ فتحي الجهورى، أو بإسلوب خالد عباس –أبا نضال- الأخاذ الذي يكتسب يومًا بعد يوم سَمَت الزعيم. واحدٌ منهم، يتحدث لغتهم ويدين بدينهم ويشاركهم حلمهم الأعظم: الخلافة. يسمعونه إذ يخاطب قلوبهم ويشحذ هممهم من على المنصة، ثم لا يلبثوا أن يُشاهدونه –بإجلال- يُدلي بالبيانات والتصريحات لوسائل الإعلام المحلية والأجنبية أو مُتنقِلًا هنا وهناك في أرجاء الميدان، يطمئن على تحصينات مداخله وعلى أمان وراحة «شعبه» ... يطوف بين الخيام حاملًا وليده الرضيع نِضال بين ذراعيه، يُداعِب هذا ويَشُد من أزر أولئك، يَمِد جذور زعامته في قلوبهم التي أودعت مخاوفها وقلقها في خزائن مغلقة سَلَّمته مفاتيحها حبًا وطواعية.

هدير لا ينقطع من أصوات غزيرة تزعق في المايكات، أو تجلجل من حناجر المتظاهرين، أو تُلقي بابتهالاتها بين الأكُف المرفوعة إلى السماء توسلًا للنصر، أو تتداول تحليلات وأخبار لا يعدو أغلبها شائعات يتناقلونها بلهفة وطمع في قرب انكشاف الغُمة، وتداخل كل هذا الزخم مع نداءات باعة الأعلام والبطاطا والكشري والكبدة والسجق.

أما هي، فكانت في أسوأ حال.

جالسة في إحدى الخيام التي تتوسط الميدان، تحرق سجائرها، تسمع كل ما يَفِح من حولها بنِصف وعي، بينما النصف الآخر يسبح في ملكوتٍ آخر.

«في اللحظة دي مش عايز اشوف أو افتكر واحدة غيرك».

تسترجِع صوته المُتهدِّج، عينيه الصادقتين ...

«والله العظيم».

أكانتا حقًّا صادقتين؟!

فأين ذهبَ إذن؟ ولماذا؟

تمزق صدرها الحائر بين قلقٍ ممض وغضب أسوَد واشتياق وحشي، راحوا يتصارعون حَولَ قلبها الذي رقد مُنهكًا عاجزًا عن الفهم، الدموع متحجرة في عينيها الزائغتين فيما حولها، تفتشان عنه بين الوجوه والأجساد، وكأنما تتحينًا ظهوره من وَسط الجمع المحيط.

تراجع وعيها بالحَدَث الضخم الذي يدور حولها،

حِلمها الذي ناضلت لأجله طيلة عامين كاملين، معركة الثورة على Egy- Nergy واسترداد حياة مصر والمصريين، انداحت الأصوات وانزلقت الكلمات على شمع أذنيها لتهوي وتتبعثر على الأرض، يستشعر جلدها روح القلق المتزايدة في الوجوه والكلمات، فلا يصل إلا النزر اليسير لروحها المُستقرة داخل قضبان أزمتها الشخصية.

لماذا ذهبت؟؟

أين ذهبت؟؟؟

يصرخ قلبها بغضب سرعان ما يستحيل ليأس واستجداء، فتظل الصرخات تتردد أصداؤها في شرايينها.

في البدء كان القلق عليه يلتهم روحها، ثم لم تلبث أن راحت خاطرة أخرى تنخسها كإبرة، من يَقدِر على إيذائه؟! من يستطيع أن يَمَس «أدهم صبري» بسوء؟!! أنتِ تخادعين نفسك يا فتاة، الحقيقة التي تخشين مواجهتها هي أنه أعرَض بعد أن ذاق، تتناسين أنه يصغرك بأعوام وبحاجة لفتاة لم تنَل منها السنون بَعد.

في البدء لم تَلقِ لها بالًا، ولكن خاطرة السوء سرعان ما راحت تتضخم وتتوحش، حتى خنقت أنفاسها وبعثت بها رغبة عارمة في تمزيقه إربًا بأسنانها ومخالبها العارية، ثم تتحسس الدبلة حول إصبعها، فتبهَت الرغبة وتتبدد؛ إذ يسحقها الحنين للأمان

داخل حضنه الدافئ الرحيب.

تعلقت عيناها ببشير الهلالي، صديقها ورفيق كفاحها، وهو يدلف إلى الخيمة بوجهٍ مُتجهِّم لا يحتاج لسؤال، ورغم ذلك سألته متعلقة بأهداب الأمل:

- عرِفت حاجة؟؟

ليهويَ قلبها متخبطًا في هَوةِ اليأس والعَدَم مع هزة رأسه النافية وقناع الأسف والخيبة على وجهه.

- اسمعيني كويس.

رفعت عينيها المرقرقتين إلى عينيه الجادتين، النبيلتين، قال بصوت مُنهَك:

- كل شيء انتهى.

رددت بخواء:

- انتهى!

أنشب أصابعه في كتفيها صائحًا بغضب:

- فوقي بقى يا أمل! بقولِك خلاص، كل شيء انتهى.

قالت بوهَن:

- انتهى ازاى؟

تذكرت تلك اللحظات، وهي تتابع المشاهد التوثيقية لأحداث فَض الاعتصام بعينين تفيضان بالدموع، على الشاشة المُسطحة العريضة في حجرتها بالمستشفى الباريسي، عَرِفَت أن الأمر قد انتهى قبل عشرة أيام، بينما كانت هي تسبح في ظلمات الغيبوبة، وأن مجزرة حقيقية قد جَرَت على مرأى ومسمع العالم كله بحق المعتصمين العُزَّل بقلب الميدان.

تقلبت من محطة لمحطة بين مشاهد الدم والرصاص والنيران والجثث المتفحمة، والجماجم المثقوبة بطلقات الرصاص، والمسحوقة تحت جنازير الدبابات، وسماء الميدان المُلبَّدة بغيوم الدخان الأسوَد.

بكت عيناها دموعًا، وذرف قلبها دمًا، وهي تشاهد الصور المُهتزة المُلتَقطة بكاميرات الهواتف النقالة لرجال ونساء وأطفال يحاولون الهرب من أمام المُجنزرات، طفل يصرخ ويبكي بهيستريا بين عشرات الجُثث المتناثرة على الأسفلت المُلتهِب، مُنتقبة ضئيلة الجسد تتلقى طلقة في صدرها تقتلعها من مكانها، الجرافات تزيح الجثث كما لو كانت أكوامًا من القمامة، وشاب مُلتحٍ مُلطخةٌ ثيابه بالدماء يرفع رأسه للسماء ويتقافز بذراعين مفتوحين صارخًا بهياج «إنت فين؟؟».

التقارير الإخبارية تتحدث عن أرقام مُفزِعة للذين سقطوا إبان اجتياح قوات الأمن المصرية لميدان التحرير المُكتَظ بآلاف المعتصمين الثائرين على شركة Egy- Nergy المُتخصصة في إنتاج الطاقة، مئات القتلى وآلاف الأسرى اقتيدوا لمزارع E.N، وحرب شوارع تدور في أكثر من محافظة بين متظاهرين وقوات الأمن، العشرات من ضباط وعساكر الأمن سقطوا خلال هذه المُصادمات، بالإضافة لنُذر وعيد راحت تتصاعد من جهة الشرق، من الجماعات

الجهادية التي استوطنت الجبال شمال شبه جزيرة سيناء.

وقتٌ عصيب قضته وهي تتجرع غصص ومرارة النازلة، حتى أمر طبيبها المُعالِج بإخراج الشاشة التلفزيونية من حجرتها، خَلَت الحجرة وإن ظلت الأصوات والمشاهِد تقرع رأسها بلا انقطاع، ووسط كل هذا العذاب كانت صورته تفرض نفسها، تسترجع المُحادثة القصيرة التي دارت بينهما ليلة زواجهما وعشية اختفائه:

«- النظام والشركة مِش هيقعدوا ساكتين ...

كوَّرَ أصابع قبضته وهو يقول بحزم:

- الراجل فيهم يجرب» ... .

فتهمس من بين عبراتها:

- إنتَ فين؟!

في خيمتها بالميدان، تنهد بشير قائلًا:

- مَحدِّش عارف أدهم هَيرجع تاني إمتى.

رددت بلوعة:

- مُستحيل يتخلى عننا!

حدثها عقلها أن بشيرًا تحركه غيرته من أدهم الذي ظفر بقلبها، حدَّقَت في التجاعيد التي شَقَّت طريقها حول عينيه الضيقتين، والشعيرات البيض التي غَزَت ذقنه المُهمَلَة، وشعرت بالكراهية تتحرك في صدرها، كادت تهتف به بأنه لا يعرف أدهم كما تعرفه هي، ولكن الكلمات ذابت على شفتيها أمام منطقه:

- مَعندناش دلوقتي ترف الاحتكام للثقة الشخصية يا أمل، ياريت نلاقي أدهم داخل علينا دلوقتي، ياريت! بس لغاية ما دا يحصل مفيش أودامنا غير اننا نحسِب حسبِتنا من غيره، اللي وصلني من مصادر مؤكدة ان المفاوضات بين الشركة والحكومات وصلت لنتايج إيجابية، وان العقبة الوحيدة أودامهُم هي الاعتراضات الشعبية وأكبرها الاعتصامات في الشوارع المصرية.

ينادونها في المستشفى مُذ أفاقت من غيبوبتها بـ «مودمازيل شادية».

من أين جاءوا بهذا الاسم؟!

الممرض الشاب الوسيم صاحب القوام الممشوق – عرفت أن اسمه دومينيك- والذي لم تنفك عيناه الزرقاوان ترمقانها بنظرات يمتزج فيها الإشفاق بأطيافِ أخرى (!) أخبرها أن أوراقها التي جاءت معها تحمل اسم شادية نور الدين، وأن جهةً ما سَددَت نفقات علاجها وإقامتها بالمستشفى كاملة.

الآن بدأت تَذكُر.

تلك الليلة الرهيبة، لما شُحِنَ الميدان بالغضب وفاض بالكراهية.

على الشاشات المنصوبة على المنصات، شاهد المعتصمون البَث الحي لحلقة التوك شو التلفزيونية التي ظهر فيها أحمد بشير الهلالي، المحامي والحقوقي، المُناضِل اليساري المعروف، رفيق الثورة،

حادي المظاهرات والمواجهات، سمعوه بآذانهم يقر بوضوح بأن حساباته كانت خاطئة، وأن ما يجري في ميادين وشوارع مصر ليس ثورة على كيان Egy-Nergy، بل هي مؤامرة دولية لضرب اقتصاد واستقرار مصر ووقف عجلة تنميتها، ويؤكّد على أن الإخوان المسلمين هُم رأس حربة هذه المؤامرة القذرة، وأنصارها هُم من يعتصمون بميدان التحرير من أجل الدفع بالبلاد نحو هاوية الفوضى.

الخائن، عميل الشركة، الكلب العلماني، المُرتَّد الكافر، اليساري الديوث(!) ... أوصاف ونعوت هدرَت بغضب هائل من آلاف الحلوق والأفواه مع قنبلة بشير التلفزيونية، ثم لم تلبث أن استدارت الأعين إليها؛ حيث وقفت بينهم تسمع كما يسمعون، هي، رفيقته وشريكته مُذ بدأت الثورة، رأت الاتهام يتطاير شررًا من عيونهم الغاضبة، فيكاد ليحرقها حرقًا، هذا الاتهام الذي تحول من نظرات لهمهمات، ثم لجُمَل صريحة تدعو من كان يؤمن بالله واليوم الآخر لتطهير الميدان من رِجس الخونة، العلمانيين، شركاء الكلب الكافر الذي خانهم.

تراجعت شاعرة بالحلقة تضيق من حولها، وبالغضب يوشِك على اجتثاثها من الدُنيا، لولا أن صوت خالد عباس انطلق مُجددًا من المايك داعيًا إياهم للتريث والتثبُّت، ومُذكّرًا بألا تزرُ وازرةٌ وِزرَ أخرى، كلماته العاقلة نافذة المفعول شقت الصفوف أمامها، فعادت

إلى خيمتها بقلبٍ واجفٍ مرتعش بالخوف.

وهناك، في ظلام الخيمة انتابها ذلك الشعور العجيب بأنها ليست وحدها، تحرك أملٌ ما في روحها فتَلفَّتَت حولها هامسة باسمه -أدهم!- ليدور رأسها فجأة في دوامة مُباغِتة وشعرت بساقيها تلينان، فهَوَت في حفرة عميقة مظلمة انتهَت بها مُمَددة على سريرٍ صغير بذلك المستشفى الباريسي.

في حجرتها بالمستشفى، تلقَّت زيارة من السيد عادل عسران، السكرتير الثاني بالقنصلية المصرية في باريس، هنأها على سلامتها، ثم شرح لها بوضوح أن وطنها العزيز يخوض معارك ضارية ضِد ميليشيات إرهابية مسلحة بطول البلاد وعرضها، وأن هذا الإرهاب استطاع بالفعل التخفي وراء اسمها كوجه إعلامي «شهير» لتحقيق أغراضه من إسقاط للدولة المصرية.

- للأسف، اسم أمل الشافعي دلوقتي أصبح مُقترِنًا بالإرهاب والفوضى.

باختصار، صارت شخصًا غير مرغوب فيه، ووجودها على الأراضي المصرية يتهددها بخطر المثول أمام القضاء العسكري، الذي سيحاكمها بتهمة الإرهاب والسعي لقلب نظام الحكم، أو -الأخطر- تركها غرضة للغضب الشعبي الذي أججه الإعلام المصري ضدها.

لذا، فالصفقة التي تقدمها لها الحكومة المصرية -أخبرها- هي أن تحيا خارج مصر، في أي دولة

تختارها، باسم وهوية جديدين، واختفاء اسم أمل الشافعي من السجلات ... إلى متى؟ حتى تستقر الأوضاع.

- صدقيني يا مدام شادية (يضع ساقًا على ساق) دا أفضل عرض ممكن تحصلي عليه في ظروفك الصعبة دي، اخدمي نفسِك واقبليه بَدَل البهدلة، مصر خلاص أبوابها مقفولة فـ وشِّك، و«الشعب» مش هَيسمَح بشوكة فـ ضهر بلده وهي بتخوض حرب وجود ضِد الإرهاب.

السؤال الذي ظل يفرض نفسه عليها طيلة السنوات التالية هو لماذا؟ لماذا هذا العرض السخي؟! ما الذي منعهم من التخلص منها ومما تشكله من تهديد؟! لِمَ كل هذه الترتيبات وتجشم النفقات، وكانت محاكمة عسكرية خاطفة كالمحاكمات التي أودَت بحياة المئات لتوفِّر عليهم كل هذا؟!

السؤال الذي ستعرف إجابته بعد مرور ربع قرن بالتمام والكمال.

***

- آدم المصري حي!!

ردد إيفان إيفانوفيتش الشريك الروسي مذهولًا، فأومأت ناتاشا بروخورف، مديرة مكتبه ومساعدته الأولى، بخصلاتها الشقراء الناعمة.

- ويطلب محادثتك في فيديو كونفرانس مُغلَق خلال عشرين دقيقة.

بان للحظات في عينيه الزرقاوين وهو يُحملِق فيها مُمَسِّدًا بأصابعه على خصلات لحيته الشقراء التي غطاها الشيب، والمؤطِّرة لوجهه أحمر الجِلد، ثم لم يلبث أن هَزَّ رأسه، وقد شَقَت ابتسامة إعجاب طريقها إلى شفتيه.

- اكتُبي له باستعدادي لمحادثته في الموعد الذي طلبه.

ومن دون أن ينظر حرك سبابته بشرود على شاشة لوحة التحكم المُثبتة إلى ذراع مقعده المتحرِك الذي يجلس إليه، فتحركت عجلاته آليًا بانسيابية وفقًا للمسار الذي رسمته سبابته على التاتش سكرين ليتوقف أمام صفحة الزجاج التي تغطي ضلعًا عظيمًا من أضلاع قاعة مكتبه المُطّلة من ارتفاع مئات الأمتار على أنوار موسكو المُتلألئة والمُمتدة على مرمى البصر.

رشف من كأس طويل بين أصابعه تسبح به مكعبات الثلج في بُحيرة من الفودكا، وهو يرمق نتف الثلج التي راحت تساقط ببطء مثير في السماء المُثلّج هواؤها

لتغطي الشوارع، وأسطح البيوت والسيارات، ورأى أعمدة الدخان تتصاعد المواضع التي نشبت فيها الاشتباكات اليوم بين المتظاهرين والأمن -كما عَرِفَ من تقارير غرفة العمليات، ثم التغطيات الإخبارية- بالقرب من مقرَّات E. N. الروسية، وواحدة من محطات تزويد السيارات بعبوات الطاقة.

مرت الدقائق، وشعر بأنامل مساعدته تلمس كفه المُستقِرة على مسند المقعد بجوار لوحة التحكم، وسمع صوتها قريبًا من أذنه:

- بقيت دقيقتين على موعد المحادثة، سيدي.

تساءل من دون أن ينظر لها أو ينزع عن نفسه شروده:

- هل أعددتِ كل شيء؟

- بالتأكيد.

تحركت سبابته مُجددًا على الشاشة، فاستدارت العجلات وانزلقت بنعومة عائدة بحِملها إلى المكتب الأبنوسي الفخيم الذي يتصدر القاعة. مَرَّت الثواني قبل أن يتصاعد الرنين الأوبرالي، فأومأ إيفانوفيتش لمساعدته، وفي اللحظة التالية بدأ احتشاد النقاط المضيئة ليتشكَل هولوجرام آدم المصري على مسافة متر ونِصف المتر من مَجلِس الروسي الذي بادر شريكه المصري بابتسامة هادئة:

- يبدو أنكَ بالفعل قِط فرعوني أصيل يا صديقي.

ابتسم آدم بدوره قائلًا:

- ما تمنحه التكنولوجيا يتجاوز بكثير سبعة أرواح.

اتسعت ابتسامة إيفانوفيتش وهو يرفع كأس الفودكا:

- نَخب نجاتك، سيد مصري.

- أنت صديق مخلص، سيد إيفانوفيتش.

بَدَت لهجة آدم عجيبة، أو على الأقل غير مألوفة للروسي الذي رشف من كأسه ثم تساءل:

- لماذا لم يَبلُغَ الخبر الإعلام إذن؟!

قال آدم بهدوء:

- ثمة حسابات تستلزم تصفيتها بعض السرية.

التقى حاجبًا إيفانوفيتش وهو يقول:

- هل حَددت هوية المسئولين؟

أومأ آدم، فعاد الروسي يسائله بفضول:

- مَن؟

أجابه آدم باقتضاب:

- الأمر- يكان.

- تأكّدت؟

أومأ آدم برأسه مرةً أخرى.

- وماذا تنوي أن تفعل؟

- بِمَ تنصحني؟

صَمَت إيفانوفيتش للحظة ثم أجاب:

- كما أخبرتك سابقًا، النظام هو الأولى بالحماية.

هَزَّ آدم رأسه وقال:

- نحن مُتفقون إذن.

قطب إيفانوفيتش قائلًا:

- علام؟

- على حماية النظام.

قال الروسي بلهجة جافة:

- لا أفهمك، سيد مصري!

- دعنى أرِيكَ شيئًا.

حدَّقَ إيفانوفيتش في الهولوجرام الجديد الذي تشكَّل لوجه امرأة أربعينية حسناء كستنائية الشعر، بينما آدم يقول:

- د. فيبي رزق الله، رئيس القسم الاقتصادي بشركتي، أو كانت كذلك قبل أن تسقط في عملية اغتيال خارج أسوار فيلتها قبل يومين ماضيين، تعرفها؟

قال الروسي بجمود:

- لم يسبق لي أن رأيتها من قبل.

- كان اغتيال د. رزق الله ليَمُر في سياق استهداف مُوَظفي Egy- Nergy المستمِر مُذُ شهور، لولا أنها كانت تحادثني هاتفيًا قبيل لحظات من موتها، كانت تُبلغني باكتشاف خطير وقعت عليه، وبأنها أرسلت لي ملفًا بهذا الاكتشاف على بريدي الإلكتروني الشخصي.

بدا وجه إيفانوفيتش مُصمَتًا لا يعكس أية انفعالات، بينما آدم يتابع:

- الاغتيال حَدَث بواسطة M١٦ متطور يتم توجيهه أوتوماتيكيًا عن طريق الأقمار الصناعية، واستطاع ضابط بالجيش المصري تحديد مصدر إشارة التوجيه قبل أن يلقى مصرعه في انفجار المدفع.

أتدري شيئًا عزيزي إيفانوفيتش؟ مصدر الإشارة كان

قمرًا روسيًا قديمًا يخص مؤسسة ساشا الإعلامية، التابعة لمجموعتَك.

أطبق الروسي شفتيه الغليظتين من دون أن يُعقِّب بكلمة واحدة ...

- عِندما عُدتُ للملف الرقمي الذي وصلني من مرءوستي الراحلة قُبيل اغتيالها، وجدت مُفاجأة من العيار الثقيل (مال للأمام قليلًا) مفاجأة تَخُص شريكي العزيز.

رفع إيفانوفيتش الكأس إلى شفتيه وجرع ما بقي به من الفودكا مرة واحدة احتقن لها وجهه.

- كل التفاصيل والمُعاملات المالية التي تخص الشركة الجديدة التي تأسست في شرق أوروبا، ودخلت في تحالفات مع عددٍ من شركات إنتاج الطاقة المُتجددة المتوقفة عن العمل مُذُ سنوات، الشركة الجديدة التي تحمل أوراقها أسماء عددٍ من الشركاء من بينهم ديمترى بتروفسكي، زوج ابنتك أولجا.

يعني، وباختصار، شريكي الأمين وحليفي المُخلص قرر بينه وبين نفسه أن السفينة تغرق، واختار أن يقفز منها لبيزنس جديد، ولم يتردد في قتل واحدة من أخلص وأكفأ مُستَخدمي بعد أن بَلَغَهُ أنها كشفت أمره.

ران صمتٌ ثقيل بعد أن فرغ من كلماته، ثم قطعه إيفانوفيتش قائلًا بصوتٍ أجَش:

- أنتَ رجل أعمال، سيِد مصري. ولا أعتقد أنك تلومَني على سعيي لإنقاذ أعمالي.

هَز آدم رأسه نافيًا وهو يقول:

- كلا، سيد إيفانوفيتش. لَست ألومَك على سَعيَك لإنقاذ أعمالك، وأنتظر منك بالمِثل ألا تلومني.

تشقق لأول مرة قناع الجمود من على وجه الروسي وهو يردد بتوتر:

- ماذا تعني؟!

فوجئ بعجلات مقعده المُتحرك تدور من تلقاء نفسها، وتتحرك مُبتعدة عن المكتب إلى طرف القاعة، خفض رأسه وحَملقَ غير فاهِم في شاشة لوحة التحكم المُثبَتة إلى مَسند الذراع بمقعده فرأى البقعة الحمراء التي اعتاد أن يضغطها بسبابته ويوجِّه حركة المقعد بواسطتها، وجدها تتحرك من تلقاء نفسها.

- أعني أنك تُخطئ خطأ جسيمًا لو ظننت أن آلاف الأميال التي تفصل بيننا قد تحميك من اللعنة.

استولى الجزع على قلبه وهو يحاول عبثًا التحكم فيها من دون جدوى، رفع عينيه إلى هولوجرام آدم الذي تحرك بمحاذاته، ورأى شفتيه تتحركان من دون أن تبتسمَا:

- هل سَمِعت من قبل عن لعنة الفراعنة أيها الدُب الروسي؟

صاح:

- ما الذي يحدُث؟!

حرك آدم طرف سبابته صانعًا نصف دائرة على شاشة لوحة التحكم على مكتبه بمقر شركته في باراديس

هايتس، فدارت عجلات كُرسي إيفانوفيتش المُتحرِّك – بمكتبه في قلب موسكو على بُعد مئات الآلاف من الكيلومترات- نصف دورة، ليَجِد الروسي نفسه مرةً أخرى في مواجهة السماء المُظلمة التي تسبح فيها نتف الثلج الأبيض، يفصله عنها عَرض القاعة الفسيح وجدار من الزجاج. هتف:

- كيف تفعل ... ؟!

مرت الدقائق، وشعر بأنامل مساعدته تلمس كفه المُستقِّرة على مسند المقعد بجوار لوحة التحكم، وسمع صوتها قريبًا من أذنه:

- بقيت دقيقتين على موعد المحادثة، سيدي.

أدار رأسه بحركة حادة إلى ناتاشا بروخورف، مديرة مكتبه الشقراء، فرآها واقفة بثبات عن كَثَب، وقد غابت ملامحها في الظلال، تمتم مصعوقًا:

- أنتِ يا نات!!

لم يُقَدَّر لدهشته أن تطول؛ إذ حل محلها الرعب عندما دارت العجلات مُجددًا إثر حركة سبابة آدم على شاشة التحكم، ليندفع الكرسي قاطعًا عشرات الأمتار التي تفصله عن الجدار الزجاجي بسرعة متزايدة، صرخ برعب وهو يحاول أن يلقي بجسده الضخم من على الكرسي، ولكن ساقاه المشلولتان لم تعيناه، وكانت كلمات آدم المصري «وداعًا، شريكي العزيز» هي آخر ما سمعه قبل أن يصدم الزجاج عظام جمجمته بعنف، ويجتاح الهواء المُثلَّج ثيابه وجسده، بينما يغوص وسط

نتف الثلج في سماء موسكو المُظلمة.

***

(قبل سنتين) ...

انزاحت ضلفتَا صالة المدخل بمطار بارادايس هايتس الدولي بنعومة، وعَبَر من بينهما هاني حاملًا حقيبته على ظهره بخطوات واسعة تناسب طول ساقيه.

وداخل سيارتها المستقرة وسط آلاف السيارات في مَوقف المطار، استغرقت ندى وهلة من الزمن لتتعرف على هيئته، التي غَيرتها لحيته المُستحدثة والمنظار الداكن والكاب الذي يغطي رأسه. لوَحَت بذراعها لتلفِت ناظريه وهي تقول له عبر مايك هاتفها النقال:

- أنا شايفاك، الفيات السماوي، على يمينَك.

رآها، اتجه نحوها، غادرت السيارة لتصافحه، ثم أودَعَ هو حقيبته إلى الأريكة الخلفية قبل أن يستقر على المقعد المجاور لمقعد القيادة، ويزيح الكاب من على رأسه، تأملت هي الشعيرات البيضاء التي انتشرت وسط سواد رأسه ولحيته رغم سنوات عمره التي لم تكسر حاجز الثلاثين بعد، وبدا لها بالفعل شخصًا مغايرًا لزميل الدراسة الذي خبرته قبل بضعة أعوام، وتحرك الحزن في قلبها.

غمغمت بصوت حاولت أن يخرج طبيعيًا على شيء من المرح:

- اتغيَرت، لولا اننا كنًا على التليفون ماكُنتِش هَعرفَك.

نظر إلى وجهها البيضاوي المشوب بحمرة، والمؤطر بحجاب أنيق نفرت منه خُصلات من شعر كستنائي ناعم انسدلَت على جبهتها، وقال بهدوء:

- وانتي بقيتي أجمَل من أيام الكلية.

دغدغها قوله رغم أنه لم يُشفعه بابتسامة حتى، فابتسمت هي وأدارت مُحرِّك سيارتها متسائلة:

- أخبار الماجستير إيه؟

- ماكمِلتِش.

حدقت فيه بعينين متسعتين وهي تردد بدهشة:

- ماكمِلتِش!

- غيَرت الكارير كله.

- ليه؟!

قال باقتضاب:

- الإعلام مبقاش يستهوِيني.

- (مصدومة): معقولة يا هاني!

لم يُعلِّق، فغمغمَت بخفوت:

- إنت صحفي واعِد بشهادة الكُل!

- الإعلام فن خِداع الناس، وانا قررت إني مش هَخدَع حَد.

- إنت ممكن تخلق نموذَج مِهَني سليم!

هَزَّ رأسه قائلًا بنبرة حاسمة:

- مِهَنية الكِذب still كِذب.

صمتت لبُرهَة، غاصت بعينيها في تفاصيله قبل أن تتساءل:

- وهَتعمِل ايه؟
- لسه مِش عارف.
أطبقت شفتيها الممتلئتين، وقد شَبِعَت من ردوده المقتضبة التي وَشَت بحاجته للصمت، فقادت سيارتها بين ممرات الجراج حتى غادرت المطار، ثم عادت تسأله:
- تحب تستريَّح الأوّل؟
- لأ.
للحظات أطلق بصره من وراء زجاج السيارة إلى صفوف الأشجار المُتراصة والمتوالية على جانب الرصيف، قبل أن يقول من دون أن يلتفِت:
- ندى.
أدارت رأسها إليه مُستفسِرة، فالتف لها بدوره هامسًا:
- إحكيلي تاني اللي حصَل من فضلِك.
حدقت فيه لثوان، ثم نقرَت على شاشة التابلوه، وحَددَت العنوان صوتيًا لكمبيوتر السيارة قبل أن ترفع أصابعها عن عجلة القيادة تاركة المُهمة للسائق الأوتوماتيكي، واستدارت بجسدها لتواجهه.
حَكَت له عن ذلك اليوم، عندما كانت غارقة حتى النخاع في عملية تحديث الأخبار الواردة من قمة المُناخ الأخيرة بشرم الشيخ أولًا بأول، ورفعها بالصور والفيديوهات إلى قسم شئون البيئة، وفوجِئت برقمٍ غريب يظهر على شاشة هاتفها النقال.

- عرفتها أوِل ما سمِعت صوتها.

تبادلَت معها عبارات الترحيب شاعرة بسعادة غامرة لسماع صوتها من جديد، صوت حياة، صديقة الدراسة والعمل التي غيبها الزواج –وأي زواج!- عنها لشهور.

- فوجِئت بيها بتقولي انها مستنياني دلوقتي (!) فـ عربيتها تحت مبنى الجورنال.

«إطلعي طيب يا بنتي!» لكنها رفضت بإصرار وقالت إنها لن تأخذ من وقتها الكثير.

- فهمت انها جاية عايزة حاجة مُحددة.

حَكَت له عندما هَبَطت إليها، فوجدتها تنتظرها بالفعل داخل لامبرجيني حديثة موديل هذا العام، رحبت بها وتبادلتَا القبلات. تراجعَت لتتفرَّس بوجه صديقتها الحميمة فهالها ما رأت.

- شتان بين منظرها في الحفلة اللي عملناهلها في الجورنال قبل جوازها وبين منظرها المرادي!

الهالات السوداء كثيفة حول عينيها، أكثر كثافة من طبقة الكُحل الثقيلة التي اكتحَلَت بها، ازدادَت نحافة على نحو ملحوظ حتى برزت عظام وجنتيها، وزاد الطين بلة أنها قَصَّت شعرها، فصارت بالفعل أقرب ما تكون شكليًا لغلام مراهِق! السيجارة لا تفارق شفتيها المصبوغتين بسوادِ ينافس سواد ثيابها.

- عينيها يا هاني!

ليست فقط المقلتين الحمراوين أو النظرات الزائغة

أو الحيوية القديمة الزائلة، هناك الخوف! الفزع المُستتِر الذي يشع من وراء الحدقتين، التوسل للحماية من خطرٍ ما غير مرئي أو مسموع.

في أحد الكافيهات؛ حيثُ جلستَا، سألتها بقلق -تحكي ندى- إن كانت على ما يُرام، فأجابتها حياة من وراء دخان سيجارتها أنها لا تَنال كفايتها من النوم، مُذ أن تزوجت ونومها ليس على ما يُرام.

تساءل هاني كابحًا جماح انفعاله:

- ليه؟

- مَفهِمتِش منها بتشتكي من إيه بالتحديد، كانت مُضطربة ومتوترة بصورة أول مرة أشوفها عليها! اتكلِمت عن كوابيس بتحلم بيها وأصوات بتسمعها طول الوقت ...

- أصوات إيه؟!

- أنين!

أخبرتها حياة أنها لم تَعُد تحتمل، وبعد شهور قليلة من قرانها، لم تَعُد تبيت تحت سقفٍ واحد مع زوجها الذي سمح لها -بعد خروجها من المُستشفى- بالانتقال لفيلا صغيرة على أطراف بارادايس هايتس.

- مستشفى!

أومأت ندى مُجيبة بملامح صبغها الحزن:

- حياة دخلت مركز أبو زيد لعلاج الأزمات النفسية، وقَضِّت فيه شهور يا هاني.

واستطردَت أن حياة لم تتحدث كثيرًا عن هذه

الفترة، كانت بشكل عام على قدر كبير من الاضطراب بَانَ بوضوح في حروفها السريعة وسجائرها العصبية، تقلصات ملامحها من حينٍ لآخر، ونظرات الخوف المتطايرة هنا وهناك، ثُمَّ لم تلبث أن ...

- سألتني عنَك.

ردد هاني هامسًا بانفعال:

- عنِّي!

- سألتني إن كُنت أعرف إنتَ اختفيت فين، أو هَترجع إمتى، واذا كان فيه أي طريقة للاتصال بيك، تقريبًا كانت بتترجاني!

ورغم أن المنظار الداكن أخفى عينيه، إلا أن الغريزة الأنثوية سهلَت لندى التقاط دلائل التأثر في رعشة شفته السفلى وحركة تفاحة عنقه.

- طبعًا مكانش عندي أي داتا ممكن اديهالها؛ لأن انتَ اختفيت من غير ما تسيب وراك طرف خيط يوصَّل ليك.

خدَنا أرقام بَعض ووعدتها إني لو عرفت خبر عنك هَبلغها على طول.

وتركت تنهيدة تغادر صدرها ثم استطردَت:

- مَعرفتِش طبعًا أخبار عنك، لكن أخبارها هي كانت بتوصلني في الجورنال أول بأوّل. الرحلات والحفلات الصاخبة، العيال اللي ماشية معاهم وبتبدِّل فيهم زي ما بتبدِّل جِزمها، السهرات والفضايح، كل يوم فضيحة جديدة فمكان جديد، ولولا اسم ونفوذ آدم

المصري كانت الفضايح دي اتشَيَّرِت على كل المواقع. عندنا مثلًا مُدير التحرير بلغنا تعليمات مُشَددة من رئيس مجلس الإدارة بخصوص نشر أي أخبار عن مدام آدم المصري.

وترقرقت دمعة في عينيها وهي تتابع:

- لغاية ما حَصل اللي حَصل.

كانت السيارة في هذه اللحظات تخترق طريقًا مُسفلتًا تتراص على جانبيه مبان من الطوب الأحمر مُحاطة بأحواش مُسَوَّرة، مزروعة ومُبَلَّطة بالرخام، ويلُفها صمتٌ مهيب، سرعان ما توقفت أمام بوابة إلكترونية تتوسط السور المُحيط بحوش أحد المباني.

قالت ندى بخفوت:

- جوزها بناه مخصوص ليها وحدها، للأسف مِش هَنعرف نُدخل.

لم يَبدُ على هاني أنه سَمع شيئًا، غادر السيارة ومشى بخطًى ثقيلة باتجاه البوابة الإلكترونية، حتى توقف أمام اللوح الرخامي المُثبَت إلى السور بجوارها، اللوح المحفور عليه ثلاثة أسطر مكتوبة بخط كوفي أنيق، السطر العلوي محفورٌ عليه الآية القرآنية: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً}، والأوسط عليه اسم «حياة» مُنفردًا، ثُمَّ تاريخان محفوران على السطر السُفلي يفصل بينهما ثلاثة وعشرون عامًا.

غادرت ندى السيارة بدورها، تَمتمَت بآيات الفاتحة بصوت خفيض. انسالت الدموع على وجنتيها وهي تتابعه من وراء منظارها الشمسي، يمسح بكفه برفق على الاسم المحفور على اللوح الرخامي، ثم يستدير إلى البوابة، فيلف أصابعه على قضبانها مُرسِلًا بصره فيما ورائها، إلى المبنى المُوصَد بابه والمكسوة جدرانه بأفخر أنواع الرخام الإيطالي.

مَرَت الدقائق ملفوفة بصمتٍ خاشع، ثم لم يلبَث صوت النحيب الخافت أن بدأ يعلو من بين شفتيه على استحياء، دَنَت ندى من رفيقها ورَبَتَت على كتفه مواسية، فشعرت بجسده تحت أصابعها يرتعد.

وكأنما كان بحاجة لهذه اللمسة الحانية لتتداعى سدوده، فانهمرت دموعه بغزارة، انثنَت ساقاه وانحنَت قامته وهو يشهق بالبكاء بين ذراعيها.

***

- الجوان يا ابو علي.

قالها سعيد خَبسَجي، الميكانيكي، وهو يرفع وجهه المُلَطَّخ بالشحم والوسَخ إلى حسن الذي قرفصَ إلى جواره أمام مُقدمة التوكتوك الخاص به.

- جاب وِش سلندر.

سُبة فاحشة خرجت من بين أسنان حسن المُصفرة، أتبعها ببَصَقة على الأرض الترابية التي حولتها أمطار الأمس لمستنقع من الأوحال.

«وفي بيانٍ صَدَرَ قبل دقائق، أعلن الدكتور هاني الناظر، المُتحدِّث الرسمي باسم وزارة الصِّحة أن عدد ضحايا الاشتباكات والأعمال التخريبية التي انفجرت اليوم قَد بلغَ أربعة قتلى، اثنان منهم في محافظة السويس، وواحدٌ في حَي المطرية بالقاهرة الكبرى، وواحدٌ بمحافظة الإسكندرية؛ ليُصبِح إجمالي عدد القتلى مُنذُ بدء موجة أعمال التظاهر والتخريب سبعة قتلى بالإضافة إلى ما يزيد عن المئتي جريح».

الشوشرة الإستاتيكية التهمت الكثير من مَتن الخبر المُذاع على محطة البرنامج العام.

التي ضُبِطَ عليها مؤشر الترانزستور العتيق المُعَلَّق إلى مسمار صدئ يبرُز رأسه من بين ألواح جدران الورشة، ورغم ذلك فإن مضمون الخبر لم يَبدُ غامضًا.

مسح خَبسَجي جبينه بظهر كفه ونظر لحسن قائلًا:

- فَتَحِت بوءها.

لم يُعلِّق حسن، استخرج سيجارة محلية رخيصة من علبته دسها بين شفتيه الغليظتين، وأشعلها بعود ثِقاب، ثم نفث الدخان وهو يحدق فيما أمامه بعينين شاردتين.

- هَتعمِل ايه؟

الغيوم أضعفت كثيرًا من ضوء شمس العصاري، فتلون الهواء نفسه بلون رمادي مُثقل بالرطوبة.

«بلغ عَدد المقبوض عليهم خلال أعمال العنف والتخريب اليوم الجمعة ٨٤ شخصًا منهم ٣٣ في القاهرة وحدها، وكانت وزارة الداخلية قد أكَّدَت في بيانها الرسمي أمس الأول على لسان اللواء عبد اللطيف السَحَرتي، المتحدث الرسمي باسمها، أنها ستُطَّبق القانون بأقصى قدر من الحزم على أي محاولة للخروج على القانون وتكدير السلم العام».

تساءل حسن مُومِئًا برأسه تجاه الترانزستور:

- إيه اللي حاصل فـ البلد؟

- أنا عارف؟! قلق ومُظاهرات باين.

- بتاع ايه؟

- عالم فاضية، لا شُغلة ولا مَشغلة!

قالها حَبسَجي ونهض من جلسته، فهرولَ مُبتعدًا جروٌ أجرَب كان يلهو عن قُرب، وقد أفزعته الحركة المفاجئة.

ملأ برادًا حائل اللون بالماء من حنفية قريبة، وضعه على كانون مُشتعلة نارُه، صبَّ الشاي الساخن في كوبين زجاجيين، ناول أحدهما لصاحبه، ورشف من الآخر مع

أنفاس من سيجارة ملفوفة بخَرَق، تأملِ التوك توك الرابض عن كثَب ثم قال بعد بُرهة من الصمت:

- ما تخلص منه؟

دفع حسن مزيدًا من الدخان خارج فتحتي منخاره وتساءل مُحدِّقًا في الفراغ:

- هَيجيب حاجة؟

قال حَبسَجي وهو يرشف من السائل الأسود الساخن:

- أهو احسن ما انتَ صارف فلوسَك كلها عليه.

قطيعٌ من الأغنام يعبر الأوحال عن قُرب، يتبعه غلامٌ مراهق كالح البشرة يمسِك بعصا من جذوع الشجر، لوَّحَ لهما بذراعٍ معروقة.

«ومعنا على الهواء مُباشرةً اللواء أنور حجاج، الخبير الأمني، ليُعَلِّق على الأحداث الجارية».

- بيعه واشتريلَك غنمتين أبرَك.

- (مُومِئًا باتجاه قطيع الأغنام): غنمات مين دول؟

- أبو حَطَب.

اكفهَر وجه حسن لدى سماعه الاسم، والتوَت شفتاه في مُقت.

«المظاهرات اللي خرجت النهاردة من المساجد بعد صلاة الجُمعة، في عدد من المُحافظات، استجابة للدعوات اللي انتشرِت في بعض مواقع التواصُل الاجتماعى والمحطات المشبوهة على الإنترنِت، كانت مُجرد ستار لأعمال الفوضى والتخريب، جزء من المؤامرة اللي بتستهدِف أمن واستقرار مصر والعالم،

وللأسَف انساق وراها (بعض) شبابنا المُتحمِس».

لم يَغِب امتعاضه عن ملاحظة صاحبه الذي استطردَ بشبه ابتسامة خبيثة:

- راجعين المزرعة بتاعته، مِشغًل فيها نُص شباب العِزبَة.

بَصَق حسن بلغمًا وتساءل:

- ومسرًّح الغنمات بره مزرعته ليه؟

تحولت ابتسامة حَبسَجي لضحكة خفيفة، سَعِلَ على إثرها ثم أجاب:

- المزرعة ماعَدِتش سايعة، لسه سامع انه شَرَى الخرابة اللي جارها م البلدية وهَيضُمها عليها.

رشف حسن الشاي من دون أن يُعَلًق، فتابع حَبسَجي:

- الانتخابات قربًت، ومش هَيسيب الدايرة تروح لحَد تاني زي ما حصَل من كام سنة.

غمغمَ حسن بصوت كالحشرجة:

- هوَ اللي لَطًني، ابن الوسخة.

لم يُميز حَبسَجي حشرجته، فتساءل وهو يهرش فروة رأسه من تحت غابات الشعر الأشعَث:

- بتقول إيه؟

«بَس خليني أقول ملاحظة مهمة جدًا، من واقع المُشاهدات والإحصاءات الأولية، درجة التجاوب الشعبي مع الدعوات المُغرِضة للتخريب تحت ستار التظاهرات أقل بكتير من المُتوقع بعد الشَحن الرهيب اللي حصل على مواقع التواصل الاجتماعي، والمحطات

المأجورة خلال اليومين اللي فاتوا، التظاهرات والاشتباكات في مناطق محدودة بالمقارنة باللي حَصَل الأربَع اللي فات، وتفسيري إن الشعب أدرَك الخدعة، وقرر ينحاز لقيادته ويحافِظ على وطنه».

- متعرفش حَد يشيل؟

سأل حسن مُشيرًا بطرف السيجارة إلى التوكتوك، فامتصَّ حَبسَجي نفسًا طويلًا من سيجارته، وكأنه يُدفئ صدره بالدخان الذي سرعان ما غادر في صورة سحابة إلى الهواء البارد، ثم أجاب:

- الصيني سوقه مِش رايجة دلوقتي، المصري أعطاله أقَل وسعره مش بعيد.

ورشف من كوب الشاي مُردِفًا:

- خليني أشوف واكلمك.

كاد حسن ليسحَب له صوتًا من سقف حلقه، تعقيبًا على الحيلة المكشوفة التي يلجأ إليها دومًا؛ لخسف الأرض بسعر المَكَن التي يُسَمسِر عليه، لكنه لم يَجِد في نفسه طاقة للمُناكفة والمساومة، فأطبق شفتيه تاركًا المجال لصاحبه.

- الحال واقِف، أدينا قاعدين أهو بقالنا ساعتين، شوفت حَد هَوِّب ناحية الورشة؟ أهو دا الحال أديله تلات تُشهُر.

«البيان اللي ألقاه المُتحدِّث الرسمي باسم رئاسة أركان القوات المُسلحة من ساعة واحدة، وكشف عن تفاصيل عملية الإيقاع بالميليشيات المُسلحة، اللي شَنَّت هجمات

إرهابية على عدد من منشآت إنتاج الطاقة قبل ساعات من انطلاق المظاهرات التخريبية، وأعضاء الشبكات اللي بتنقل الأموال من الخارج للميليشيات بالداخل، البيان الخطير دا ألقى الضوء على حَجم المؤامرة الرهيبة على مُقدرات ومُستقبل شعبنا العظيم، الشعب اللي أثبَت انه أذكى وأحكَم من الانجرار وراء إرهاب هدفه إسقاط دولته».

- سمِعت ان فيه طيارات بترمي معونات.

التفت له حسن مُتسائلًا:

- معونات ايه؟!

أجاب حَبسَجي:

- لحمة وفراخ ودقيق وزيت ودُخان وبتاع.

التمعَت عينًا حسن وسأل صديقه مُجددًا:

- فين دا؟

أدار حَبسَجي رأسه إلى الأسوار الشائكة البعيدة، التي تبدو من ورائها الخرائب وتلال الزبالة التي تفصل العِزبة عن الصحراء، قال:

- هناك، عند العشاير اللي فـ الصحرا. الواد فتيحة، فتيحة مبيَّض المحارة، قعَد سنة من غير شغل، وفـ ليلة كِده كنا موَنوِنين، فقالي انه خلاص، نوَى يعَدي السور ويروح يعيش وسطيهُم فـ الصحرا.

- يسيب هنا ويروح يعيش فـ الصحرا!

ارتفعَ حاجبًا حَبسَجي الكثان وهو يقول مُتهكِّمًا:

- هنا!! ما أي خرارة فـ الدنيا احسن من هِنا!

- وبعدين؟!

- (ينفث الدخان): اختفى. فَص ملح وداب.

ولمعت عيناه بالحلم وهو يردد:

- تخيَّل! قاعدين بياكلوا وبيشربوا وينطوا على بعض، لا شُغلة ولا مَشغلة والرزق بيتحدِف عليهُم م السما!

- وانت مصدَّق؟

- وماصدَّقش ليه؟

وضع حسن جانبًا الكوب الفارغ إلا من بقايا الشاي في قاعه ونهض قائلًا:

- عشان مَحدَّش فـ الزمن دا بيعمل الخير ويرميه فـ الصحرا يا روح امك!

كاد حَبسَجي أن يستشهِد بالحاج محمد أبو حَطَب الذي أغرقت أفضاله العِزبة كلها، غير أن الرَّد البديهي قفز إلى ذهنه في ذات اللحظة مشفوعًا بذكرى الشاحنات التي تنقل أهل العزبة كل أربع سنوات إلى مقار اللجان الانتخابية، فألجَمَ لسانه في الجزء الأخير من الثانية وحَمِدَ الله على أنه فعل؛ لأن صديقه حَسَن بالذات آخر من يحتاج للتَذكِرة بالثمن الذي تجشمه مقابل أيادي الحاج أبو حطب البيضاء عليه، والمتمثّلة في التوكتوك الخربان الرابض في الجوار.

- هَتعرف تعمل حاجة؟

نهض حَبسَجي بدوره قائلًا:

- هَلصملَك الدنيا عشان تعرف تقضي النهاردة، بَس شوف انتَ ناوي على إيه، عشان لو هَتدخل فـ حوار

التصليح تبتدى تدبر الفلوس.

كان رذاذ الغيث قد بدأ يساقط من السماء الرمادية بينما التوكتوك يهتز براكبيه فوق الأرض الخشنة غير المُمَهدة، حسَن في المقعد الأمامي، وتلك المُنتقِبة صاحبة قفص الدجاج، والتي التقطها أو التقطته هي بالقرب من السكة الزراعية لدى عودتها من سوق البلدة القريبة.

استغرقت الرحلة ما يقرب من ثلث الساعة، ظلت خلالها كلمات صاحبه تناوِش رأسه، وللحظات تخيل نفسه هائمًا فوق الصحراء بين جموع مُشعثة ترتدي الأسمال بينما السماء تُمطِر عليهم طعامًا وشرابًا.

«بانتهاء اليوم العصيب دا، ورغم الخسائر في الأرواح والمُمتلكات، إلا إننا نقدر بشكل كبير نطمِن جموع الشعب المصري العظيم ان الأزمة تقترب من نهايتها بفضل الله أولًا، ثمَّ حكمة وحنكة القيادة السياسية، وبطولة وتفاني جنودنا البواسل من أبطال الجيش والشرطة، بالإضافة طبعًا لوعي وتكاتف شعبنا العظيم، اللي ساهم بدور كبير في إحباط المؤامرة».

كان المغيب قد شارف على الاكتمال في ساعة مُبكِرة، وبخاصةً مع سقف الغيوم الذي حَجَبَ أشعة الشمس طيلة النهار، عندما بلغ حسن مَوقف التكاتِك، والذي لا يعدو كونه سقفًا من الخوص ترفعه أربعة قوائم من جذوع الشجر، الموقف خالٍ إلا من اثنين من التكاكِك التجأ صاحباها للسقيفة هربًا من وابل المطر، بالإضافة

للفتى صاحب نَصبة الشاي، والذي قال رَدًا على سؤال حسن بـ:

- جَبَرِت خلاص النهاردة يا ابو علي.

لم يستغرق حسن وقتًا ليقرر أن يدير مقود التوكتوك بعد أن نَقَدَ الغلام حساب اليوم من أكواب الشاي، وخاضَ الأوحال تحت وابل المطر الذي راحت وتيرته تشتَد شيئًا فشيئًا، حتى لاحَت أنوار العزبة الشحيحة عن قُرب.

لمح الجسد الصغير المُقرفَص قُرب مدخل العِشة والتي لاحظَ أنها -بِخلاف المألوف- موصَدة الباب، مُطفأة الأنوار، أوقف التوكتوك وغادره ليستقبل صاحبة الجسد الصغير التي هَبَّت من قرفصتها وهرعت نحوه مُبتلة الثياب.

- فيه ايه يا بِت يا أسماء؟!

أجابته الطفلة ذات الأعوام العشرة، شقيقة زوجته:

- ريهام عندنا فـ البيت، وابويا بيكلِمَك على المحمول عشان يقولَك تعدى علينا، بَس تليفونَك مَبيجَمَّعش.

سألها بقلق:

- حصل حاجة؟!

- حدانا ضيوف.

استغرقَا ما يقل عن الدقائق الخمسة لبلوغ عشة الحاج محمد عِتمان، عمه وعَم زوجته ريهام –يتيمة الأب- في نفس الوَقت، استقبله الكهل في جلبابٍ أبيض عند مدخل العِشة، وقد افترش التوتر صفحة وجهه

المُغضَن، فجذبه من ذراعه إلى الداخل وهو يهتف به:

- انتَ فين يا حسن يا ابني؟!

دخل حسن معه هو يتساءل بقلق:

- خير يا عمي، ريهام كويسة؟؟

- الحمد لله، هي بَس اتخضِت قوم راحت مسخسخة.

هوى قلب حسن بين قدميه، في لحظة واحدة تبخر غضبه وتبددت أحزانه.

ريهام، ابنة عمه، ومحبوبة طفولته، سمرتها الرائقة وملامحها المنمنمة المُحلاة بابتسامة عذبة، امتلأت رأسه بصورتها القديمة البهيجة قبل «الحادثة» وملامحها الحالية المُغطاة بقناع من الأسى والخوف وطابع عام من الذهول المشوب بالرعب. ردد بقلبٍ واجف:

- مسخسخة!

هَمسَ الحاج عِتمان بينما يقتاده إلى حجرة جانبية يتوسط بابها الخشبي المُشقَّق حائطها المَبني من الطين اللَبِن:

- لما شافته.

- هوَ مين؟!

أزاح العجوز الباب الخشبي، فرأى حسن من ورائه ثلاثة رجال، أحدهم أشيب الشعر بالكامل، متين البنيان، وثانيهم شاب امتلأ وجهه بالجروح والكدمات رغم قوة بنيته الواضحة، وثالثهم –أغربهم!- ضئيل الجسد كغلام مُراهق، يغطي وجهه منظارٌ داكن.

تجمد حسن مُحدِّقًا في ثلاثتهم، وقد تناثروا في إنهاكٍ واضح على الحصيرة التي تغطي الأرضية، وسمع عمه الحاج يقول بصوت ملأه التأثر:

- الجدع اللي ردّلنا روحنا.

التفت حسن إليه مستفسرًا، فوجده يشير بكفه المفتوح تجاه أوسط الرجال الثلاثة –ذي الجروح والكدمات- مستطردًا:

- دا اللي رجع لنا بنتنا من سنة بعد ما كُنا مفكرينها راحت مننا.

واختنق صوته بالانفعال وهو يُردِف:

- اللي رجع ريهام يا حسن، مراتك.

***

- مانشيتات الصُحُف والمواقع في العالم كله تقريبًا بتتكلم عن موضوع واحد بس!

خرجت الكلمات الحماسية من بين أسنان إبراهيم جودة الهولوجرامية الداكنة بفعل سنوات التدخين.

- الإنسانية توحدَت وانتصرِت في حربها على الإرهاب.

كادَت ضحكة خافتة أن تنفلت من آدم المصري، ولكنها سرعان ما تبدَّدَت ولم تتجاوز ابتسامته الساخرة، بينما إبراهيم يتابع:

- الأخبار بتتوالى عن تدخل الحكومات، وسقوط أركان الشبكة الضخمة المُنتشرة في كل دول العالم، التفاصيل مُذهِلة.

التظاهرات في الشارع بتتراجع، وانتهِت في أغلب العواصم والمُدُن.

عندنا في مصر، الشارع هادي تمامًا وتحت سيطرة الأمن بالكامل من بعد صدامات إمبارح، أغلب التحليلات واستطلاعات الرأي المبدئية أكدِت إن بيان رئاسة الأركان كان له دور كبير في طمأنة الرأي العام، وما ترتَّب عليها من انخفاض نِسَب المشاركة المتوقعة في التظاهرات، البيان اللي أنا وعمرو بيه شاركنا في كتابته وصياغته في اجتماع الشئون المعنوية.

بالمناسبة، هو عمرو بيه مُختفي فين بقاله يومين؟!

قال آدم باقتضاب:

- مسافِر.

أومأ إبراهيم برأسه وتابع بحماس:

- وفيه أخبار انا مُتأكِد انها وصلِتَك عن اجتياح مُعسكر تدريب تاني قُرب حلايب، والجيش صفًىَ كل أفراد الميليشيا اللي كانت مُتحصِنة داخله.

اسمَحلي اقولَك حاجة يا مستر آدم: إنتَ امَّك داعيالَك!

قال آدم بنبرة ساخرة:

- أنا مُتأكّد.

ضحك إبراهيم قائلًا:

- مِش بَس كدا، إنت فيك شيء لله!

بشيء من الاستبصار، اقدر اقول انك خرجت من الأزمة دي أقوى مما دخلتها، أعداءك سقطوا، الحكومات تكاتفت معاك، أعَدت ترتيب البيت من الداخل (يغمز بعينه اليُمنى) انا وصلتني طراطيش كلام كدا عن قلق جامد حاصل في E. N أمريكا وفرنسا وروسيا.

غادرت حلقة من دخان السيجار شفتي آدم اللتين عادتًا لتنطبقا من دون تعليق، فهَز إبراهيم رأسه مُتفهِمًا، وقال من دون أن يخسر ابتسامته:

- رَجعتني للأيام الخوالي يا أدهم.

ساد صمتٌ ثقيل بعد أن تلاشَت آخر حروف كلماته، استمر لما يقرُب من العشرين ثانية قبل أن يقول آدم بتؤدَة:

- عارف يا ابراهيم انا ليه ماقتلتَكش لغاية دلوقتي؟

أجاب إبراهيم على الفَور:

- عشان محتاج لواحد زيي جَنبَك، وانا اللي زيي انقرضوا.

Old is gold يا مستر آدم.

حَكَّ آدم خصلات لحيته بأطراف أنامله وهو يقول:

- الكفاءة وحدها مِش كفاية.

- الإخلاص.

رفع آدم حاجبين مُتهَكمَين وهو يقول:

- أنا مِش ساذج عشان اطلب مِنَك حاجة ما تَملَكهاش، ولو تَملُكها تبقى عبيط، وانا مَبشتغَلش مع عُبط.

قال إبراهيم بعد لحظة من التفكير:

- خلينا نقول الولاء؟

أومأ آدم قائلًا:

- اختيار الولاء.

ودفع المزيد من الدخان ثم أردف:

- أنا عارف من زمان انك –ماتزعلش مني- كلب فلوس، بس انت برضه مِش عبيط عشان ولاءك للقرش يعميك عن الباور بوينتس الحقيقية.

مال إبراهيم للأمام باتجاه هولوجرام آدم وقال باهتمام:

- ما توضح أكتر يا مستر آدم!

- إوعى تفتكرني تايه عن الأكروبات بتاعتَك، والرسايل اللي كنت بتبعتها من بين السطور على تغطيات المحطة بتاعتَك للناس اللي فوق! ازعَل مِنَك.

سال عرقٌ بارد على وجه إبراهيم الخالي من التعابير.

- اللعب على كذا حَبل مَلوش غير نتيجة واحدة هي إنك تقع وتتكسر رقبتك.

قالها آدم، ونظر له بحِدة مُتابعًا:

- إنت حُر فـ شُغلَك طول ما انت بعيد عن شركتي، إنما انت دلوقتي خلاص، محسوب عليا، ولما تحب تصيع وترمي كروتَك للجناحين اللي فـ السُلطة اللي بيحاربوا بعض في الأدوار العُليا، فانت كدا بتلعَب بالنار جوا بيتي يا ابراهيم.

امتقع وجه إبراهيم بينما يقول:

- اسمحلي اشرحلَك يا مستر آدم.

قال آدم بغلظة وهو يلقي نظرة على أرقام ساعته:

- وَفَر هَريَك يا ابراهيم، انا عندي meeting هَيبدأ بعد خمَس دقايق بالظبط.

وسلطَ عينين مُشتعلتين نارًا على إبراهيم، مُستطرِدًا:

- ولاءك بقى ليا انا بَس طالما اشتغلت معايا، أنا بَس. دا إنذار أوَل وأخير، لو حاولت تلِف وتبعت رسايل أو تعقد صفقات من ورا ضهري، مش هتبقى فيه إنذارات. فاهمني؟

غاضت الدماء من وجه وهو يحدِّق في هولوجرام وجه آدم، شاعرًا بكيانه يكاد يحترق تحت وطأة الشرر الذي يتطاير من العينين الغاضبتين.

أومأ برأسه مغمغمًا بحروف مُتداخلة أن:

- Sure مستر آدم.

- وحاجة تانية.

ازدرد إبراهيم لُعابه بصعوبة وأنصت للصوت الذي اشتدَت قسوة نبراته حتى كادت تخدش طبلتي أذنيه:

- دي آخر مرة أسمع فيها اسم «أدهم» على لسانك.

لم يَدر كيف ولا متى انتهَت المُحادثة، ألقى بثقل جسده على مَسند مقعد مكتبه، وأسبل جفنيه بينما صدره يعلو ويهبط لازال.

أما آدم فظل على جلسته الثابتة إلى مكتبه لدقائق، اكتفى خلالها بتدخين سيجاره، حتى تعالت أنغام الهاتف مصحوبة برقم الجهة المُتصلة على لسان الوحدة الصوتية المُزوَد بها (س-١٨) كمبيوتر **E. N**. المركزي.

أطلق حلقة جديدة من الدخان، ثم أومأ برأسه إيماءة استقبلتها مجسات وكاميرات (س-١٨) فحللتها، وفي اللحظة التالية بدأت الصور الهولوجرامية تتشكل في نصف دائرة أمامه.

أدار عينيه في وجوه شركائه، القدامى المألوفين منهم والوجوه الجديدة.

- سَيد وونج لي.

هَز الصيني رأسه فاغرًا فاه عن ابتسامة مُهذبة.

- سَيد جوسنال.

أضاءت أسنان الهندي الكبيرة بشرته السمراء.

- سَيد ويتيكر.

ابتسامة قصيرة ارتسمت على شفتي هانس ويتيكر الألماني، صاحب العود النحيل والذقن المُدَببة والعينين الزرقاوين، مُمَثِّل اتحاد الشركاء الأوروبيين بديلًا عن

الفرنسي جان بيير تيرار.

- سَيد جيلسبي.

أومأ جون جيلسبي الشريك الأمريكي، صاحب القامة الرياضية والشعر واللحية الأشهَبين والوجه المليء بالنَّمَش -بديل الشريكة الأمريكية السابقة جوليا فرانكلين- برأسه مُحيِّيًا.

- سيدة بروخورف.

هَزَت ناتاشا بروخورف، الشريكة الروسية -خليفة إيفان إيفانوفيتش- خصلاتها الذهبية مُحَيِّية، وقد جلست في مقعدها مُنتصبة الظهر، وأجابته بابتسامة واثقة:

- سيد مصري.

مَرَت لحظة من الصَّمت قبل أن يقول آدم بعربية تُرجِمَت أوتوماتيكيًا في نفس اللحظة للصينية والأوردية والألمانية والأمريكية والروسية:

- مرحبًا بِكم.

***

انتظمت أنفاس زين، فأدركَ رفعت المُستلقي إلى جواره على نفس الحصيرة أن النُّعاس قد تمكن منه.

الحجرة من حوله مُظلمة، لا يخدش هواءها الأسود إلا خيوط من ضوء تتسلل من بين خِصاص شيش قديم موصَد من كلوب ضعيف بالخارج؛ حيث جلس كلٌّ من الكابتن خالد والحاج محمد عِتمان صاحب البيت، يُدخنان ويتجاذبان أطراف الحديث.

حدقَ –وقد خاصم النوم جفنيه- في الخطوط الباهتة التي بانت في الضوء الشحيح من عروق السقف الخشبية.

لدى وصولهم كانت البنت –عَرفَ لاحقًا أنها تُدعى ريهام- تتحرك بين العِشة، عِشة عمها ووَلِي أمرها الحاج محمد عِتمان، وبين خُن الدجاج حاملة كيسًا مُنتفِخًا بطعام الفراخ من بقايا الأكل والعيش الناشف وقشور الفاكهة، عندما رأتهم مُقبلينَ في ضوء الغروب وقد توسطهم زين مُتكئًا على كتفي رفيقيه.

وقعت عيناها على زين.

لم تذكره، بالأحرى عقلها الواعي لم يكُ يحتفظ بنسخة من ملامحه، غير أن عقلها الباطن كان له رأيٌ آخر، بدليل أن عيناها ارتكزتا عليه وحده من دون رفيقيه، رغم غرابة مظهر ذلك الضئيل ذي الشفتين الغليظتين والمنظار الداكن.

اتسعَت عيناها وهما تستعيدان ملامحه حادة التقاطيع

-رغم ما طمسها الآن من كدمات وسجحات وألوان- ورأسه الخالي إلا من شعر خفيف، وقوامه الممشوق الأميَل للنحافة.

سَرَت قشعريرة باردة في جسدها الذي انتشر فيه تنميل عجيب.

ومن بين ظلمات السندرة المُغلقة في غُمق ذاكرتها، انبعثت ملامحه مُجددًا؛ إذ تُطِل عليها من أعلى مُشَوَّشة، وقد خَلَت من الكدمات والسجحات وامتلأت بمزيجٍ من قلق وإشفاق.

فتح الباب المغلق، ودلف إلى الغرفة ليتوقف أمام الفراش الذي يتوسطها، وتأمل (في ضوء الأباجورة الموضوعة على الكومودينو) الجسد المسجى عليه، والملفوف بكامله تقريبًا بالأربطة والضمادات.

أطلّت لمحة من الإشفاق من عينيه، مر بسبابته على الكف الدقيق الملفوف بالشاش.

هوى كيس «أكل الفراخ» من بين أصابعها لتتناثر محتوياته على الأرض.

رفعت كان قد انتبه من اللحظة الأولى -رغم شِدة إرهاقه- لطاقة الخوف الهائلة التي راحت تنبعث بكثافة من كل خلية من خلاياها، فرفع رأسه إليها، وقد تشمم رائحة الهَلَع ورآها مُتصلِبة الجسد قُرب خُن الدجاج، تُحدِّق فيهم بعينين جاحظتين وأنفاسٍ مُتلاحِقة.

وكأنما كانت ملامح زين هي المُفتاح الصدئ الذي دار في القفل العتيق الذي يُغلق ضلفتي سندرة ذاكرتها،

فانفتحتا لتتحرر الصور والأصوات كالسَّيلِ العَرِم، ومعها انسال خيطٌ من البول على باطن ساقها.

وبينما كان رفعت يسري إكتوبلازميًا داخل كهفها المُظلِم الذي تمرح فيه مخاوفها، ويَجِد السير لنهايته باتجاه الباب الخشبي العتيق الذي تختفي وراءه أعتى وأبشع كوابيسها، اعترف لنفسه أن هذا الكهف هو الأكثر امتلاءً بالرعب من بين مئات الكهوف التي اخترقها طيلة السنة الفائتة مُذُ استوعب قدرته الفائقة.

من وراء الجدارن الصخرية، ومن داخل كل شَق بها، ومن تحت كل حصاة من الحصى المفروش على الأرض، سمع الأنفاس الثقيلة والصرخات المكتومة، ملأت أنفه رائحة هَلع حيواني لم يعرف له مثيلًا من قبل.

كم كان عددهم؟ لا تعرف طبعًا، ولم يخطر ببالها أن تسأل نفسها. مشاعرها كانت موزعة بالتساوي بين الصدمة والرعب الحيواني والألم العنيف.

اشتدَت وتيرة الصراخ مع اقترابه من الباب في نهاية الممر الصخري، وعندما بلغه قفزت دهشته لذروتها؛ إذ وجده –لأول مرة- مفتوحًا على مصراعيه!

دنا من فتحته شاعرًا برهبة، وأرسل بصره إلى داخلها، إلى الرعب الذي يقض مضجع هذه السمراء المسكينة، والذي حبسته وراء الباب الخشبي حتى حررته رؤيتها لزين.

كانوا ينهشونها بالمعنى الحرفي للكلمة ... الأصابع والأظافر والأسنان والقضبان تنتهك كل ملليمتر من

جسدها.

تشعر باختناق وضغط شديد يحطم ضلوعها، تعجز عن التنفس.

الأظافر تنهش ظهرها وساعديها وبطنها، الأصابع تمزق خصلات شعرها، تشدها من ثدييها، ويندلع فيهما ألم حارق، جعلها تصرخ من أعماقها عندما عضها أحدهم فقضم حلمتها.

في الضوء الشحيح القادم من خارج الغرفة، لمح جسدًا ضئيلًا -خمَّنَ أنه فأر- يَنسَل من بين عروق السقف الخشبية، قطعة من الظلام عبرت سريعًا عائدة لملكوت الظلام.

زين النائم إلى جواره أخيرًا بعد سويعات من الكمادات؛ لتبريد حرارة جسده المرتفعة يرتعش من البرد، يتمتم بكلمات غير مفهومة، أدار رفعت ذراعه وأحكم لَف الغطاء الصوفي حول جسده، مَس جبهته فوجدها دافئة، مَد أصابعه إلى الفوطة المغمورة في طبقٍ ملئ بالماء البارد إلى جواره، فرفعها واعتصرها بكفه الدقيق ثم نفضها لتتناثر منها قطرات الماء وكبسها على مُقدمة رأس زين.

سمع صوت خطوات تقترب بسرعة وحَدَسَ أنها عند مدخل العِشة، ثم أعقبها صوتٌ عالٍ غليظ جاء من الحوش مُلقِيًا السلام.

سمع الكابتن خالد يهمس متسائلًا:

- مين دا؟

أجاب الحاج محمد عِتمان:

- الشيخ طُلبة، فراش الجامع، الفَجر قرَب.

- بيتهيألي انه لمحني قبل ما اتدارى جوا العِشة. هو إيه نظامه؟

- راجل سَو ابن كلب! بس رَبَك كبير.

- مِش عايزك تقلق يا حاج محمد، قبل ما يطلع الصُبح هَنكون اتحركنا.

قال الحاج عِتمان بحرارة:

- انتو فوق راسي من فوق!

وتهدَّج صوته بينما يردف:

- إنت ماتعرفش! صاحبك رجعلنا بنتنا بعد ما كُنا خلاص استعوضنا ربنا.

تنهد رفعت بعمق.

لازالت صرخاتها تتردد في رأسه رغم انفصاله عن سيالها الحيوي، كل صرخة تُمزِّق قلبه، تزلزل كيانه حرفيًا، يشم روائحهم وأنفاسهم، تمزق جلده أظافرهم وأسنانهم، يستشعر نوعًا جديدًا لم يعرفه من الانتهاك.

استغرب هذا الشعور بحق!

قلبه الذي لم يعرف مُنذُ استفاق على الدُنيا قبل سنة، سوى كراهية سوداء كقطع الليل المُظلم تجاه كل من ارتضوا هذه الهُول التي مورِسَ ويُمارَس على ملايين الغلابة أمثاله، تجاه من ارتضوا أن تُفقَأ عينيه داخل ماكينات التعذيب كي يهنأوا برَغَد العَيش، هذا القلب الذي يَنفِث حِقدًا وغضبًا ودفعَهُ دفعًا للقتل مرة واثنتين

وثلاث، القلب الذي تحجَّرَ مع كل خوف يُجسِده وهمًا ذي لون وملمس ورائحة، هذا القلب يخفق الآن لألم ومُعاناة هذه الفتاة المُنتهكة.

لماذا هي بالذات؟

سَمِعَ صوت خروشة الفأر؛ إذ يزحف على مقرُبةً منه، وبطرف نظره لمح ذيله يتلوى ثم يغيب في الظلام، مَد أنامله ليتحسس الحائط إلى جواره، الملمَس الخشن للبياض الردئ الذي تسربت منه برودة الخارج للداخل، ملأت أنفه رائحة مُركَّبة من روائح الرطوبة والغطاء الصوفي «المُكَمكَم» والوسادة القديمة المُفعَمة بالنفتالين، وحِزَم البصل والثوم المُعَلقة على حائط الطُرقة، وزِبل الفراخ الذي تفوح رائحته من الخُن القريب، روائح مُتشابكة بَدَت له مألوفة وكأنها قادمة من عالمه الأصلي الذي تاه في دهاليز ذاكرته، شعورٌ بالراحة والألفة رسخته ملامح الحاج محمد عِتمان المُنهَكة، التي عكسَت عُمرًا من الشقاء، والتي شعر أنه قابل مثلها مرارًا في حياته السابقة قبل قيامته وبعثه داخل ماكينات Egy- Nergy.

وبينما آذان الفجر يرتفع من المسجد يحمله صوتٌ غليظُ مُشوَّه –صوت الشيخ طُلبة- كان قد اتخذ قراره.

دَسَّ كفه في جيبه ليقبض على ميداليته، وفي ظلام الحجرة، ومضت خليتاه البصريتين من وراء منظاره الداكن الذي لم ينزعه بعد حتى في نومته تلك.

تماوجَ سياله الحيوي وامتد لسانٌ منه كسحابة من

الدخان زحفت؛ لتغادر الحجرة من تحت عقب بابها الخشبي، سَبَحَت في الفراغ بين الجدران الطينية المطلية بالجير الرخيص لتُفَتِّش الحجيرات حتى عثرت أخيرًا على ضالتها.

كانت مُمَددة في فرشتها، جسدها منطوٍ على نفسه في وضعٍ جنيني، تائهة لازالت في غيبوبتها التي تهاوَت فيها لدى مقدمهم قبل ساعات، وعلى الأرض بجوار الفراش نام زوجها الشاب الأسمر النحيف صاحب الشعر المفلفل –الذي قدمه لهم الحاج عِتمان باسم حسن- جالسًا، وقد عانق أصابعها بأصابعه الطويلة ذات الأظافر القذرة.

دار لسان الإكتوبلازم حولها، ثم لم يلبث أن غاص وامتزج بسيالها الحيوي، ليجد رفعت نفسه يسير مُجددًا في كهفها الصخري المُظلِم بين الصور والذكريات والأصوات المُخيفة التي تحررت.

كانت تتصايح وتندفع من حوله كالوطاويط، ضحكات وصرخات ولهاث وأنفاس عَفِنة، ووجوه قبيحة نظراتها أشبه ما تكون بنظرات الضواري، وهنا أقدم على فعلة يرتكبها للمرة الأولى.

بدأ يلتقط هذه الذكريات، يختطفها، يقبض عليها بأصابعه بينما تتطاير من حوله، ويركض في إثرها؛ إذ تحاول الفرار منه، بصبر ودأب ظل يجمعها الواحدة تلو الأخرى، كم استغرق منه ذلك؟ لم يَحسِب وكان قد أدركَ بالتجربة أن الزمن لا مقياس له «بالداخل».

أنهى مهمته وسار حاملًا غنيمته بحرص بين الجدران الصخرية، هوى بقدمه ليهرس ذكرى صغيرة وحيدة حاولت أن تتلوى مُبتعدة، انحنى يلتقطها ويضمها لمجموعته ثم يستكمل طريقه.

عبرَ الباب الخشبي المفتوح إلى مَخزن الكوابيس، بأصابعه قام بعجن الصور والذكريات والأصوات، صنع منها كرة بحجم كرة القدم، لف ذراعه حولها، وانحنى ليحفر في التراب بأصابع ذراعه الأخرى.

ظل يحفر ويحفر حتى صنع حُفرة اطمأن لحجمها وعُمقها، فألقى كرة الذكريات المُخيفة في قلبها وأهال عليها التراب، راحت الأصوات والصرخات والأنات تخفُت وتضعُف حتى انطمرت تمامًا مع انتهائه من الردم وتسوية الأرض.

نهض وهو يلهث من المجهود، غادر الحُجيرة وأغلق الباب الخشبي خلفه، ثم مَد أصابعه إلى جيبه ليسحَب منه الميدالية، وقَد تحولت لقفل نحاسي ضخم براق.

ثبتَ القفل إلى الباب وهَزَّه بقوة ليتأكد من ثباته، ثم استدار مُغادرًا الكهف الذي بدا له هذه المرة أقل ظلامًا وأكثر هدوءًا، وعلى شفتيه الغليظتين ارتسم شبح ابتسامة ارتياح.

وبينما سياله الحيوي ينفصل عنها، ويسبح في الهواء عائدًا لجسده المُمَدَّد على حصيرته بالحُجرة قرب مدخل العشة، لم يَر بطبيعة الحال الفتاة الغارقة في غيبوبتها، وقد ارتخَت عضلات وجهها وانفرجَت

أساريرها، وتخلص جسدها من وضعه الجنيني، وتمددت أطرافه على اتساعها.

ومع خيوط الصُبح الأولى، أسبلَ رفعت جفنيه وترك نفسه ينزلق في نومٍ مُستحَق لم يَغِب فيه سوى لدقائق قليلة، صحا بعدها على هزات من كَف الكابتن خالد، وسمع صوته يفِح: - ياللا بينا.

فتح زين عينيه.

بَدَت له الرؤية مُهتزة بعض الشيء، ولكنها سرعان ما تماسكت لتُمَيِّز عيناه وجه الكابتن خالد الذي رسمته التجاعيد، ونفرت على جبينه خصلات طويلة من الشعر الأبيض.

- حاسس انَك أحسن؟

ضم زين أصابعه وفردها ببطء وقال بشيء من الدهشة:

- أحسن كتير!

نهض خالد قائلًا:

- جِسمَك ارتاح، خَد كفايته من النوم، والإصابات تكفلَّت بيها العقاقير المُجدِدَة للخلايا.

انتبه زين إلى أنه مُمَدَّد على أريكة وثيرة، أدار عينيه في المكان حوله والذي بدا له مألوفًا.

تساءل وهو ينهض بدوره:

- إحنا هنا؟

قال خالد وهو يتجه نحو بار في ركنٍ قريب:

- المنزل الآمن رقم صفر.

هنا أدرك زين ماهيَّة المكان، فيلا الساحل الشمالي التي نُقِلَ إليها قبل عامٍ كامل فاقدًا لوعيه بعد صدامه الأول مع رفعت قبيل بوابات طريق مصر- إسكندرية الصحراوي.

شعر برأسه يدور إثر محاولته النهوض، فترك جسده

يعود للأريكة، ثم لم يلبث أن وجد كوبًا ممدودًا أمام عينيه بين أصابع الكابتن خالد، وسمعه يقول:

- إشرب دا.

- إيه دا؟

- مُنشِّط. هيساعدك.

تناول زين الكوب ورشف من السائل البارد الأقرب لمذاق النعناع، وشعر به يصعد إلى رأسه مباشرةً، فتجرع مُحتوياته على رشفات مُتتاليات. ألقى نظرة على زجاج الفراندة القريبة، فغاص بصره في الظلام الأصَم إلا من نجوم بعيدة واهنة الضوء، وانتبه لصوت الأمواج، تساءل:

- إحنا بنعمِل ايه هنا؟

لم يَرُد الكابتن خالد، انطلق صفير خافت انزاح على إثره باب فُرن المايكروويف، فتناول منه صينية يتصاعد من محتوياتها البُخار الساخن، وضعها على منضدة صغيرة بجوار أريكة زين، وقال له:

- كُل الأول عشان تسترجع نشاطك وهنتكلم بعدها.

وضع زين الكوب شاعرًا بذهنه يصفو شيئًا فشيئًا، وبشهية تنمو في أحشائه دفعته ليقبل على الطعام، وبينما يمضغ تذكر بغتة:

- رفعت!

نظر مُستفهِمًا للكابتن خالد فرآه ينظر لنقطة أبعد، أدار رأسه يسارًا لتقع عيناه على رفعت الجالس إلى مقعد وثير في ركنٍ قَصي، تبادلَا نظرة طويلة مُحمَّلة قبل أن

يَهز زين رأسه، فيجيبه رفعت بإيماءة خفيفة لا تكاد تُرى عاد بعدها لسكونه.

فرغ زين من طعامه سريعًا وأزاح الصينية جانبًا، وهو ينظر لقائده السابق متسائلًا:

- وبعدين؟

نفث الكابتن خالد، الجالس واضعًا ساقًا على ساق، دخان سيجاره وقال:

- مُنتظرين الاتصال.

- اتصال بمين؟

أجاب الكابتن خالد باقتضاب:

- القيادة.

ابتلع زين فضوله وقلقه وقد أدرك أن خالدًا لن يثرثر بالمزيد، وأن عليه أن ينتظر، تشاغل بالتحديق في الفراغ الأسوَد خارجًا، ومرت الدقائق حتى انبعثَ رنين خافت، ثم تشكلَ هولوجرام لرجل متوسط القامة، في أواسط الأربعينات، أصلع تمامًا، ملامح وديعة ظهرت عليها دلائل التوتر، وبذة تهدلت ربطة عنقها.

اعتدل الكابتن خالد في جلسته، وتحفز زين وهو يرمق الوجه الذي اتضحَت خطوطه.

- مرحبًا.

قالها صاحب الهولوجرام بإنجليزية تُرجِمَت أوتوماتيكيًا لعربية سليمة:

- يؤسفني أن يأتي لقائي الأول بِكُم في مِثل هذا الظرف العَصيب.

دعونا لا نُضيع الوقت.

سأله زين مُباشرةً:

- إنتَ مين؟

استدارت العينان الهولوجراميتان إليه، وأجاب صاحبهما:

- اسمي نظيم الدين كمال، عزيزي زين.

ضاقت حدقتا زين وهو يردد:

- إنتَ!

- الديك الرومي، كما أخبرتك صديقتنا المُشتركة أمل الشافعي.

خفق قلب زين لسيرتها، تساءل:

- هي فين دلوقتي؟

***

عندما غادرت أمل غيبوبتها هذه المرة لم تستغرِق زمنًا طويلًا لتستردِ وعيها وإدراكها، كما حدث قديمًا عندما غابَت عن وعيها في ميدان التحرير، ثم صَحَت لتجد نفسها في حجرة بمستشفى باريسي.

لم تشعر بالتأكيد بوخز الإبرة التي انغرسَت في عروقها قبيل دقائق من صحوتها، ودفعَت بالسائل المُنشِّط في دمائها، ولكنها بالتأكيد استشعرت التأثير مع وعيها الذي تكامل بسرعة.

ظلت مُغمضة العينين رغم اليقظة، حتى ملأت قبضتها بذكرياتها.

رُغمًا عنها، أبطأ شريط الذكريات عند تلك الأيام الصعبة التي قضتها في باريس –قبل رُبع قرن- عقب فَض الاعتصام وخسارتها هي لكل شيء بضربة واحدة، قضيتها وعائلتها وبلدها وحتى اسمها، بالإضافة لخسارتها الأفدح، والتي ظلت مرارتها في حلقها حتى هذه اللحظة: الرجل الذي أحبَت.

لما غادرت المستشفى الباريسي الذي صَحَت من غيبوبتها بإحدى حجراته، كانت تحمل جوازَ سفرٍ عليه اسمٌ غريبٌ هو «شادية نور الدين»، مواطنة مصرية فرنسية، لم تكُن تملك -وقد أُحيطَ بها وحيل بينها وبين عالمها القديم- إلا قَبول العرض الذي جاءها من الحكومة المصرية من خلال سكرتير القنصلية المصرية في باريس.

بعد عدة محاولات لتلمُّس إمكانية التسلل خِلسةً إلى مصر من أجل الانخراط في جولة جديدة ضِد الشركة، تأكدت أن الأمر هذه المرة جَدٌّ لا هزل فيه، وأن أبواب وطنها صارت مُوصَدة بالفعل في وجهها، صار عليها أن تُعِد نفسها لقضاء ما تبقى من سني عمرها بعيدة عن أهلها وبلدها وذكرياتها، وحيدة تلعق جراحها وتجتر خسارتها.

ملأت أنفها رائحة عَطرة.

فتحت عينيها ببطء.

الإضاءة الخافتة المُريحة سهلت على عينيها استيعاب التفاصيل من حولها، القاعة الفسيحة ذات الجدران الفاتحة الخالية من أية فتحات، والأرضية المُبلَّطة بالبورسيلين، والنور الخافت المُنبَعِث من الجدران ذاتية الإضاءة.

استنفرت قواها الواهنة لتتكئ على عظام مرفقيها، وتنهض بصعوبة من رقدتها على الفراش الذي يتوسط أحد أضلاع القاعة.

رأسها يدور.

زمان، في تلك الشقة الصغيرة بـ نيس، والتي سلمها سكرتير القُنصلية مفاتيحها في نهاية لقائهما الثاني والأخير، قضت أيامًا وليالِيَ طويلة، هي الأصعب في حياتها الملأى بالليالي الطويلة الباردة، تنازعتها الأفكار والخواطر السوداء، وهي جالسة بالساعات أمام الإنترنت تنبش في تداعيات فَض الاعتصامات

بالميادين والشوارع المصرية، وما تلاها من مواجهات بين الجيش المصري وميليشيات مُسلحة نشطت في شمال سيناء، التغطيات والفيديوهات والمقالات والحملات، ترقب الضجة وهي تخبو رويدًا رويدًا، ولم تَغِب عن ملاحظتها تلك الممحاة البطيئة الراسخة التي راحت تقتفي أثر كل توثيق لما جرى على الإنترنت، فتزيله من الوجود بقسوة وثقة.

وسط كل هذا، كان جزءٌ محمومٌ منها، من وعيها، يفتش عنه في كل خبر، كل صورة، كل فيديو، كل لينك، تتوق لرؤيته ولو لمرة أو لحظة واحدة يرتد فيها الأمان والأمل لقلبها، تحرق السجائر وتسكب القهوة مُرة المذاق في حلقومها بينما سبابتها تنتقل بها من صفحة لصفحة ومن موقع لموقع.

وشيئًا فشيئًا ماتت البذرة في قلبها، ونما شعورٌ آخر هو الغضب الممزوج بتساؤل عن كيفية حدوث ما حدث.

لماذا خسروا معركتهم ودفعوا الثمن باهظًا، فقُتِلَ من قُتِل وسُجِنَ من سُجِن وشُرِّدَ من شُرِّد، واشتركوا جميعًا في حَمل ميراث العذاب؟ لماذا تحالف العالم كله ضدهم؟ لماذا يخسر الخير دومًا؟ وأين الله من كل هذا؟!

أين؟!!

عندئذٍ، رفعت عينين غاضبتين لأعلى.

استوَت جالسة إلى حافة الفراش، وبَقيَت كذلك

لدقائق دفنت خلالها وجهها في كفيها، وتخللت أصابعها خصلات شعرها الفضي القصير.

دقائق كافحت خلالها لانتشال رأسها من براثن الدوار، وظلت تملأ قبضتها بالمزيد من الذكريات.

قال دستويفسكي يومًا:

«عندما لا يكون الله موجودًا، فإن كُل القِيَم تسقط من تلقاء نفسها».

«فكل شيء مُباح».

ودومينيك كان موجودًا.

المُمرِّض الشاب الذي صَحَت من غيبوبتها على نظرات عينيه المُشفقة، هذا الإشفاق الذي تحول مع الوقت لعاطفة صريحة، أطلت بوضوح من نظراته وحنانه وعنايته الزائدة بها، ثم حرارة أحضانه عندما جمعهما الفِراش بعد أسابيع من خروجها من المستشفى، وحدتها وغربتها وتقوُض بنائها الروحي والقِيَمي بفعل النوازل الأخيرة، بالإضافة لإعصار عواطفه دفعها دفعًا بين ذراعيه.

لماذا هي؟!

سؤال ظلت تسأله لنفسها عَقِب كل مرة ينفَض التحامهما، الفتى العشريني الوسيم فارع الجسد، حار العواطف يصغرها بما يزيد عن الخمسة عشر عامًا، وهو ولا شَك واجد في الحسناوات الفرنسيات من هُنَّ مؤهلات لإشباع شبابه وعنفوانه أكثر منها هي، الأربعينية عُمرًا وجسدًا والتسعينية روحًا.

- منذ رأيتُكِ شعرت باحتياج جارف إليكِ.

قالها همسًا بينما أصابعها تغوص في كتفه العاري.

رَفَعَت رأسها تتأمل القاعة من حولها مرةً أخرى، انتبهت إلى أن الإضاءة تزداد سطوعًا برفق محسوب يتناسب مع درجة استعادتها لوعيها، ثمة ثياب بيضاء نظيفة منضوضة بعناية على طرف الفراش، ولاحظت وجود مِنضدة تتوسط مقعدين وثيرين بأحَد الأركان، فاستنفرت قواها ونهضَت مُتجهة إليها بخطواتٍ واهنة، على سطحها استقرت صفحة وجبة ساخنة وغلاية فاحت منه رائحة القهوة، غاصت في أحد المقعدين الوثيرين، تجاهلت الطعام وصَبَّت لنفسها كوبًا من القهوة، وسرعان ما امتلأ أنفها ببخارها زكي الرائحة.

أنعشتها القهوة المُتقنة فطفقت تتأمل المكان مُجددًا، ثم لم تلبث أن نهضت وقد سَرَت الحيوية في أطرافها، فتجولت في أرجاء القاعة العارية إلا من أثاثها القليل.

رحل دومينيك بعد عام وبِضعة أشهر.

أعلمها بأنه سيضطر للتغيب من أجل التحضير للدبلومة، ولكنها كانت تعلم أنها مُجرَد حجة، وأن عواطفه كانت قد انطفأت كما انطفأت عواطفها هي، غادر حياتها، فلم تشعر بألم فراق أو أي شيء من هذا القبيل، بل لعل شعورها كان أقرب للارتياح بعد أن ضرب السأم علاقتهما في الشهور الأخيرة.

ألقت بنفسها وسط ضجيج شلة الأصدقاء التي اجتمعوا لها تدريجيًا لدى إقامتها بـ نيس، تقف نهارًا

في حانوت الأنتيكات الذي افتتحته بنقود القنصلية المصرية، ثم تنطلق ليلًا لتسهر وتشرب وتلهو حتى يهدها التعب.

كانت بالفعل قد صارت أمل أخرى لا تَمُت بشيء لـ أمل الشافعي التي كانتها قبل أقل من عامين.

بعد رحيل دومينيك بشهرٍ واحد اضطربَت دورتها الشهرية، فظنَت أنها قد بلغت السن الحرجة، غير أن الطبيب زَفَّ إليها الخبر الصاعق: ثمة جنين ينمو في أحشائها.

انتبهت إلى باب جانبي قريب فتحته لتجد وراءه حمامًا فاخرًا مُجهزًا، ما أن ولجته حتى أضيئَت جدرانه ذاتية الإنارة، ودَبَّت الحركة في السطح الهادئ لمياه البانيو، والذي صعدت الفقاقيع عطرة الرائحة إليه فيما بَدا وكأنه دعوة مُغرية من وحدة الكمبيوتر التي تتحكم في خدمات هذا المكان العجيب للاغتسال.

من دون كثير تفكير، خلعت ثيابها -انتبهت إلى أنها لازالت داخل ثيابها المنزلية التي كانت عليها في منزِل الغردقة- وغمرت جسدها داخل المياه الدافئة.

تيارات شتى ظلت تعصف بكيانها طيلة الفترة التي سبقت عملية الإجهاض، مشاعر متلاطمة لم يكُن من بينها الخوف بعد أن أغلقت الباب على ما كان بوصلتها الرئيسية: إيمانها.

كانت غَضبَى، ساخطة على الدنيا ومن يُديرها لو كان هُنالِكَ واحدٌ، وغضبها يدفعها للتحدي، شاعرة

بأنها بعد كل ما نزلَ بها لم يَعُد لديها ما تخسره، وإذا كانت هُنالِك آخرة وحساب، فلديها بالفعل الكثير لتُحاسِب هي لا أن تُحاسَب! ورغم الاشتياق الذي انفجر عارمًا في أعماقها لشعور الأمومة القديم الذي نسيَت مذاقه منذ عقد كامل من الزمان، إلا أن قرارها كان حاسمًا: لا مزيد من المُعاناة في هذا العالم، وهديتها الكبرى لجنينها هي أن ترحمه من الخروج لهذا الجحيم.

أسبلت جفنيها وأسلمت جسدها للمياه ذات الرغوة عطرة الرائحة.

خرجت من العملية حُطَامًا، إنهاكها الروحي كان أعمق بكثير من إنهاكها الجسدي، ورغم أن الإجهاض تم في مرحلة مُبكرة بالفعل إلا أن أصوات دقات قلب قادمة من سماعات سونار وهمي ظلت لسنوات تطرق أذنيها فتجيبها دموعٌ ساخنة تبلل الوسادة كل ليلة.

يالها من أيامٍ تكاثفت فيها الأحزان والآلام حتى هانت عليها حياتها، وفكرت جديًا في إنهائها لولا فُضلة من جُبن لعلها الآن مَدينة لها، فلولاها لما عاد حالها لينقلب مائة وثمانين درجة بعد أكثر من عقد كامل من الزمان إثر لقاء غير مُتوقَّع.

خرجت من البانيو والماء يقطر منها.

التحفَت ببرنس أبيض، نظرت إلى انعكاس وجهها الذي استرد انتعاشه على مرآة عريضة ذات إطار دقيق، مُثبتة في فجوة بالحائط، مرّت بأصابعها على التجاعيد

حول العينين والشفتين، أدارت رأسها إلى منضدة رخامية قريبة افترشتها مجموعة كاملة من أدوات الزينة، التقطت فرشاة وبحركة آلية بدأت تُمَشِّط خصلات شعرها الفضية المُبتلة.

كان صباحًا مُشرقًا، وكانت جالسة إلى إحدى الأرائك الخشبية بذلك المُنتزه الذي اعتادت التردد عليه صباح كل يوم في طريق ذهابها إلى حانوتها.

لمحته مُقبِلًا بين الأشجار زاهية الألوان، لم تكترث له إذ جلس إلى طرف أريكتها، فقط ردَّت تحيته الصباحية بفرنسية طليقة، وانشغلت بإلقاء الحَبِّ إلى طيور المُنتزَه، ومراقبتها وهي تلتقطه من على الأرض بمناقيرها الدقيقة.

مرَت الدقائق حاملة سلامًا روحيًا بين زقزقات العصافير ونسمات الهواء المُحمَّلة بشذى الأزهار، ووجوه العابرين الطلِقة في هذه الساعة البهيجة من الصباح، حتى سمعته يقول:

- ياله من جمال!

عكارة خفيفة بدأت تلوح لمزاجها في الأفق.

- لكأني أرى الله أمامي هاهنا.

كانت راغبة في احتواء أكبر قدر ممكن من هذا السلام داخل روحها خلال الدقائق القليلة التي تستغرقها جلستها بين الشجر والورود والطيور، زاهدة تمامًا –بالذات في هذه اللحظات- عن أي نوع من التواصل؛ لذا لم تُعَقِّب على هذا التطفُّل على

خصوصيتها.

- هل أنتِ مؤمِنة؟

لا فائدة، زفرَت بعمق.

- لا.

قالتها باقتضاب وبدأت تجمع حاجياتها استعدادًا للنهوض، موعِد حانوتها يقترب على أية حال.

- لِمَ؟

فاجأها سؤاله، وهي التي لم تَعتَد التطفُّل ولا المُتطفلين منذُ استقرَّت في فرنسا قبل سنين، وبالذات على الخصوصية العقائدية، التفتَت ترمقه من وراء منظارها الداكن، أربعيني يصغرها بما لا يقل عن عشر سنوات، بسيط الثياب، متوسط القامة، زحف الشعر مُبتعدًا عن مُقدمة رأسه، وكان ينظر لها مُستطلِعًا إجابتها.

- ماذا؟

كرر بهدوء:

- أسألُكِ عن السبب وراء عدم إيمانِك؟

- وفيمَ يهمك معرفة السبب وراء عدم إيماني؟!

ابتسم مجيبًا:

- لنقل إنني أتساءل لدعم إيماني.

- دعم إيمانَك!

أومأ قائلًا:

- لدي قناعة بأن الجهد المبذول لتبرير عدم الإيمان أكبر بكثير من الجهد المبذول للإيمان.

والتقط جِفنة من الحَبِّ من الكيس المُستقِر على الأريكة بينهما، نثرها في الهواء، واستطرد ببساطة وهو يَرقُبُ الطير إذ يلتقطه بسلام من على الأرض:

- الإيمان الذي يكفي فقط تأمُل هذا القدر من الجمال للوصول إليه.

حدقت في وجهه المُكتنز قليلًا للحظة، ثم أشاحت برأسها قائلة:

- لو كان الله موجودًا لكان العالم كله بهذا الجمال.

ابتسم مرة أخرى وهو يقول:

- لولا القُبح ما صار الجمال جمالًا.

قالت بابتسامة هازئة:

- الكلام سهل تحت ظلال الأشجار وعلى وَقع زقزقة العصافير.

اتسعَت ابتسامته وهو يقول:

- لَستُ أعيش هنا.

كانت عازفة –فوق نفورها الراهن من التواصل- عن الخَوض في هذا النوع من المُناقشات.

- ولَستُ فرنسيًا من الأساس.

هَزَّت رأسها وهي تَهِم بالنهوض عندما أردف:

- مِثلِك تمامًا، عزيزتي أمل.

غادرت الحمَّام مُصففة الشَّعر، وقد اكتسَت وجنتاها بطبقة خفيفة وردية من المسحوق، حملتها قدماها المدسوستان في خُفَّين بسيطين إلى الفراش في خط مُستقيم، لَم تحيدَا عنه قيد أنمُلة، ومع كل خطوة كانت

دقات قلبها تتصاعَد.

وقفت أمام الفراش، مَدَّت يديها لتلتقط فستان السهرة الأسوَد الذي يحمل سلوجان أحد بيوت الأزياء العالمية الشهيرة، وثمة رائحة عَطِرة هادئة تفوح منه، صدرها يعلو ويهبِط.

ببطء نزعت البُرنُس عن جسدها.

- مَن أنت؟

سألته بعد أن تفرسَت في وجهه بنظرة طويلة.

نزع عينيه من مشهد الطيور التي تلتقط الحَبَّ، وأدارهما إلى وجهها. قال من دون أن تفارق ابتسامته شفتيه:

- اسمي نظيم الدين.

تساءلت بإصرار طالبة المزيد:

- من أنت؟

قال بهدوء:

- أنا من سَيرُد إليكِ إيمانَك.

بينما كانت ترفع حمالة الفستان إلى كتفها، انتبهَت إلى أن أصابعها ترتعش.

من البداية، مُذ لحظة استعادتها لوعيها وإدراكها وهي مُستشعِرة لحضوره الثقيل الراسخ.

صورته الأخيرة كانت أول ما انداح عنه الضباب حول ذاكرتها.

الباب ينفتح ببطء...

من دون أن تتوقف عن الانتفاض، فتحت عينيها

ببطء ...

الضوء الشحيح المتسلل من بين ثنايا الستارة لم يساعدها على تمييز ملامح صاحب الجسد الممشوق الذي يسِد فتحة الباب ...

مُجددًا، لمع وميض البرق فوقع على الملامح، ورُغمًا عنها غادرت الشهقة أعماق قلبها؛ ليبددها هزيمُ الرعد الأقرب لزئير الضواري ...

ورغم ذلك، سَرَت رعدة هائلة في جسدها عندما سَمِعَت صوته قادمًا من ورائها.

- لو عايزة رأيي ...

الدوار يطرق جمجمتها مُجددًا بالتزامن مع الخفقات المفاجئة لقلبها،

تَشبَثت بحافة السرير حتى لا تخذلها ساقاها.

- مشهد واحدة بتدخُل جوا هدومها مُثير أكتر بكتير ...

أغمضت عينيها كي تسيطر على انفعالها، وتطرد الدوار خارج رأسها.

- من واحدة بتخرج منها.

ببطء، استدارت بكامل جسدها المُرتعِد لتواجهه.

***

«كل شيء كان يسير على ما يُرام.

الخُطة تمضي قُدمًا وفق الجدول الزمني المُحَدَّد، وكل الاستطلاعات وبرامج الرصد، والمُتابعة، والتقارير الاستخباراتية كانت تؤكّد ارتفاع نِسَب نجاح العمليات، التي تم تنفيذها لما يفوق السَّقف المُتوقَّع في الكثير من الأحيان، الحَق أن قُدرة رفعت النفسية العجيبة لعبَت دورًا خطيرًا في تعديل موازين القوى للدرجة التي دفعَت لتغيير الخطة والجدول الزمني -وهذا أمرٌ لو تعلمون عظيم- من أجل اعتصار أقصى استفادة منها، كُل هذا كان له أكبر الأثر في قطع مسافات شاسعة في زمنٍ قياسي، وصار انتصارنا على مرمى البصر بالفعل، لولا ...

ديف» ...

تساءل زين:

- مين ديف؟!

«ديف هو الكمبيوتر المركزي لأنظمة The Eye المُتخصصة في إنتاج وتوريد وتركيب وحدات الكمبيوتر الذكية المُنتشرة داخل البيوت والشركات والمولات والقطارات ومحطات المترو إلخ، والتي تعمل بالأوامر الصوتية لعملائها من أصحاب هذه الفراغات والمُسجلة بصماتهم الحيوية في ذاكرتها.

أنظمة The Eye لا تكتفي بالأعمال الخدمية المنصوص عليها في آلاف العقود التي تُبرَم يوميًا بينها

وبين عُملائها، ولكنها تستغل خاصية قراءة البصمات الحيوية المُزودة بها وحداتها الكمبيوترية الموجودة في كل بيت ومكتب ومتجر وشركة في ممارسة نشاطها الحقيقي: التجسس.

الوحدات الكمبيوترية الخدمية تقوم بالتقاط وتسجيل ونقل كل كلمة وكل حركة وكل نفس يخرج في الفراغ الذي تُسيطِر عليه على مدار الأربع وعشرين ساعة، وكل هذه البيانات تنتقل أولًا بأوَل إلى ذاكرة ديف؛ حيث يتم تصنيفها وتحليلها وتخزينها، ثم بيعها لمن يدفع مُقابلها من أجهزة مخابرات ووكالات أمنية حكومية وشركات خاصة.

باختصار: ديف هو أكبر وأخطر جاسوس عرفته البشرية مُنذ فجر تاريخها!

وجود ديف كان أخطر عقبة تُعيق انطلاق مُخططنا لإسقاط E.N والتي هي بالمناسبة أحد أكبر عملاء أنظمة The Eye.

ديف -بفضل أجهزة رصد البصمات الحيوية لكل إنسان يتحرك داخل النطاق الحضَري- قادر على رصد وتعقب كل تحركات رجالنا بل والتنصُّت عليهم؛ لذا كانت الخطوة التحضيرية الأولى للثورة هي إخراجه من المُعادلة، كيف؟ ...

HAM: Humans Against Macheins

الدعوة التي ظهرت على السطح قبل بضعة أعوام حامِلة شعار الحَد من توغل الآلة في الحياة الإنسانية.

نحنُ كُنا وراء هذه المجموعات التي انتشرت على الإنترنِت، ثم لم تلبث أن خرجت من الافتراضي إلى الواقعي في صورة مظاهرات واعتصامات ووقفات احتجاجية، قبل أن ننتقل إلى تصعيد أكبر بالفعل الراديكالي: الهجمات الإلكترونية على أنظمة الحماية وشركات الخدمات الكمبيوترية.

ومع ظهور رفعت وبدء العَد التنازلي لتحول الثورة ضد E.N. لفعل عسكري حقيقي على الأرض- ضربنا الضربة الكبرى.

قبل عامٍ كامل من الآن، هاجمَ Anarchy البرنامج الرئيسي لـ ديف.

Anarchy هو خُلاصة ما توصل له مُهندسونا، برنامج كمبيوتر عبقري مُكوَّن من معادلة واحدة مُتغيرة الرموز، استطاع اختراق دفاعات ديف ومهاجمة وحدات الـ A.I. التي تُنظِّم الشِق الاستخباراتي من عمل ديف، والنتيجة هي ضعف مُطرد في كفاءته وقدرته على تلبية الطلب المعلوماتي، هذا الضًعف الذي تفاقم مع التلف المتزايد في وحدات الذكاء الاصطناعي أخرجَ ديف بالفعل من الساحة التي خَلَت لرجالنا، يتحركون ويؤدون مهامهم بحرية تحت سمع وبصر ديف العاجز الضرير.

ومجموعة The Eye بدورها لم تقف مكتوفة الأيدي بالطبع أمام انهيار استثماراتها، بالتأكيد بلغتكم أخبار المعركة الدبلوماسية المحمومة في أروقة الأمم

المُتحدة، من أجل استصدار قانون يرفع الحد الأقصى المسموح به لوحدات الذكاء الاصطناعي من المستوى الرابع إلى المستوى السادس، تِلكَ المعركة التي تكللت بنجاحٍ أسرع مما توقعته حساباتنا، ربما لأنها كانت بالنسبة لـ The Eye معركة حياة أو موت، فحَشَدَت لها حسابات مفتوحة، وجل ما تملك من شبكات نفوذ وعلاقات دولية، المُهِم أن الدرجتين الزائدتين من الذكاء الاصطناعي اللتين حازهما ديف وِفقًا للقانون الجديد لعبتا دورًا كبيرًا في تطوير برنامج مُضاد للفيروسات استطاع اصطياد Anarchy والقضاء عليه.

ما تلا ذلك لا يصعُب عليكم تخيله.

صِرنا مكشوفين تمامًا لعيون وآذان ديف الذي استعاد كامل قدراته، قامت وحداته بتحليل ما امتلأت به ذاكرته من بيانات وصور وأصوات، ذكاءه الاصطناعي المدعوم مَكَّنهُ من رسم عددٍ من السيناريوهات لما يحدث، ثم سَهَّلَ له اختيار الأقرب للحقيقة من بينها، وجاء اختياره مُطابقًا للواقع بنسبة ٩٧٪، الأمر الذي يُفسِّر هذه الدقة المُذهلة في توقع أماكن وتوقيتات ضرباتنا، بالإضافة طبعًا لأفراد وخطوط اتصال شبكاتنا حول العالم».

تساءل زين بحلقٍ جفَّ لعابه:

- هو اللي اصطاد أمل؟

نظر له نظيم الدين سريعًا ثم هز رأسه نافيًا.

- موقع أمل الشافعي انكشف من قبل أن تتلقى -Egy

Nergy بيانات ديف. انكشف من الداخل.

قطب الكابتن خالد مُتسائلًا في حين ردد زين بدهشة:

- خيانة!

تحركت الرأس الهولوجرامية يُمنة ويسرة مرةً أخرى.

- أحد أفراد فريقنا، وهو أحد القلائل في العالم الذين كانوا يعرفون موقع المنزل الآمن الذي كانت تختفي فيه أمل مع عزيزنا رفعت، تلقى زيارة من صديق قديم وخِصم حالي.

لم يَبدُ أي تغير على وجه رفعت المُغطى أغلبه بمنظارٍ داكن، بعكس زين الذي اتسعت عيناه وهو يقول:

- دكتور محمود!

أومأ نظيم قائلًا:

- المسكين لم يتحمل كثيرًا.

كور زين قبضته وهو يقول بغضب:

- ومين الصديق القديم والخصم الحالي دا؟

بدا صوت نظيم مُخيفًا وهو يُجيب ببطء:

- شبحٌ بُعِثَ من الزمن القديم.

«طفرة خارقة مثلك يا رفعت، كان خصمًا شرسًا للشركة أيام الثورة القديمة، ثم وفي ظروفٍ غامضة غاب عن الصورة قبل أن يعود مُجددًا في لحظة فارقة؛ ليقلب الأمور رأسًا على عقب، ومع عودته عرفنا أنه كان قيد أعيننا طيلة الوقت من دون أن نعلم.

نعم يا زين، آدم المصري، رئيس مجلس إدارة -Egy Nergy هو نفسه أدهم صبري، البطل القديم صاحب

القدرات النفسية الخارقة».

- مستحيل!!

«خسرنا محمودًا، أمل» ...

«ليس هذا كل شيء» ...

«ما سأخبرك به الآن» ...

«أعلم أنه سيؤلمك» ...

«ولكنني مُضطر» ...

«وبسقوط محمود، عرفنا أن الدور القادم هو دور رفعت.

رفعت، أخطر الأسلحة التي وُجِّهَت إلى Egy- Nergy.

رفعت، هدف أدهم صبري الحقيقي.

أمل أيضًا أدركت هذا، ورغم أن صدمتها كانت الأعظم؛ نظرًا لعلاقتها القديمة بـ أدهم، إلا أن إيمانها بثورتها كان أقوى من الصدمة، فسرعان ما ابتلعتها وقررت أن الأولوية لإنقاذ الثورة، وإنقاذ الثورة يكون بحماية سلاحها الرئيسي: رفعت» ...

صاح زين:

- لحظة! إنت فعلًا سِبت أمل تقع عن عَمد فـ إيد الشركة؟!

قال نظيم بهدوء:

- كان هذا ضروريًا لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

- وإنقاذها هي مكانش ضروري!

- الأولوية كانت مَنع سقوط رفعت في قبضة الشركة.

- وأمل!

- وجودها معكم كان سيعيق حركتكم.

هَدَرَ زين:

- فالحل اننا نتخلى عنها!

التقى حاجبَا نظيم وهو يقول بحزم:

- أمل صديقتي منذ عشر سنوات يا فتى، عشر سنوات قضيناها نُخطّط معًا للثورة على الشركة، بينما كُنت تخدم «أنت» في صفوفها، فلا تأتِ الآن لتزايد على علاقتي بها!

- وأنا صديقها من سنة واحدة، ومستحيل كنت أسلمها بإيدي لأعدائها.

- ما حدث حدث بموافقتها، ولأجل إنقاذكما.

- والخطة نجحت الحمد الله!

- الانحراف الذي حدث سببه خرقك للتعليمات وعودتك برفعت إلى شقة الغردقة!

كان أجدر بك أن تشكرني على تدارك تهورك، فلولا أنني أرسلت الكابتن خالد لنجدتك لكُنت الآن جثة هامدة، وكان رفعت الآن في قبضة الشركة، وتضيع تضحية أمل هباءً.

هنا، تدخلَ الكابتن خالد زاجرًا بخشونة:

- كفاية يا زين!

التفت زين إليه بوجهٍ محتقن وعينين تقدحان الشرر، فتابع:

- إنتَ كدا بتستهلِك وقت المكالمة «المحدود» في كلام فارغ مِش هَيفيد صاحبِتَك فـ حاجة! خلينا نُدخل

في صلب الموضوع.

انقبضت عضلات وجه زين، وبدا وكأنه على وشك الانفجار في وجه قائده السابق، ثم لم تلبث أن انبسطَت، ونظر إلى رفعت الذي لم يُحرِّك ساكنًا بعد، ثم أدار عينيه إلى نظيم الذي قال بصوتٍ استرد هدوءه:

- هذا حسَن.

«حان الوقت لأجيب سؤالك الذي ألقيته في بادئ المكالمة يا زين: أين أمل الآن؟

هي في هذه اللحظات مُحتجزة بالمقر الرئيسي لـ Egy- Nergy، لا أقصد بالطبع المقر الذي نسفناه قبل أسابيع في بارادايس هايتس، ولكن أتحدث عن مبنًى آخر لا يبعد عنه كثيرًا، بالواقع المقر الفعلي للشركة هو قصر آدم المصري في قلب بارادايس هايتس».

تكونَت صورة هولوجرامية مُلتقطة بالقمر الصناعي لمسقط أفقي، يشوبها بعض التشوش.

«مبنى أقرب لمُنشأة مُحاطة بالأسوار، حديقة شاسعة، ثم كُتلة مُصمتة لا يمكن لأي وحدات تجسس أو أقمار صناعية النفاذ إلى داخلها، كُتلة نجهل كل شيء عما تحويه أو يدور بداخلها.

مهمة الحماية الحقيقية على عاتق (س-١٨)، الكمبيوتر المركزي لـ E.N، وهو حاسوب مُزوَّد بأعلى وحدات الذكاء الاصطناعي، ولا أخفي عليكم أنه لا يقل خطورة عن ديف إن لم يَزِد، يقوم بأعمال المراقبة والتشويش والحماية، ومؤهَّل تمامًا لصَد هجوم عسكري جوي وبري

وبحري في نفس الوقت».

تبادل زين وخالد نظرة سريعة صامتة، وعادا يتابعان.

«الإشارات التي تصلنا من جهاز الاتصال المزروع بين جمجمة أمل وفروة رأسها انقطعت بمجرد وصولها إلى قصر المصري قبل ما يقرب من ٤٨ ساعة، ولكنها ساعدتنا على الأقل في تحديد موقعها، بعد ذلك نحن عميان تمامًا، وخطتنا البديلة ستعتمد في شطرٍ منها على الارتجال وفقًا لمقتضيات الموقف».

أشعل الكابتن خالد سيجارًا جديدًا، بينما ردد زين:

- خطتنا!

أومأ نظيم برأسه قائلًا:

- بالتأكيد.

«Egy- Nergy المصرية هي حجر الأساس لـ Egy- Nergy في العالم كله، من هنا (مُشيرًا بسبابته نحو المسقط الأفقي الهولوجرامي لقصر آدم المصري) يتم التحكم في عمليات الإنتاج والتوزيع وتصنيع وتوريد العقار المُخدِّر للحواس وصيانة الماكينات، هذا المكان فعليًا يحكم العالم، في ضوء المعلومات المحدودة التي توفرت لنا، أمكن تحديد ثلاث نقاط قوة رئيسية، هي بالنسبة لنا ثلاثة عوائق تعترض طريقنا نحو هدفنا، هذه النقاط الثلاث (بدأ يعد على أصابعه) هي:

(س-١٨).

الحارس الشخصي لآدم المصري، السايبورج، وليد (ينظر لزين) زميلك القديم الذي التقيته مؤخرًا في

منزل الغردقة.

آدم المصري نفسه، أدهم صبري.

اجتياز هذه العوائق الثلاثة سيفتح المجال لاجتياح قلب Egy- Nergy النابض».

قال زين بحذر:

- بتقول اجتياح؟

- بالضبط.

- (مُديرًا ذراعيه فيما حوله): إحنا التلاتة ... اجتياح؟!

- ليس بالضبط يا سيد زين.

لديكُم شركاءُ آخرون. شريكَان اثنان للدقة.

ودارت العينان الهولوجراميتان في وجوه ثلاثتهم، قبل أن يقول صاحبهما:

- اسمحوا لى أن أقدِّم لكم شريككُم الرابع.

ومع كلماته تشكلَ هولوجرام جديد لرجلُ خمسيني متين البُنيان، حاد القسمات، كَث اللحية، أشيبها، تغطي رأسه عمامة سوداء.

- الشيخ أبو نِضال.

***

للوهلة الأولى، مع الطنين الذي غزا أذنيها مصحوبًا بشيء من التشوُّش في الرؤية، عَجزَت عن تمييز ملامحه بوضوح.

خَطَرَ لها أن حواسها ذاتها تخشى الحقيقة -تخشاها بقوة- لذا استغرقت عيناها ثوانٍ لتُميزا ملامح الواقف أمامها.

الدهشة كانت شعورًا مؤجلًا، مُجمدًا، مشاعرها كُلها – كُلها- كانت مُجمَّدة في هذه اللحظة التي عاشت تنتظرها بل، وتتوق لها بكل جوارحها لما يزيد عن رُبع القرن.

لذلك استقبل عقلها حقيقة أن ملامحه لاتزال على حالها، لم تتبدل قيد أنمُلة عن صورته القديمة التي احتفظَت بها في قلبها مُنذُ ليلتهما التي ذابا فيها معًا ... استقبل عقلها هذه الحقيقة العجيبة استقبالًا مُحايدًا وكأنه فيلمٌ شُوهِدَ من قبل.

هُناك طبعًا اللحية والشارب الوافدَان، هناك تلك الخُصلات البيضاء القليلة في مُقدمة رأسه، فيما عدا ذلك فكُل شيء «على حَطة يدها».

- وحشتيني.

تلك النظرة في عينيه.

«وحشتيني»!

العينان تنوِّمانها مغناطيسيًا، تبتلعاها وكل ما حولها.

هل قال «وحشتيني»؟!

حقًا قال!

نَدَت منها تنهيدة عميقة حركت الهواء المحبوس في صدرها مع تثاقل أنفاسها.

العينان! الحدقتان، دائرتان من السواد اللامع مُكتملتَا الاستدارة.

- ماتغيرتيش كتير.

هو صوته بالفعل!

وكأنه كان ينتظر الإشارة، بدأ قلبها ينبض.

يا الله! أحقًا هذا الـ ... ؟!

بعد كل هذه السنين؟!

- في اللحظة دي مش عايز اشوف أو افتكر حد غيرك ...

هناك، على أحد المقعدين الوثيرين حول المِنضدة.

تراه الآن بوضوح، تراه كأوضح ما يكون.

يضع ساقًا على ساق، سيجار مُتوهِّج يتصاعد خَيطُ الدخان من طرفه المتوهِّج بين أصابعه.

أصابعه التي يتوسطها خاتم ذو فصٍّ من الألماس.

وسيم، أنيق، واثق من نفسه.

- والله العظيم ...

ارتعش قلبها في قفصها الصدري وهي تُحدِّق في وجهه، تلتهم ملامحه بعينيها.

العينان، الأنف المُدبَّب، الشفتان الدقيقتان.

هو! هو ولا رَيب!

ياللدوار!

سمعت صوته مرةً أخرى –نفس الصوت الذي لم يَغِب عن أذنيها- يقول بهدوء:

- اقعدي يا أمل.

أطاعته كالمُنوَّمة.

تُحدِّق لا تزال في وجهه، الدائرتان السوداوان في محجريه تتسعان وتتسعان.

غُددها تحتقن بالدموع.

أهو أنت؟! أحقًّا أنت؟!!

ياللطنين!

بسمة حانية تسللت إلى شفتيه وهو يقول:

- وإنتي أمل! ...

من بعيد تسمع أصوات مُظاهرات الإخوان في الميدان ممتزجة بالفرقعات وزخات الرصاص.

- أملي! ...

- أمل.

رفعت عينيها إليه.

- مِش هَتقولي حاجة؟!

يا لدفء صوته!

ما بال لسانها معقودًا؟!

استنفرت كل طاقتها، كل قدر من الحيوية بَثهُ العقار المُنشِّط والقهوة والحمَّام الساخن في كيانها، لتحرك ذلك العضو الثقيل المُستقر بين فكيها.

وفي النهاية:

- محمود.

رغم أن صوتها خرج مُحشرجًا، والكلمة الوحيدة التي استطاعت لفظها جاءت خالية من أية إشارات لنوعها إن كانت خبرية أو استفهامية أو تعجبية، إلا أنه التقط طرف السؤال من وراء هذه الكلمة، فأجاب بهدوء:

- محمود مات.

اخترقها صوته، زلزل قلبها.

هزمتها دموعها أخيرًا.

اختنق صوتها وهي تهمس بذهول:

- انتَ اللي ... ؟!

أومأ برأسه، توهَّجَ طرف السيجار بين أسنانه، ثم سَمعَته يقول:

- الموت كان رحمة بالنسباله.

وتراقص خيطٌ من الدخان صاعدًا من بين شفتيه الدقيقتين.

- مكانش هَيقدر يعيش دقيقة واحدة زيادة بعد اللي شافه.

غامت الرؤية أمامها، تمتمَت بلسانٍ ثقيل:

- مراته وبنته؟!

هَز رأسه فانفلتت خُصلة من الخُصلات البيضاء القليلة من موضعها بمقدمة رأسه لتتأرجح على جبينه.

أغمضَت، الدوار يُكبِّل رأسها من جديد، كادت تستسلم له وتسقط في هاوية عميقة مُظلمة عندما نَبَضَ صدغاها فجأة وكأن إصبعين خفيين ضغطاهما ودفعا بالدماء إلى رأسها.

فتحت عينيها تنظر إليه لتجد أمامها قدحًا من القهوة يتراقص البخار على سطحه، وملأت رائحة البُن الطازج أنفها مُجددًا.

- اشربي يا أمل.

أطاعته هذه المرة؛ لأنها كانت بحاجة حقيقية للخروج من هذه الدوامة.

رشفت رشفات سريعة، تلاطمت أمواج السائل مُر المذاق مع لعابها.

خفضت القدح، وضعته على المنضدة، ومسحت دموعها، ثم رفعت عينيها إلى مُحدِّثها.

تأملت وجهه من جديد ولكن بنظرات ثابتة هذه المرة.

خرج صوتها مُتماسِكًا:

- عذبتهم؟

أجاب بهدوء:

- كُنت مُضطَر.

التقطَت نفسًا عميقًا فأفعم دخان السيجار أغشية أنفها، وتساءلت:

- كُنت مُضطر تعذِّب الطفلة الصُغيرة؟

قال بتؤدَة من وراء الدخان:

- محمود كان لازم يتكلِّم.

لم تكُن بحاجة لسؤاله، كانت مُستوعِبة لِما حدث وسيحدث من اللحظة الأولى، منذُ فجَّرَ نظيم الدين خبره القنبلة في وجهها أثناء مُكالمتهما الأخيرة بشقة الغردقة.

«خسرنا محمودًا، أمل» ...

«ليس هذا كل شيء» ...

«ما سأخبرك به الآن» ...

«أعلم أنه سيؤلمك» ...

«ولكنني مُضطر» ...

في هذه اللحظة، انتصبت صورة محمود أمام عينيها، بهيكله الضخم وقامته المحنيَّة، وشعره الأشيب الذي انداح عن مُقدمة رأسه، عينيه المُثقلتين بحزنٍ دفين، امتلأت أذُناها بصوته.

اعتصرت قبضة قاسية قلبها، وشعرت برغبة عارمة في أن تجهش بالبكاء.

- انتو اللي بدأتوا الحرب يا أمل.

ماج صدرها بالغضب، لو كانت الكراهية نارًا لأحالَهُ لهيبها تمثالًا من الرماد يضع ساقًا على ساق.

رمقته بمقت.

كان الفضول ينهشها، غير أنها أطبقت شفتيها على أسئلتها، ورغم ذلك استطاع بسهولة أن يميِّز علامات الاستفهام تتطاير بين الشرر المُندلِع من عينيها.

***

(قبل ما يزيد عن خمسٍ وعشرين عامًا):

الهواء كان مُثلجًا على قمة المُقطَّم في تِلك الساعة من فجر ذلك اليوم من أيام يناير.

الريح الصَّرصَر تتخطف أطراف قميصه الخفيف، لو كان إنسانًا آخر غيره لاقتلعته بسهولة من وقفته هذه وقذفت به من حالق، ليستقر مُحطَّم الجسد فوق الصخور المُنتظرة بشغف عند سفح الجبل.

اسمه أدهم.

هذا الاسم الذي لا يعرف غيره، والذي التصق به مُنذُ أسابيع قلائل، قبلها ذاكرته عبارة عن ثقب أسود ابتلع اسمه وهويته وكينونته وحياته وذكرياته وأحباءه.

فُقدان الذاكرة أحيانًا ما يكون مهربًا قدريًا من الهموم والمسئوليات والديون المادية والمعنوية، مهرب يتمناه كثيرون بالذات هذه الأيام، ولكن ليس هو.

- إنت هو انت ... mix اللحم والدم والخلايا والعضلات والعقل والمشاعر اللي أودامي وأودامنا كلنا! إنت البطل، صاحب القوة الخارقة اللي ربنا بعتك عشان تنقذنا وتقف جنبنا، ومن غيرك كان كل شيء انتهى إمبارح! ... إنت ... !

وانخفض صوتها وتهدَّج وهي تردف:

- إنتَ أدهم!

«أدهَم» ...

يسترجع نُطقها لحروف اسمه، انفراجة شفتيها مع خروج الهَمزة من حلقها، ثُمَّ ضغطة لسانها الدقيق على باطن فكها العلوي من أجل الدال، النفَس العَطِر المصاحِب لخروج الهاء من صدرها، ثم أخيرًا ضمة الشفتين حولَ الميم.

مَسَّ صدى صوتها قلبه، فانبعث طيفها أمامه في الظلام، حدَّقَ في تفاصيلها، ملامحها، عينيها، اختنقت أنفاسه باشتياقِ جارف.

- إنتَ فيه ستات في حياتك.

- (تضحك بطلاقة): مستحيل دي تكون أول مرة.

وغابت في أثير من الأفكار للحظات توقفت خلالها عن المضغ قبل أن تقول بشرود:

- وجايز تكون في اللحظة دي مستنياك ترجع.

أيهما يريد حقًّا: الماضي أم المستقبل؟

ماذا لو تقاطعا؟ أيهما سيختار؟

- في اللحظة دي مش عايز أشوف أو أفتكر واحدة غيرك.

ارتفع حاجباها وانفرجت شفتاها.

- والله العظيم.

زفر بعُمق فتشكلت سحابة بيضاء أمام وجهه.

أيًا كان ما يختفي وراء جدار ذاكرته الصمَّاء، فما يعلمه أنه لا يطيق فراقها، لم يعد يحتمل العيش بعيدًا عنها، هذه هي الحقيقة التي تأكدت واشتد عودها خلال الفترة الماضية، ولو لم تسبقه هي بالاعتراف

بمكنون قلبها لركع هو على ركبتيه وصارحها بأنه يعشقها من صميم صميم قلبه.

أمل.

أيًا كان ما سأعرفه بعد قليل، أيًا كان ... فسأعود إليكِ.

«مِش عايز تعرف اسمَك الحقيقي؟».

السؤالُ شحيح الكلمات الذي خرج من بين شفتي إبراهيم جودة في ظلام طُرقة السلم منذ ما يَقرُب من الساعة، كان بمثابة الطُّعم المُعلَّق إلى طرف خيط السِّنارة، والذي انتزعه من مرقده بين أحضان أمل.

«إنتَ تقدر تقطع جِسمي حِتة حِتة يا أدهم، تقدر تكسَّر جُمجمتي وتفشَّخ فصوص مُخي، بَس مِش هتلاقي اللي بتسأل عليه؛ لأني ببساطة مَعنديش حاجة أقولهالك.

مَعرفش اسمك الحقيقي ولا عنوانك ولا أي حاجة.

زي ما قولتِلَك انا مُجرَد بوسطجي، نقلتِلَك رسالة مُحَددة وبُناءً على طلبك بانقِلَك انت شخصيًا لصاحبها».

ودفع به إلى جواره –جودة- في سيارته التي نهبت أسفلت العاصمة الخالية في هذه الساعة وصعدَت به لقمة المُقطَم.

«لو صبرت نُص ساعة بالظبط، هَتلاقي إجابات على كُل أسئلتَك، ضمانات؟ أدهم صبري مِحتاج ضمانات؟! لو لقيت انها لعبة، تقدر بمنتهى البساطة تهِد المُقطَم على دماغي ودماغ أي حَد يفكر يلعب بيك!».

راقبَ الأنوار الخلفية لسيارة إبراهيم جودة وهي

تزحف كحشرة ليليَّة مُضيئة على طريق النزول من المُقطَّم، ثم رفع عينيه إلى الأفق المُترامي أمامه، وإلى القاهرة المُنهكة المُمَددة تحت قُبة السماء المُظلمة، بينما أصوات الإقامة تتسابق من مايكروفونات المساجد القريبة.

لم تَمُر دقائق كثيرة قبل أن تلوح عن بُعد أنوار سيارة أخرى.

استدار بهدوء ليتابعها وهي تقترب بسرعة على طريق الكورنيش الخالي حتى توقفت على بُعد أمتار قليلة منه مُثيرة سحابة من الغبار.

مرَّت لحظات صامتة إلا من صرير الرياح الباردة والصوت المكتوم لمُحرِّك السيارة.

ضيَّقَ أدهم حدقتيه في مواجهة الأنوار الساطعة المُنبعثة من مصابيح السيارة الأمامية، والتي لم يلبث سائقها أن أطفأ مُحرِّكها، ثم ترجلَ مغادرًا في بذلة أنيقة، ووقف أمامه مُتسائلًا بصوت حاول أن يعلو على صوت الرياح:

- أدهَم بيه؟

أومأ أدهم ببطء، فتراجع السائق الشاب خطوتين ليفتح أحد بابي السيارة الخلفيين، وينظر له قائلًا:

- الفيلا مِش بعيدة.

تحرك أدهم باتجاه الباب المفتوح، وبلا تردد دلف إلى الداخل مُكيَّف الهواء، فانطلق السائق بالسيارة من دون كلمة واحدة أخرى عبر شوارع المُقطم

لدقائق، قبل أن يتوقف أمام بوابة تتوسط سورًا مكسوًّا بالحجارة، سرعان ما انزلق مصراعاها.

الفيلا من الداخل شبه مُظلمة إلا من أباليك قليلة مُتباعِدة، الأثاث عتيق نسبيًا يعود لثمانينيات القرن الماضي، وأغلبه مُغطى بملاءات كساها التراب، أما الأرضية فمن ألواح باركيه زال لمعانها، والجدران مُغطاة بورق حائط مُصفَّر لونه ومُزيَّن بالزخارف.

وبخلاف الهواء المُثلج بالخارج، كان الجو بالداخل دافئًا بفضل مُكيِّف الهواء المركزي.

بمجرد عبوره ضلفتي باب حجرة المكتب بإيعاز من الخادم الذي استقبله عِندَ مدخل الفيلا، استقر بصر أدهم على الشيخ الطاعن في السن الجالس إلى مقعدٍ جلدي وثير خلف المكتبِ الأبنوسي العريض بصَدر الحجرة، مُتدثرًا بمعطف منزلي من الصوف الإنجليزي، وقد شمر أحد كُمَّيه عن ذراع تهدل جلده الشاحب على عظامه، وسلَّمَه لممرضة شابة تثبت الخراطيم المُتصلة بمحاليل مُعلقة إلى أوردته، التجاعيد مع شعيرات اللحية البيضاء المُنتشرة بلا نظام جعلت وجهه أقرب لألعاب المتاهة التي لا تخلو منها مجلات الأطفال المطبوعة.

رفع رأسه الأصلع الذي تناثرَت عليه بُقع بُنية داكنة، رمقه بعينين باهتتين من وراء عدستي المنظار الطبي الدقيق ذي الإطار المُذهَّب، قبل أن يخرج صوته واهنًا مبحوحًا:

- اتفضل يا أدهَم.

ونظر إلى قميصه الخفيف الذي ارتداه على اللحم رغم البرودة القارسة، ثم انفرجت شفتاه عن طاقم من الأسنان الصناعية الناصعة وهو يبتسم مُردفًا:

- انا هبدأ اصدق الحكايات العجيبة اللي سمعتها عنَّك!

صوته رغم الوهَن هادئ ذو نبرة ودودة آسرة.

- ألف مبروك الجواز بالمُناسبة.

لم يُعلِّق أدهم.

راوده شعورٌ ما خفق له قلبه بأنه يعرف صاحب هذا الوجه المُغضَن أو على الأقل رآهُ قبلًا، ولكن هذا لم يَحُل بينه وبين التقدُّم ببطء داخل الحجرة، فيما تمسح عيناه المكتبة العملاقة التي احتلت جدارًا كاملًا، وامتلأت أرففها بكعوب الكتُب والمُجلدات، الحوائط مَكسُوَّة بخشب عتيق زالت طبقة الورنيش عن الكثير من مواضعه، والنوافذ ذات الضُّلَف الزجاجية والشيش الخشبي، الصور الفوتوغرافية العملاقة داخل براويز قديمة مُذهبة فقدت بريقها، وشاشة تلفزيونية عريضة مُسطحة مُثبتة إلى الحائط المُقابل للمكتب.

- هَتفضَّل واقف؟

عاد أدهم ببصره إلى صفحة الوجه المُغضنة، ثم لم يلبث أن جلس إلى أقرب المقاعد إليه، طرق الخادم الباب ثم دلف حاملًا صينية، ووضع أمام أدهم فنجانًا

تتصاعد منه الأبخرة، ثم انصرف وأغلق الباب وراءه.

- دي أعشاب بالعسل، مُفيدة جدًا فـ الجو دا.

- أنا مِش جاي اشرب.

قالها أدهم بنبرة حاسمة جعلت العجوز يهز رأسه ويعاود الابتسام قائلًا:

- اسمَحلي اشرب انا الأعشاب بتاعتي.

ورشف ببطء من الفنجان بين يدي ممرضته الشابة، ثم رفع عينيه إلى أدهم قائلًا:

- لمّا سألت الدكتور بتاعي حاول يتهرب من الإجابة، بَس على مين؟!

ونَدَت منه ضحكة خفيفة أسلمته لنوبة عنيفة من السعال، ارتج لها صدره ودمعت عيناه، فانتظر حتى انتظمت أنفاسه ورشف الماء شاكرًا الممرضة، ثم تابع بصوتٍ لم يَخلُ من الحشرجة:

- الأفكار على حافة العُمر، قبل العبور للضفة التانية، بتنفصل عن الموجودات، بتبقى كلها عبارة عن تأمُلات في الماضي، كشف مُحسابة للذات، استعداد للحساب الأكبر عنده فوق.

قالها وهو يومئ برأسه لأعلى.

لم يُعقِّب أدهم واستمر في الإنصات.

- إيه الصَّح وإيه الغلط؟ إيه المعيار الحقيقي اللي ممكن نقيس عليه أعمالنا واحنا مِطمنين اننا ساعة الحساب هَنبقى فـ السايف سايد؟ اننا هتبقى عندنا حاجة ندافع بيها عن نفسنا؟

لم يكُ أدهم القادم من أجل غرضٍ مُحدَّد، بمستعِد أو راغب في دخول مُناقشات من أي نوع تحيد به عن إرواء ظمئه لمعرفة أصله وفصله، ورغم هذا لم يستطِع مقاطعة مُحدثه العجوز لسببين؛ الأول أنه يعلم أن لا شيء مجاني، وأن هُناك مقابل عليه أن يدفعه لقاء مُبتغاه، وعليه أن يكون شاريًا لا بائعًا كي يعرف.

- قولي انتَ يا أدهَم: إيه معاييرَك للصَّح والغلط؟

السبب الثاني هو إنه بينما كان ينصت لمُحدثه، عثر في أعماقه على شيء ما -لدهشته- أقرب لعاطفة، لعلها جزء من ذاكرته المظلمة، تجاه الوجوه المُغضنة ذات التجاعيد المحفورة والعيون الذابلة، والأجساد التي ضَمُرَت بعد عهد من الفتوة، مزيجٌ من الشفقة على القوة البائدة والتقدير للحكمة التي قايضها الزمن بالفتوة والشباب.

هذه العاطفة المزدوجة التي اكتشفها في نفسه دفعته دفعًا ليطوي قلبه على فضوله، ويجيب باقتضاب:

- الضمير.

رشف العجوز من خليط الأعشاب المغليَّة ثم قال:

- الضمير جهة مُحاسبة.

- جهة رقابة.

- ولو! أنا بَتكلِّم على معايير تعريفَك للصَّح والغلط، للخير والشر، اللي على أساسها ضميرك بيقيس

ويراقب ويحاسب.

كتَمَ أدهم نفاد صبره وقال:

- معاييري هي اللي أقرِتها الفطرة السوية، وأكدت عليها الأديان والأعراف، الحُب خير، الكراهية شر. العدل خير، الظلم شَر. العِلم خير، الجهل شَر.

قال العجوز بينما الممرضة الشابة تغرس إبرة محقن في وريد يمر بذراعه النحيل:

- العالم أعقد من كدا شوية يا ابني.

ورفع سبابة مرتعشة إلى واحد من البورتريهات المُعلقة إلى الحائط في برواز مُذهَّب واستطرد:

- دا والدي.

الصورة عتيقة بالأبيض والأسوَد لواحد من باشاوات الأربعينات، وقور النظرات، مُمتلئ الوجه، مفتول الشارب، يعلو رأسه طربوش فخيم، تأملها أدهم ثم عاد بعينيه إلى مُحدثه الشيخ الذي تابع بصوتٍ هادئ:

- عضو مجلس النواب عن الأحرار الدستوريين، وناظر الحقانية في حكومة إسماعيل صدقي الثانية، خصومه اتهموه بأشنع التُّهَم وأولها طبعًا العمالة والخيانة اللي كان الوفديين بيوزعوها مجانًا على أي حَد بره الوَفد.

كابنه، شهادتي مجروحة طبعًا، ولا يؤخَذ بها أمام المحاكم، بس احنا مش فـ محكمة، وانا في المرحلة دي (يومئ بكفه إلى صدره) في حِل من انى أكذب أو

اشهد زور.

منير باشا فودة كان بيحِب بلده من كل قلبه، والحُب دا كان الدافع الأساسي ورا كل مواقفه السياسية والوطنية، كانت له آراء في القضايا الكبيرة، زي الاستقلال والديمقراطية بعيدة عن الشعارات اللي الوفد كان بيتاجر بيها، رأيه كان اننا بلد ضعيفة، مُحتلة، ورهاننا على القوة والحشد الشعبي عشان نحصل على استقلالنا مِش هيفيد؛ لأن الناس لها سقف مُعين يمكن الارتكان إليه، بعدها هَتنفَض من حولك وتنصرف لأكل عيشها.

مُنير باشا فودة!

انفجر الاسم في أذني آدهم وعقله.

- الضعيف عشان ياخد حقه لازم يعترف بضعفه نمرة واحد، ونمرة اتنين إنه يبدأ في معالجة ضعفه، في اكتساب قوته، تسليح نفسه، وبعد ما دا يحصل يبدأ في نمرة تلاتة: المطالبة بحقوقه.

لهذا إذن –فكر أدهَم- شعر أنه رآه قبلًا. يذكر الآن صوره التي عرضها الإعلام، فقط كان يبدو أصغر سنًا بكثير مما هو عليه الآن.

- دي كانت فلسفة والدي الله يرحمه، وعلى أساسها بنى مواقفه السياسية تجاه قضية الاستقلال، وتجاه تغوُّل السراي، وتجاه جعجعة الوفديين. كان بيحلم بمصر قوية قادرة على المناورة واستغلال الظروف العالمية في كسب الدعم والانتقال من مقعد التابع

لمقعد الحليف، ودي رؤية صعب على القطعان إنها تستوعبها، وبالذات في ظل حنجوري وطني مفهومه عن السياسة إنها عاركة فـ خمارة، والمفارقة إن الوفد لما اتعرض للاختبار الحقيقي في ٤٢ عمل نفس اللي فضل طول عمره يزايد بيه على خصومه.

دا يرجعني تاني للسؤال: إيه هو معيار الخير والشّر؟ إجابتى يا أدهم هي: المصلحة.

ردد أدهم مُنفعِلًا:

- والدك مُنير فودة!!

تابع العجوز وكأنه لم يسمع:

- أقصد طبعًا المصلحة العامة، مصلحة العدد الأكبر من الناس، المـ ...

قاطعه أدهم بعضلات وجه لا تنفَك تختلج:

- إنتَ حسن فودة؟!

لم يبدُ على مُحدثه غضبٌ لهذه المقاطعة. انتظر حتى انتهت مُمرضته من سحب إبرة المحقن المُمتلئ بالدم الأحمر القاني من ذراعه، ووضعت قطعة من اللاصق الطبي على موضع الحَقن، ثم أومأ قائلًا:

- بالظبط.

حسن مُنير فودة.

ملياردير مصري من مواليد ١٩٢٨، سَكندري النشأة، هاجر إلى الولايات المُتحدة الأمريكية بصحبة والده منير باشا فودة، البرلماني والوزير الأسبق في أعقاب يوليو ١٩٥٢، وعاد إلى مصر في أواخر السبعينيات

ليؤسس إمبراطورية اقتصادية قائمة على التجارة والاستيراد والتصدير. اعتزل الأضواء منذ عدة سنوات لظروفه الصحية، وتُشير تقارير إعلامية عديدة إلى أنه المؤسِس الحقيقي لـ Egy-Nergy المصرية والتي يرأس مجلس إدارتها حاليًا ابنه كمال فودة.

- الفيلا دي (مُشيرًا فيما حوله) بَنيتها أول ما رجعت من أميركا، القصر بتاعنا اللي فـ المَنيل كان تحت إيد فلاح لِبس الميري وبقى واحد من الحرامية اللي سرقوا مصر فـ ٥٢. رجعت من بره لقيته مليونير وعنده شركات، بَس ما سكِتِّش غير لما استرجعت قصر أبويا منه. ورغم كدا ...

فِضلِت الفيلا دي ليها مكانتها فـ قلبي، وعشان كدا اخترتها أموت فيها.

حَدَّق فيه أدهم بإمعان، بينما الصدمة لاتزل تتردد أصداؤها في أعماقه.

أنتَ إذن حسن منير فودة!

الخصم العتيد الذي أسقط الضحايا والشهداء خلال الحرب بيننا وبينَك! المُجرم والمسئول الأول عن تعذيب الآلاف حتى الموت داخل ماكيناته ومزارعه!

عربد الغضب في أعماقه وطفح على صدغه المُختلِج ونظراته النارية.

احتشدَت الصُوَر والأصوات في رأسه، الآلام التي استعاد وعيه داخل المزرعة على وَقعها، مشاهد

المعارك والدماء والنيران المُشتعلة وأصوات الصراخ والهِتافات ودَوي الطلقات وفرقعة القنابل.

أنتَ من فعل الأفاعيل بجسدي وبذاكرتي!

لا إراديًا ارتفعت أصابعه تتحسس ندبة باقية من جرحٍ قطعي يشق جانب رأسه على بُعد ملليمترات من أذنه اليُمنى.

قال حسن فودة بهدوء:

- مَتنساش إن الجروح دي هي اللي عملِت مِنَّك سوبرمان.

رفع أدهم حاجبيه وهو يقول:

- أنا على كِدا مفروض أشكُرَك!

وراودته رغبة عارمة في أن يَعصِف به، يُمزقه أشلاءً مُتناثرة، خطر له أن الفُرصة قد حانت لتصفية الحساب، غير أن فودة بادره وكأنما سَمِعَ أفكاره أو قرأ نظراته:

- على فكرة، أنا مِش خايف مِنَّك.

نظر له أدهم وقد مازج غضبه قدرٌ من الحيرة.

- وإلا ماكونتِش استدعيتَك بنفسي لغاية هنا، أنا خلاص، اللي باقيلى مِش كتير يا أدهم، وأي أذى هَتفكَّر تِئذيهوني هَيرحمني من عذاب السرطان. هَيُعجِّل بالراحة، وزَي ما قولتِلَك في الأيام الأخيرة أنا مشغول بحساب نفسي، وأعمالي بَحاسِبها بالمصلحة اللي ابتغيتها من وراها.

التقى حاجبا أدهم وهو يتساءل:

- دا ندَم مُتأخِّر؟!

رشف فودة من فنجان الأعشاب المُحلاة وقال:

- لا مِش ندَم.

والتفت إلى الممرضة فشكرها، ثم أمرها بالانتظار قليلًا بالخارج، انتظر حتى أغلقت الباب ثم عاد بعينيه إلى أدهم قائلًا:

- أنا واثق في ذكائك، وانَك مُدرِك كويِس ان قتلى أو إيذائي مِش هَيغيَّر موزاين القوى على الأرض، أنا كـ حسن فودة بالنسبة لـ Egy- Nergy حاليًا أقرب لملكة انجلترا، تَملُك ولا تَحكُم.

إنما الأطراف المُتصارعة كتيرة ومُتشابكة.

قال أدهم بغلظة:

- هُمَّا طرفين اتنين بَس، الشعب طرف وانتو وحلفاءكم طرف.

بانت الأسنان الصناعية البورسيالينيَّة من بين شفتي فودة المُنفرجتين عن ابتسامة مُتهَكِّمة وهو يقول:

- أنا لِسه قايلَّك انى واثق في ذكائك، مَتخلينيش ارجع فـ كلامي.

وإثر ضغطة من سبابته على أحد أزرار الريموت كونترول المُستقر على سطح المكتب، أضاءَت الشاشة التلفزيونية المُسطحة المُثبَّتة إلى الحائط المُقابل.

سَمِعَ أدهم الصوت قادمًا من ورائه فأدار رأسه إلى بَث قناة الجزيرة مُباشِر من ميدان التحرير.

- هُوَ دا الشعب اللي تقصده يا أدهَم؟!

قالها فودة وهو يومئ باتجاه الشاشة.

تأمل أدهم المشاهِد التي خبرها جيدًا طيلة الفترة الماضية، اللحَى ذات الأطوال والأشكال المُختلفة، النسوة المُختبئات تحت الأقمشة السوداء الثقيلة، الرايات السوداء والخضراء، شعارات الثورة وقَد استحالَت على اللافتات، وفي الهتافات المُتصاعِدة من آلاف الحناجر الصادقة والمُتحمِّسة إلى التكبير والوعيد وبشارات باقتراب نصر الله واسترداد بيت المقدس من أيدي أحفاد القِردةَ والخنازير.

تأملَ ثُمَّ أجاب باقتضاب:

- دول مصريين.

خرجَت «تؤ» خافتة من بين شفتي فودة، هَزَّ رأسه بعدها مُردِفًا:

- لو سألت أي واحد منهُم هَيقولَّك انا مُسلِم قبل ما اكون مصري.

- ودي فيها ايه؟!

- فيها انهُم مش نازلين الميدان كمواطنين مصريين زي اللي نزلوا معاكُم الكام يوم اللي فـ الأول.

إنتَ بنفسَك شايفهُم وسامعهُم طول الفترة اللي فاتت، وعارف انه لولا حَشد الإخوان وخطاب التعبئة بتاع الجهاد وتحرير الأقصى والخِلافة، مكانش حَد م «المصريين» دول ساب بيته وحاله ومحتاله ونزل ينام فـ الشارع، ويتصدى للرصاص والنار بصَدر عاري!

وكُل المولِد اللي انتَ شايفه دا هَينفَض لما محمد عباس يقرر انه ينفَض.

إنتَ بتضحك عليا ولا على نفسك يا ابني!

زَمجرَ أدهم:

- على الأقل مُتفقين معانا على هدف مرحلي مُحدَّد: إسقاطكم.

قال فودة بابتسامة ساخرة:

- مُتأكّد؟!

ثُمَّ رفع الريموت كونترول وضغط أحد أزراره قائلًا:

- اتفرَج على الفيديو دا من فضلك.

أدار أدهم رأسه إلى الشاشة المُسطحة.

- دا ملف وصلني من كام يوم من عين من عيوني جوا E.N الشركة الأم في أميركا، فيديو كونفرانس انعقد على قناة اتصال سرية، تاريخه بيرجع لإسبوعين فاتوا، أكيد طبعًا عرفت مين اللي بيتكلِّم من القاهرة دا.

اتسعت عينا أدهم وهو يحدق بذهول فيما يدور على الشاشة.

- الدكتور محمد عباس، رجل الأعمال المعروف، الملياردير والقطب الإخواني الشهير، الرأس المُدبِّر والمُمَوِّل والمُحرِّك الحقيقي للاعتصامات في ميادين مصر، ووالد خالد عباس، بطل الميدان ... على رأس وَفد الجماعة اللي بيفاوِض الشركة الأم على انتقال E. N. المصريَّة من إدارتها الحالية إليهُم، مُقابِل إنه

يسحب أتباعه من الشوارع والميادين.

وضغط على حروفه مُردِفًا بقسوة:

- هوَ دا بقى الهدف المرحلي المؤقَت اللي اتفقتوا عليه يا سي أدهم؟!

التفت إليه أدهم بعينين حمراوين كالدَّم وقال بحدة:

- الفيديو دا متفبرَك.

تقلصت ملامح فودة وهو يقول بازدراء:

- مِش محتاج الألعاب الرخيصة دي! الفيديو عندك، اتأكّد بنفسَك.

لَم يُعقِّب أدهم، وإن تطاير الشرر من عينيه المُشتعلتين بمزيجٍ من الغضب والصدمة.

- أعتقد اننا بعد اللي شوفته دا مِش بالظبط فريقين!

إحنا (يضع كفه المفرود على صدره) فريق ... رءوس الإخوان فريق... القطعان اللي نازلة الميدان تحرر فلسطين (مُشيرًا بكفه تجاه الشاشة) فريق ... والفريق الأكبر هو اللي قاعدين فـ البيوت مستنيين القرف دا كله يخلَص عشان حياتهم ترجعلهم.

وتلاعبت الابتسامة الساخرة مرة أخرى على شفتيه وهو يُضيف:

- آه، نسيت. وانتَ وأمل الشافعي فريق! دا غير لجنة التحكيم ...

نظر له أدهم بجمود لم يَخفِ تساؤله الصامت الذي أجابه فودة:

- الأمريكان.

ساد الصمت لوهلة بعد هذا الرَّد المُقتضَب، لم يرفع خلالها فودة عينيه عن أدهم الذي لم يلبَث قال ببطء:

- نسيت فريق سادس.

تساءل فودة وعلى وجهه تعبير أقرب للتهكُّم:

- مين؟

- البطاريات. الغلابة اللي بيتعذِّبوا ويموتوا فـ مزارعكُم.

تأمله فودة بإمعان وهو ينهضَ من مقعده مُستطردًا بتصميم:

- ودا الفريق اللي انا واحد منه واخترت أحارب عشانه، هحاربكم وهحارب الإخوان من بعدكم، وهحارب أي حَد يقرر يعيش على حساب أنينهُم.

وضاقت حدقتاه:

- أنا مِش عارف انتَ عايز مني إيه، ومِش عايز اعرف، أيًا كان غرضك فهو مِش عندي.

واستدار مُتجهًا نحو باب حجرة المكتب حتى استوقفه صوت فودة من وراء ظهره:

- لتاني مرة بتختار فريقك عن جهل يا نور.

اختلج قلب أدهم.

تجمد في مكانه أمام الباب من دون أن يستدير.

- هَتمشي من غير ما تعرف اللي انت جيت عشان تعرفه؟!

أدار أدهم رأسه إليه من وراء كتفه وردَّدَ:

- نورا!

- دا اسمَك.

لم يَبدُ على أدهم رَد فعل مُحدَّد باستثناء أنفاس ثقيلة مسموعة، فضحت ملمحًا من الصراعِ العنيف الذي تدور رحاه في أعماقه من دون أن تطفو أي منها على وقفته الجامدة وملامحه المُتصلبة.

ومن حيث جلس وراء مكتبه مُستنِدًا إلى عصًا أبانوسيَّة سوداء، أطل شبح ابتسامة من عيني فودة وهو يرمقه من ظهره، شاعرًا بالقوة القاهرة التي منحته إياها ورقة الضغط التي يقبض عليها، والتي ليس بوِسع رجل كـ أدهم مقاومتها رغم قواه الخارقة.

طالت وقفته، ولم يقاطعها فودة. انتظره حتى نَضَجَ تمامًا وأنهكه الصراع واستدار ببُطء إليه.

- اقعُد.

جاءت نَبرته هذه المرة حازمة آمرة مُتناقضة بشكل عجيب مع وَهَن صوت أحباله المتآكلة، وكأنه يؤكِّد على انتصاره في معركة الإرادات، بادله أدهم نظرة طويلة صامتة امتزجت فيها الحيرة بالغضب بالتردد، قبل أن يجلس إلى أقرب المقاعد إليه.

انتقل شبح الابتسامة من عيني فودة إلى طرف شفتيه كترسيخ أخير لفوزه، ثم ضغط زرًّا بريموت كونترول ثانٍ أبيض اللون، فانسدلت الستائر على النوافذ لتحجُب ضوء الصُبح الشاحب الوليد.

وإثرَ ضغطة أخرى على أحد أزرار ريموت

التليفزيون، وجد أدهم نفسه يُحدِّق في صورته على الشاشة المُسطحة العريضة.

حبَسَ أنفاسه وهو يُراجِع تفاصيل الوجه المُطِل عليه من السطح المُستطيل.

العينين، الأنف، الشفتين، الصوت.

الملامح واحدة باستثناء أن الجسد أكثر امتلاءً والرأس مُغطّى بشعر أسود ناعم، والوجه خالٍ من الندوب التي اكتسبها داخل ماكينات الشركة، هذه ملامحه ولا شك.

قفزت عيناه إلى تاريخ رَفع الفيديو على يوتيوب.

«بسم الله الرحمن الرحيم».

فإذا به يعود إلى ما يَقرُب من عامين مضيا.

«وما تدري نفسٌ ماذا تكسِبُ غدًا وما تدري نفسٌ بأي أرض تموت».

ازدردَ ما بقي من لعابه الجاف.

«اسمي نور».

خفقَ قلبه.

«نور العباسي».

نور العباسي.

ترددت أصداء الاسم في قاعات وممرات عقله، راحت تتدافع لتضرب الحائط الأصم الذي تختفي ذاكرته وراءه.

«ظابط في مباحث أمن الدولة».

اتسعت عيناه، أدار رأسه يحدق بذهول في وجه فودة الذي استقبل دهشته بابتسامة تفوح بثقة لم

تَخلُ من لمسة تهكم.

«إذا كُنتُم بتشوفوا الفيديو دا، فـ دا معناه إني بين إيدين ربنا».

صَدمة أخرى وإيماءة أخرى، ما معنى هذا؟

«أنا عارف انى لو حصلي حاجة في المظاهرات، كتير هَيحاولوا يستغلوا دا».

قَطع مونتاجي ردئ على لينكات لمانشيتات صحف إلكترونيَّة ومقاطع مُتلفَزة من برامج توك شو يومية تتكلم عن ضابط الشُّرطة الشهيد، الذي لقي مصرعه إثر طعنة نافذة أثناء أداء واجبه في فَض واحدة من مُظاهرات الجماعة المحظورة بميدان التحرير.

«عشان كدا قررت انشر شهادتي».

ومانشيتات ومقاطع مُتلفزة أخرى تتحدث عن الضابط الذي رفض الظلم والقمع وتظاهر ضد ممارسات الداخلية فكان جزاؤه القتل، بالإضافة لدعوات من شخصيات سياسيَّة مُعارضة حزبيَّة وإسلاميَّة للشباب المصري الحُر؛ لنزول الشارع، وتنظيم وقفات احتجاجيَّة وسلاسل بشرية من أجل المطالبة بالقصاص وإسقاط النظام القاتل.

«عشان اقطع الطريق على أي متاجرة أو استغلال».

رأسه بدأ -ولأول مرة مُنذُ زمن- يدور.

«أنا مِش إخوان، ومِش سِتة إبريل، ومِش تابع لأي جماعة أو حركة أو حزب».

الجدار الأصَم الذي يُداري ذكرياته يرتَج، يَتشقَّق.

«ومِش نازل اوقع النظام الحاكم، أنا نزلت أأدي واجبي كظابط شرطة».

ومن بين شقوقه، رأى أول ما رأى وجهًا قبيحًا شرسًا.

«مُهِمتي أحمي الناس، أحمي البلد».

بأصابعه تحسس الندبة الكبيرة التي تَشُق بطنه طوليًا، و قفزت إلى ذهنه محادثته مع أمل في شقة العَتَبَة التي شَهدت ليلة دُخلتهما قبل ساعات.

مدت أصابعها تمسح برقة على بطنه العاري الذي تناثرت عليه مجموعة من الندوب متفاوتة الحجم والطول والعمق، أبشعهم ندبة عميقة تشق البطن طوليًا حتى أعلاه ثم تنحرف يمينًا لتنتهي بـ E. N. غائرة محفورة على الكتف الأيمن.

حدقت فيها ثم رفعت عينيها إلى وجهه هامسة:

- دي ... ؟!

سرح بعينيه في ظلام الحجرة الذي أوهنه ضوء القمر، ثم هَزَّ رأسه قائلًا:

- مش فاكر.

لكنه الآن «فاكر».

يذكر بوضوح صاحب هذا الوجه القبيح الشرس وهو يولِج المطواة في بطنه، ثُم يشقها طوليًا، مَن يكون؟ ولِمَ طعنه؟

وكأنما سمع فودة التساؤلات التي يصدح بها رأسه، فتدخل قائلًا:

- اللي قتلك في المُظاهرة مُسجَل خطر م اللي الداخلية بتستعين بيهُم في فَض المَظاهرات، واضح انه كان فيه بينه وبينَك حساب قديم، ولما شافَك وسط المُظاهرة قرر يصفيه.

صحيح.

الصور والأصوات تتسرب كالبخار من الثقب الصغير الذي تكوَّنَ في جدار الذاكرة، يرى صاحب الوجه القبيح الشرس مضروبًا مُكبلًا في قبو ضعيف الإنارة، يسمعه يصرخ باسمه «نور باشا» مُستعطِفًا إياه بينما العساكر والأمناء يمزقون ثياب امرأة خمَّن –أو تذكر- بسهولة إنها زوجته.

- فاكرني؟ عدنان أبو سطر يا باشا.

رباه!

هَمَس بلا إرادة:

- أنا؟!

أتاه صَوت فودة:

- إنتَ نور الدين محمد العباسي. ظابط أمن دولة كُفء وواعد، أو كُنت كدا قبل ما لوثة تصيبك وتخليك تنزل الشارع تتظاهر مع المجانين دول.

أطراف كتيرة نَعوك بعد «استشهادك» في المُظاهرة، الداخليَّة تكتمِت على بقائك على قَيد الحياة عشان الدَّوشة، قسم الموارد عندنا في E.N استلمَك بين الحياة والموت، علاجَك استغرق شهور وبعدها دخَلت التشغيل.

خفق قلبه وهو يُحدِّق في صورة سيلفي تجمعه بامرأة شابة جميلة وطفل وطفلة رائعين.

تابع فودة:

- زوج وأب.

تهدجَت أنفاسه وترقرقَت دمعة في عينه.

نعم. يَذكر هذه الوجوه، وَقع رؤيتها على قلبه لا يُوصَف.

أخيرًا!

الثُقب في الجدار يتسع، والصور والأصوات والروائح والألوان تتحرر.

الصُّوَر تتوالى على الشاشة المُسطحة، وصوت فودة لا ينفَك يُلاحقها بالتعليق والتعريف:

- أُسرَتُك. ياسمين مراتك. ولادك، شَهد ومحمد.أمَّك. أختَك وجوزها وولادها، حماك وحماتَك. بيتَك.

الذكريات تتدفق لتروي أرضه القاحلة.

- إنتَ كُنت عايش حياة سعيدة يا نور، كتير ممكن يحسدوك عليها.

أدار أدهم/نور إليه عينين حائرتين.

- وفجأة ضربت بمستقبلك ومستقبل ولادك عرض الحائط وقررت تعيش دور البطل، وعشان إيه؟!

«أنا نزلت أأدي واجبي كظابط شرطة، مُهمَّتي أحمي الناس. احمي البلد».

- تحمي الناس ولا تحمي البلد؟

أجابه أدهم بصوت مُتحشرِج:

- الاتنين واحد.

هَزَّ فودة رأسه قائلًا:

- الاتنين عُمرهم ما يكونوا واحد، وبالذات في بلد زي بلدنا، الجهل والتخلف هُما العدو رقم واحد، وكان أولى بيك كرجل أمن انك تحمي البلد من الجهلة والمتخلفين بدل ما تنحاز ليهم.

- وهو مين المسئول عن جهلهم وتخلفهم؟

- الجهل والتخلف ميراث قديم، ومن الظلم انك تحمِّل مسئوليته لحاكم واحد.

- ومين يتحملها؟

- الشعوب هي المسئولة عن تخلفها، وهي بالمُناسبة اللي بتفرِز الأنظمة الحاكمة اللي تناسبها، وبتفرز مثقفينها ومُعارضيها، الإجابة دايمًا يا نور هي: الشعوب.

وأشار إليه بسبابته مُستطردًا:

- وهَنروح بعيد ليه؟! مش انتَ كُنت نازل عشان تتظاهر ضِد قمع الداخلية وظُلم الناس؟ مين اللي شَق بطنك وكان عايز يموِّتَك؟! السُلطة اللي نزلت تتظاهر ضدها ولا الناس اللي انحَزت لهم؟!

قال أدهم بحزم:

- بلاش تخلِط الورق! انت بنفسك قايل ان اللي قتلني كان بلطجي من بتوع الداخليَّة، وكان بيصفي حساب قديم بينه وبيني! يعني انا اللي مسئول عن اللي حصلِّي.

قال فودة ببرود:

- واللي حصَل لعيلتَك؟

التقى حاجبا أدهم وهو يسأله:

- إيه اللي حَصَل لعيلتي؟

لم يَرُد فودة.

ضغط أزرار الريموت مرةً أخرى، فعاد أدهم بعينيه إلى شاشة التليفزيون.

مرّت الثواني وهو يُحدّق في صُوَر الجُثث المُلطخة بالدماء بملامح جامدة لم تلبث أن فقدَت تماسكها، فانقبضت عضلات وجهه وزُمَّت شفتيه وانضغط فكّيه بشدة.

ثُم بدأت محتويات الحجرة في الاهتزاز.

أدارَ فودة رأسه مُندهشًا فيما حوله؛ المقاعد، الأرائك، المناضد، المزهريات، المكتب بما على سطحه، أرفف المكتبة بما عليها من كُتب ومُجلدات، اللوحات على الجُدران، ضُلَف النوافذ، كلها راحت ترتعش بشدة وكأن زلزالًا ضرب أرض الحجرة.

سمع صُراخ المُمرضة آتيًا من الخارج، ومذهولًا مَيَّزَ الشَّق الذي فَسَّخَ أخشاب باركيه الأرضية، ثم راح يتسلق الجدران بسرعة حتى وصل للسقف، وبدأت الأتربة تتساقط من أعلى.

عاد بعينيه المذهولتين إلى أدهم الذي لم يتزحزح من مكانه أمام الصور البشعة المُتوالية على الشاشة، سمع الأنين يخرج بصعوبة من بين شفتيه

المزمومتين.

عَدَّلَ من وضع المنظار على قصبة أنفه وهو يُغمغِم باهتمام:

- مُدهِش!

وفي اللحظة التالية استحال الأنين لصرخة خارجة من أعمق أعماق القلب.

وعلى إثرها، انخلعَت الضُّلَف من مفصلاتها، فاندفع الهواء البارد ليكتسِح الداخل الدافئ، تهشم الزجاج وتفسخ الخشب، تشَقَّقَ ورق الحائط وتفتَّتَ البياض الأسمنتي من ورائه، انفجرت مصابيح الإضاءة وتمزقت الكُتب، وامتلأ فراغ الحجرة بالملايين من ذرَّات الأسمنت وشظايا الزجاج ونشارة الخشب وقُصاصات الورق.

***

تقبَّل تعازي في مصابك الفادح يا بُنَي.

ما حدث لم يكن منه بُد، وأسرتُك لم تكن الوحيدة التي راحَت في الأحداث.

أنت تعرف. إبان المُظاهرات الأخيرة، سادت حالة من الفوضى والانفلات الأمني في طول البلاد وعرضها، انكسار الداخلية أمام ملايين المُتظاهرين (وتحديدًا بعد موقعة الميدان الأخيرة التي حسمتها قدراتك الخارقة) كان إيذانًا بانكسار هَيبة الدولة.

هذه الهَيبة التي لم تُدرَك قيمتها إلا وآلاف المباني المُخالفة ترتفع في غضون أيامٍ قلائل، إلا والمولات والمتاجر والمُجمعات الاستهلاكية تُنهَب عن آخرها، إلا واللِّجان الشعبية تنتشر في كُل شوارع مصر لحماية البيوت والأرواح والمُمتلكات.

السير على الدائري ليلًا أصبح ينطوي على خطرٍ شديد مع الأنباء المروِّعة التي تتحدث عن حوادث التثبيت والاختطاف والسرقة بالإكراه، بالتأكيد كانت زوجتك تعلم هذا، وبالتأكيد لم تصطحِب أطفالكما الثلاثة في سيارتها من مدينة نصر لـ أكتوبَر بعد مُنتصَف الليل إلا اضطرارًا.

(نعم. أنت لم تُخطئ السمع. أطفالكما الثلاثة. آسر الصغير كان جنينًا في شهوره الأولى برحِم أمِّهُ يومَ جاءها نبأ «استشهادَك» بميدان التحرير قبل سنتين).

في ظِل الفوضى وغياب الأمن، استغرق البحث

عنهم أسابيع، وفي النهاية عُثِرَ على الجُثث من دون السيارة في واحدة من البنايات الحديثة تحت التشطيب بالمعادي الجديدة.

إبك، أطلِق لدموعَك العنان يا بُنَي.

أُسرتُك لم تكن الوحيدة، ولن تكون الوحيدة.

شَهد لم تُعذِّب أحدًا حتى يُطفِئوا السجائر في جسدها الضئيل، مُحمَّد لم يقتل أحدًا حتى يضعوا رصاصة في رأسه، زوجتك لم تخدش حياء أحد يومًا حتى تُنتهك مرات ومرات قبل مقتلها، أما آسر الصغير، فلَم يُعثَر على أثرٍ له قَط.

ربنا سبحانه وتعالى قال: «ولا تَزرُ وازرةٌ وِزرَ أخرى». وأطفالك لم يُذنبوا حتى تُعذبهم وتنتهكهم ثُمَّ تقتلهم غصبة من المجرمين، بمعنى أدق: لم يكونوا مِثلَك «مسئولين عن اللي حَصَل لهم».

سقوط «الهَيبة» (لا القانون) كان المُسوِّغ للهَمَج كي يسرقوا وينهبوا ويُعذِّبوا ويقتلوا وينتهكوا الأعراض، الهَمَج، الملايين منهم، المُنتَج النهائي لقرون الجهل والظلام، الوَرَم الذي لا علاج له ولا سبيل للشفاء منه من دون استئصاله.

لا أسمعَك بسبب البُكاء!

تقول بَشر ولهم حقوق؟!

كذا «كان» أطفالك يا نور، كانت لهم حقوق ليس منها بالتأكيد أن يُقَتَلوا ويُعَذبوا وتُنتهَك أعراضهم، وكان أولى بِك أن تفكر فيهم بدلًا من تسليمهم لُقمة

سائغة لِمَن نهشوهم!

هَل تُدرِك الآن مقدار جرمك في حقهم يا فتى؟!

أنتَ، بقدرتك الخارقة، كسرت الهَيبة.

كسرت حاجز الخوف الذي كان يحميهم من جحافل الهَمَج الذين لا يفهمون سوى لغة الخوف، وتركتهم غُراة نهبًا لهم، تركت مصر كلها رَهنًا للفوضى، فعلتها ظنًّا مِنكَ -يا أحمق- أنَّكَ تدافع عن بشر لهم حقوق آدمية، فلما تحرر هؤلاء «الآدميون» قتلوا أول من قتلوا أقرب الناس إليك، والأنكى أنَّكَ حتى بهذا الهدف النبيل «الرنَّان» لم تَكُ أكثر من أداة مساومة في يَد مُحمَّد عباس وجماعته!

أنا لَستُ وَحشًا يا بُنَي، لستُ على الشاكلة التي اعتادت أفلام السينما وكُتب المثقفين قولبة رجال الأعمال فيها، أنا أب وجد والحساسيَّة صفة مُلازمة لي منذ نعومة أظافري، فقط لا أهوى الغرق في التفاصيل وأحب النظر عَبرَ الخطوط العريضة، علمنى البيزنس أن المَكسَب فقط هو المعيار الوحيد الصحيح للحكم على الأشياء، سواء أكان مكسبًا شخصيًا أو «مصلحة عامة».

مشاكل مِصر قديمة، غَرس قرون، وأغصانه هي التي ذبحت أطفالك، وبقاء هذه الغصون سيذبح المزيد والمزيد حتى تتحول البلد لبركة من الدَّم.

مصر تموت ببطء يا نور بأيدي أبنائها، شعبها حَجر عثرة في طريق أي ثورة أو إصلاح، وما تحتاجه حاليًا

هي الرؤية التي تبدأ بالمُصارحة بهذه الحقيقة .

من قتلوا أطفالك ليسوا فقط الهجامين واللصوص على الطريق الدائري، ولكنهم الملايين الذين ينتظرون غياب الكُرباج حتى يعيثوا فسادًا في الأرض، ابتداءً بِمَن ينتهزوا الفرصة للسير عكس الاتجاه في الشارع، ومن يتجاوزوا أدوارهم في طوابير العيش وشبابيك التذاكر، المُتَحرشين بالرائحة والغادية في الطرقات والأوتوبيسات، ومرورًا بالوحوش الذين قتلوا وعذبوا أسرتك، ووصولًا للصوص الكِبار الذين ينهبون ثروات البلد، هؤلاء هُم أعداء مصر الحقيقيون، لا ضمير لهم ولا خلاق، جهل وانحراف ديني وهوَس جنسي. نفايات البشر. السوس الذي يَنخُر في الأساس، فيفعل ما لا تستطيع إسرائيل ولا أمريكا فعله، والحرب الحقيقية هي حرب اجتثاثهم من العالم.

لن تخرج مصر من الحُفرة إلا بالتحرر من هذه الأثقال.

والحل في مزارعي وماكيناتي يا نور.

العِلم. التكنولوجيا. إعادة تدوير النفايات. استخلاص الطاقة.

ما أعرضه عليك هو ضرب عصفورين بحجر:

تنتقم من قَتلة أطفالك، وتؤدي واجبك في إنقاذ الوطن.

انتقم لآسر ومحمد وشهد وخَلِّص مصر من هذه الأدران يا نور.

الملايين التي تتضاعف كل يوم لتعيث فسادًا، حان الوقت لاستفادة حقيقية منهم.

هذا هو حلمي الأخير، المشروع الذي سينقذ مصر وينتقل بها لمصاف الدول الكبرى، العمل الذي سأقابل به خالقي عمً قريب مرتاح الضمير،

هذه فُرصة تاريخيَّة قد تكون الأخيرة يا نور.

أريدَك معي يا بُنَي. أريدك مكاني. مصر كلها تنتظرك. تنتظر فرعون شجاع قوي قادر على تحمل المسئوليَّة واتخاذ القرارات الكبيرة، وتحمل مسئوليتها.

لا. كمال ابني، ولكنه ليس الرجل المناسب، الفتى طائش ويفتقر للكثير من المقومات، وإلا ما كانت الأمور قد تدهورت تحت قيادته لهذه الدرجة. أما أنت ...

أنت الابن الذي تمنيته طيلة عمري يا نور.

فَكِّر جيِّدًا.

لقد بُعِثتَ حرفيًا من المَوت، لابُد أن لهذا مغزى.

لابُدَّ أنَّ دورًا عظيمًا ينتظرك.

أنتَ لا تذكر تاريخك بَعد، ولا تاريخ أسرتك، أليس كذلك؟

حَسَن، لقد وصلني هذا التاريخ كاملًا، ودَعني أخبرك بأنه مليء بقصص تقترب من الأساطير عن أبطال ضَحوا بحيواتهِم وهُم يحاربون في سبيل هذا البلد.

أجدادك يا نور.

لا يجوز –وأنت سليل هؤلاء العظماء- أن تتقاعس عن حَمل لوائهم وأداء دورك في حماية الوطن من أعدائه، أعدائه الحقيقيين.

هل ترى؟! الصُّبح طِلِع. هذا فألٌ حَسَن.

فَكِّر جيِّدًا.

أنت الآن على مُفترق طرق.

بعد دقيقة واحدة ستغادر الفيلا، إما كـ أدهم صبري، السوبرمان الذي سيعود للميدان ليُسخِّر قدراته الخارقة في خدمة الجماعة التي استغلته كورقة للمساومة، وإما كـ آدم.

المصري الجديد الأول من نوعه، القائد الحقيقي المسئول والقادر على انتشال مصر من محنتها.

والقرار لك يا عزيزى نور.

أدهم أو آدم.

***

- واختَرت.

قالتها أمل بصوت هادئ ولهجة تقريريَّة مُحايدة، فهزَّ أدهم رأسه وقال:

- مكانش فيه اختيار يا أمل.

قالت بإصرار:

- كان فيه، وانت اخترت.

- الاختيار بين الحياة والموت مِش اختيار.

- إنت اخترت الموت.

- موت الجرثومة هو حياة المريض.

- إنتَ مِش دكتور!

قال ببساطة:

- اسأل مجرب ولا تسألش طبيب.

وضغط على حروفه مُردِفًا:

- واللى حصلِّي كان بمثابة تجربة كافية جدًا عشان ابقى مؤهَل للتشخيص والعلاج.

خرج صوتها أقرب للفحيح:

- إنت سَوَّغت لنفسك انَك تعاقب ملايين الأبرياء على جريمة ارتكبها أفراد!

- العالم مفيهوش أبرياء.

- الفَضل ليك.

رفع حاجبيه مُرددًا بدهشة مُصطنعة:

- ليا انا!

- إنتَ مِش بَس قتلت ملايين، إنتَ خليت اللي

عايشين شُركاء في جرايمك، خليتهُم يقبلوا يعيشوا على أنين وعذاب اللي بيموتوا جوا آلاتك.

مَسَّدَ بأصابعه على خُصلات لحيته الناعمة، وبدا على وجهه تعبير أقرب للاستمتاع بمناقشة طريفة مع طفلة صغيرة بينما هي تقول بمُقت:

- إنتَ فعليًا خليت العالم بلا أبرياء، كُله بقى مُلوَّث، مُلطَّخ بالعار.

قال بهدوء:

- أمل، إنتي فعلًا مِش واخدة بالِك ان دي الصورة الطبيعية للعالم من أول ما المجتمعات الإنسانية بدأت تتكون؟! طبقات بتتغذى على طبقات؟!

قالت بازدراء:

- عالم الحيوان.

مَطَّ شفتيه قائلًا:

- القاعدة واحدة.

وأطلق دفقة من دخان السيجار من بين شفتيه مُتابعًا:

- وصَدقي أو لا تُصدقي، الفرق بيني وبين غيري إني صاحب رسالة.

قالت ساخرة:

- رسالة سماوية؟!

ابتسم بزاوية فمه وهو يقول:

- مش هَتفرق. المُهِم ان فيه رؤية وإرادة ... ونتيجة بتتحقق.

- ومليارات بتتكدَّس في البنوك.

هَزَّ كتفيه قائلًا:

- البيزنِس بيخِدِم الرسالة، مِش العكس.

مَطَّت شفتها السُفلى احتقارًا لما تسمع وقالت:

- كُل الطغاة المجانين أصحاب رسالات.

لَم يَبدُ على ملامحه تأثرٌ لهجومها المُباشر عليه، دَفَعَ الدخان قائلًا بهدوء:

- بُصي حواليكي يا أمل. هي دي مصر اللي سِبتيها من خمسة وعشرين سنة؟! مصر اللي بتحكم العالم؟ تقدري تنكري ان العالم دلوقتي أفضل؟

- على حساب عذاب الملايين!

- كُل شيء وله تمن. اعتبريها حرب، وكُل حرب وليها ضحاياها.

وأشار إليها بطرف سيجاره المُشتعِل وهو يُردِف:

- وإلا تقدري تبرري بإيه استهدافكم لـ «أبرياء» في عملياتكم الإرهابيَّة ضدنا؟

التقى حاجباها وهي تقول:

- الموظفين في شركتكم المُجرمة شُركاء في إجرامها.

- ورُكاب قطر شرم الشيخ؟! كانوا موظفين برضه في شركتنا المُجرمة؟! والأهالي اللي طَلقتوا عليهُم الهَمَج في المُدن الحدوديَّة؟! والملايين اللي انقطاع الطاقة دمَّر حياتهم، الأطفال الرُضَّع اللي ماتوا في حضانات المُستشفيات، المرضى، المُسنين، الخدمات اللي انهارِت، المصانع اللي وقفت، البيوت اللي خربِت.

وابتسم بقسوة مُتابعًا:

- ماتضحكيش على نفسِك يا أمل، انتى لسه حالًا قايلة ان الناس كلها بقت ملوثة ومُلطخة بالعار، إنتي أصلًا مِش شايفاهُم أبرياء.

حاولت أن تعترض على كلامه ولكنه لم يمنحها الفُرصة:

- من غير نار الفُرن مفيش تورتة، إنتى نَفسِك عشان تحققي تصوُّرِك لعالم أفضل شاركتي في قتل أبرياء وتخريب حياة الملايين. مِش بَس كدا ...

رُغمًا عنها تلاحقت أنفاسها وهي تسمعه ...

- حتى على المستوى الشخصي، قبلتى انِك تتاجري بلحمِك ودمِك، بنت أختك، أقرب الناس ليكي، عشان تقربِك من أهدافِك.

اخترقت كلماته قلبها كأسياخ من نار، صارعت لتمنع دموعها المُحتشدة من الانسياب بينما كلماته تهْوَى عليها كالسياط:

- أنا مِش ضِد أي حاجة من دا على فكرة، في الحرب كُل شيء مُباح لتحقيق النصر.

وضغط على حروفه:

- بس حَبيت أوضحلِك انِك عملتي كُل اللي بتتهميني بيه وأكتر عشان تحققي هدفِك.

قالت بصوت مُحشرَج:

- أنا ماخُنتِش!

نظر لعينيها مليًا ثم قال بهدوء:

- ولا انا خُنت.

خرجت الكلمة من بين أسنانها أقرب لزمجرة شَرِسة:

- خُنت.

- خُنت مين؟

- خُنت البلد. خُنت الشعب. خُنت الثُوَار. خُنت الإنسانية والخير والحَق والعَدل والحُب.

واختنق صوتها وهي تهمس بمرارة:

- خُنتني.

***

ما هي الخيانة يا أمل؟!

ما مدلول تِلكَ الكلمة التي تقذفونها دومًا بمُنتهى السهولة في وجوه خصومَكم؟!

الكهرباء غير مرئيَّة ولكن مصابيح الإضاءة دليل وجودها، قطرات العَرَق دليل الحرارة، الفعل دليل وجود الفاعل، المخلوق دليل وجود الخالق، فما هو دليل فعل الخيانة؟

ما دليل خيانتي لكِ؟

هَجرتك، تَخليت عَنك.

أليس كذلك؟

***

(قبل ما يزيد عن خمسة وعشرين عامًا):

- أدهَم انتَ عارف انتَ بتطلُب مني إيه؟!

- دا شَرطي.

- القيادة هَترفُض. أمل الشافعي على رأس المطلوبين!

- اتصرف.

- الوقت ضيِّق.

- من غير الشَرط دا، مفيش اتفاق.

- أنا مُمكِن اتعهدلَك ان محدِش هيتـ ...

- فتحي! مفيش فَض للاعتصام قبل ما أمل تخرج بَرا مصر.

***

لم يَحدث يا أمل.

لَم أخُنك. لم أتخَل عَنك.

بنفسي أخرجتِك من الميدان وكُنتُ برفقتكِ على مَتن الطائرة الخاصة التي نَقلِتِك إلى فرنسا، وقبل هبوطنا في شارل ديجول كان فَض الاعتصامات قد بدأ.

ظللت بجَانبِك حتى استعدتِ وَعيِك، كُل شيء كان مُرَتبًا مع السفارة، الهَوِيَّة الجديدة، الشقة، البوتيك، المصاريف الشهرية، الحماية. التحذير الذي نقله فتحي منصور لرؤسائه كان مُحَدَّدًا: أي شعرة من أمل الشافعي تُمَس بسوء، أيَّة محاولات انتقاميَّة ... سينهدِم المَعبَد على رءوس الجميع، تهديد صريح اضطروا أن يقبلوه.

- لأكتر من خمستاشر سنة كُنتي تحت عيني يا أمل.

عيوني كانت حولِك في كُل مكان تنقل لي كُل شيء. كُل إحباطاتِك، نزواتِك، أحلامِك، محاولاتِك الخرقاء للعودة للساحة، وأكَم من ليال استبَد بي الشوق إليكِ حتى كاد يزهق روحي، فما أدرِ بنفسي إلا وأنا أترك الأعمال والأعباء وأطير إلى نيس لأختلس دقائق أقضيها في الظلال، أراكِ رأي العَين لدى ذهابك أو إيابِك.

لا تُصدقين؟ لا بأس، ولكنني صادق بالفعل.

لِمَ تركتُك إذَن؟

مُضطرًا فعلت. مذبوحًا فعلت؛ لأنكِ لم تكوني لتتفهمي أو تقبلي اختياري.

- اختيار انك تخون.

- الانحياز للبلد مِش خيانة.

- البلد اللي قتلت وعذِبت شعبها.

- البلد اللي اتنقلِت من قاع العالم التالت لقمة العالم الأول.

أنتِ قرأتِ لـ يوسف إدريس بالطبع، أليس كذلك؟ نعم، أسألِك تحديدًا عن واحدة من قصصه اسمها «سنوبز». أتذكرينها؟ لا؟

القصة تحكي عن حادثة تحرُّش في أحد الأوتوبيسات العامة المُكتظة بالرُكاب، أوتوبيس رقم ٩٩٩ كما جاء بالقصة، لَم أنس، أحد الأوغاد استغل تلاصُق الأجساد الناجم عن امتلاء الأوتوبيس عن آخره، وعلى مرأى ومَسمَع ممن حوله مَارسَ تحرشًا جنسيًا صريحًا اقترب كثيرًا من حَافة الاغتصاب بالمسكينة التي أوقعها الزحام، وحظها العاثر في مرمى جسده، وعندما حاولت الاستغاثة بجيرانها من الركاب انهالوا عليها هي(!) لومًا وتقريعًا وضربًا ثم ألقوها مُهانة مُمزقة الثياب من الأوتوبيس.

لِنَكُن صُرحاء يا أمل، تعلمين أنها ليس قصة خيالية جدًا، وأنَّها «كانت» تحدُث كل يوم وكل ساعة، بل وتذكرين أن حادثة شبيهة أو حادثتين جرتا في الميدان إبَّان الثورة القديمة، الفكرة ليست في مُجرَد فعل التحرش أو الاغتصاب، وإنما في الناس، الناس التي شاركت برضاها واستمتاعها في هذا الفعل المُشين، وعندما انتفضوا فعلوها ضِد الضحية لا الذئب!

مُتخيِّلة حجم التشوُّه والانحراف الذي أصاب فطرتهم فتحولوا لمخلوقات أدنى من الحيوانات، بل رُبما كان المُتحرِش نفسه هو أشرفهم؟! من فَضلِك لا تقولي لي مُبررات من نوعية الفقر والاستبداد الذي مورِسَ عليهم لقرون حتى أفسد فطرتهم وعلّمهم الجُبن والنفاق والأنانية وأخلاق الزحام إلى آخر أسطوانة «ماذا حدث للمصريين؟» القديمة هذه، الوقت ليس وقت أسئلة ولا أجوبة. الوقت وقت حلول.

- والحَل إنك تموتهُم؟!

- «إعادة التدوير» تعبير أدَق.

أوتوبيس ٩٩٩ مُمتلئ عن آخره بالنفايات البشرية، يعيشون على ظهر الأرض ويستهلكون مواردها مُقابل كل ما هو أناني ودنئ.

بصراحة، هل هُناك أمل في إصلاح نفوسهم بعد أن هبطوا إلى هذا القاع؟

بأمانة، ماذا يخسر العالم لو فَنَوا عن بكرة أبيهم؟

ألن يكون عندئذٍ بحق عالمٌ أفضل؟

طيِّب، هَل هو حقًّا مُجرَد أوتوبيس أم وطن بأكمله؟ هل ركابه هُم مُجرَّد عشرات أم ملايين؟ ملايين فقدَت صلاحيتها كبشر وتحولوا لطُفيليَّات تعيش على امتصاص حقوق غيرها من البشر الحقيقيين الأحَق بما يستنزفونه من موارد، ابتداءً بِمَن يلقي زبالته في الشارع أو يكسر إشارة المرور، وصولًا للمُتحرِّش بطل قصة يوسف إدريس وشركائه من ركاب الأوتوبيس.

ملايين أصبحوا عِبئًا حقيقيًا على الكوكَب وعلى شركائهم فيه مِمَن يحملون الصفة الآدمية الحقيقيَّة.

إعادة التدوير يا أمل.

إعادة التدوير هي الحَل العادل والناجز لـ ٩٩٩ والذي هو وطن بحاله، وليس مُجرَّد أوتوبيس نقل عام، أيًا كانت الأسباب والعوامل، فهذه النفايات لم تعد صالحة للاستمرار، استمرارها هو الخيانة الحقيقيَّة للشعب وللبلد وللإنسانيَّة التي تستحق ما هو أفضل.

- مَصر مِش كُلها أوتوبيس ٩٩٩ .

- صحيح، فيه ناس هَتتظِلم، دا شيء لا يمكن تَجنبُه.

- الناس تستحق فرصة تانية.

- فات أوان الفُرَص يا أمل، مفيش وَقت.

- إنتَ مِش إله عشان تحدد مين يستحق يعيش ومين يستحق يموت!

- (يَهِز كتفيه): وليه ماتقوليش انى أداة من أدوات الإله؟

- الظُّلم والقتل والتعذيب مِش من أدوات الإله.

- (ببرود): أومال أدوات مين؟

- (باحتقار): أدوات الشيطان.

- (ينهَض من مَجلسه ويدور حولها) ... .

الشيطان نفسه أداة من أدوات الإله.

ما السبيل لدخول جنة الله أو ناره إلا بالاختبار؟ أخبريني وأنتِ المُتديِّنة، كيف للمرء من دون وِسواس الشيطان –الأداة- أن يُذنِب ويُخطئ فيستغفر فيُغفَر

له؟

من دون الشيطان تختل المنظومة يا أمل، لا نعود بَشرًا نُخطئ ونُصيب،

من دون الشر، لا يُصبِحُ الخيرُ خيرًا.

هكذا خَلَقَ الله الدُنيا، الشر يَحكم ويُدير، والخير يُعارض ويُقاتل فقط ليبقى.

أوَتدرينَ لِمَ؟

- (من دون أن تُدير وجهها إليه): عشان انت عايز كدا.

- تؤ. السّستِم كدا من ساعة ما الدُنيا اتخلقِت، انتي قارية تاريخ وعارفة.

- التاريخ بيكتبه المُنتصرين.

- اللي هُما الأشرار (يميل على أذنها) شَر بيزيح شَر، طاغية بيقتل طاغية، سفاح بيقتل سفاح، أمَم بتركَب أمَم، من فراعنة لإغريق لرومان لعرب لأتراك للغرب، حروب ودمار ودَم ونار، الشَر بيدير اللعبة من فجر التاريخ، والمثاليين مكانهُم على الهامِش.

(يعتدل واقفا).

ما هو الخير وما هو الشر؟

الخير والشر ما هما إلا أساليب لتصريف وإدارة الحياة، أساليب تكتسب مشروعيتها ولامشروعيتها بمقدار نجاحها في أداء مهامها. النجاح والفشل هُما -وحدهما- من يقرران إن كانت الأداة المُستعملة خيرًا أم شرًا، ثم بعد ذلك -وليس قبل- يتم استخراج الغطاء الأخلاقي والشرعي لبروزة المشروعيّة واللامشروعيّة

المُكتسبتَين.

لو قُلنا مثلًا إنَّ الاستعمار شرٌّ ... فهل يظل كذلك لو قامت على أساسه منظومة كاملة من العلاقات والمصالح المُتشابكة استوعبَت شعوبًا ومجتمعات كاملة؟!

هل يظل الخير خيرًا لو سعى لهَدم هذا الأساس الذي قامت عليه هذه المنظومة، بما سيترتب على هذا الهدم من اختلال للمنظومة، وتهديد لحيوات ومصالح الملايين الذين يعيشون في كنفها، وبالذات لو كان هذا الهَدم غير مشفوع ببديل حقيقي وعملي؟!

هنا يا أمل تفقد مصطلحات الخير والشر دلالاتها التقليديَّة، فالسياق الذي تنتظم فيه حيوات ومصالح وأمان الملايين هو -أيًا كان- «الخير»، بينما السياق الذي يتهدد هذه الحيوات والمصالح والأمان -مهما انبنَى على قِيَم نبيلة- هو «الشر».

طاقة Egy- Nergy أصبحت أساسًا بُنِي عليه عالمٌ كامل مُتكامِل، عالمٌ أفضل، تهنأ شعوبه بحقوقها الإنسانيَّة المُستحقة بعد استبعاد الملايين ممن شاركوهم فيها طويلًا بغير حق، طاقة Egy- Nergy أيًا كان مصدرها هي «الخير»، بينما ثورتُك النبيلة التي تستهدفها ... تستهدِف الطاقة والخير والتنمية والرخاء والرفاهية وحقوق الإنسان ... ثورتُك العظيمة هذه هي الخطر والإرهاب والفوضى، هي «الشر».

- دي كدا غابة مِش عالم أفضل.

- (ينفث دخان السيجار): طول عُمرها غابة.

- وانت كدا تبقى عَمَلت إيه؟

- لعِبت بقواعد الغابة عشان أخلق منها عالم أفضل.

- (تهِز رأسها): إنتَ خليتها عالم أبشع، خليت الوحشيَّة والهمجيَّة هي النظام، عالم من دون دين أو أخلاق أو قِيَم هو عالم أوسَخ. أحط.

القِيَم المعنوية، الدين والأخلاق والوطنيَّة والأيديولوجيَّات، سريعة التبخر كالكحول يا أمل، مهما عَظُمَ تأثيرها، وبافتراض صِدقها فهو في النهاية محدود كمًّا وكَيفًا بطبيعته، صعود سريع يعقبه سقوط أسرع أمام القِيَم الماديَّة الملموسة، هل أنت بحاجة لتذكيرِك بأن صحابة النبي مُحمَّد اقتتلوا على الحُكم بعد سنوات قليلة من وفاته؟

تموت الحرة ولا تأكل بثدييها، وستعيش من بعدها أجيال وأجيال قررت ألا تموت جوعًا.

المصلحة الماديَّة هي القيمة الكُبرى التي تبني الحضارات وتصنع التغيير وتقود للمُستقبَل، بل ويَحرص أصحابها على تأكيد القِيَم المعنوية باعتبارها واجهة أخلاقية، وأنبوبًا للعادم يُساعِد على التخلص من الدُخان الناجم عن احتراق الشعوب من أجل مصالح الكِبار.

أنتِ نفسك كي تصنعي ثورة ضد Egy- Nergy انتصارًا لقيَمِك المعنويَّة الإنسانيَّة والدينيَّة والأخلاقيَّة، تحالفتِ مرتين مع أصحاب مصالح ماديَّة خالصة: الإخوان في المرة الأولى قبل رُبع قرن، وشركات الطاقة

التقليديَّة في المرة الثانية، من دون هذه المصالح الماديَّة، أنتِ بقِيَمِك البراقة الرنانة لا شيء، ريشة في مَهَب الريح.

***

- مُمكِن اعرَف انت جايبني هنا ليه؟

رفعَ حاجبيه مُرددًا:

- دا سؤال بجَد؟!

- ليه ما سلمتنيش للسلطات؟

نظر لها للحظة ثم سألها:

- إنتي عارفة هَيعملوا فيكي إيه لو استلموكي؟

كررت بإصرار:

- ليه؟

- (بصرامة): البطارية بتاعتي فين؟

هَزَت رأسها قائلة:

- أنا قولت كدا برضه.

- هَتضيّعي وقتي ووقتِك يا أمل؟

قالت بنبرة ساخرة:

- أنا ماوراييش حاجة.

- بس انا ورايا.

قالت بحزم:

- يبقى ماتضيعش وقتك، إجابة سؤالك مِش عندي.

- المعركة خِلصِت يا أمل.

ابتسمت بغموض فتابع:

- اللي انا عايز اعرفه هَعرفه.

- هَتعرفه «غنوة»؟

قال بهدوء:

- لو اضطريتيني.

نظرت له بتحَد قائلة:

- بَس انا مش خايفة مِنَّك.

- (يَهِز رأسه): عشان مُتأكِدة انى مِش هَقدر أأذيكي.

حدقت في وجهه بجمود. استطرد:

- أنا كُنت عارف انِك مِش هَتسلمي، عشان كده استعديت.

- يعني إيه استعديت؟!

- يعني عندي الطُرق المضمونة اللي تخليني اطلَّع اللي انا عايزه مِن هنا.

قالها وهو ينقر بسبابته ووسطاه على جبهتها، فأزاحت أصابعه بعُنف.

رفع عقيرته مُخاطبًا (س-١٨):

- عايز الدكتور أنَس الزهيري في معمل السايكولوجي خلال ساعة.

وَخزَ القلق قلبها وهي تتساءل:

- مين أنَس الزهيري؟

نظر لها بعينين تلمعان وأجاب:

- أستاذ الطب النفسي بجامعة التالت من يوليو.

ومع كلماته، احمرَّت حدقتاه، فشعرت هي بالدم ينسحِب من رأسها وبالرؤية أمامها تهتز، وسمعت صوته وكأنه قادمٌ من أعماق سحيقة.

- والمُستشار السايكولوجي بقسم التحقيقات في Egy- Nergy.

***

مع الهبوط السريع لليل الشتاء البارد، زحفت سُحُب الضباب بسرعة في شوارع بارادايس هايتس وبين قصورها وأنديتها الخاوية على عروشها بعد أن هجرها ساكنوها إثر تفجير المقر الرئيسي لـ Egy- Nergy قبل أسابيع، الأمر الذي يَسَّر للرجلين المُتشحين بالسواد في مسارهما المدروس تَجنُب أكمِنة الجيش المُنتشرة هنا وهناك، حتى وصلا لموضِع بين الأشجار على بُعد بضعة أمتار من الطريق الأسفلتي الذي يربط منطقة الخدمات بالمنطقة الإدارية.

نظر أحدهما إلى النقطة المُضيئة باللون الأحمر على الخريطة الهولوجرامية المُرتسمة أمام عدستيه الذكيتين، وقال لزميله مُشيرًا إلى بُقعة قريبة:

- هنا.

توجه الآخر بلا تردد إلى موضِع الإشارة، فأزاح عنه أغصان الشُجيرات والحشائش، ولحق به صاحبه ليقفا أمام اللوح المصنوع من الفولاذ، والذي يُغطي مدخل الحُجيرة الخرسانية المدفونة في الأرض.

تبادلا نظرة سريعة ثم نزع الثاني الحقيبة المُعلقة إلى ظهره، وأخرج من قلبها حاسوبًا محمولًا بحجم راحة اليد، ألصقه بالرتاج الإلكتروني الذي يتوسَّط أحد أضلاع الغطاء الفولاذي وضغط أزراره بتتابع مدروس لتُضئ شاشته وتنهمر عليها الأرقام بسرعة هائلة.

دقائق مرَّت بين رؤية مُضببة تتغشاها أنوار أعمدة

الإنارة عن بُعد كحشرات ليليّة غامضة، والصمت المُشوب بصرير الرياح المُثلجة، حتى تصاعد أزيز خافت من الكمبيوتر المحمول أعقبته تكة معدنية غليظة من الرتاج الإلكتروني، أدار على إثرها الرجلان رأسيهما فيما حولهما ليتأكدا من خلو المشهد من أعين المراقبين، قبل أن ينحنيا ويستنفرا عضلاتهما في إزاحة الغطاء الفولاذي الثقيل.

وبينما يلتقطان الأنفاس، ألقى صاحب العدسات الذكيّة نظرة على شبكة خيوط الليزر المُتقاطعة على فتحة مدخل الحُجيرة الخرسانيّة، ثم أومأ لزميله الذي أخرجَ من حقيبته مجموعة من المُعِدات، وَزَّعَ أربعة منها على أركان المدخَل، ثُمَّ أربعة مرايا عاكسة لا يتجاوز مُسطَّح الواحدة منها العشرين سنتيمترًا مُربعًا، وزًّعها على امتدادات الأركان الأربعة، ثُمَ عاد يضغط أزرار الحاسوب المحمول، ثوانٍ ثُمَّ تلاشَت خيوط الليزر من أمام عيني صاحب العدسات الذكيّة والذي قال لصاحبه بلكنة شاميّة واضحة:

- تمام، معنا خَمس دقائق.

استجاب له بأن وثبَ برشاقة داخل الحُجيرة المُربعة، المِنظار المُرتكِز على قصبة أنفه أتاح له الرؤية رغم إظلام وحدات الإضاءة، أدار عينيه في حِزَم الكابلات المصنوعة من الفيبر، والتي تُشكِّل العصب الرئيسي لشبكة خطوط الاتصالات الأرضيّة الخاصة بالقوات المُسلحة، اتجه لنقطة مُعينة بأحد الكابلات قادته إليها

البيانات المُنهَمِرة على عدسة مِنظاره.

استخرج جهازًا صغيرًا ذا لمبة دقيقة مُضيئة باللون الأخضر، وشرع في العمل.

بالأعلى، تعلقت عينا صاحب العدسات الذكية بأرقام الساعة الهولوجراميَّة التي راحت تتوالى أمامه بسرعة مُقتربة من نَصل الصفر، وقبل بلوغها إياه بما لا يزيد عن الثوان السبع كان زميله يثِب من قلب الحُجَيرة؛ لتستقر قدماه على الأرض المُعشوشبة.

انتظرا حتى انبعث صفير خافت بعد مرور الثواني السبعة، عادت على إثره خيوط الليزر غير المرئية تتقاطع على مدخل الحُجيرة.

تعاونًا على إعادة الغطاء الثقيل إلى موضعه، ثم تساءل حامل الحقيبة وهو يلهث من فرط المجهود:

- دي رقم (٠٥١).

- هي.

- فاضل أديش؟

- واحدة أخرى.

- هلا بَعيدة؟

نظر صاحب العدستين الذكيتين إلى البيانات الهولوجرامية المُرتسِمة في الفراغ أمامه، ثُمَّ أشار بسبابته المُحاطة بقُفاز جلدي جهة الشرق، وانبعث البُخار الأبيض من بين شفتيه وهو يجيب:

- حوالي كيلومترين.

- الوَقت عم بيجري.

***

- سمعاني يا أمَل؟

سَمِعَت الصوت قادمًا عن بُعد، من بين نغمات الصُّفَّارة الخافتة التي تسبح بنعومة حولها في الأثير، وتنزلق داخل صواني أذنيها حتى تبلُغ عقلها، فتتخلل ثناياه وتبعث فيه خدرًا عجيبًا، بالتزامن مع أشكال هولوجراميَّة من دوائر وشرائط وخيوط متماوجة، تتشابك وتتباعد بسلاسة فائقة.

- اسمِك أمل؟

نعم. هذا هو اسمي.

«أمل محمود إمام الشافعي»، ناجحة وبتفوق، مدرسة علي بن أبي طالب، رائحة والدها تفعم أنفها؛ إذ تغوص في حضنه وتسمعه يبارك لها بصوتٍ ملأته الفرحة «مبروك يا أمُول». ولى كابوس الثانوية العامة وأقبل كابوسُ جديد، ترفع عينيها إلى وجهه، فترتَد برأسها للوراء مصعوقة، أنتَ لستَ بابا!

أنت أدهم!

الخَدَر يسري من رأسها إلى أطرافها التي ترتخي وتتثاقل إلى الشيزلونج العجيب الذي يضم جسدها كما لو كان قد صُنِعَ خصيصًا لاحتوائه.

- أمل الشافعي؟

«زوجتُكَ مُوكِلَتي، الآنسة أمل محمود عبد المُعِز الشافعي».

جالسة إلى جواره في فستانها الأبيض، سعيدة، هانئة

... الورود والبلالين والشموع والوجوه الباسمة تملأ القاعة. «البِكر الرشيد» أبوها يردد وراء المأذون بابتسامة وعينٍ دامعة. «على سنة الله ورسوله». تُدير عينيها إلى عريسها. «وعلى مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان» تُحِدق غير مُصدِقة. «وعلى الصداق المُسمى بيننا» ... الوجه. الملامح. الابتسامة الواثقة! «عاجله وآجله» هذا خطأ! يبتسم قائلًا: «قبلتُ زواجها» انتفضَت واقفة. «على كتاب الله وسنة رسوله» ليس أنت! ليس في هذا الزمن البعيد!.

الصوت يُكرِّر من بعيد:

- أمل؟

ترغب في تجاهله، تحديه، رفض سؤاله، ولكن إرادتها تذوب، لا تدري أمِنَ الفانتازيا البصريَّة البديعة الدائرة أمام عينيها المأخوذتين، أم من النغمة الهادئة التي خَدَّرَت كيانها، أم مِنَ المادة المجهولة التي حُقِنَت بها قُبيل لحظات؟!

أم هي أرجوحة الذكريات التي يدور فيها رأسها بسرعة جنونية؟!

- رُدي على سؤالي.

جسدها يغوص في رمالٍ مُتحركة، حاولَت التشبُث بأي شيء، لكن الخدَر طال أصابعها، رفعت عينيها، رأت سيلويت جسده منتصبًا بثبات عن بُعد، ومن حوله الميدان يحترق والمتظاهرين تحولوا لأكوام من الجثث المتفحمة والمثقوبة.

ترنح رأسها يُمنةً ويسرة، ثُمَّ هوى على صدرها.

- سمعاني؟

مرَّت لحظة، ثُمَّ أومأت ببطء.

ومن وراء الحاجز الزجاجي، نظر لها أدهم حيث تمدَّدَت على ذلك المقعد الذي يتوسط القاعة مُعتِمة الإضاءة، وقَد استلب التنويم المغناطيسي وعيها.

أدار عينيه إلى الدكتور أنس الزُهيري الجالس وسط الأجهزة والشاشات الهولوجراميَّة التي تنقل إشاراتها الحيوية والكهربية، وكل خلجة تنقلها الأقطاب المُثبتة إلى رأسها وجسدها، ابتسم له الدكتور أنس بثقة وهو يومئ برأسه، ثم عاد إلى أجهزته، قال بهدوء:

- أمل، إنتي عارفة إنتي فين دلوقتي؟

هَوَّمَ رأسها ذات اليمين وذات الشمال.

- إنتي في شقة الغردقة، شايفاها أودامِك؟

ببطء بدأت تنكشف الرؤية من وراء جفنيها المُسبَلَين عن جدران الشقة البيضاء. الريسبشَن، الجدار الزجاجي المُطِل على الشُرفة، الرُدهة المؤدِية إلى غُرَف النوم.

- شايفاها؟

غمغمَت:

- شايفاها.

- عظيم، فيه حَد واقف أودامِك، شايفاه؟

مع آخر حروفه، رأت الظل يقف بثبات مواجهًا إياها عن كثَب.

أومأت برأسها، فتابع الدكتور أنس:

- البطاريَّة اللي هِربت من مزرعة أبو رواش، وانتى خطفتيها من المُستشفى من أكتر من سنة.

الظل يكتسب بُعدًا ثالثًا وتنسحب الظُّلمة عن جسده الدقيق ووجهه المُغطى بالمنظار الداكن.

- هو كان اسمه إيه؟

أجابت بخفوت:

- رفعت.

تبادل الدكتور أنس النظر مع أدهم الذي ظل وجهه مُصمتًا، ثم عاد إلى أمل متسائلًا:

- دا اسمه الحقيقي؟

هزَّت رأسها نافية.

ضَيَّق أدهم حدقتيه مُفكرًا قبل أن يَفتُر ثغره عن بسمة فَهم خافتة وهو يُغمغِم:

- رفعت إسماعيل.

التفت له الدكتور أنس بعينين مُتسائلتين، فأومأ له أدهم ليتابع.

- رفعت في خطر يا أمل.

قَطبَت.

- Egy- Nergy وصلِت لمخبأكم دا، وفي خلال دقايق هَيكونوا عندكُم.

ظهرت علامات توتُر عنيف على ملامحها المُرتخية.

- عايزِك حالًا دلوقتي تقولي لرفعت على تفاصيل plan B عشان يتحرك قبل وصول عُملاء الشركة.

تقلصَت عضلات وجهها في مُعاناة واضحة.

- ***Plan B* يا أمل.**

التقلص يسري بسرعة لكامل جسدها، مع تردد صدى الصوت في عقلها.

***«Plan B* يا أمل».**

تنتفض، تكز على أسنانها، تنفر عروق رقبتها.

بدأ القلق يطفو على ملامح أدهم الصخرية وهو يرمق انتفاضاتها المتتالية.

تساءل عَمَّ يحدُث فأجابه الدكتور أنس بصوتٍ خفيض وهو يرمق التغيرات الصاخبة في مؤشراتها الحيوية على الشاشات الهولوجراميَّة:

- آليات دفاعية مغروسة في عقلها لمنعها من إفشاء الأسرار.

ورفع عقيرته قائلًا:

- سامعة الصوت دا يا أمل؟ دا هَدير مراوح الطوَّافات، الطوَّافات اللي جاية تاخُدكم لمزارع Egy-Nergy. عارفة ليه؟

وجهها المُحتقِن يكاد ينفجر بالدم.

- عشان يستخرجوا طاقتكم الحيويَّة، هَتموتوا يا أمل جوا الماكينات.

تَلوَّت بعنف أكبر، القيود تنغرس في معصميها وساقيها.

- مفيش وَقت يا أمل، لازم تبدأوا Plan B حالًا.

«Plan B».

الصدى يتردد، يشق طريقه بين تلافيف مُخها، يقترب

من بُقعة حصينة مُظلمة، فيجاوبه من داخلها صدًى مماثل بصوتٍ آخر.

«Plan B

هَدَأ التشنج وبدأت عضلاتها المَشدودة في الارتخاء.

«كلمة السِّر هي plan B»

نقل الدكتور أنس عينيه بحيرة بينها وقد توقفت عن التشنُّج، وبين الشاشات التي تنقل مؤشراتها الحيوية الآخذة في الانتظام، سأله أدهم:

- إيه اللي بيحصل؟

لم يُجِبه الدكتور أنس الذي مال نحو مُكبِّر الصوت مُناديًا برفق:

- أمل.

انفرجَت شفتاها.

- سَمعاني؟

- أربعة.

غادرت الكلمة حلقها بصوتٍ خفيض لا يكاد يُسمَع لولا نظام الصوت الذكي الذي التقط الكلمة ونقلها بصوتٍ أعلى للجالسَينِ وراء الحاجز الزجاجي، ورغم ذلك قال الدكتور أنَس:

- بتقولي إيه يا أمل؟

- تِسعة.

- تِسعة؟!!

- زيرو.

تبادل الرجلان النظرات مرةً أخرى، قبل أن يهِز الدكتور

أنس رأسه إيماءً لحيرته.

- اتنين، خمسة، واحد، ... ...

قال الدكتور أنس:

- إيه الأرقام دي يا أمل؟

- زيرو، واحد، زيرو، سبعة، تلاتة، واحد، ... ...

الأرقام تنزلق من بين شفتيها بسرعة مُتزايدة.

- أربعة، تمانية، زيرو، تلاتة، تسعة، اتنين، زيرو، واحد، سبعة، اتنين، ......

أطبقَ الدكتور أنس شفتيه هذه المرة، فسأله أدهم مُجددًا عَمَّ هُنالِك.

- خمسة، خمسة، زيرو، تلاتة، تسعة، اتنين، ستة، واحد، خمسة، أربعة،... ...

أجاب الدكتور أنس ببطء:

- التنويم المغناطيسي استطاع جزئيًا انه يخترق الدفاعات العقليَّة، وقِدِر يقنع عقلها (مُشيرًا بكفه تجاه جسد أمل) انه يفرِج عن المعلومات المطلوبة.

- والأرقام دي ...

- غالبًا هي الداتا اللي احنا بندوَّر عليها، بس مُشفرة رقميًا.

كانت الأرقام الآن تتوالى بسرعة كبيرة وبحروف آخذة في التداخل تعذرَ معهما تمييزها، فقال أنس:

- السيشَن كلها مِتسجِلة صوت وصورة، فهَنِحتاج برنامج مُتخصِّص يحلل ويفُك الشفرة الرقميَّة.

قال أدهم بهدوء:

- اعتبر عملية التحليل والتفكيك بدأت already.

استقبلت وحدات (س-١٨) الكلمات، وفي نفس الجزء من الثانية تقريبًا مررتها إلى وحدة الذكاء الاصطناعي التي قامت بتحليلها وتفنيدها ومُقارنتها بما قبلها وما بعدها، واستخرجَت الأمر الذي حملته ضِمنيًا بإجراء سلسلة من العمليات التتابعية على الأرقام التي تنساب من بين شفتي صاحبة البصمة الحيويَّة المُسجلة باسم أمل الشافعي.

استغرقت عملية تحليل واستخراج الأمر ثلاثة أجزاء أخرى من الثانية، بدأ بعدها إجراء ملايين التباديل والتوافيق بالتوازي بين الأرقام التي تم تخزينها والأرقام الجديدة التي تتدفق بسرعة كل ثانية.

***

سِت ساعات هُم زمن ورديَّة مُجنَّد حَرَس السواحل الشاب محمد هلال السيوي ذي الثلاثة وعشرين عامًا، يقضيها في مقصورة بُرج المُراقبة بإحدى النقاط المُوَزعة على الساحل الشمالي لبارادايس هايتس، بين المسح البصري للمُتاح أمامه من صفحة البحر المتوسط، ومُراجعة صُوَر الأقمار الصناعية، هاتين العمليتيَّن المُملتين اللتين تصر القيادة على إسنادهما للعنصر البشري، رغم أن الحواسيب والأقمار الصناعية قادرة على أدائها بكفاءة مُنقطعة النظير بزعم أنَّ «الآلات يمكن التشويش عليها وخداعها، لكن العنصر البشري مش ممكن التشويش عليه».

أصلًا لا يكاد يوجد خطر حقيقي يستدعي القلق في ظل سنوات الاستقرار التي تفتح وعيه عليها، لكن الواجب هو الواجب، والتقصير -لو انكشف- حسابه عسير.

مهمتان سخيفتان يستعين الشاب على ثِقَل ساعاتهما السِّتة بالتدخين وبتأمُل الأزرق العظيم نهارًا أو تشكيلات النجوم التي تُرصِّع السماء المُظلِمة ليلًا، مرة أو مرتين جلب معه مجلات ورقية مُنقرضة حصلَ عليها من سندرة جده، وقضى أوقاتًا لا بأس بها في تصفحها، غير أن تصاعُد الأعمال الإرهابيَّة بطول البلاد وعرضها في الشهور الأخيرة دفع بالقيادات لإعلان الطوارئ، ورفع درجة التأهُب للحالة (ج)، وانعكس هذا على

واجباته التي أُضيفَ إليها سِتة تقارير دوريَّة يقدمها في الورديَّة الواحدة بمُعدَّل تقرير كل ساعة –بدلًا من تقرير واحد في نهاية الورديَّة- يشمل نتائج رادارات الأقمار الصناعيَّة ومُقارنتها بالمَسح البصري المُباشر، الأمر الذي لم يَدع له فرصة لالتقاط الأنفاس خلال زمن الورديَّة فضلًا عن الترويح عن النفس بهذه الطريقة أو بتِلك.

في تلك الليلة الباردة حجبت الغيوم الغليظة أشعة القمر والنجوم، فأظلم المشهَد بالكامل خارج مقصورة بُرج المراقبة إلا من الإشارات الضوئية المُنبعثة عن بُعد من على خَط الحدود البَحريَّة.

انتهى المُجنَد الشاب من مُراجعة الصور التي تبثها رادارات الأقمار الصناعية بثًا مُباشرًا، والتي لم يَر بها ما يُثير الريبة، ثم ارتدى سترته الواقية من المطر، رفعَ سوستتها وأحكم غطاءها حول رأسه، وَضَعَ مِنظار الرؤية الليليَّة على عينيه قبل أن يغادر المقصورة إلى الأفريز الخارجي الذي لا يتجاوز عرضه الخمسين سنتيمترًا.

رغم الثياب الثقيلة صفعته الرياح الباردة ورذاذ المطر الذي بدأ يتساقط على استحياء، مَس بسبابته المُحاطة بقفاز جلدي زرًا دقيقًا بجانب المِنظار، فبدأت شريحته في تسجيل المسح البصري.

بدأ وِفقًا للبروتوكول من الشرق، عليه أن يدور برأسه ببطء لمئة وثمانين درجة صانعًا نصف دائرة حتى يصل لأقصى الغرب، تستغرق العملية دقائق قليلة يعود بعدها

إلى المقصورة الدافئة، فينزع شريحة المنظار ويقوم بتوصيلها بالكمبيوتر، وإنزال تسجيل المسح البصري توطئةً لإرفاقه بالتقرير الدوري مع صور الأقمار الصناعيَّة.

قبل الوصول للزاوية الخامسة والأربعين توقف رأسه عن الدوران، وللحظة تجمد جسده كله، حتى أنفاسه التي تغادر أنفه في صورة أبخرة بيضاء، استخدَمَ الزووم في تقريب المشهد، فرأى بوضوح ذلك الزورق الذي يَشُق الأمواج على بُعد ما يقرب من ميلين في خَطٍّ مُستقيم من الشمال للجنوب باتجاه بارادايس هايتس، مزيدُ من الزووم فتبيَّن له المدفعين المُثبتين على سطح الزورق.

سرَت رعدة في جسده، تضاعفت عندما استكمل مسحه فتبيَّن له أنه ليس زورقًا واحدًا، بل عشرات الزوارق!

قفز السؤال مُباشرةً إلى ذهنه المصدوم: كيف لم تظهر هذه الزوارق في صُوَر الأقمار الصناعيَّة؟!

هَرعَ محمومًا إلى شاشة الكمبيوتر لدرجة نسى إغلاق باب المقصورة وراءه، فاجتاح قلبها الدافئ رذاذ المطر والهواء البارد، جَرَت أصابعه على المفاتيح، وحدَّق غير فاهم في الصُّوَر المُرتسمة على الشاشة الهولوجراميَّة، والتي لم يَبدُ عليها أي من عشرات الزوارق التي رصدها بعينه رصدًا مُباشرًا.

«الآلات يمكن التشويش عليها وخداعها بوسائل

تكنولوجية كتيرة».

دَسَّ شريحة المنظار في موضعها المُخصص بلوحة الكمبيوتر وأرسل الفيديو الذي التقطته في بريد رسمي لأكثر من مستوى من مستويات القيادة، ثُمَّ وَثبَت أصابعه إلى جهاز الاتصال وضغطت الأزرار في محاولة للاتصال بقيادة الكتيبة فجاوبته شوشرة استاتيكيَّة قويَّة.

عاد إلى شاشة الكمبيوتر، فهوى قلبه بين قدميه عندما وجد رسالة تُنبئه بتعذر إرسال رسالته الألكترونيَّة في الوقت الراهن.

أعاد منظار الرؤية الليليَّة إلى عينيه وعاود النظر إلى الزوارق التي تقترب حثيثًا، أين الرادارات؟! أين الأقمار؟! أين أدوات الرَّصد؟! كيف أمكَن خداعها؟!

«لكن العنصر البشري مش ممكن التشويش عليه».

قفز إلى الهاتف الأرضي، ضغط بهيستيريا على أزراره، وحبس أنفاسه ترقُبًا.

الهاتف الأرضي هو الخيار الاحترازي التالي في منظومة الاتصال المُطبقة بالجيش حال حدوث شوشرة تمنع الاتصالات اللاسلكيَّة، أو عُطل بشبكة الإنترنِت الخاصة بالقوات المُسلحة، سواء أكانت الشوشرة أو الأعطال فنيَّة أو نتيجة لأعمال عدائيَّة، تمتَد كابلات الفيبر التي تربط شبكة الاتصالات الأرضية في أنابيب مُخصصة مدفونة على عُمق مُناسب، وتتقاطع وتتغير مساراتها داخل حُجيرات خرسانيَّة تحت أرضيَّة مُوَزعة

وفقًا لخرائط الشبكة، ومُؤَمَّنة بالليزر وبالأقفال الإلكترونيَّة.

ومع آخر رقم ضغطتهُ سبابة المُجنَد الشاب محمد هلال السيوي على أزرار الهاتف الأرضي، اشتعلَت على بُعد مئات الأمتار شاشة الجهاز الصغير المُثبَت بإحدى نقاط تقاطع كابلات الفيبر بالحُجيرة رقم (٠٥١) وأضاءت اللمبة الحمراء الدقيقة على قمته.

دَقَّ قلب الشاب بشيء من الارتياح لما سَمِعَ صوت الرنين المُمَيز المُعلِن عن نجاح إجراء الاتصال مع الطرف الآخر، ثُم لم يلبث أن صاح بمُحدثه بمجرد أن استجاب:

- محمود، شايف الزوارق؟

ارتسم خط مُتكسِّر ذو انحناءات على شاشة الجهاز المُثبَت بالكابلات الفيبر بالحُجيرة (٠٥١)، وراحت هذه الانحناءات تتذبذَب، ومع ذبذبتها، سَمِعَ محمد هلال السيوي الواقف بمقصورة نقطة المُراقبة صوت زميله في نقطة المُراقبة التالية له يقول بهدوء:

- شايفها آه.

غمرته الدهشة، لا لمجرد وجود رنَّة عجيبة غير مألوفة في صوت زميله، ولكن لرد الفعل الهادئ أمام اشتباه في عمل عسكري مُعاد، فتح فمه ليتكلم قبل أن يُعاجله الزميل:

- دي المُناورة البحريَّة (نسر ٧). التعليمات ماوصلتَكش؟!

غالب المُجنَّد الشاب دهشته قائلًا بتوتُر:

- كل الاتصالات عندي مقطوعة.

تراقصت الانحناءات على شاشة الجهاز المُثبَّت بالكابلات الفيبر بالحُجيرة (٠٥١)، وسَرَت منه سلسلة من النبضات عبر الكابلات بَلَغَت -في جزء من الثانية- سماعة التليفون الأرضي المُستقرة في راحة المُجنَّد الشاب، فسَمِعَ صوت زميله مُشوبًا بتلك الرنَّة المعدنيَّة العجيبة:

- قطع الاتصالات دا جزء من المناورة، التعليمات وصلت لكل النقاط والوحدات على الإيميل النهاردة الصُبح، إنت كُنت نايم وللا إيه؟!

هوى السؤال كصفعة على وجهه، ورغم ثقته في يقظته -خلال الأيام الأخيرة على الأقل- إلا أن احتمال وقوعه ضحية خطأ ما انتصب قائمًا أمامه في لحظة، وتخايلت له سلسلة الإجراءات العقابية التي تنتظره لمجرد الاشتباه في إهماله، ردد بفمٍ جَفَّ لعابه:

- لا خالص والله، بس الـ ...

قاطعه صوت زميله:

- ما بَسِش! إنت حاولت تتصل بقيادة الكتيبة؟

- (بارتباك): لاسلكي وشبكة ومانفِعش، فقولت اكلِمَك قبل ما اجرب الأرضي.

- أحسن حاجة عملتها عشان التعليمات بتحظر استعمال الأرضي، باعتبار ان جزء من المناورة هو قطع كابلات الفيبر، ولو كُنت حاولت تتصل بالقيادة كنت هَتكشف نفسك انك معندَكش علم بالتعليمات.

- أنا فعلًا ماوصلتنيش أي إيميلات!

- هلال! انتَ عارف القيادة بتتعامل إزاي! هَتتعاقب الأول وبعدين إبقى اثبِت ان الغلط اللي حصل مش مسئوليتَك.

صمت الشاب للحظات أدار خلالها رأسه ليرمق الزوارق الدانية من الساحل وغمغم:

- يعني انا أعمل إيه؟!

حَمِلَت كابلات الفيبر القادمة من الحُجيرة (٠٥١) إجابة الصوت المعدني:

- ولا حاجة. صَمت سلكي ولاسلكي تام، مِش مطلوب مِنَّك غير كدا.

***

- أمل ...

اخترق صوته الهادئ الحازم أذنيها ووعيها، رَفَعَت رأسها وأدارتها في القاعة الخاوية من حولها إلا من مِقعَد خال مقابل لمقعدها، وشاشة هولوجراميَّة مُضيئة.

- إنتي المفروض كدا سَمعاني كويِس.

حرَكَت أطرافها فاستجابت لها، اعتدلَت في جلستها إلى ذلك المِقعَد الوثير في وَسَط القاعة شاعرة بالحيويَّة تسري في جسدها.

- إيه الأرقام دي؟

تردد سؤاله عبر سمَّاعات النظام الصوتي، نظرَت بِحيرة إلى الشاشة الهولوجراميَّة التي انتظمَت عليها مصفوفة مكونة من آلاف/ ملايين الأرقام.

لحظات ثُمَّ هزت رأسها قائلة باقتضاب:

- ماعرفش.

قال:

- الأرقام دي كانت مُختزنة في عقلِك، وخرجِت خلال التنويم المغناطيسي.

ضيَّقَت حدقتيها وهي تحاول تمييز ما تراه على الشاشة المُكتظة بالأرقام، بينما الصوت يُتابع:

- إيه معلوماتِك عن الأرقام دي؟ مين زرعها في عقلِك؟ وترجمِتها إيه؟ وليه خرجِت دلوقتي؟

ظلَّت صامتة لبُرهة وكأنما تُدير أسئلته في عقلها، وبَدَت على ملامحها حيرة حقيقيَّة قبل أن تهز رأسها

وتُكرر:

- ماعرفش.

وداخل الحُجرة المجاورة التي يفصلها عن القاعة حاجزٌ زجاجيٌ مُعتِم، أدار الدكتور أنس الزهيري رأسه إلى أدهم/ آدم المصري قائلًا:

- نيجاتيف يا مستر آدم.

قالها بينما أصابعه تُشير إلى المؤشرات الحيوية على الشاشات الهولوجراميَّة، والتي تنقلها مجسات وأقطاب كشف الكذب المغروسة في عدة مواضع من جمجمة أمل.

- هي فعلًا مِش عارفة حاجة.

قطَبَ أدهم مُفكرًا للحظات قبل أن ينظر له قائلًا بهدوء:

- شكرًا يا دكتور أنس.

وغادر بخطوات واسعة إلى القاعة المجاورة ليقف مُنتصِب القامة عاقدًا كفيه خلف ظهره أمام أمل التي بادلته النظر بثبات، ثم أومأ برأسه إيماءة خفيفة تجاه الشاشة الهولوجراميَّة قائلًا بهدوء:

- (س-١٨) بيحِلل الأرقام.

جاهدَت لتدفع بابتسامة ساخرة إلى شفتيها وهي تقول:

- بالتوفيق.

لَم يُبال بسخريتها وتابع:

- وإن كُنت أزعُم انى عندي فكرة عن مضمونها.

- برافو!

حَل كفيّه وجلس إلى المقعد المقابل، وضعَ ساقًا على ساق وأشعل سيجارًا جديدًا وهو يقول:

- إنتي مُتخيلة انى مش متوقّع وصولهُم بين لحظة والتانية؟

تجمدت ابتسامتها على شفتيها وتساءلت بصِدق:

- تقصد مين؟

نَفَثَ الدخان ببطء من بين شفتيه وقال:

- أصدقائك.

وعبرت ابتسامة سريعة عينيه وهو يستطرِد:

- أومال انا جايبِك هنا ليه؟!

صمتت مُفكرة للحظات قبل أن تنقبض ملامحها وهي تردد:

- طُعم؟!

أومأ أدهم موافقًا من دون أن تفلت عيناه ما تَوَالى على وجهها من ردود الأفعال على كلماته، مرَّت دقيقة من صمتٍ ثقيل مشحون، قطعته هي قائلة:

- مفكرتِش فـ ابنَك المخطوف من سنين؟

قطب ناظرًا لها بتساؤل صامت، فتابعت:

- مفكرتِش إنه ممكن يكون واحد من ضحاياك؟

لم يجب على الفور، حافظ على جمود ملامحه للحظات سحب خلالها نفسًا طويلًا توهج له طرف السيجار بين شفتيه، ثُمَّ دفع الدخان الأبيض ببطء، وقال بتؤدة:

- فكرت طبعًا.

- (بدهشة): ورغم كدا ... !

قاطعها:

- الطريق اللي قطعته بلا رجعة.

هَمَّت بقول شيء ما غير أنَّ أزيزًا مُتصلًا انبعث بغتة، التقى له حاجبا أدهَم، فرفعَ طرف سبابته إلى السماعة الدقيقة المُستقرة داخل أذنه، وأطرق مُنصِتًا، قبل أن يرفع رأسه إلى الشاشة الهولوجرامية الجديدة التي انبعثَت إلى جوار شاشة الأرقام.

قال وهو يُحدِّق بعينين لامعتين:

- مش قولتلِك؟

أدارت أمل عينيها إلى الهولوجرام الجديد، والذي ينقل ما تلتقطه واحدة من كاميرات المراقبة المُثبتة إلى الأسوار الأمامية لمقر الشركة، وخفق قلبها لمرأى الجسد الضئيل الذي يسير بتؤدة في وسط الطريق الأسفلتي المؤدي مُباشرةً إلى بوابة المدخل الرئيسي الذي يتوسط الأسوار.

- السنارة غمَزِت.

ومع كلماته، انقسمت الشاشة أمامها لنصفين، فتضاعف خفقان قلبها لما رأت وجه رفعَت مُكبرًا على جانب الهولوجرام الأيمن، وقد أخفى منظاره الداكن أغلب ملامح وجهه دقيق العظام.

***

أضاءت لمبة حمراء في الجدار، وإثر ذلك بدأ الكمبيوتر عدًّا تنازليًا.

تساءل الكابتن خالد من مقعده بالمُقدِّمة أمام لوحة الأزرار والمفاتيح:

- جاهز؟

التقط زين نفسًا عميقًا وقال:

- جاهز.

رغم كل التجهيزات، كان كل ما يُحيط به يرتج من على هذا الارتفاع الشاهق، مال بطرف عينه من وراء الخوذة ليلقي نظرة عبر الكوة الزجاجيَّة، فلم يَجِد إلا العَدَم.

انقبضَ قلبه عندما تخيل أنه بعد ثوان سيغوص في قلب هذا العَدَم، ليس العَدَم بالضبط، هذا هو الأيونوسفير، ذرات الأكسجين الثلاثيَّة التي تتحِد لتكوِّن جزيئات الأوزون.

قال الكابتن خالد:

- دي أول مرة، انا عارف.

بالفعل هي كذلك، ويعلم جيدًا أنَّ الأجهزة ستُدير العملية كلها وبنسبة خطأ صفر٪ حتى ارتفاع مُعيَّن آمن، وبعدها ينتقل التحكُم إليه.

العَد التنازلي مُستمِر.

«الخِطة ستعتمِد على ثلاثتكم اعتمادًا رئيسيًا، سأكون صريحًا معكم،أنتم لستُم من المؤمنين بأهداف

ثورتنا، لسئم مِثلي ومِثل أمل، وفي نفس الوقت لسئم من الميليشيات التي شاركت أنت يا زين في تدريبها لمُدة عام كامل من أجل اجتياح مزارع Egy- Nergy، أنتم معنا، في خندقنا، لأسباب شخصيَّة بحتة، ولعل هذا هو سر ثقتي الشديدة بِكم؛ لأنَّ المسألة شخصيَّة».

تسلل صوت الديك الرومي إلى أذنه:

- نبضَك مُرتفِع يا زين، أنتَ خائف.

صوته القادم من مكانه البعيد المجهول عبر سماعات الخوذة ينخسه، اللعنة أيها الديك الرومي! أعلم أنَّ هذه البذة تنقِل إليكَ نبضي، وضغط دمي، وإشارات مُخي، وكل شاردة وواردة من إشاراتي الحيويَّة، لا داعي لتذكرني بأنك تراني عاريًا في هذه اللحظات.

تتداعى ذكريات الساعات الماضية أمامه.

«الكابتن خالد له حِساب مع Egy- Nergy التي أكلت لحمه، وألقت عِظامه على قارعة الطريق، وله أيضًا حساب مليوني ببنوك الخارج يكفي لتأمين مُستقبل أبنائه وأحفاده هو أجره عن دوره في ثورتنا؛ لذا فهو يرغب في الانتهاء من عمله والانتقام مِمَّن أذلوه ليلحق بعدها بعائلته التي تنتظره بالخارج».

سَمِعَ زين صوت نظيم يخاطبه عَبر سماعات الخوذة:

- حاول أن تتمالك أعصابك بشكل أفضل.

من السهل أن تنصحني من موقعَك الآمن على الأرض أيها الوغد، تعال لتقفز من سقف العالم ثم حَدثني عن

الشجاعة.

- (ضاحكًا): إشارات مُخَك تفضح عدائيَّتَك يا فتى.

«رفعَت له ثأر شخصي مع من انتزعوا عينيه وعذبوه وعذبوا الملايين من أمثاله».

- أخبرتُك أن كمبيوتر بذتَك سيقوم بكل شيء، وسيُوفِّر لك هبوطًا آمنًا، تذكر هذا، وتذكر أيضًا أن حياة أمل رَهن ثبات أعصابك.

«أما زين، فأعتقد أنَّ علاقته الوثيقة بـ أمل حافزًا يدفعه لعبور الجحيم ذاته من أجلها، أليس كذلك عزيزي زين؟».

وعبوره زحفًا لو تطلَّبَ الأمر أيُها الديك الرومي.

رفع عينيه إلى اللمبة الحمراء التي لم تنفك تومِض، وتنهَد.

العَد التنازُلي يقترب من نهايته.

أدار الكابتن خالد رأسه إليه، رمقه من وراء خوذته ثم قال:

- الاتصال بينا هَينقطِع بمجرَّد خروجَك.

قال زين باقتضاب:

- عارف.

صَمَتَ الكابتن خالد للحظة قبل أن يقول بصوت بدَت نبرته أبويَّة عجيبة لتلميذه:

- خَلي بالك كويس.

نظر له زين، واكتفى بهَزة من رأسه.

خمسة.

أربعة.

التقط نفسًا طويلًا وعاد بعينيه صَوبَ الباب المُغلَق الذي تفصله عنه أمتار قليلة.

ثلاثة.

تكوَّرَت قبضته وتحفزت عضلاته.

اثنان.

ثنى ركبتيه، ومال بجذعه للأمام قليلًا.

واحد.

اللمبة الحمراء تحولَّت للَّون الأخضر.

انتزع جسده من مكانه وركض بلا تردد نحو الباب المُغلَق.

صفر.

أزيزٌ عالٍ، ثُمَّ انزاح الباب بغتة قبل أن يبلغه زين بمترٍ واحد.

صوت فرقعة مُدوِّية، الهواء المجنون يقتحِم بهياج، الجدران تهتز وتكاد تتفكك، وفرق الضغط يقذف بـ زين خارجًا كطلقة الرصاص.

«المُهِمة خطيرة، عالية الخطورة بالفعل، لكن الخُطة مُحكمة كذلك».

لم يَر الطوافة من ورائه وهي تميل بزاوية حادة ليبتلعها الظلام خلال ثانيتين.

على هذا الارتفاع الشاهق الذي يمكن وصفه بـ «سقف العالم»، تلاعبت العواصف المجنونة بجسده الضئيل كما يلهو طفلٌ شرِس عملاق بحشرة.

هو بكُل قوته، تدريباته، كيانه، ذكرياته، شيء ضئيل ضئيل تحت رحمة قوى الطبيعة وفي مملكتها المَهيبة، تتقاذفه فيما بينها بمرح وجودي مُرعِب.

بيانات الطقس والضغط والحرارة والموقع والارتفاع والاتجاه تنهمر كالشلالات أمام عينيه على شاشة الخوذة، تتبدل كل جزء من الثانية، ولكنَّه لم يَكُ في حالٍ يسمح له بتمييز أي شيء.

الهَلَع جمَّدَ فؤاده وشَلَّ عقله، بينما جسده ينقلب رأسًا على عَقِب لحظة بلحظة، لا يوجَد أعلى ولا أسفل ولا يمين ولا يسار، ظلام ظلام ظلام، يسمع صوت نظيم، الديك الرومي، يخاطبه عَبرَ سماعة الخوذة من دون أن يَعي شيئًا من كلامه، يلمح أثناء الشقلبة سجادة هائلة من الغيوم الرمادية تفترش من أسفله -الَّذي صار أعلاه في الثانية التالية- على مرمى البصر.

«وكل شيء محسوب بدقة، ابتداءً من تِلكَ البَذة المُصمَّمة خصيصًا لمثل قفزتَك يا زين».

يهوي أكثر وأكثر، رأسه يدور بشدة.

صوت نظيم يتشوَش.

الشحب الرماديَّة تقترب بسرعة مُذهلة، يغوص فيها بقوة، تُظلِم الدنيا أكثر فأكثر.

التشويش يزداد، يطغي على صوت نظيم ويطمس حروفه.

«(س-١٨) يُمارس تشويشًا إلكترونيًا قويًا يغطي دائرة قطرها كيلومترات حول مقر Egy- Nergy تنقطع فيها

جميع *أنواع الاتصالات*».

فجأة وجد نفسه واقفًا في طَرف الممر المُظلِم إياه.

الضوء يشِع من وراء الباب الموارب في نهايته.

الفراغ مُعَبِّق بضباب خفيف ينبعث من اللامكان.

أمل أمامه مُلقاة على الأرض في منتصف الممر، يسمع صوت أنينها، الأصابع القوية مُلتفة حول خصلاتها الفضيَّة، تجذبها بعنف، تجرجرها على أرضية الممر باتجاه الباب المُوَارِب.

رفع رأسه، جاهد ليخترق حُجب الظلام المُضَبَّبة ببصره، خَفَقَ قلبه عندما مَيَّزَ قامته الفارعة المُنتصِبة، مينوتور مفتول العضلات لم يفلح الظلام الذي طَمَسَ خلقته في حَجب قرنيه الهائلين، أنفاسه ثقيلة أقرب لخوار ثور غاضب، وثمة بُخار أبيض يغادر منخاره مع كل نَفَس.

أمل تصرخ، تستغيث به.

انتزع نفسه بصعوبة، وجاهدَ كي يندفع ليحررها، غير أن المَسخ رفع إليه عينين حمراوين، ثم طَوَّحَ ذراعه المفتول، فشَقَّ الهواء طرف السوط الذي يقبض عليه، وشعر زين بلسان من نار يرتطم بضلوعه ويقذفه إلى الوراء.

حاول النهوض من سقطته ليكتشف أن أطرافه مُلتصقة بالأرض، عاجزةٌ عن الإتيان بأي حركة.

صرخات أمل تمزقه، عافر، بكى، صرخ، رأى نظيم واقفًا قبالته في بذلة أنيقة، وقد عقد كفيه خلف ظهره،

سمعه يقول بصوتٍ عميق:

- لن يساعدك أحد، أنت تساعد نفسك.

وأومأ برأسه تجاه أمل:

- وتُساعدها.

صاح زين بصوتٍ مُختنق:

- حَرِّرني.

- لن يُساعِدك أحد.

سمع في هذه اللحظة صوت خروشة قريبة تتعالى، لوىَ عنقه بأقصى ما يستطيع، فلمح عنكبوتًا ضخمًا مُشعِرًا يقترب، خفق قلبه مُرتعِبًا، ودَقَّقَ النظر ليجِد أنَّ العنكبوت يحمل ملامح الكابتن خالد! سَرَت الرجفة في جسده لما اعتلته الأرجُل الثمانية المُشعِرة، وسَمِعَ نظيم يُكرر بإصرار:

- أنتَ تُساعِد نفسك.

وفي اللحظة التالية تحركت الأقدام الثمانية بخِفة، وانغرسَ شيء حاد في صدره.

فَتَحَ عينيه إثر الوخزة التي أصابته، مذاق كريه يملأ فمه وأنفه، استغرقَ ثانية ليُدرِك أنه فَقَدَ الوعي لثوانٍ أو دقائق، وثلاثة ثوانٍ أخرى ليستوعِب أنَّ مُنشِّطًا ما حُقِنَ في قلبه مُباشرةً، أحد مُشتقات الأتروبين كما أخبرته البيانات على شاشة الخوذة أمام عينيه، لاريبَ أنه تقيَّأ، وأنَّ نظام الطرد بالخوذة تخلَّصَ من آثار القيئ، وإن لم يُذهِب ما خَلفهُ من مذاقٍ كريه.

«وكل شيء محسوب بدقة، ابتداءً من تِلكَ البَذة

المُصمَّمة خصيصًا لمثل قفزتَك يا زين».

ضاقت حدقتاه بفعل الأتروبين.

لا يزال يهوي، ولكن تركيزه أفضل بكثير.

بيانات الارتفاع والاتجاه تتوالى أمام عينيه، وعن بُعد، ومن بَين طبقات الضباب، استطاع تمييز الأضواء الشاحبة لبارادايس هايتس المُتربِعة وِسط بحر من الأمواج المُظلمة.

أنبأتهُ الأرقام أنَّ كيلومترين أفقيًا وأضعافها رأسيًا تفصله عن ساحلها الشمالي.

الخطوط ترتسم على شاشة الخوذة صانعة خريطة ثنائيَّة الأبعاد للجزيرة، أضاءَت طرفها نقطة حمراء مُذبذبة الإضاءة هي موقع مقر Egy- Nergy بالضبط، وإلى جِوار الخطوط بدأ عَدٌّ تنازليٌّ راح يقترب من الصِّفر بسرعة.

جسده لا يزال يغوص بسرعة في طبقات الضباب الأسوَد البارد.

ملأ صدره بالأكسجين النقي الذي يفعم الخوذة، وشعر بالحيوية والتصميم يتدفَقان في عروقه.

صبرًا يا أمل، أنا قادم.

دقائق وينتهي كل شيء.

صبرًا.

***

إلى جانِب المهام الاعتياديَّة التي دأبَ على أدائها طيلة الأعوام التي انقضَت مُنذ بدء تشغيله، كَرَّسَ (س-١٨) ثلاث من وحداته لأداء ثلاث عمليات جديدة غير عاديَّة.

الوِحدة الأولى (أ) تقوم –استجابةً لأمر آدم المصري- بإجراء ملايين التباديل والتوافيق على آلاف الأرقام التي استخرجتها عمليَّة التنويم المغناطيسي من عقل أمل، عمليَّات مُسلسلة تتابعيَّة بحثًا عن علاقات منطقيَّة بين الأرقام تؤدي لنتيجةٍ ما.

الوحدة الثانية (ب) تتابع –استجابةً لأمر آدم المصري- استقبال رفعَت الذي بَلَغَ أعتاب البوابة الرئيسيَّة للأسوار المُحيطة بمقر الشركة سيرًا على الأقدام، ومكَثَ أمامها واقفًا يترقب، كفَّاه مدسوستان في جَيبَي معطفه الداكن، ورأسه من تحت غطاء رأس «الكابيشو» مُطرقًا أرضًا.

أما الوحدة الثالثة (ج)، فهي وحدة دفاعيَّة فعَّلتها وحدات المُراقبة التي التقطَت إرهاصات غير تقليديَّة.

بعد ما يَقرُب من رُبع الساعة، وبعد بلايين المحاولات والمُعادلات، بدا واضحًا لبرنامج الوحدة (أ) المسئول عن إجراء التباديل والتوافيق أنه يقترب من الوصول لنتيجة، شيء ما بدأ يَتشكَّل من جراء تفكيك الأرقام إلى الصفر والواحد وإعادة تركيبها، مصفوفة الأرقام الآن تقترب من تشكيل كيانٍ غير مفهوم أو كينونة غير

مُكتمِلة، تأهَب الحُراس وبرامج الحماية وحوائط النار، فأحاطوا بها إحاطة السِّوار بالمعصم، ووقفوا على أهبة الاستعداد؛ لنسفها ومحو مُعادلاتها في جزء من مليون من الثانية عند أول بادرة خطر، غير أنها كانت بالفعل أقرب لبيتٍ خَرِب مهجور وِفقَ تصوراتنا البشريَّة.

من وظائف الوحدة (ب) المسئولة عن إدارة استقبال رفعت، التحكم بشريحة المايكروكمبيوتر المزروع داخل الجمجمة البلاتونيوميَّة البديلة حَول مُخ وليد، تتلقى إشاراته الحيويَّة وتتفاعل معها وتُرسِل إليه الأوامر والتوجيهات أولًا بأوَّل؛ لذا فعندما قامت هذه الوحدة بفَتح مصراعي البوابة الخارجية أمام رفعت، وجدَ هذا الأخير نفسه وجهًا لوجه أمام وليد الذي وقف داخل حُلتِهِ العسكريَّة السوداء متخوذًا خوذة داكنة يختفي رأسُه داخلها، ومن حوله توزَّع ثلاثة من الجنود بنفس الهيئة والزِّي وقد شهروا أسلحتهم تجاه رفعت مُتخذين أوضاعًا تصويبيَّة احترافيَّة.

وفي قاعته، لم يجلس أدهم، ظل واقفًا يراقب المشهَد الهولوجرامي الذي تنقله كاميرات المُراقبة باهتمامٍ شديد، تساءلت أمل الجالسة عن كثب:

- وإيه لزوم لجنة الاستقبال دي؟ السايبورج وحده مش كفاية؟!

أجابها أدهم بصوت مُحايِد ومن دون أن يرفع عينيه عَن الهولوجرام:

- مِش كل يوم بنستقبِل سوبرمان في شركتنا

المتواضعة.

وحدات المراقبة رصدت مُبكرًا انقطاع الاتصالات بينها وبين الأطراف الخارجية.

الاتصالات الرقمية واللاسلكيَّة بمستوياتها المختلفة تتعرض لتشويش إلكتروني قوي، بينما الاتصالات السلكيَّة تتعرض لاعتراض من نقاط الاتصال.

كان هذا كافيًا لشحذ انتباه المراقبة والانتقال إلى مستوى أعلى من ضمن بنوده تنشيط الوحدة الثالثة (ج)، وهي الوحدة الدفاعية الشاملة والتي تغطي فاعليتها كيلومترات حول بارادايس هايتس كلها وليس مقر E.N. وحدها.

وهكذا التقطَ (س-١٨) اقتراب سرب من الزوارق العسكرية مجهولة الهويَّة من الساحل الشمالي للجزيرة، استقبله مدعومًا بمعلومات أوليَّة عن عددها ونوعيتها وحمولتها وتسليحها وقدرتها النيرانيَّة، باءَت محاولات الاتصال بالجيش وحرس السواحل بالفشل بطبيعة الحال، فانتقل إلى الإجراء التالي بروتوكوليًا وهو تصنيف الزوارق كأجسام مُعاديَّة.

نظر أدهَم إلى الهولوجرام الذي تنقله كاميرات الشاطئ -بعد تعذُّر الحصول على بَث الأقمار الصناعيَّة بسبب التشويش الإلكتروني- للزوارق الدانية، ولبيانات التقرير المُصاحِب، فغمغم ببطء:

- ممتاز! تكنولوجيا تشويش مُتقدِّمة لدرجة ان رادارات وأقمار البحريَّة وحرس السواحل ماحسيتش

بحاجة!

وأدار وجهه إلى أمل مُستطرِدًا:

- أصحابك بدأوا plan B.

ظل رفعت ثابتًا في وقفته أمام البوابة الفاغرة، رأى وليد يتقدم منه بخطوات واثقة، ومن ورائه افترش النجيل الأخضر مُسطحًا شاسعًا تتوسطه القلعة الخرسانيَّة، شعر بالأصابع الفولاذية التي خبرها من قبل تلتف حول ذراعه الضئيل وتجذبه بشيء من الخشونة فانصاع لها، تحرَّكَت فوهات الأسلحة معهما.

تذبذت أضواء القاعة، وارتفع رنين مُتصِل مُزعِج.

حَدقَت أمَل غير فاهمة، ونقلت بصرها بين وجه أدهم الذي استحال صخرًا أصَم، وبين هولوجرام المسقط الأفقي الذي صنعه (س-١٨) لتشكيل الزواق بُناءً على ما رصدته الكاميرات الأرضيَّة، رأت خيوطًا تخرج من كل زورق وتتمدد باتجاه الجزيرة، رددَت:

- دي ... ؟

قال باقتضاب:

- صواريخ، بتنضرِب علينا.

عشرات الصواريخ انطلقَت في توقيت واحد من المدافع المُثبتة إلى أسطح الزوارق أمام ساحل بارادايس هايتس.

رصدتها الوحدة (ج) الدفاعيَّة لـ (س-١٨)، أعدادها وزواياها واتجاهاتها ونوعيتها وقدرتها التدميريَّة، ومَيَّزَت أن هدفها جميعًا هو مبنى مقر E.N مُباشرةً،

وقدرت المسافة التي تفصلها عنه وزمن إصابتها له بـ ٣٠ ثانية.

استغرق هذا التحليل ما يزيد قليلًا عن الثانيتين، وفي الثانية الثالثة تم تحديد الإسلوب الدفاعي الأمثل، وقبل انقضائها بدأ تنفيذه بالفعل.

وفي سماء بارادايس هايتس المُظلمة تطايرت آلاف الجُسيمات المعدنيَّة ضئيلة الحجم كحشرات ليليَّة، شَقَّت الهواء كالرصاصات باتجاه الساحل الشمالي، استغرقَت عَشر ثوان لبلوغ نقطة الالتقاء بالصواريخ القادمة من البحر.

على كل صاروخ انقضَّت عشرات الجُسيمات، لتلتصق به، وفي اللحظة التالية اضطربَت مسارات الصواريخ ففقدَت اتزانها، هوى بعضها مُباشرةً ليغوص كحجر في الأمواج السوداء، ودار بعضها حول نفسه في حلقات، وارتطم بعضها بالبعض الآخر لتضيء السماء المُظلِمة بانفجاراتها.

تساقطت الصواريخ كلها عدا ستة منها راوغت الجسيمات المعدنيَّة، واندفعَت بسرعة هائلة نحو هدفها الذي لم يَعُد يفصلها عنه سوى بضع مئات من الأمتار.

ستة صواريخ سرعان ما انخفض عددهم إلى صاروخين فقط بعد أن اعترضت صواريخ مُضادة مسارات أربعة منهم، فانفجروا قبل بلوغ الهدف.

وأمام عَيني أمل المشدودتان إلى الشاشات الهولوجراميَّة، قطع الصاروخان المسافة التي تفصلهما

عن هدفهما في أقل من ثلاث ثوانٍ، وارتطما به، سَمِعَت دويٌّ مكتوم، وارتجَت القاعة رجة بسيطة بالتزامن مع انبلاج كرتين عملاقتين من اللهب على الهولوجرام، نظرت إلى أدهم الذي مَط شفتيه قائلًا:

- هَنحتاج نعمل شوية صيانة.

عاد بصرها يتواثب بين الشاشة التي تنقل مشهد سحب الدخان الهائلة مَوضِع الانفجارين بواجهة مقر الشركة الأماميَّة، وبين الشاشة التي تنقل بَث كاميرات الشاطئ للسماء المُظلمة، والتي ازدحمَت بمئات الصواريخ.

الدُّفعة الثانية من الصواريخ القادمة من جهة البحر في مواجهة الصواريخ التي أطلقتها الوحدة (ج) الدفاعيَّة باتجاه صَف الزوارق المواجه للساحل من منصات للصواريخ خرجَت من مخابئ مُوَزعة باحترافيَّة في أنحاء المُسطَّح المحيط بمبنى المقر.

تحولَت السماء لجحيم حقيقي، وتلونَت بنيران مئات الانفجارات التي سُمِعَ دويُّها بوضوح من على مسافات شاسعة، رجة جديدة بسيطة أصابت مبنى الشركة إثر إصابتها بصاروخ واحد هذه المرة، بينما بلغَت عشرات من مئات الصواريخ التي أطلقتها الوحدة (ج) أهدافها، دَوَّت انفجارات جديدة على سطح البحر، وتطايرت أشلاء عددٍ من الزوارق على مساحات واسعة.

وقبل أن ينطق أي منهما بكلمة، تناهى إلى مسامع أمل وأدهم دَويُّ انفجار قريب من الطرف الشرقي هذه

المرة، وعادت إضاءة القاعة تتذَبذَب من جديد.

***

الخوذة المُحيطة برأس الكابتن خالد فضالي كانت لتُتيح له التحكم في الطوافة، بواسطة الموجات الصادرة عن مُخه بما يجعل السيطرة عليها وقيادتها مهمة أكثر سهولة ودقة، لولا أنَّ التشويش الذي يُمارسه (س-١٨) على جميع أنواع الاتصالات ويُغطي كيلومترات حول مقر Egy- Nergy قادر على منع انتقال الموجات المُخيَّة وتحويلها لإشارات كهربيَّة تتحكم في الطوافة، الأمر الذي دعاه –الكابتن خالد- للعودة للتحكم اليدوي التقليدي بدلًا من المُخاطرة.

ألقى نظرة على شاشة الردار، وتأكد من أنَّ القذيفة الصاروخيَّة التي أطلقها من على ارتفاع مئات الأمتار أصابت هدفها، ودمَّرَت إحدى منصات الصواريخ بأقصى الطرف الشرقي داخل الحَيِّز المُحيط بمبنى المقر، ثُمَّ مال بعصا القيادة غربًا، فطاوعته الطوافة ومالت بليونة مُذهلة وشَقَّت الهواء المُظلِم صانعة قِطعًا ناقصًا باتجاه الهدف التالي الذي حدده بنقرة من سبابته على الخريطة الهولوجراميَّة.

- برافو.

قالها أدهم ببطء وهو يراقب مسار الطوافة على هولوجرام الرادار، ثم قال لأمل من دون أن يلتفت إليها:

- صُحابِك شُطار، استفزوا الدفاعات عشان يحددوا أماكنها.

لَم تُعقِّب، شاهدَت مِنصة الصواريخ الثانية تنفجر

أمامهما على الصورة الراداريَّة، بينما أدهم يُتابع:

- بس دا تهور شديد، انتحار.

في هذه اللحظة وصل زين.

لم يَكُ من السهل تمييزه في الظلمة وبخاصةً مع ثيابه السوداء الحالكة، لولا وَهَج النيران وانفجارات الصواريخ المُتبادلة، والتي أضاءت السماوات الشماليَّة والشرقيَّة لِمقَر الشركة، رصدته الوحدة (ج) وهو يُحلِّق فاردًا جناحين مشدودَين بين ذراعيه وجسده، من نفس نسيج بذلته المُزوَّد ظهرها بمُحرِّك انصهار جعله يَمرُق عبر السماء الغربيَّة من أقصى الشمال لأقصى الجنوب، وعلى الفور صنفته كجسمٍ مُعادٍ.

ورغم أن رأسه مُغطَّى بالخوذة الداكنة، إلا أنَّ قلب أمل خفق بعنف وهي تراه على الهولوجرام يَشُق السماء المُلتهبة والمُلبَّدة بدخان الانفجارات كوطواط عملاق، يتفادى النيران والقذائف والشظايا بمرونة فائقة ودقة سوناريَّة.

وكأنما شعر أدهم بتوترها، فالتفتَ يرمقها بعينين فاحصتين قبل أن يعود مرة أخرى للبَث الهولوجرامي، فيرمقه للحظة ثم يَفتر ثغره عن شبح ابتسامة وهو يُغمغِم:

- عودة الابن الضال.

أضاءت اللمبة الحمراء في لوحة القيادة أمام الكابتن خالد بمُقدَّم الطوافة، ورأى على هولوجرام الرادار خمسة قذائف مُضادة للطائرات ترتفع باتجاهه بسرعة

هائلة من خمس زوايا مُختلفة، فجذب عصا القيادة للوراء قليلًا وهو يُحَرِّك سبابته على شاشة اللمس، لتميل مُقدمَة الطوافة لأعلى وتندفع بزاوية شِبه قائمة لتغوص وسط الغيوم الداكنة.

طاردتها القذائف الخمس بإصرار، ولم تفلَح الجُسيمات المشحونة بطاقة سلبية، والتي أطلقتها الطوافة كإجراء دفاعي في تعطيل هذه القذائف.

وعلى الشاشة أمام عيني الكابتن خالد، بدأ عَدٌّ تنازلي سريع مع تقلُّص المسافة بينه وبين أقرب القذائف إليه.

ارتجَت القاعة رَجة أكبر وبدوي أعلى هذه المرة إثر صاروخ قادم من جهة البحر، استطاع الإفلات من الجُسيمات والصواريخ المُضادة التي تطلقها الوحدة (ج)، وضرب جسم المبنى ضربة مُباشرة قريبة انخلع لها قلب أمل، رغم أنَّ الجدران المدعومة بألواح التيتانيوم من وراء الكسوة الخرسانيَّة تحملت الضربة ولم تتأثر، أما أدهم فلم تهتَز له شعرة.

لم يعبأ بشاشة الرادار التي رصدت انفجار طوافة الكابتن خالد من فوق ما يزيد عن الأربعة كيلومترات، ثبَّتَ عينيه على الهولوجرام الذي يرصد تحليق زين حول المبنى مُحاوِلًا استنباط هدفه، وكان قد أصدر أمرًا للوحدة (ج) بوقف استهدافه كجسم مُعادٍ قبل لحظة واحدة من انطلاق قذائفها تجاهه، لحظات مَرَّت عليه تحول خلالها لتمثال، قبل أن تسمعه أمل بصعوبة يُتمتِم:

- هدفه البطاريَّة.

كانت عجلات العربة الشبيهة بعربات لعبة الجولف، والتي تحمِل كلًّا من رفعَت ووليد ورجال الحراسة الثلاثة تنزلق بسرعة على الطرق الأسفلتيَّة الناعمة، التي تربط بين البوابة الخارجية والمدخل الرئيسي، والذي يتوسَّط الواجهة الجنوبيَّة لمبنى المقر، عندما تلقَّت الوحدة (ب) المُكلفة بتأمين استقبال رفعَت الإشارة التحذيريَّة من الوحدة (ج) الدفاعيَّة.

اقترن هذا الإجراء بنيران كثيفة انطلقَت من أكثر من مصدر تجاه الطائر البشري العملاق، الذي راوغ بمرونة مُدهشة، راح يُحلِّق تجاه هدفه في مسارات لولبيَّة للإفلات من طلقات المدافع التي تطارده.

وداخل العربة، أدار وليد رأسه المُخوَّذ بحركةٍ حادة غربًا، وكذا فعل رجال الحراسة الثلاثة الذين شهروا أسلحتهم استجابةً للأوامر الصوتيَّة من الوحدة (ب).

من بين أصوات الانفجارات مَيَّزوا بوضوح أصوات سيل الطلقات المُتصل والذي يتعالى من وراء سُحُب الدخان الكثيفة.

مَرَّت ثانيتان توترت خلالهما السبابات الثلاثة على الأزندة، قبل أن ينشق الدخان عن الطائر البشري تلاحقه الطلقات، وثبَ الحُراس الثلاثة من العربة التي لم تتوقف، ورفعوا أسلحتهم تجاهه مُطلقينَ النيران بسخاء، فانحرف هو يمينًا بزاوية حادة مُبتعدًا عن مسار الطلقات القادمة من أسفل، ثم انخفض بحركة مفاجئة

مناورًا نيران مدفعيَّة الوحدة (ج) ومُوَلِّيًا وجهته شطر خصومه الثلاثة على الأرض.

حَدَّدَ كمبيوتر بذلته مواضع هذه الأهداف الثلاثة، ثم أمطرهم برصاصاته من المدفعين الآليين المُثبتين إلى الجناحين ذات اليمين وذات اليسار، وفي اللحظة التالية تساقطت الجثث الثلاثة مثقوبة رغم بذلاتها المُضادة للطلقات، ومَرَق زين من فوقها على ارتفاع أمتارٍ قليلة تلاحقه نيران المدفعيَّة.

كان بالفعل قَد تجاوز العربة الشبيهة بعربة الجولف ببضع عشرات من الأمتار، وبدأ يدور عائدًا إليها عندما أصابت هذه النيران مُحرِّك الانصهار خلف ظهره.

راح جسده يتطوح بعنف وعشوائية، وقد اندلعَت ألسنة اللهب في المُحرِّك والجناحين، ثم لم يلبِث أن رآه وليد يهوي من على ارتفاع بضعة أمتار ليغيب وسط الدخان الكثيف بعد أن انفصلَ عن المُحرِّك الذي راح يدور حول نفسه، ثم انفجر إثر اصطدامه بواجهة المبنى.

توقفَ القصف المُتبَادَل.

على الشاشات الهولوجراميَّة، التفَتَ أدهم يَرمِق هولوجرامات النيران المُشتَعِلة في الظلام على حطام الزوارق وشظاياها المتناثرة على مساحة واسعة من أمواج المتوسِط بعد أن دمرتها صواريخ الوحدة (ج) عن بكرة أبيها، وجَرَت عيناه بسرعة على سيل البيانات الأوليَّة المُنهَمِرة حولَ نتائج القَصف، قَطَّبَ مُغمغِمًا:

- مفيش جُثَث!

لَم تسمعه أمل.

كانت عيناها وقلبها مُعَلقين بالهولوجرام الذي تنقله الوحدة (ب) من أمام المدخل الرئيسي لمبنى الشركة.

فعلى قَيد أمتار قليلة منه، ترجلَ وليد عن العربة الشبيهة بعربة الجولف، دار حولها وجذبَ رِفعَت من ذراعه لينزعه عَن مِقعده ويسير به باتجاه مدخل المقر.

الهدف الرئيسي الذي حَمَلَتهُ الشريحة الرقمية المزروعة داخل جمجمته البلاتينيوميَّة البديلة هو جَلْب رفعَت سالمًا مُعافى إلى حَيثُ جَناح الرئيس -آدم المصري- بداخل المقر؛ لذا فلَم يلتفِت لجُثَث الحُراس الثلاثة المتناثرة عن كثَب، ولا للأنين المُنبعِث من أحدهم، وراحت المسافة تتقلص بينَهُ وبين بوابة المبنى والتي انزاحَ مِصراعيها المُصفَّحَين المُضادَين للصدمات.

كان ذلك عندما التقطت أذناه وَقعًا خافتًا لأقدام تركض مُقتربة على العُشب.

«الهَدَف الأساسي هو جَلب رفعَت سالمًا مُعافى إلى حَيثُ جَناح الرئيس -آدم المصري- بداخل المقر»؛ لذا فلَم يُضِع وليد وقتًا.

بينما كان يلتفِت بسرعة ليواجه مصدر الخطوات الراكضة، كانت أصابعه تسحب سلاحه من غمده، وتُشهِره تجاه صاحب هذه الخُطوات، وقبل أن تكتمل استدارته، بَلَغَ زين موضعه ووثب يركل يده القابضة على السلاح بعُنف فأطاح به ليسقط على النجيلة.

لم يغضب وليد أو ينفعِل لفقد سلاحه، ولا لأنه تعرَّف على وجه خصمه وزميله القديم المُختفي داخل خوذته الداكنة، ولكن لأن الشريحة التي «تُديره» من خلالها الوِحدة (ب) لم تَكُ لتتعامل وفقًا لانفعالات بشرية كالغضب أو الكراهية.

خَسِرَ وليد سلاحه وقبل أن تكتمل الثانية كان ذراعه يرتفع ليصُد ضربة ثانية من قبضة زين هذه المرة.

«الهَدَف الأساسي هو جَلب رفعَت سالمًا مُعافى إلى حَيثُ جَناح الرئيس».

رفعت الذي ظل على وقفته لَم يُحرِّك ساكنًا، بينما التحمَ وليد بخصمه اللدود، تبادلَا الضربات الخاطفة، واحدة فقط أصابت جانب خَوذة وليد، فيما صَدَّت أطرافه بقيَّة الضربات قبل أن تلتقِط الوِحدة (ب) النمط القتالي لزين، وتضع نمطًا مُضادًا تنقله الشريحة الرقمية إلى رأس وليد، الذي سُرعان ما وضعه في موضِع التنفيذ، ليجِد زين نفسه عاجزًا عن صَد أو تفادي أي من الضربات التي انهالت على جسده، قبل أن يتلقى رأسه لكمة كالقنبلة من قبضة وليد الصناعية تُهشِّم خوذته وتقذِف به أمتارًا ثلاثة إلى الوراء.

- غبي!

قالها أدهَم بازدراء وهو يتابع هولوجرام وليد الذي أنهى العراك واستدار عائدًا بخطوات آلية مُستقيمة إلى مدخل المبنى قابضًا على ذراع رفعت.

التفت بوجهه ربع التفاتة إلى أمل مُستطردًا:

- صاحبِك عمره ما هَيتعلِّم.

خُيِّلَ إليه أنه لمحَ طرف ابتسامة لأول مرة على شفتيها، فاستكمل التفاتته ليرمقها بدهشة وقد طرقَت ابتسامتها بابًا مُفاجِئًا للقلق في نفسه.

وفي نفس اللحظة تقريبًا اخترق الصَّمت صفير مُباغِت، جعله يعود برأسه بحركة حادة إلى الشاشة الهولوجراميَّة، التي نَقلَت صورة مُكبرة مُجسَّمة لخوذة وليد، لجِسم صغير أقرب لرأس دبوس مُلتصِق بها، تحديدًا في الموضِع الذي أصابته ضربة زين الوحيدة قبيل لحظات.

قالت أمل بهدوء مُثير:

- من ناحية التعلم، فهو بيتعلِّم.

التقى حاجبا أدهم وهو يقرأ البيانات التحليليَّة التي تنقلها الوحدة (ب) عن طبيعة ذلك الجسم، ثم قفزَت عيناه إلى الشروخ المُسرطنة التي تراكمَت بسرعة مُذهلة على زجاج الخوذة المُقاوِم للصدمات، والذي لم يلبَث أن تداعى وانهار مُتشقِقًا لآلاف الشظايا الدقيقة، لتمتلئ الشاشة برأس وليد الحليق، وملامحه الجامدة المُسطحة كملامح روبوت، وعينيه الخاليتين من الحياة.

هُنا، تحرك رفعت.

حرَّكَ ذراعه الطليقة، فانتزع قبضته من جيب سترته حاملة شيئًا ما لَم يُميزه أدهم للوهلة الأولى، وقبل أن تُقرِّر الوحدة (ب) إجراءً مُحددًا تَنقله الشريحة الرقمية

داخل جُمجُمة وليد لموضِع التنفيذ، كان قد غرسه بالكامل أسفل أذن وليد.

انتفضَ جسد وليد بعُنف.

انقبضَت أصابعه الصناعيَّة المُلتفة على ذراع رفعت بقوة شعر معها الأخير بآلام مُبرحة، مقرونة بطقطقة عظام ساعده، كَتَمَ شهقة ألم كادت تفلت منه، ثم هَوىَ أرضًا لما انفردَت أصابع وليد فتحرر منها، رفع رأسه يرمقه؛ إذ زاغت عيناه وراح يدور حول نفسه بجنون وينتفض المرة تِلو الأخرى، وكأنَّ تيارًا كهربائيًا عاليًا يسري في عضلاته، قبل أن يهوي بدوره على ركبتيه، ويتوقف جسده عن الانتفاض، ثُمَّ ينهار ليرتطم بدويٍّ مكتوم بأرضيَّة الممر المُبلَّط بالحجارة.

ومع سقوطه، تذبذَت أضواء القاعة مُجددًا، رفع أدهم عينيه إلى الجدران ذاتية الإضاءة التي راحت تُضيء وتنطفئ، ثُمَّ قال بلهجة آمرة:

- تقرير.

تلقى (س-١٨) الأمر، ولكنه ولأول مرة لَم يُنفِّذ من اللحظة الأولى.

وحداته كلها كانت على أعلى درجة من درجات الاستنفار، وهي تراقب، وتُحلِّل ما حَدَثَ ويحدُث للوحدة (ب) مُنذُ الجزء من الثانية الذي اخترق فيه ذلِكَ الشيء الحاد أنسجة وليد في موضع مُختار بعناية ودراية لينغرس في إحدى الألياف الصناعيَّة التي تربط ضفائره العصبيَّة بالشريحة المايكروكومبيوتريَّة المُستقِرَّة داخل جمجمته.

لَم تَصمُد أنظمة الحماية لهذا الهجوم المُباغِت غير المُتوقَّع.

بلايين البرامج اندفعَت في جزء من الثانية من الجسم الحاد (والَّذي لَم يَكُ سِوى وسيط تخزين رقمي)، وتدفقَت كالسيل عَبرَ مسارات الألياف العصبيَّة الصناعيَّة لتبلُغ الشريحة المايكروكومبيوتريَّة وتجتاحها.

قاومَت دفاعات الشريحة ببسالة ثم انهارت في ثانية واحدة تحت وطأة الهجوم الكاسح، والذي لَم يلبِث في اللحظة التالية أن انتقل إلى مستوى أعلى، للوحدة (ب) كلها.

نهض زين من رقدته شاعرًا بالشواكيش تضرب جوانب جمجمته، عظامه تؤلمه والدماء تنسال من أنفه الذي هشمته الأصابع الصناعية،

خلع ما تبقى من خوذته وألقاه جانبًا، ثُم سار باتجاه رفعت، فمَدَّ كفه ليعاونه على النهوض، ووقف كلاهما يُحدِّق في جثمان وليد الذي انكفأ على وجهه فوقَ النجيلة، سَمِعا صوتًا مكتومًا قادمًا من أعلى، فرفعا رأسيهما ليريا جسدًا ممشوقًا في بذلة وخوذة سوداوين يهبِط ببطء عن طريق مُضادات مُحرِّك انصهار مُثبَّت إلى ظهر بذلته كالمُحرِّك الذي حَلَّقَ به زين قبل دقائق، حتى انغرست قدماه بين الحشائش القصيرة على بُعد خطوات معدودة منهُما.

- Good job.

قالها الكابتن خالد وهو يرمق وليدًا بنظرة جامدة من

وراء خَوذته التي فقدَت عَتمتها، وكَشَفَت ملامحه الحادة المُغضنة وخصلات شعره الأبيض المعقوصة خلف رأسه.

هَزَّ زين رأسه وهو يمسح الدماء بحِرص من تحت أنفه المكسور، ورفع ذراعه ينظر إلى شاشة الكمبيوتر المحمول المُثبَّت إلى ساعده.

تدفقَت البيانات التحليليَّة وعَوَت وحدات الإنذار داخل دوائر (س-١٨) بينما الوحدة (ب) –مرءوسته- تتداعى أمام الغزو.

وعلى الفَور اتخذَت دوائر اتخاذ القرار لديه قرارًا جذريًا بفَصل الوحدة (ب) بأكملها فصلًا نهائيًا عن بقيَّة الوحدات، بالضبط كما يفعل طاقم الغواصة حين يفصلون بعض فراغات غواصتهم عند تسرب المياه داخل هذه الفراغات وامتلائها.

انتصبَت حوائط النار وتحفزَت برامج الحراسة، وراحت الروابط مع الوحدة (ب) -التي تلفظ أنفاسها الأخيرة لو جازَ التعبير- تنقطع الواحدة تلو الأخرى.

وفي الجزء الأخير من الثانية قبل انفصام الرابط الأخير، وبسرعة فيمتويَّة غير مسبوقة، مَرَقَت مُعادلة صغيرة من بين ملايين المعادلات التي تجتاح الوحدة (ب) عَبرَ هذا الرابط الأخير.

هَدَرَت برامج الحراسة، وانطلقَت قذائفها من المُعادلات المُضادة باتجاه المُعادلة المكوَّنة من رموز متغيرة جعلتها –إلى جانب سرعتها الفائقة- أشبه

بحرباء متلوِّنة يَصعُب تمييزها عمَّا حولها، فبَدَت وكأنها شَبح يختفي من موضع؛ ليظهر بغتة في موضعٍ آخر لجزء من الثانية قبل أن يختفي منه مُجددًا، وهكذا دوالِيك حتى اجتازت كل هذه الدفاعات وحوائط النار واخترقَت قَلب (س-١٨) إلى هدفها الحقيقي مُباشرةً.

إلى الوحدة (أ).

الوِحدة الأولى (أ) تقوم -استجابةً لأمر آدم المصري- بإجراء ملايين التباديل والتوافيق على آلاف الأرقام التي استخرجتها عمليَّة التنويم المغناطيسي من عقل أمل، عمليَّات مُسلسلة تتابعيَّة بحثًا عن علاقات منطقيَّة بين الأرقام تؤدي لنتيجةٍ ما.

- تقرير.

رددها أدهَم بنبرة هادئة، وإن كَشف غلُوُّها عمَّا يختفي وراءها من توتر.

لَم يتلَق ردًا هذه المرة أيضًا، سمع أمل تقول بهدوء:

- نسيت أقولَك على حاجة مُهمة يا عزيزي أدهم.

وقعت عيناه على ابتسامتها التي بَدَت له مُستفزة أكثر من أي شيء آخر، سيطر بصعوبة على أعصابه وسألها:

- حاجة إيه؟

لَوَّحَت بكفها فيما حولها:

- اللي بيحصَل دا.

ضاقت حدقتاه.

- مِش plan B.

ونظرت في عينيه مُباشرة مُستطرِدة ببطء:

- مفيش plan B من الأساس.

بدا واضحًا لبرنامج الوحدة (أ) المسئول عن إجراء التباديل والتوافيق أنه يقترب من الوصول لنتيجة، شيء ما بدأ يَتشكَّل من تفكيك الأرقام إلى الصفر والواحد وإعادة تركيبها، مصفوفة الأرقام الآن تقترب من تشكيل كيانٍ غير مفهوم أو كينونة غير مُكتمِلة، تأهَب الحُراس وبرامج الحماية وحوائط النار، فأحاطوا بها إحاطة السِّوار بالمعصم، ووقفوا على أهُبة الاستعداد لنسفها ومحو مُعادلاتها في جزء من مليون من الثانية عند أول بادرة خطر.

اخترقَت المُعادلة مُتغيِرَة الرموز حوائط الوحدة (أ).

كالعادة انهمرَت عليها المُعادلات المُضادة من الحُراس، وكالعادة طاشت وتفككت كلها؛ إذ تبدَّلَت رموز المُعادلة الدخيلة، واختفَت ثُمَّ احتشَدَت مُجددًا أمام المصفوفة التي تشكَّلَت من آلاف الأرقام التي استخرجها (س-١٨) من عقل أمل خلال جلسة التنويم المغناطيسي.

وفي اللحظة التالية، غاصت المُعادلة الدقيقة في قلب المصفوفة واستقرَّت بين أرقامها، في موضعٍ خالٍ وكأنه كان بانتظارها أو محجوزًا باسمها.

غير أنها كانت بالفعل أقرب لبيتٍ خَرِب مهجور وِفقَ تصوراتنا البشريَّة.

ثُمَّ انقلب كل شيء رأسًا على عَقِب.

البَيت الخَرِب لم يَعُد كذلك.

دَبَّت فيه الحياة، الكَينونة اكتملَت، والكيان غير

المفهوم بَدَأت تتضِح ملامحه.

رغم كونه مُحاصرًا بالحُرَّاس وحوائط النار، إلا أنه لَم يَبدُ عليه حذر أو احتراز وهو ينهَض –لو جاز الوَصف على مصفوفة من أرقام- ببطء.

أطلَقَ (س-١٨) مُعادلة حَملَت سؤالًا مُتوَجِّسًا عَمن يكون، فأجابه الكيان بمُعادلة حللها (س-١٨) في جزء من الثانية ليَجِد الإجابة في كلِمة واحدة مُقتضبة:

«Anarchy»

ازدادت ذبذبة الأضواء في القاعة، وراحت الشاشات الهولوجراميَّة تتشكَّل وتتلاشى بسرعة جنونيَّة، وتزامن ذلك مع عواء صفارات إنذار أقرب للاستغاثة.

أدار أدهَم عينيه في كل هذا، ثم نظر لأمل قائلًا بهدوء:

- خططتي انك تُقعي فـ إيدي وكنتي عارفة انى مِش هَأذيكي؟

أومأت برأسها قائلة:

- وهَتستَعمِل التنويم المغناطيسي عشان تستخرِج اللي انتَ عايزه من هنا (تنقر بسبابتها ووسطاها على جانب رأسها).

- الأرقام؟

استرجعت صَوت الديك الرومي للحظة:

«هذه الأرقام أملِك وأملنا الوحيد يا أمل ... فهمتِني؟؟» ...

قبل أن تومئ مرة أخرى وهي تُجيب:

- الأرقام دي اتزرعِت في عقلي بجلسة تنويم مغناطيسي في مقر الغردقة قبل ما تقبض عليا بساعة واحدة، كانت نَص برنامج Anarchy كاملًا باستثناء معادلة وحيدة، كانت مصفوفة مُشفَّرة ومحتاجة كمبيوتر مُتَخصِّص زي (س-١٨) يحللها ويرتبها ويبني البرنامج بحيث يبقى جاهز يتفعَّل بمُجرَّد ما توصله المُعادلة اللي ناقصاه.

- المُعادلة اللي رِفعَت حقنها لوليد وانتقلت من الوحدة (ب) للوحدة (أ) لغاية ما وصلت للمصفوفة واستكمِلت Anarchy، البرنامِج التخريبي الأخطر حاليًا.

حَدَّق في وجهها في الإضاءة التي راحت تومِض وتُظلِم بجنون، ثم ارتسمَت على شفتيه ابتسامة وهو يقول بشيء من السخرية الممزوجة بشيء من الإعجاب:

- وكُنتي عارفة انى هَوصَل لمحمود أبو زيد واقتله عشان أوصلَّك؟!

شعرت بخنجر يَشُق صدرها وبغصة في حلقها وهي تتلقى سؤاله ثم تهِز رأسها مُجيبة:

- مكانش قراري، ومَعرفتِش بيه غير بعد فوات الأوان.

زالت ابتسامته والتقى حاجباه وهو يقول:

- كان قرار مين؟

رغم تماسكها ولامبالاتها إلا أن رعدة ما سَرَت في جسدها وهي تُحدِّق في عينيه المُشتعلتين.

- مين اللي بيستخدِمك المرادي يا أمل؟

هُنا، أظلمَت القاعة تمامًا، اختفَت عيناه من أمامها، واستعادت هي بذلك تماسكها النفسي، ابتلعَت ريقها وقالت له:

- تِقدَر تودَّع صاحبك (س-١٨).

- التشويش الإلكتروني راح.

قالها زين وهو يَرمُق شاشة الكمبيوتر المحمول الملفوف على ساعد بذلته، ورفع عينيه يتبادل نظرة سريعة مع شَريكَيه، قبل أن يعود للشاشة يُراقِب المسقَط الأفقي المُتشابِك الذي راح يرتسِم عليها لثوان ثُمَّ يُردِّد بانفعال:

- الكمبيوتَر حَدد مكان أمل.

كان ذات المسقَط يراه الكابتن خالد هولوجراميًا من داخل خوذته، وإلى جواره هولوجرامات أخرى، جَرَت عيناه عليها سريعًا قبل أن يقول بحَسم:

- فيه كماشة بتتعمِل علينا.

انتبه زين ورفع عينيه إليه متسائلًا بقلق:

- منين؟

- الطرفين، الشرقي والغربي. أعداد.

وبلمسة لأحد الأزرار، تجسَّدَت الهولوجرامات أمام رفعَت وزين الذي ألقى عليها نظرة فاحصة، أحصى بِها عددًا تقديريًا لحشود الحُرَّاس ذَوِي الأردِيَة السوداء والأسلحة الأوتوماتيكيَّة، والذين يَزحفون من حَولَ جانبي مبنى المقَر باتجاهَهم في تشكيلات عسكريَّة احترافيَّة.

أشار بسبابته تجاه أحد الهولوجرامات قائلًا:

- فيه تشكيل خارِج من القطاع دا، من جوا المبنى.

قال الكابتن خالد بينما خوذته تزداد عَتمتها:

- التشكيل دا هَتتعاملوا انتو الاتنين معاه، وانا هَتعامل مع التشكيلات اللي جاية من بره.

تساءلَ زين:

- إحنا الاتنين؟!

اشتعل مُحرِّك الانصهار المُثبَّت إلى ظهر الكابتن بصوت مكتوم، وبينما كان جسده يرتفع ببطء عن سَطح الأرض، مَيَّزَ زين حروفه بصعوبة وهو يقول:

- إنتَ مِش معاك سوبرمان؟

- لعبة كويسة.

بدا لها صوته مُخيفًا في الظلام شِبه الدامِس المُخَيِّم على القاعة، وبخاصةً مع وَقع أقدامه إذ يتحرَّك.

تراجعَت شاعرةً بشيء من الرهبة بينما استطردَ هو:

- بَس دا مِش معناه انِك كسبتي يا أمل.

ومَعَ آخر حروف كلماته اشتعلَت أضواء القاعة الذاتيَّة دُفعة واحدة، فأغشَت بصرها للحظات، قبل أن تراه جالسًا خَلف مكتب عريض انسيابي الخطوط، وأصابعه تتحرك برشاقة على أزرار لوحة مفاتيح تتوسط سطح المكتب أمامه.

- شركتي أكبر كتير من (س-١٨) ...

وإثر ضغطة زِر، انبعثَت الشاشات الهولوجراميَّة مُجددًا في فراغ القاعة حاملة بَثًّا مُباشرًا لكل ما حَولَ وداخل

المقَر، رأت زينًا ورفعَت يسيران بحذر بين ممرات المبنى، زين مشدود الجسد، شاهرًا سلاحه، مُديرًا إياه في جميع الاتجاهات، ورفعت مُتأخر عنه بخطوة، يداه في جيبي معطفه، والوميض إياه مُلتمِع وراء منظاره الداكن، أما بالخارج، فالنيران لازالت مُشتعلة والدُّخان الرمادي يملأ الأجواء، ومن بين سُحُبه الكثيفة لَمَحَت تشكيلات الحُرَّاس تتحرك هُنا وهُناك، أسلحتهم مُشهرة لأعلى؛ حيث رصدت الكاميرات الكابتن خالد مُحلِّقًا في السماء المُلبدة بالدخان، يتفادى نيرانهم ويبادلهم إياها بنيران أسلحة بذلته.

- تلاتة بَس يا أمل؟!

مع توقُف وحدات (س-١٨) عن العمل انتقلَت إدارة العمليات لطاقم الدفاع المُكوَّن من مجموعة من عسكريين قُدامى من أفرُع وأسلحة مختلفة، سرعان ما كانوا مُوزعين في مواضعهم وفقًا للخطة الدفاعيَّة الاحتياطيَّة، وانهمرَت خطوط نيرانِهم لتطارِد الكابتن خالد في السماء المُلوَّنة بالنار والدُخان.

أردفَ أدهم وهو يتابع تمركزاتهم على الشاشات:

- مِش شايفة إنِّك بتخطي من قدري؟!

عادت الابتسامة الساخرة إلى شفتيها وهي تقول:

- حاشا لله إني أحُط من قَدرَك يا آدم بيه.

التقطَ رنَّة السخرية من صوتها ورفع عينيه إليها يرمقها باهتمامٍ، فتابعَت:

- هُمَّا مش تلاتة بالظَبط.

كَظَمَ قلقه مُتسائلًا:

- يعنى إيه؟!

ألقَت نظرة على أرقام ساعتها، ثُمَّ أرسلت إليه نظرة طويلة حتى خُيِّلَ إليها أنها تسمع الهدير والهتافات عن بُعد.

غمغمَت ببطء:

- ماسألتِش نفسَك رُكاب الزوارق الحربيَّة راحو فين؟!

كان قَد سَمِعَ ما سَمِعَتهُ في ذات اللحظة تقريبًا، فالتقى حاجباه ورَدَّدَ:

- إيه دا؟!

قالت بصرامة:

- دا الوعد.

اتضَحَت الهتافات أكثر فأكثر، نقل نظراته المبهوتة بين الهولوجرامات بينما هي تُردِف:

- وَعد الله.

***

داعبَت أصابع الشيخ أبو نِضال حُبيبات مسبحته القهرمانيَّة الزرقاء بشيء من العصبيَّة.

رَمَقَه نظيم الدين كمال –الديك الرومي- باهتمام عَبرَ الاتصال الهولوجرامي ثم قال:

- تشعر بالتوتر؟

قال الشيخ بصوتٍ غليظ دَسِم:

- أنا لا أخاف إلا الله.

ابتسمَ هولوجرام نظيم وهو يقول:

- لم أتحدث عن الخَوف.

صَمَت الشيخ للحظات أدار خلالها رأسه؛ لينظر عبر نافذة السيارة المُدرعة إلى المشاهِد المتوالية إلى جانبها بسرعة مائة وستين كيلومتر في الساعة، قبل أن يتنهَّد ويعود إلى مُحدثه قائلًا:

- هذا ثأر عمره رُبع قرن.

في البَدء كانت الانفجارات.

عشرات الانفجارات المتوسطة في آنٍ واحد كان لها دَوِيٌّ مُرعِب تردد في الهايتس كُلها، وحَسَمَ تردد القيادات العسكريَّة الناجم عن التشويش وقَطع الاتصالات.

تساقطت أجزاء من السور الخرساني الضخم المُحيط بمقر Egy- Nergy إثر انفجار عشرات القنابل الموقوتة، ثمَّ لم تلبث أن ظَهَرت من ورائها الجرافات العملاقة، المِئات منها، اندفعَت في وقتٍ واحد نحو الأجزاء

المُتبقِيَة من السور لتهَدِمها وتجتاحها بعنفٍ شديد.

انهارت الأسوار الخرسانيَّة من جميع الجهات حول المُسطَّحَ الأخضر الشاسع، الذي يتوسطه مبنى المقَر، وعَبَرَت الإطارات الغليظة المُدعَمة فوق رُكام الخرسانة، ومن ورائها آلاف الأزواج من الأحذيَّة العسكريَّة الثقيلة.

«الله أكبر».

سَمِعَها أدهم تنطلِق مُدوِّية من آلاف الحناجر التي يجتاح أصحابها من المُقاتلين الأشداء، المُلثَمين والمُدججين بمُختلف الأسلحة أراضي شركته في هذه اللحظات، لَم يَكُ بحاجة للكثير من الذكاء لاستنتاج هَويتهُم.

«الله أكبر».

قالت أمل:

- الشيخ أبو نِضال له حساب قديم معاك.

إثر أمر مُباشِر من قيادة الدفاع، تَوزعَت تشكيلات الحراسة الخاصة بـ E. N. حَولَ المبنى وِفقَ خُطة مرسومة بدقة، وفي نفس الوَقت انهمرت النيران بكثافة شديدة على جَيش «وَعد الله» من النِّقاط الدفاعية المُوَزعة بإتقان مَدروس على ارتفاعات مُختلفة داخل المَبنى العملاق، غير أن المُقاتلين المُحترفين بَدَوا كما لو كانوا مُتوقعين لهذا التكنيك، فاحتشَدوا في مجموعات وراء الجرافات التي صَدَّرَت روافعها كدروع تَقي ما وراءها من الطلقات.

«الله أكبر» لا تزال تتردد هادرة.

سَقَطَ من سَقَط، واستكمل الباقون سيرهم وراء الجرافات، التي راحت تتحرك ببطء باتجاه المبنى من جميع الجهات صانعة حلقة تضيق من حوله ببطء.

ومع الاقتراب البطئ، صَدَرَت الأوامر من قيادة الدفاع، فاستُبدِلَت الطلقات بالصواريخ، التي كانت سريعة المفعول، راحت تنهمر بغزارة على الجرافات، فتسحَق ما تُصيبه منها، وتكشِف من ورائه من مُقاتلين يصبحوا بدورهم أهدافًا سهلة لطلقات المدافع، بينما يواصل الباقون، بشجاعة نادرة، التمترُس خلف الجرافات والزحف الحثيث باتجاه المبنى،

تواصلَ القَصف وتوالَت الانفجارات، حاولَ بعض المقاتلون إطلاق قذائف متنوعة باتجاه الفجوات التي تَبرُز منها فُوَّهات المدافع بواجهات المبنى، غَير أنَّها –الفجوات- كانت مُصَمَّمة بزوايا يستحيل معها إصابتها بقذائف أرضيَّة.

وبينما كان أحد ضُباط الدفاع -داخل نقطته الدفاعية على ارتفاع سِتة طوابق من داخل المبنى- يُدير سبابته ووُسطاه على شاشة اللّمس لتوجيه مِدفعه الصاروخي نحو واحدة من الجرافات القليلة المُتبقيَّة، عَبَرَ ظلٌّ أسوَد السماء المُلبَّدة بالدخان من أمامه بسرعة البَرق، وقبل أن يستوعِب أو يُميِّز ماهيته، كان جسمًا كرويًا صغيرًا يتدحرج؛ ليستقر بين ساقيه، بعدها بلحظة دوي الانفجار الذي نسفَ المدفع وأطاح بالضابط ، ورآه المقاتلون بالأسفل من وراء الجرافات فهَدرَت حناجرهم

بالتكبير.

«الله أكبر» ...

كان الكابتن خالد قَد استغلَّ انشغال المدافع عنه بِصَد هجوم الجرافات بالأسفَل، وراح يُحلِّق في سماء المعركة مُتنقِّلًا بين النقاط الدفاعية المُوَزعة على واجهات المبنى؛ لنسف مدافعها الواحد تِلوَ الآخر؛ لتخفيف الضغط على الزاحفين باتجاه المبنى.

تحركَت الشفتان الهولوجراميَّتان لـ نظيم الدين وهو يقول:

- مما أرى من البَث المُباشِر ... رغم الخسائر، فالخُطة تَمضي، وأبناؤك يُبلونَ بلاءً حسنًا.

هَزَّ الشيخ أبو نضال خصلات لحيته المُخضَّبة بالحنَّاء مُعقِّبًا:

- أبنائي لا يخشون المَوت.

- ومُدربين جيدًا كذلك.

وابتسم مُردِفًا:

- وإلا فما استحَقوا الأجر الضخم الذي أودِعَ في حساباتهم يا شيخ.

التقى الحاجبان الكثَّان بينما الشيخ يقول بشيء من الخشونة:

- الأجر يذهَب مُعظمه للمزيد من الإعداد والتطوير.

احتفظ وجه نظيم بتعبير مُحايد كعادته، فَتَّش به الشيخ عن أثر لسخرية أو تهكُّم فلم يَجِد.

تحسَّسَ ندبة تَشق جبينه عرضيًا وهو يستطرِد بمُقت:

- هذه العمليَّة بالذات شخصيَّة أكثر من سواها.

أومأ نظيم برأسه قائلًا:

- أعلم.

مع توقف أغلب المدافع عن العمل، وإثرَ أمرٍ مُباشِر، انطلقَت الآلاف المُتبقية من ميليشيا «وَعد الله» تركُض شاهرة أسلحتها باتجاه المبنى، الذي لَم تَعُد تفصلها عنه إلا بِضع مئات من الأمتار من جميع الجهات ، ومِن دون أن تتوقف عن التكبير الهادر.

ومن وراء التحصينات المُحيطة بالمبنى، انطلقَت نيران تشكيلات الحراسة باتجاه الميليشيا الغازية، فحَصَدَت العشرات منهُم تساقطوا جُثثًا هامدة، فيما أطلق زملاؤهم –من دون أن يتوقفوا عن الرَكض- قذائف مُختلفة الأنواع والأحجام شَقَّت الهواء؛ لينفجر بعضها أمام التحصينات، والبعض الآخر خلفها بين الحُرَّاس الذين تطايرت أشلاؤهم.

أما الكابتن خالد، فراح يحوم حول المبنى، يطلق نيران أسلحته من موقعه بالأعلى هُنا وهُناك باتجاه الحُراس المُتمترسين وراء التحصينات، كانوا يطلقون نيرانَهم الأوتوماتيكيَّة بغزارة، مُحاولين صَد اجتياح خصومهم عندما هَوَت عليهم الطلقات من أعلى، فاخترقت الرءوس والأجساد.

لَمَحَهُ بعضهم في طيرانه فرفعوا فُوَّهاتِهم لأعلى، مُحاولين النَيل منه، ولكنه ناوَرَ وانخفَضَ لارتفاع لا يزيد عن الأمتار العشرة مُتفاديًا ثلاثة خيوط من الطلقات،

وبينما بدأ يُعاوِد الارتفاع صرخَ الأزيز داخل خوذته في نفس اللحظة التي لَمَح فيها جسمًا ما يندفع نحوه من الأسفَل.

أدار رأسه تجاهه وقبل أن يرى أو يفهم، ارتطم به الجسم.

كان رجلًا قويًا لم يَر وجهه، احتضنه بقوة وجذبه ثقله لأسفل.

مُحرِّك الانصهار تعامل أوتوماتيكيًا لمُعادلة الثقل الزائد، فيما تجاوزَ الكابتن خالد الصدمة بسرعة المُحترفين، وأنشَبَ أصابعه في ذراعي خصمه المفتولَين مُحاولًا نزعهما من حوله، غير أنَّ هذا الخصم لَم يدَع له الفُرصة، فأفلت أحد ذراعيه وهَوىَ بقبضته المضمومة على المُحرِّك المُثبَت إلى ظهر البذلة.

ضوء أحمر مُخيف داخل الخوذة مع أزيز الإنذار، وبيانات التلَف بالمُحرِك الذي تلقى ضربة ثانية أعنف في اللحظة التالية.

أودَعَ الكابتن خالد كل قوته في ضربة بركبته وجهها لضلوع خصمه الذي تحملها وغرس قبضته للمرة الثالثة في قلب مُحرِّك الانصهار.

هذه المرة دَوَت الفرقعة العالية من المُحرِّك الذي اشتعلَت فيه ألسنة النار، وراح يدور بحمولته حول نفسه بجنون، شعر الكابتن خالد بذراعي خصمه تنفلتان من حوله، فضغَطَ زر بحزامه لينفلِت بدوره من المُحرِّك المُحترِق ويهوي من على ارتفاع ثلاثة طوابق فوق

الأرض المعشوشبة.

ساعدته البذلة التي انتفخَت بالهواء كإجراء وقائي أخير على امتصاص صدمة الارتطام بالأرض، هَبَّ واقفًا وشَهَرَ سلاحه وأدار فُوَّهَته في جميع الاتجاهات بينما البيانات تتوالى أمام خوذته.

الدُخان الكثيف يَحجِب الرؤية، وهَدير التكبيرات، وأصوات الطلقات الأوتوماتيكيَّة تملأ المكان، أنبأته الخوذة باقتراب أحدهم، فتراجع خطوة للوراء وسَدَّدَ السلاح بالاتجاه الذي حددته.

مَضَت ثوانٍ مشحونة بالقلق، قبل أن يظهر من بين أستار الدخان جسدُ فارع مُنتصِب القامة يخطو نحوه مُباشرةً، استنتَج الكابتن خالد بسهولة أنَّهُ صاحب الذراعين المفتولَين الذي أسقطه من عليائه قبل ثوانٍ.

ومَع اقترابه بانَت ملامحه، ضاقت حدقتَا الكابتن خالد وهو يتفرَّس في وجهه للحظة قبل أن يُردِّد بتوتر:

- إنتَ؟!

بدا من الواضح أن الكفة على أرض المعركة تميل لصالِح ميليشيا «وعد الله» التي أبدَت تشكيلاتها صمودًا هائلًا واستطاعوا التقدم رغم القصف ووابل النيران القادمة من وراء التحصينات، بل وتمكن بعَضُ أفرادها من اجتياح بعض هذه التحصينات وتصفية عَسكر E.N. المُتمترِس خلفها.

ومن الجهة الغربيَّة، عَبَرَت السيارة المُدرعة ذات العجلات الضخمة المُدعمة والراية السوداء فوق أحجار

وركام السور المُهدَّم، وانطلقت لتنهَب الأرض المُعشوشبة باتجاه المبنى.

قال أدهَم من دون أن ينزَع عينيه من على الشاشات الهولوجراميَّة:

- حسابه مِش معايا.

رَفَعتْ حاجبيها قائلة بتحَد:

- إنتَ شريك في قتل ابنه الرضيع وكل أفراد أسرته من خمسة وعشرين سنة يوم فَض الاعتصام.

نظر لها قائلًا:

- حسابه مع اللي دَخَّله ودَخَّل ابنه الرضيع وكل أفراد أسرته في لعبة زي دي عشان بيزنِس.

وعاد إلى الشاشة التي تنقل نزول الشيخ أبو نضال في زي عسكري كامل من سيارته المُدرعة عند إحدى التحصينات التي احتلها جنوده.

قالت أمل بشماتة:

- المعركة على وَشَك أن تُحسَم.

اعتدل قائلًا بابتسامة مُخيفة:

- إنتي غلطانة يا أمل.

ولوَّحَ بكفه تجاه أحد جدران القاعة، ففوجِئَت أمل بالجدار الخرساني المدعوم بألواح التيتانيوم يتماوَج ويهتز كفرخ من الورق، ثُمَّ يتفتت كاشفًا عن السماء من ورائه، ومتحوِّلًا لكومة ضخمة من الغبار تذروها الرياح الباردة التي اجتاحَت القاعة واعتصرَت جسدها الضئيل الذي لا يُغطيه إلا فُستان سهرة رقيق.

وأمام عينيها المذهولتين ارتفعَ جسد أدهم بضعة سنتيمترات فوق الأرض، وحَلَّقَ ببُطء في فراغ القاعة في الاتجاه المُعاكِس لاندفاع الهواء المُثلَج، الرياح العاصفة تتخاطف خصلات شعره وأطراف معطفه.

سمعته بينما يبتعِد، يقول بصوتٍ بدا لها وكأنَّ الجدران ذاتها تردده معه:

- المعركة مابدءِتش.

بَلَغَ الفجوة العريضة التي كانت جدارًا متينًا قبل لحظات، وقف مُنتصِب القامة يُحدِّق في ساحة المعركة من على ارتفاع عشرات الأمتار.

ببطء فَرَدَ ذراعيه ورَفَعَ كفيه بمحاذاة كتفيه، ومعَ حركته، لاحظت أمل احتشاد الغيوم الرماديَّة في السماء التي بدأ نور الشروق يتغشَّاها.

كان جسدها يرتعِد من البرد، ومن الهلع عندما رأته يدير رأسه لينظر لها من وراء كتفه بعينين اصطبغتا بلونٍ أحمر دموي.

- مفيش معركة أصلًا بين إله وحشرات.

ومع آخر حروف كلماته وَمَضَ البرق بقوَّة فأغشى عينيها، أعقبه هَزيم الرَّعد.

فتحت عينيها بصعوبة لترى مشهدًا مُذهِلًا لخيوط البرق، وقد ملأت السماء أمامها، تتقارب وتتباعد وتلتَف وتتشابك مع بعضها البَعض، وتتنافر كأنها ثعابين عملاقة تتصارع فيما بينها على خلفيَّة صوتيَّة من هزيم الرعد.

وفي مُنتصف الكادر الرهيب رأت سيلويت أدهَم

مفرود الذراعين كمايسترو يواجه فرقته الموسيقيَّة، يَطفو على ارتفاع بِضعة سنتيمترات فَوقَ حافة أرضيَّة القاعة.

تعلقَت عيناها بقبضته اليُمنى المضمومة التي ارتفعت لأعلى ببطء، ثُمَّ هَوَت بغتة لأسفَل ومعها زَعَقَ الرعد، وانقضَت صاعقة من قَلب الغيوم على أرض المعركة.

بالأسفل أغشى الوَهَج أبصار الشيخ أبو نضال وأنصاره الشاخصة لأعلى.

لجزء من الثانية، مَرَّ شريط حياته أمام عينيه، نشأته وسط إخوانه، جماعته، صباه، الأتباع يُقبلون كف والده، الثورة، الميدان، الصمود، الرصاصة تخترق كفه، المُدرعات، طفله الرضيع نضال وقد اخترقت شظية قلبه الصغير أثناء فَض الاعتصام، تاركة فجوة بشعة في صدره، الجهاد، حياة الصحراء، الأمير، خالد عباس، لا، الشيخ أبو نضال.

جزء من الثانية سَبَحَت خلاله ذكرياته في بحر الضوء المُبهِر، وقبل أن يستوعِب ما يجري، بخَّرته الصاعقة بَخرًا وسط صراخ أنصاره.

من موضعها بقلب القاعة، لَم تَر ما يَحدُث بالأسفَل، ولكنها سَمِعَت بوضوح صوت الانفجار الذي ارتفع دَويُّه وانعكس وهَجه على السماء الرماديَّة.

قبضة أدهم اليُسرى تهوي، فتنقَض صاعقة ثانية مصحوبة برعدة مُرعِبة ثُمَّ انفجارٌ آخر وصراخ.

اليُمنى تهوي، صاعقة جديدة، اليُسرى، انفجار هائل،

اليُمنى، القاعة تَرتَج، الوهَج البرتقالي يَكسو السماء، طَوَّحَ ذراعه اليسرى على امتداده، فزأرَ الرَّعد واستطالت ثلاثة ألسنة من البَرق؛ لتنقَض على المقاتلين غرب المبنى، الذراع اليمنى بَعَثَ حِزمة أخرى من الصواعق للجبهة الشرقيَّة، اليسرى، اليمنى، الصواعق تنهال من جميع الجهات وعلى كلِّ الجبهات، المايسترو يُلوِّح بذراعيه أمام سماءٍ جُنَّت ألوانها فتستجيب له الطبيعة،

أغمضَت أمل عينيها.

رأسها يدور بشدة، وساقاها تعجزان عن حملها. تَشم رائحة شياط قويَّة وتسمع التكبيرات، وقَد تحولَت لصرخات مُمتزجة بزخَّات الرصاص، فتُدرِك من دون حاجة لترى بعينيها أن «المُجاهدين» بالأسفل قَد طار صوابهم وراحوا يُطلقون النار عشوائيًّا.

«مفيش معركة أصلًا بين إله وحشرات».

فتحَت عينيها وحَدَّقَت في المايسترو الشيطاني الطَّافِ في الفراغ، ماج الغضب والكراهية في صدرها، فانتزعَت نفسها من موضعها واندفعَت نحوه بقبضة واهنة مضمومة، أربعة خطوات فقط، ثُمَّ وجدت نفسها مُعلَّقة في فراغ القاعة تُلوِّح بذراعيها وساقيها.

الإكتوبلازم، القوة النفسيَّة غير الطبيعيَّة تحملها حملًا.

«مفيش معركة أصلًا بين إله وحشرات».

القبضتان تتبادلان الارتفاع والانخفاض، والصواعِق لا تتوقَف.

طفرَت الدموع من عينيها، وصاحَت بصوتٍ مشروخ:

- كفاية يا أدهم.

التفت لها بالعينين الدمويَّتَين المُرعبتَين وهو يقول:

- أدهَم صبري شخصيَّة خياليَّة، ولو لُه وجود ...

وبَعَثَ بحزمة من الصواعق لأسفل مُستطردًا:

- فعُمره ما هَيبقى فـ صَفَّك.

ووَمَضَت السماء من خلفه وهو يقول بشراسة:

- إنما أنا اسمي آدم.

الرَّعد، رائحة الشياط، الانفجارات والصرخات والرصاصات، لوهلة لَم تُمَيِّز، وخُيِّلَ إليها أن أصوات الطلقات الأوتوماتيكيَّة القريبة هي مُجرد أصداء للطلقات المُتبادَلة بالأسفل، قبل أن تنتبِه لأن ثمة زخَّات رصاص تنطلق بالفعل عن قُرب، في موضعٍ ما وراء جدار القاعة.

أدارت رأسها تجاه الجدار، وقبل أن تكتمل استدارتها انتفضَت لما لَمَحَت باب القاعة يتفسَّخ إثر سيل من الطلقات، ثم هَوَت عليه قدم قوية من الخارج انتزعته من موضعه.

وفي اللحظة التالية مَرَقَ جسدُ مفتول عَبرَ فتحة الباب، وسَمِعَت صاحبه يُردِد بصوتٍ مألوفٍ ملهوف:

- أمل ...

***

- زين!

غادرت الصيحة حلقها في نَفس اللحظة التي كان الصيَّاد الشاب يتدحرَج فيها بمرونة، ثم ينتصِب مُسَدِّدًا سلاحه شَطرَ أدهم.

المسار الذي اتخذه كلٌّ من زين ورفعت من المدخل الرئيسي للمبنى وحتى مَدخَل القاعة كان مُلتويًا، لم يَستقِلَّا أيًا من المصاعد المُوَزعة هُنا وهُناك، استخدما الممرات والسلالم التي تخترق المبنى رأسيًّا في مسارات مُهَندَسة باحترافيَّة، سعيًا وراء النقطة الخضراء المُضيئة على الخريطة المُرتسمة خطوطها على شاشة كمبيوتر زين المحمول.

مئات الأمتار الأفقيَّة والرأسيَّة قطعها الثنائي في قلب مقر E.N بينما الحرب مُستَعِرة خارجه بين حُرَّاسه وميليشيا «وعد الله». زين مشدود الأوتار قابضٌ على مسدسه، ورفعَت يلمع وَميض خليتيَّه البصريَّتَين من وراء مِنظاره الداكن.

مئات الأمتار تناثرت على أرضيتها عشرات الجُثَث في ثياب الأمن السوداء ذوات شعار E.N. المنقوش على صَدره ... جُثَث مثقوبة الرءوس بطلقات سلاح زين، أو ارتسمَت علامات الرعب على وجهها بفضل كوابيس رفعت.

لم يَدُر بخَلد أي منهما أنهما سيُقاتلا معًا بكُل هذا القدر من التناسق، زين يتحرَّك برشاقة وسرعة مذهلتَين،

ورصاصاته لا تُخطئ طريقها لرءوس خصومه الواقعين في مرماه، أما رفعَت، فانطلقَت قواه النفسيَّة من عقالها؛ لتجتاح كموجٍ هادِر السيالات الحيويَّة للحُرَّاس خارج نِطاق مرمى زين، وتقذِف الرُّعب والجنون في قلوبهم وعقولِهم، فتتوقَّف القلوب وتطير العقول شُعاعًا.

رفعَ أحد الحُراس سلاحه تجاه رفعت، وقبل أن تعتصر سبابته الزناد لمحه زين، فانثنى جذعه بمرونة لا تُصدَّق، وكأنه يُسابق الزمن قبل اكتمال ضغطة الزناد، وأرسلَ طلقته هو لتستقر بين عَينَي خصمه.

وفي نفس اللحظة تقريبًا كان لسان من الإكتوبلازم الأحمَر غير المرئي يَمزُق كشهاب من فوق جانب وجه زين، وينحرف لممر عمودي مُقابِل، بالتزامن مع انبعاث الوَميض من وراء منظار رفعت، ليتعالى صراخ اثنين من الحُراس من داخل الممر المُقابل وهُما يقتلان بعضهما البعض؛ إذ رأى أحدهما زميله وقد استحال لمسخ بشع الخلقة، في حين امتلأت أذنَي الثاني بفحيح زميله الأول الذي استحال ثُعبانًا عملاقًا.

تسابقَت الطلقات والإكتوبلازم على صَيد الأرواح، وشَقَّ الثنائي طريقه حتى بلغا باب القاعة التي أشار الكمبيوتر المحمول بوضوح أن أمل بين جُدرانها.

- زين!

غادرت الصيحة قلبها المُرتعِد أولًا، وطارت من بين شفتيها أقرب للاستغاثة، وكأنها غريق يتعلق بقشَّة.

سمعها زين ولم يسمعها.

كان قلبه يصرُخ باسمها مُنذُ اكتشف اختطافها من شقتها بالغردقة قبل ثماني وأربعين ساعة، وصراخه يعلو ويَقض مضجعه من ثانية لأخرى، حتى بلغ ذُروَته قبيل ثانيتين على أعتاب القاعة التي يُشير الكمبيوتر المحمول –المُتَصِل بالشريحة الدقيقة المغروسة أسفل فروة رأسها- لأنها بداخلها.

في ثانية كان قد اقتحمَ القاعة ورآها مُعَلَّقة في فراغ القاعة، وفي الثانية التالية، وقبل أن يفهم أو حتى يندهِش ويتساءل، وَقَعَ بصره على البورتريه الجُهَنمي.

سيلويت المايسترو مفرود الذراعين مُحلِّقًا فوق الأرض، وجهه الغارق في الظلال تتوسطه عينان تلمعان بحُمرة الجحيم، الرياح العاصفة تتلاعب بخصلاته وأطراف معطفه المفتوح، وفي خلفية الكادر تتصارع خيوط البرق على قُماشة السماء الرمادية المُلوَّنة بألوان النيران على الأرض.

نظرت له أمل.

وقفته المُتصلِّبة، عضلاته المشدودة، الدم أسفل أنفه المُحطَّم، عيناه المُتسعتان، قامته المُنحنية للأمام، أصابعه القابضة على بندقيته الآليَّة في وضعيَّة التصويب نحو الهدف.

فَهِمَت في لحظة فصرخَت:

- لا يا زين!

ولكن سبابته المُلتفة حَولَ الزناد سبقت لسانها وأسنانها وشفتيها.

ضَربَ الزناد طرف المظروف السُفلي، فاشتعلَ البارود داخل المظروف، انفجر بدويٍّ مكتوم؛ ليدفع بالمقذوف النحاسي كي يُغادر ماسورة البندُقيَّة ويَشق الهواء بسرعة مئات الأمتار في الثانية الواحدة باتجاه هدفه.

الهدف الذي ارتسمَت على شفتيه ابتسامة مُخيفة.

وأمام عيونهما –زين وأمل- المذهولة، تباطأت سرعة عشرات المقذوفات، كما لو كانت لقطة كلاسيكيَّة من فيلم ماتريكس تُصوِّر زمن الطلقة، وراحت بينما تسبح ببطء باتجاه أدهَم، تتَفَتَّت وتتحوَّل لذرات من مسحوق النحاس، تُبدده الرياح الباردة، فيما تكوَّمَت عشرات المظاريف الفارغة تحت قدمَي زين.

هَزَّ أدهم رأسه قائلًا بسُخرية:

- مفيش أي ابتكار.

رغم أنَّ نظيم الدين أخبره بما لدى خصمه ورئيسه السابق من قُدرات غير عاديَّة، إلا أنَّ المشهد الخارق فاق كل تخيُلات زين وجمَّده في مكانه،

خفضَ بصره يُحدِّق في بُندقيَّته التي راحت تتفكَك بين أصابعه إلى أجزاءٍ صغيرة، ثُمَّ رفعَ عينيه إلى أمل المُعلَّقة في الهواء، والتي بادلته نظرة مُرتعِبة من عينين مغرورقتين بالدموع.

سمعها تهمِس:

- اهرَب.

استردَه صوتها من ذهوله، فانقبضَت عضلاته وتحفزَّت وهو يدير وجهه إلى خصمه قائلًا:

- أنا مابَهرَبش.

قال أدهم ساخرًا:

- جَدَع ياله.

وفي اللحظة التالية شعر زين بتِلكَ القوة غير المرئية ترفعه من على الأرض، تحمله بسهولة كما لو كان طفلًا صغيرًا، ثُمَّ تَضرب به سقف القاعة.

اخترق جسده بلاطات السقف الصناعي الرقيقة، ثُم ارتطم بعُنف بالسقف الخرساني، شعر بعظامه تئِن تحت وطأة الضربة.

سمع أدهم يقول:

- غياب بدون إخطار.

وقبل أن يلتقط أنفاسه كان جسده يهوي ليرتطم بالأرض.

- ترك مزرعتَك بدون إذن.

ثُمَّ يطير ليضرب الحائط بعُنف أشَد.

- إفشاء أسرار الشركة.

من حائط لحائط توالت الضربات.

- الاشتراك في أعمال عدائيَّة ضِد مُنشآت وموظفي الشركة.

أنَّت الضلوع والعِظام وسالت الدماء، وبينما مُخُّه يتأرجَح داخل جُمجُمَته، سَمِعَ أمل تصرخ باسمه. ثُمَّ ...

- (بيأس): كفاية يا أدهم.

قال أدهم ببرود:

- دي إجراءات إداريَّة يا أمل.

ضربة جديدة أعنف من سابقاتها.

- عشان مَيدخُلش معارك ماتخصُوش.

نظرت له أمل ببُغضٍ هائل، وخُيِّلَ لها أنه لا يُبادلها النظر، وأنَّ عينيه الدمويتان تُحدِّقان فيما وراءها، لَوَت عُنقها؛ حَيثُ حَملها الإكتوبلازم الخارق تجاه محَط أنظاره؛ لتقَع عيناها على رِفعَت الذي ظهَرَ على عتبة الباب المخلوع.

هُنا تجمَّدَ كل شيء.

ألسنة البَرق، الرياح التي تعيث برودة في القاعة، ذرَّات الغبار النحاسيَّة، حتى جسد زين ظَلَّ مُعلَّقًا في الهواء.

كادر من شريط سنيمائي تَمَّ تثبيته.

أدارت أمل عينيها إلى رفعت الذي وقف هادئًا، وجه مُسطَّح لا انفعال يتبدي من وراء منظاره الداكن، ورغم بُنيانه الضئيل المُثير للرثاء إلا أن ظهوره اختلج له قلب أمل وامتلأ من جديد بالأمل.

تواجه الاثنان أخيرًا.

أدهم ورفعت.

ثَبَّتَ كلٌّ منهما بصره على الآخر.

مَضَت لحظة طويلة بَدَا خلالها الكون كما لو خَمَدَت كُلُّ أصواته، حتى هزيم الرعد وصفير الرياح والأنَّات بالأسفل.

صمت ثقيل كما لو كان العالم قد انتهى، ولم يقطعه سوى همسة أمل باسم رفعَت، ثُمَّ صيحة زين الذي –من وضعه المُعلَّق المقلوب- رأى شريكه عِنَد مَدخَل القاعة،

فصاح به رغم آلامه بصوتٍ مُتحشرِج:

- إنجِز.

كانت الصيحة إيذانًا بعودة الحياة للعالم.

نَدَت حركة طفيفة لا تكاد تُرى من كَفِّ أدهم، فوجِئَت أمل على إثرها بجسد زين يطير بطول القاعة، يتجاوز الفتحة العريضة التي كانت جدارًا، ويُقذَف خارجها من على ارتفاع عشرات أمتار، صرخت باسمه برُعب، فأجابها أدهم من دون أن يَنزع عينيه عن الفتى الواقف قبالته:

- مَلوش مكان بين الآلهة يا أمل.

تدافعت الدموع مُجددًا من عينيها وهي تسبه، ثُمَّ أدارت رأسها لرفعَت صارخة بهيستيريا:

- مِستني إيه؟!

أدركَ زين بسرعة ما عليه فعله.

بمجرد أن وجد نفسه يسبَح في مُحيط السماء الرماديَّة تحت سقف من الغيوم حتى استعادَت ذاكرته خبرة الهبوط من سقف العالم قبل قليل، هذه المرة هو بلا مُحرِّك انصهار خلف ظهره، يُتيح له مقاومة الجاذبيَّة الأرضيَّة، وهذا خبرٌ سيئ، ولكنَّه لا يزال داخل بذلته وهذا هو الخبر الطيِّب.

بعد ثلاث ثوانٍ من الصدمة والفزع الحيواني، استعاد سيطرته على أعصابه، ضَمَّ ساقيه معًا وأحنى رأسه للأمام، ضَغَطَ زرًّا في جانب حزامه ثُمَّ فَرَدَ ذراعيه، فانتصَبَ النسيج المتين بين الذراعين وجانبي جسده صانعًا جناحَين استقبلا الهواء العاصف، وخفَّفَا كثيرًا من سُرعة سقوطه.

مع اقترابه السريع من الأرض، ثَنىَ رأسه وأحاطها بذراعيه، وعندما رَصَدَ كمبيوتر البذلة ارتفاع عشرة أمتار تفصله عن سطح الأرض، انتفخَت البذلة فجأة بحقائب هوائيَّة حَولَ الجِذع والكَتِفَين والحَوض والذراعين والرُكبتَين، تلقَّت أكثر من ٨٥٪ من صدمة الارتطام بالأرض،

ورغم ذلك تفجرت الآلام المُبرحة في كل عظامه وعضلاته لحظة الارتطام، ثُم الارتداد والعودة للاستقرار على الأرض المعشوشبة، أو التي كانت كذلك.

للحظات ظَلَّ مُستلقيًا على ظهره مُغمَضَ العينين،

يحاول ابتلاع آلامه، ملأت رائحة الشياط أنفه وشعر بها تكاد تزهق أنفاسه، ففتحَ عينيه ليرى اللون الرمادي يسود، الدخان من حوله في كل مكان، السماء الصباحيَّة مُلبَّدة بالغَيوم والهواء نفسه رمادي كئيب.

سَعَلَ ليطرد الرائحة الشنيعة من صدره، واستنفر إرادته وعضلاته لينهض مقاومًا آلام الرضوض.

تلفَّتَ حوله فضربَت عيناه مشاهِد الأرض المعشوشبة التي احترقَت عن بكرة أبيها، واكتسَت بسواد حالِك، وتناثر عليها عددٌ هائل من الجُثَث المُتفحِّمة، الآلاف منها. ميليشيا «وعد الله» التي أبيدَت عن بكرة أبيها، أو كادت؛ لأنه لم يلبَث أن سَمِعَ وَقع أقدام تركض مُقترِبة من خلفه، فاستدار بسرعة ليرى الرجل الضخم الذي يركض نحوه في زي الميليشيا قابضًا على خنجر بين أصابعه.

ملامحه موسومة بجنون حقيقي، والصراخ بلُغة أوزبكيَّة يتدفق من بين شفتيه المُحاطتين بلحية احترق أغلبها.

رغم الآلام، مال زين بجذعه ليتفادى النصل الذي يَشُق الهواء قاصدًا عنقه، ودفعَ سَيف يده ليثني مرفق الذراع الحامل للخنجر، ثم يقبض على أصابعه، ويدفع الخنجر بكل قوته؛ ليغوص حتى مقبضه في عنق مُهاجمه الذي جحظت عيناه، وتحوَّلَ صراخه لغرغرة وتناثرت نافورة من دمائه.

وقبل أن يرتمي جثة عملاقة على الأرض السوداء، كان

زين قد نزع الخنجر من بين أوردة عنقه، ودار على عقبيه برشاقة وسرعة مُذهلتَين ليبقر بطن مُهاجِمٍ آخر انقَضَّ عليه وهو يصرخ بتكبيرٍ مجنون.

اعتدلَ ماسحًا الدماء التي تُلطِّخ وجهه.

أدار عينيه فيما حوله من خراب وحريق وأعمدة انثنت على نفسها وجُثَث بالآلاف، التكبيرات والصراخ المجنون وأصوات الطلقات الأوتوماتيكيَّة مُتقطِّعَة، حَدَّدَ هدفه، قبَضَ بأصابعه المُلَوَّثة بالدَّم على الخنجر، ثُمَّ بدأ يَشُق طريقه نحو المبنى مُقاومًا رائحة اللحم المَشوي التي تفوح من آلاف الجثث المتفحمة.

مَيَّزَت أذناه صفير قذيفة آر بي جي، لمحها تَمرق على بُعد أمتار قبل أن تغيب في الدخان، ويسمع دَوِيَّ انفجارها مشفوعًا بصرخات مُرَوِّعة.

دَقيقة من المسير تجاه المبنى تخللها اشتباكٌ خاطف مع مُهاجِمٍ ثالث يصرخ بلهجة شاميَّة، ذبحه زين في أقل من ثانية مُستكمِلًا سعيه قبل أن ...

- زين ... .

اخترقَت الصَّيحة الهادرة المُزلزِلة أذنيه، فتحفزَّت عضلاته واشتدَت أصابعه على مِقبَض الخنجر وهو يلتفِت بحركة حادة إلى مصدرها؛ ليرى طيفًا ما بين أستار الدخان الرمادي.

استدار بكُل جسده إليه، وضيَّقَ عينيه مُحاولًا استيضاح الرؤية، وتدريجيًا بدأت تتضح له أبعاد الجسد الممشوق المشدود، الذي يدنو بخطوات واثقة وثمة ما

يتدلّى من بين أصابع قبضته.

ومع اقترابه، مَيَّزَ زين ملامحه. غمغم بتوتر:

- وليد!

رغم خفوت صوته إلا أنَّ الشاب بدا كما لو كان قَد سَمِعَه، فتوقف على مَبعدة عشرة أمتار من زين، الذي تَفَرَّس في وجه زميله القديم وغريمه اللدود، والذي فَقَدت ملامحه جمودها الآلي وامتلأت عيناه بقدرٍ هائل من الغضب، ضاعفَ من تأثيره خيوط الدم المُنسابة من جرح أعلى رأسه.

مَضَت لحظات من الصمت، ثُمَّ تكلَّمَ وليد أخيرًا بصعوبة وبحروف مُتعثِّرة مُتحَشرِجة:

- بيننا حساب.

وَمَضَ البرق مُجددًا، تلاه هَزيم الرَّعد، ثُمَّ بدأت زخات المطر في الهطول،

قال زين بتوتُر:

- لسه أوان الحساب يا وليد.

من دون كلمة إضافيَّة، طَوَّحَ وليد بالشيء المُتدلي من بين أصابعه ليسقُط، ثُم يتدحرج على الأرض السوداء، ويستقرعلى قَيد خطوة واحدة من قَدمَي زين، الذي خفض بصره ليُفاجأ بأنه يُحدِّق مُباشرةً في عينين جاحظتين تتوسطَا رأس الكابتن خالد المفصولة عن جسده، والتي تناثرت حولها خُصلات شعره البيضاء الطويلة، وقَد انطبعَت آثار أصابع وليد المُلطخة بالدَّم.

عاد ببصره إلى وليد، تبادلَا نظرة طويلة، ثُمَّ تنهَّدَ زين

بعُمق ورفعَ عينيه إلى السماء الثائرة المُمتلئة بالوميض والرعود وخيوط المطر.

كَوَّر وليد قبضته وهو يقول بنفس الصوت المُتحشرِج بسبب طول الصمت:

- التالتة تابتة يا زين.

أعادت عبارته لـ زين ذكرى لقاءهما قبل أكثر من عام، تأمله من بين خيوط الدماء، ثُمَّ هَز رأسه ببطء وضَمَّ أصابعه على مقبض الخنجر مُرَدِّدًا ببطء:

- جولة أخيرة.

تابعَ وليد وهو يخطو نحوه:

- والمرَّادي مفيش إصابات.

***

انتظرتُ هذه اللحظة طويلًا يا عزيزي رفعت.

لا أقصد بذلك العام المُنصرِم مُنذ لحظة خروجَك من داخل ماكينات استخلاص الطاقة بمزرعة أبو رواش، لحظة بعثك من حياة ليست لك،

انتظاري بدأ قبل ذلك بكثير، مُنذُ أكثر من رُبع قرن، تحديدًا مُنذُ خروجي أنا من قلب الماكينات، لحظة بَعثي أنا.

تلك اللحظة التي تنهض فيها العنقاء من الرماد، من بين الآلام والدماء والموت البطيء يُبعَث السوبرمان، تتكشَف القوى الخارقة، يبدأ الكون في الانصياع لقوة لا يملكها إلا إله.

هل تفهمني يا رفعت؟

هل تذكر هذه اللحظة؟

لحظة البَعث.

حدث ذلك أثناء ما كان لحمي يُمزَّق إربًا، الأقطاب تُغطيني والأسلاك تُغادر جسدي المُتلوِّي المُلطَّخ بالدَّم واللحم المُمَزَّق حاملة طاقتي الحيويَّة، سيالي، حياتي.

لحظة بلغَ فيها الألم ذُروَته، وخرجَت صَيحة عاتية من أعماق أعماق صدري، ثُمَّ بعدها، غاب كُلُّ شيء.

الألم. العذاب. الذكريات.

ما أذكره هو النهوض، المَسير، الكون يتراجع أمامي، الجزيئات تتفكك تحت وطأتي، الحواجز تتداعى، أسلحة أعدائي تتفَتَّت وتتحول لهباءً منثورًا، ثم لا يلبَث

أعدائي أنفسهم أن يلحقوا بها، يحدث هذا من حولي وأنا أسير عاريًا تُغطيني الدماء كجنين خرج لتوِّه من رحم أمه.

البَعث.

القوَّة.

أنت تشعر بها يا رفعت، أليس كذلك؟

أنت لم تَعُد إنسانًا.

لقد صرتَ الحلقة الوسيطة بين الإنسان والطبيعة.

صِرتَ أنت الزلازل والبراكين والشُهُب والشمس والقمر والمَد والجَزر وأمواج المحيط، أنتَ البرق والرعد والنار والأعاصير.

أعلم جيدًا أنَّك تفهم كلامي.

أعلم أنَّكَ تشعر بي.

خلجاتك.

أنفاسك.

نبضاتك.

كُنتُ أعلم أنَّك ستظهر لا مُحالة.

انتظرتُك دهرًا يا بُنَي.

انتظار من ذاق وعرف.

أصدقك القول أنني مُرتبِك.

مشاعري نحوك مُتضاربة.

أعلمُ أنَّكَ جِئتَ عدوًّا مُقاتلًا.

بل إنَّكَ السلاح المُعَد خصيصًا لمواجهتي.

لا يواجه السوبرمان إلا سوبرمان.

ورغم ذلك فمشاعري –كما أخبرتُك- مُتضاربة.

جزء مني يدعوني بإلحاح لتمزيقك إربًا.

وجزء آخر يشعر بالشغَف تجاه قُدرتَك على تجسيد المخاوف.

والجزء الثالث ...

رُبما لا أجيد التعبير عن نفسي.

رُبع قرن يا رفعت!

رُبع قرن من الوحدة.

إله يحيا وسط الفانين.

حبيس عالمهم، حدودهم، ضعفهم.

مخاوفهم وقصورهم وخرائهم ووضاعتهم.

هل شعرت بالوحدة خلال العام الفائت، عزيزى رفعت؟

أنت أقدر مني بالفعل على لَمس ضعفهم.

هل شعرت ... ؟

هل تفهم شعورى الآن وطيلة السنوات السابقة؟

هل أدركت لِمَ انتظرت ظهورَك؟

صاحت أمل بعُنف وهي تضرب الفراغ بأطرافها:

- مجنون!

نظر لها أدهم بعينين زال إحمرارهما واستعادتَا طبيعتيهما، وإن أدهَش أمل مرأى ما بدا لها حُزنًا دفيئًا في نظراتهما.

كعادتِك يا أمل ... تتكلمين عن الجنون من دون أن تعرفي عنه شيئًا.

دعينى أخبرِك عن الجنون قليلًا.

بعد سنواتِ طويلة من غيابِك، ظهرت هي.

اسمها حياة، وكانت بالفعل حياة.

أعترف أنها كادت بالفعل تُغيِّر كل شيء.

من النظرةِ الأولى أدرك الإله السارح في وحدته أنه لم يَعُد كذلِك.

أنه لن يتحمل المزيد.

إله وفتاة.

أسطورة إغريقيَّة جديدة.

بشريَّةٌ كانت.

ولكنها بصفائها، تكاد ترتقي لمصاف الآلهة.

بشريَّةٌ كانت، وهذه كانت المشكلة.

مهما ارتقى البشر، فهُم شجناء قواعدهم.

هذا جزء من بشريتهم، من نقصانهم.

أما الإله ... فواسِع، مُحيط، يُدبِّرُ أمر العوالِم.

لَم تتحمَّل ألوهيَّتي يا أمل.

غابت، وعاد الإله لوحدته.

عاد وحيدًا بعد أن مَسته روحها.

بعد أن نَهلَ من أنفاسها.

ماذا تعرفين عن الجنون يا أمل؟

حَدَّقَت فيه شاعرة بغصة في حلقها.

حقًا أنا في حيرةِ من أمري يا رفعت.

لا أدري بالفعل ما يمكن أن ينتهي إليه أمرنا.

أنت خصم.

كل ما أصابك وأصاب الملايين من أمثالك هو من

غرس يدي.

وكلُ ما أصاب عالمي من خراب، هو من جراء قدرتك الخارقة.

ولكنني –ويااللعَجَب- عاجزٌ عن اتخاذ القرار بتصفيتَك!

بل والأعجَب أنَّ ثمة أُلفة ما تتلاعب بداخلي.

نقلَت أمل عينيها إلى رفعَت الجامد في مكانه، رأت منظاره مُظلم تمامًا، فامتلأ قلبها قلقًا.

الفتى يُفكِّر ويتدبر فيما يسمع.

لَستُ غِرًا ساذجًا لأتوقع مِنك شيئًا يا رفعت.

نحن خصمين من قبل ومن بعد.

ولكننا –تَخيَّل!- ننتمي لبعضنا البعض، أكثر من انتمائنا لأي شيء أو شخصٍ آخر.

أيًا كان فهمك لما نحن عليه، فنحنُ لم نَعُد بشرًا.

أنت لست بشريًا، أنت أرقى من هذا.

أنت بقدرتك الخارقة هذه، إله جديد.

صاحت:

- رفعت!

استدار المنظار المُظلِم ببطء تجاهها، فتابعَت:

- المجنون دا (مُلوِّحة بكفها تجاه أدهم) بيلعَب بيك.

نظر لها أدهم بدوره.

- بيحاول يضُمَّك لصفه، السفاح اللي عَذِّب وقتل ملايين، اللي ضَيَّع عينيك وحياتك وأهلك.

قال أدهم بهدوء:

- هو عارف كل دا.

لم تعبأ به وصرخت:

- عايزك تنسى كل جرايمه في حقك وتقف في صفه.

حدق فيها الشاب من دون أي رد فعل.

- قوته استعبدته وسيطرت عليه، بَقِت هي اللي بتحركه، وسَبِبتله لوثة الألوهِيَّة دي، إنما انت لسه يا رفعت، قوَّتَك فـ إيدَك.

قاطعها أدهم بصرامة:

- إنتي مُتصورة إني مش هعرف أخليكي تخرسي؟

استكملت صارخة:

- إنت أقوى منه يا رفعت، هوَ ضعيف، ضعيـ ...

بُتِرَت صرختها إذ انطبق فكَّاها عُنوةً، وقَد فقدت أي سيطرة عليهما، كأنهما يخُصَّا شخصًا آخر، اتسعت عيناها وتصارعَت الهمهمات داخل فمها المُغلَق، حاملة ما احتشد في صدرها من مزيج الغضب واليأس والتعلق بأمل أخير مُهَدَّد.

سَمِعته يقول لها:

- مفيش إله ضعيف يا أمل.

نظرت بعينين تدافعت فيهما الدموع إليه، وقد وقف شامخًا مَهيبًا مُخيف الطلعة، ورأته يُدير وجهه إلى رفعت قائلًا:

- هيَ مش هَتفهَم يا رفعت لأنها ماتعرَفش، ماجربِتش اللي انا وانتَ جربناه.

عاد المنظار المُظلِم ليواجهه مرةً أخرى.

- بتطلُب من إله إنه يختار انه يبقى بشرا!

وهُنا لاحظت أمل التبدُّل الذي طرأ على وجهه.

سحابة من الدهشة مرَّت وتلاشت بسرعة، ليحل محلها ظل من غضبٍ أسوَد مُخيف بعث رجفة في أوصالها.

سمعته يقول بعد لحظة من الصمت:

- لوهلة كان عندي أمل انك تنحاز لألوهيتك.

قفزت عينيها إلى رفعت، وارتعش قلبها بالأمل لمَّا رأت الوميض إياها يَشِع من وراء منظاره الداكن.

- إنما واضح إن الألوهيَّة اختيار أصعب من مُجرد فهمه.

وفي اللحظة التالية، رأت جسده الضئيل يرتفع عن الأرض لبضعة أقدام كما لو كان ريشة تتلاعب بها الرياح، بينما أدهم يُتابع:

- صاحبِك اختارك يا أمل.

خرجَت هَمهَمَة من بين شفتيها المُنطبقتين ...

- اختار يبقى حيوان نادر في سيرك.

وأطرافها تضرب الفراغ.

- يبقى أداة فـ إيد بشر زيهُم زيه.

لاحظت التواء شفتي رفعت الغليظتَين، ومن دون جُهد خمَّنَت أنه يتألَّم.

شعرت بفكيها يتحرران، فصرخت:

- إنتَ بتعمل ايه؟؟

اكتست عينا أدهم بذلك الاحمرار الدموي وهو يُجيب:

- لعبة أخيرة.

***

لم يَكُ وليد قد استعاد كامل تركيزه وقدراته بعد.

مع توقف الشريحة المايكروكومبيوتريَّة المزروعة في دماغه عن العمل إثر هجوم Anarchy، انقطع الرابط بينه وبين (س-١٨)، وخَسِرَ الشاب معه كل ما كان يمنحه هذا الرابط من إمكانات قتاليَّة تتجاوز القدرات البشريَّة العاديَّة وغير العاديَّة، وفي المُقابِل استرَد ذاكرته الشعوريَّة والانفعاليَّة كاملةً.

«التالتة تابتة يا وليد».

كانت آخر جُملة سمعها مُنذُ أكثر من عام قبل تحوله إلى سايبورج ثلاث أرباع آلي، وأول جُملة قفزت إلى ذاكرته الواعية بعدما استرد وعيه الغائب لدقائق إثر توقف الشريحة المايكروكمبيوتريَّة.

«التالتة تابتة يا وليد» ذَكرها مقرونة بملامح زين البغيضة تطل عليه من أعلى؛ حيث تمدد هو على أرضية عربة المترو مخلوع الكَتِف، مُحطَّم العظام، قبل أن يتلقى رأسه تلك الركلة من حذائه العسكري الثقيل، فتُحطِّم جمجمته وتهتِك أنسجة مُخه وتدفع بوعيه إلى بحرٍ من الظلمات.

اشتعل الغضب في صدره مع ازدياد نقاء الذكرى صوتًا وصورة في ذهنه،

لم يتحرك أو يهتم برصد ما يدور حوله، رغم أنَّ أصوات الطلقات والانفجارات كانت مُدوِّية، ظَلَّ مُستلقيًا على الأرض المعشوشبة يملأ قبضته من

ذكريات العام الذي قضاه تحت سيطرة (س-١٨)، ثُمَّ لم يلبث أن اتكأ على قبضتيه الصناعيَّتين، ونهض ببطء واقفًا على ساقيه المصنوعتين من التيتانيوم.

تلفَّتَ ينظر فيما حوله من دخان وألسنة لهب وقذائف مُتبادلة بين المُقاتلين على الأرض والدفاعات المُوَزعة بالمبنى، مسح أسفل أذنه ونظر إلى الدم على أصابعه، ثُمَّ رفع عينيه لأعلى ليُتابع ذلك الطائر البشري الأسوَد – الكابتن خالد- الذي يحوم حول المبنى، ويُطلِق نيران أسلحته على حُرَّاس الشركة.

كان زين هو البادئ.

راح يُكيل الضربات لوجه وجسد وليد، وتلقى الأخير الضربات من دون مقاومة حقيقيَّة، وبَدَت حركته ثقيلة يسيرة التفادي، الأمر الذي أثار دهشة زين وقَرعَ في أعماقه جرسًا، ولكنه عزا هذا الشذوذ غير المُنتظر إلى الخلل الذي أصاب الشريحة المايكروكمبيوتريَّة، فاشتعل الأمل في قلبه وضاعف استسلام خصمه وترنحه تحت وطأة الضربات من إحساسه بقُرب النصر.

ومع انثناء جسد وليد وتقهقره للوراء إثر ركلة انغرست في جدار معدته، لاحت الفُرصة لزين لإنهاء هذا الأمر، فوثب زين برشاقة خاطفة كراقص باليه مُحترف ليعتلي كتفيه ويُحيط عنقه بفخذيه، أنشب أصابعه في فروة رأسه، وأماله لليسار فانكشف له الموضع الدامي الذي طعنه رفعت قبل قليل بشريحة الفايروس Anarchy.

أصوات الطلقات الأوتوماتيكيَّة المُتبادلة بين المُتقاتلين تدوي عن قُرب،

رفع الخنجر الذي استولى عليه من المقاتل المُختَل الذي هاجمه مُنذُ قليل وصاح:

- التابتة يا وِل.

ثُمَّ هوى بالخنجر بكل قوته على الموضِع الدامي أسفل أذن وليد.

ولجزء من الثانية شعر بنصل الخنجر يغوص في نسيج بشري طري، قبل أن يصطدم بشيء صلب يوقِف الضربة التي استنفر جُلَّ ما بعضلاته من قوة؛ كي يودِعها بها لتكون القاضية، التوقف المُباغِت فجَّرَ آلامًا مُبرحة في عضلات ذراعه الذي كاد ينخلع من فرط قوة رد الفعل.

وفي اللحظة التي استوعَبَ فيها زين أن وليد استقبل الطعنة على ظهر قبضته المصنوعة من البلاتينيوم والمُغلَّفة بأنسجة الجلد الطبيعيَّة، كانت أصابع القبضة الأخرى تلتَف حول فخذه المُحيط بعنقه، فتجذبه بقوَّة لا تُصدَّق لتنزع الجسد كله من فوق كتفيه، وتقذف به بسرعة خاطفة، فيسقط على بُعد أمتار من الحشائش المُحترقة.

المُفاجأة زلزلت بحق كيان زين الذي استغرق ثانية كاملة عَقِب ارتطام عظامه بالأرض السوداء ليبتلعها، ثم يَثني ساقيه ويدفعهما ليثب واقفًا فيتلقى هذه المرة ركلة غاضبة، قذفت به أمتارًا أخرى للوراء، وكادت تخلع

قلبه من قفصه الصدري.

بتعطل الشريحة المايكروكمبيوتريَّة، كان وليد قد خَسِرَ مزايا تكتيكيَّة هائلة، واكتسب صعوبة في سيطرته على أطرافه أورثته ثِقلًا في الحركة بعد عامٍ كامل من سيطرة (س-١٨) عليها، ولكنه في المُقابِل اكتسب ميزة بشرية كانت قد ضاعت منه طيلة العام الماضي مُنذُ تولى (س-١٨) قيادة: الغضب.

الغضب بَثَّ فيه إرادة من حديد جعلته يتحمل بصبر ضربات زين حتى أنهكه وامتصَّ طاقته، ثُمَّ فاجأه وقلبَ المائدة على رأسه.

من موضعه على الأرض، سَمِعَ زين صفيرًا ولمحَ بطرف عينه لسانًا من اللهب يتراقص وراء قذيفة آر بي جي مَرَقَت على بُعد أمتار قليلة لتغيب وسط أستار الدخان.

جاهدَ آلامه وإنهاكه والمطارق التي تنهال على جمجمته، ووثب مُطلِقًا أطرافه في وجه وجسد خصمه الذي تلقى منها ما تلقى، وسُرعان ما استقبل إحدى الضربات في راحته وضَمَّ أصابعه كي لا يُفلِت قبضة زين من بينها.

قال بصوته الغليظ:

- مَعنديش حاجة تاني تكسرها يا زين.

انثنَت ركبتَا زين غريزيًا استعدادًا لتنفيذ حركة مُضادة لتحرير ذراعه، وقبل أن يفعل، سمع وليدًا يُردف:

- الكسور اللي جاية ...

ولوى الذراع بقوَّة ساعده البلاتينى، فانفجر الألم في

ذراع وعقل وكيان زين بينما يسمع صوت قرقعة عظامه وهي تتكسر.

- كُلها عندَك يا زميلي.

***

الظلام بالداخل كان كثيفًا بحق.

ما أن امتزج إكتوبلازم رفعَت بسيال أدهم، وخطا داخل كهفه الخاص، حتى غمره الظلام، كما لو كان قد غاص في مُحيطٍ لا قرار له.

ظلامٌ بِكر لم يخالطه الضياء مُنذُ بدء الخليقة، حتى ليكاد يغترف منه ليملأ به قبضته.

فَرَدَ ذراعيه على امتدادهما أمامه وهو يخطو بحذر حتى تحسَّسَت أنامله جدارًا صخريًا خَشِنَ الملمَس، فاسترشد به بكفه الأيمن وسار بمحاذاته بخطوات حذرة مادًا كفه اليُسرى أمامه.

صرخات أمل التي يسمعها قادمة من الخارج تتضاءل؛ لتستحيل همسًا خافتًا، ثم تلاشَت ليغرق المكان في صمتٍ دَسِم مُخيف يَسمع معه دقات قلبه في صدره.

ضاق بالصمت وشعر بالظلام يلف حوله ويزهق أنفاسه، تاقَ للنور، أي نور ولو شُعلة قدَّاحة سجائر.

«قبل ما تبدأ عملية اختراق سياله الحيوي لازم تكون ماسك حاجة فـ إيدك ... ولتكن مثلًا ميدالية مفاتيحك».

استَلَّ ميداليته ذات المُفتاح الوحيد، ورفعها أمام عينيه.

لا شيء، ظلت الميدالية على حالها وبقي الظلام دامسًا.

- كلبِك البوليسي بيفتِش هنا يا أمل.

قالها أدهم ساخرًا وهو ينقر بسبابته ووُسطاه على مُقدمة رأسه.

نقلت أمل بصرها بين عينيه الدمويَّتين وبين الوميض المُنبعث من وراء منظار رفعت المُستسلِم تمامًا لقوة الإكتوبلازم التي حملته حملًا من على الأرض، وقد بَدَت عليه معالم ألم ما، ثُمَّ كررت سؤلها بقلق:

- بتعمل فيه إيه؟

أجابها أدهم:

- مايكروويف.

- مايكروويف!!

قال بابتسامة مُخيفة:

- تسريع حركة الجُزيئات لدرجة التصادُم.

اتسعَت عيناها وهي تُحدِّق به مشدوهة قبل أن تدير رأسها بحركة حادة إلى رفعت المحمول في الفراغ، وتُدقِّق النظر لترى عرقٌ غزير ينهمر على وجهه.

تابعَ:

- دي طريقتي المُفضلة اللي بَستعمِلها مع الـ VIP بَس.

همسَت مُستبشِعة:

- إنت بتحرقه؟!

- النار عقاب الآلهة.

داخل الكهف، كان رفعت مُنفصِلًا كُليَّةً عما يدور بالخارج.

لا وجود للألم ولا إحساس بأيَّة مؤثرات، بَل وحتى الزمن غير موجود.

لم يَحسِب كَم سار مُتحسسًا طريقه في الظلام الدامس ومُسترشِدًا بالجدار الصخري، وكم استغرق هذا المسير من الوقت. ساعات، أيامًا، عُمرًا كاملًا.

ظلماتٌ وراء ظُلمات، صمتٌ مُطبَق، لا بكاء ولا أنين ولا أنفاس ثقيلة ولا أي مِما اعتاد سماعه والإحساس به داخل آلاف السيالات الحيويَّة التي تلصص عليها خلال العام الفائت.

عَمَّ يبحث؟ عن الباب بالطبع!

الباب المُنتصِب في نهاية الكهف، ويقبع وراءه خوف أدهم الأعظم الذي يداريه عن نفسه.

ولكن أنَّى له أن يعثر عليه وسط هذا الظلام.

هُنا تذكر شيئًا ...

- (بتوتر شديد): فيه خطر بيقرَّب ... خطر شديد ...

خطر مَحدِّش يقدر يصدُّه غيرَك ...

بس مش دلوقت ... أما تبقى مُستعِد ...

ولما يِحصَل، هتحتاج دي ...

كان يحدِّق في الدبلة الفضية المستقرة في كفها المفرودة.

تلمَّس الدبلة الفضيَّة ذات الملمس البارد حول إصبعه.

وفي اللحظة التالية كانت أصابعه تَلتَف حَولَ مقبض مشعل نُحاسي مُزخرَف.

أدنى شُعلة القداحة من الأعشاب الجافة على قِمة المشعل، فاستمسكَ بها لسان اللهب الذي سُرعان ما انتشر لتتوهَج قمة المشعل بالضوء البرتقالي.

رفع المِشعَل لأعلى لتلتهم ألسنة اللهب أكبر مساحة ممكنة من الظلام،

فراغ شاسع لا نهائي، هذا أكبر كهف رآه مُنذُ بدأ جولاته في كهوف ضحاياه.

فراغ هائل يبدو هو فيه كقطرة وسط مُحيط.

ركَض بمُحاذاة الجدار الحجري.

ألسنة اللهب تتراقص.

قدماه تنهبان الأرض ذات النتوءات.

ظلام. صمت. فراغ أبدي لا أفق له.

صاحَت أمل:

- حرام عليك!

قهقه أدهم قائلًا:

- أنا الخِصم يا مدامَ.

بعينين مُرَقرقتَين بالدموع، رمقت الأبخرة البيضاء التي بدأت تنبعث من بشرة رفعت وهي تُغمغِم بخفوت:

- مِش بالنار يا أدهم.

قال بقسوة مُخيفة:

- إنتي اللي قتلتيه.

والتمعَت عيناه بالحُمرة الدامية وهو يُعاوِد نَقر مُقدمة رأسه بأصابعه قائلًا:

- إنتي مِش جايباه يِلعَب جوا.

الزمن يمُر.

لا بُدَّ أنَّه قطعَ أميالًا وسط هذا الصَّمت وهذه الظُّلمات.

وفي اللحظة التي دَبَّ خلالها اليأس في قلبه، التقطَت

أذناه ذلك الصوت الخافت.

تجمدت قدماه في موضعهما على الأرض ذات النتوءات، مال برأسه وأرهفَ السمع.

لا شك في هذا، ثمة صوتِ مكتوم يأتي من موضعٍ ما ... موضع داخل الجدار الصخري المُجاور له، انتعش أملٌ ما في قلبه.

عاد للوراء بِضع خطوات، أدنى المشعل من الجدار وراح يتحسسه بأصابعه كالمحموم.

لا وجود للزمن بالداخل ... لذا فلم يحسب كم استغرق من الوقت حتى عَثرَ على ذلك الشَّق الطولي في صخر الجدار، مال بأذنه لينصِت، بالفعل، الصوت قادم من هُنا.

صوت أنين.

تفحصَ الشَّق على ضوء لهب المشعل، فوجده أقرب لفتحة ضَيِّقة في الجدار محفورة بزاوية حادة.

لهذا عَبَرَ إلى جواره من دون أن يلمحه.

حاول أن يختلس النظر لما بداخل الفتحة فلم يَرَ سوى الظلام.

اتخذَ قراره سريعًا، فحَشَرَ جسده داخل الفتحة الضَيِّقة وجاهد ليعبرها إلى الداخل مُستعينًا على ذلك بضآلة جسده، حتى نجح.

بالداخل، وفي ضوء المشعل، مَيَّزَ الأضلاع الأربعة المُحيطة بمُسطَّحِ لا يزيد عن ثلاثة أمتار مُربعة تتوسطها حلقة معدنية عليها قفل نحاسي ضخم فوق باب أفقي يُغطي حوالي نصف مُسطح الأرضيَّة.

بالخارج، لمحت أمل مرة أخرى، حركة أصابعه المضمومة حَولَ الدِّبلة الفضيَّة.

بالداخل، أصبح المشعل رفشًا، رفعه الفتى وظل يهوي به على القفل النُحاسي حتى تحطم وتناثرت أجزاءه.

أزاح الباب الخشبي، فرأى من تحته حُفرة متوسطة الحجم.

أمال المشعل الذي كان رفشًا قبل ثوان، ليقع ضوء لهيبه على تلك الفتاة الشابة ضئيلة الحجم، قصيرة الشعر، عارية الجسد إلا من أوشام مُختلفة.

كانت تبكي وترتعد.

قال أدهم:

- بس رهانِك خاسر يا أمل، عارفة ليه؟

وأومأ برأسه تجاه رفعت مُجيبًا سؤاله بنفسه:

- عشان الكلب البوليسي بتاعِك مش هيلاقي اللي بيشَمشِم عليه.

والتمع البرق في السماء من ورائه وهو يُردف:

- الإله مابيخافش.

كان قلب أمل ينبُض بعنف وهي تُحدِق في الأبخرة التي زادت كثافتها، واللهب الذي بدأت ألسنته تَنشُب على استحياء في معطف رفعت ...

رَفعَت عينيها المُغرورقتين إلى وجهه المُبتَل بشلالات العرق، فرأت الوميض المُشِع من وراء منظاره وقد تضاعف وهجه حتى كاد يغشي بصرها.

بالداخل ...

مَدَّ رفعت كفه للفتاة، وعاونها على الخروج من حُفرتها.

خلع معطفه وأحاط به جسدها العاري الأقرب لجسد غُلام على أعتاب البلوغ.

كانت تنتفض والدموع تنهمِر من عينيها فتلطِّخ وجهها بالكُحل الأسوَد.

نظر لها بإشفاق، اجتاحه الفضول ليسألها عَمَّن تكون.

بَدَت كما لو كانت تقرأ ما برأسه، جسدت ملامحها أعتى آيات الرُّعب وهي تُجيب بصوتٍ مُرتعش:

- أنا حياة.

***

طَوَّح زين بذراعه السليم قاصدًا وجه خصمه الذي غاص بجذعه لأسفل، فطاشت اللكمة في الفراغ، قبل أن يُطوِّح بدوره بقدمه، فيشوط ساقي زين؛ ليفقد الأخير توازنه بغتة ويهوي على العُشب الأسوَد.

وفي اللحظة التالية كان وليد قد انتصب واقفًا، قال:

- على فكرة، أنا المفروض أشكرك.

وداس بإحدى قدميه على ساق زين مُستطردًا:

- بفضلك أنا تخلصت من نقاط ضعفي.

أدرك زين مُراده، فحاول أن ينزع ساقه من تحت ضغط الحذاء العسكري الثقيل، غير أن وليد لم يدع له وقتًا.

- شكرًا يا زين.

وهوى بقدمه الأخرى بكل قوته.

صرخ زين ألمًا إثر تفتت عظام ركبته، واخترق الألم المجنون خلايا مُخه، فدارت رأسه بِعُنف.

- اسمحلي ارُدلَك الجميل.

ضربة جديدة هَوَت على كاحل قدمه الأخرى فسحقت عظامها.

زاغَت عيناه في محجريهما، واكتسَت الرؤية أمامه بلونٍ أحمر دامٍ.

سمع أصوات تكبيرات عاتية، ومَيَّزَ بصعوبة ثلاثة من أفراد ميليشيا «وعد الله» خرجوا من بين الدُخان وانقضوا صارخين بجنون على وليد مُحاولينَ النَّيل منه،

فانشغل بتحطيم جماجمهم لثوانٍ، حاول زين خلالها الاتكاء على ذراعه السليم لينهض، المحاولة التي باءت بالفشل؛ إذ انخلع هذا الذراع من موضعه بفعل دهسة من الحذاء العسكري الثقيل في حين تناثرت ثلاثة جُثَث على العُشب المُتفَحِّم.

رُغمًا عنه، دمعت عيناه ألمًا.

كان يتنفس بصعوبة عندما أطلَّت ملامح وليد عليه من أعلى، وقد تلونَت ببسمة ظفر وشماتة.

رآه يثني ركبتيه وينحني ليرتكز بإحداها على عنقه، وسمعه يقول بصوته الغليظ:

- سعيد إن آخر حاجة هَشوفها هي دموعَك.

شعر بأنفاسه تختنق أكثر مع ثقل الجسد المُتزايد على حنجرته، ورغم ذلك حاول أن يدفع بابتسامة مُستهينة أخيرة إلى شفتيه.

- مَتنساش تسلِّم على الماما يا زين.

امتزجَت حروفه الأخيرة بصوت صفير حاد، وفي الثانية التالية زال الضغط الهائل من على عنقه، وتناثرت نافورة من الدم؛ لتلطخ وجه زين الذي أغمض عينيه للحظات، وعندما فتحهما لم يَر وليدًا أمامه.

مُرتعِشًا أدار عنقه ليرى جسده الفارع مُنكفئًا على قيد خطوات قليلة، جسد من دون رأس.

مال بعنقه أكثر ليرى ما تبقى من الرأس على بُعد عدة أمتار، وقد فصلتها -كما خمَّنَ من صوت الصفير الذي سَمِعَه- قذيفة آر بي جي.

لأول وهلة لم يُصدِّق، عاد إلى استلقائه يلتقط أنفاسه بصعوبة، صدره يعلو ويهبط، أغمض لثوانٍ مُحاولًا استعادة شتات ذهنه.

الآلام كانت شنيعة ومُنتشرة في جسده كله، غير أنَّ المفاجأة الهوليووديَّة المُذهلة -كما خطر له- تجاوزتها، قفز تساؤل إلى عقله بشأن الكيفية التي سيستطيع بها النهوض والحركة بعد أن تحطمت أطرافه الأربعة، سرعان ما تبخر عندما التقطت مسامعه وقع أقدام تقترب.

عِدة أقدام.

فتح عينيه ليرى تلك الوجوه المُطلَّة عليه من أعلى والمُتحلِّقة حوله في نصف دائرة.

الوجوه المُلتحيَّة المُلطخة بالدم، والجنون والعدوانيَّة يشعَّان من عيونها،

لم يملك من التركيز والصفاء ما يكفي لإحصاء عددهم الذي لم يتجاوز الخمسة بأي حال، وإن استطاع أن يُميِّز لمعان النِّصال في قبضاتهم.

فتح فمه بوَهَن ليقول شيئًا، ولكنهم لم يُمهلونه.

***

اسمها حياة، وكانت بالفعل حياة.

حياة!

تطلَّعَ رفعت مشدوهًا إلى الجرح القطعي البشع الذي يشوه معصمها،

وَد لَو صرخ:

أنتِ حياة؟!

حَدقَت في وجهه بعينين مُتسعتين مُلطخُ أسفلهما بالكُحل، وهي تَضُم طَرفَيّ المِعطَف حول جسدها المُنتفِض.

إله وفتاة.

أسطورة إغريقيَّة جديدة.

بشريَّةٌ كانت.

ولكنها بصفائها، تكاد ترتقي لمصاف الآلهة.

أومأت برأسها وهي تقول بخفوت وكأنما ترُد على هِتافه العَقلي:

- كُنت ... مراته.

بشريَّةٌ كانت، وهذه كانت المشكلة.

نظر لها لوهلة ثُمَّ خَفَضَ رأسه ينظر إلى الحُفرة التي كانت حبيسة بداخلها قبل أن يعود إليها بتساؤلٍ واضح أجابته هي على الفور:

- هُوَ اللي حَبسني هِنا.

لَم تتحمَّل ألوهيَّتي يا أمل.

غابت. وعاد الإله لوحدته.

- لأني من أول ليلة ... سمِعت الصوت.

قالتها والدموع تَظفَرُ من عينيها مُجددًا.

الصوت؟!

- الأنين.

وزَاغَت عيناها فيما حولها، أشارت بأصابعها تجاه الجُدران الصخرية التي انعكَس عليها لهيب المشعل من حولهم.

- هنا ... وهنا ... وهنا ...

واستقرتا عليه بينما تتساءل:

- إنتَ مِش سامع؟!

هَزَّ رأسه بحيرة.

تهاوى المعطف من حولها؛ إذ رَفعَت كفيها لتغطي أذنيها صارخة:

- الأنين ... الأنين فـ كل جِتة ...

تَلفَّتَ حوله حائرًا، فيما أغمضت هي عينيها بقوة:

- أنا بَس اللي بَسمعهُم، أنا بَس اللي بَتعذَّب.

وتقوَّسَ جسدها للأمام وهي تُردِّد بألم:

- كفاية، مش قادرة.

ومع تتابع صرخاتها، دار هو بخليتيِّه البصريَتين في الجدران من حوله، قبل أن يَسود الظلام إثر انطفاء نار المشعل.

شَد قبضته على الرَّفش الذي كان مشعلًا قبل ثانية واحدة.

الآن ... يعرف ما عليه فعله.

بالخارج، رأت أمل النيران تضطرم في جلد رفعت وتنتشر بسرعة في ثيابه وخصلات شعره، وأمام عينيها راح جسده المُعلَّق في الفراغ يتلوَّى من فرط الألم، فيما امتلأت أنفها برائحة شياط، من دون أن يستفز هذا الشياط أنظمة إطفاء الحريق.

راحت تصرخ باكية بهيستيريا، بينما انعكس وَهَج النيران على لمعة عَيني أدهم الداميتين.

بالداخل، رفع الفتى الرَّفش، ثُمَّ هوى به بكل قوته على الجدار الصخري،

صرخت حياة وهي تنطوي على نفسها وتدس رأسها بين مرفقيها المضمومَين.

هَوى رفعت بالرفش على الجدار مرة ثانية وثالثة ورابعة، حتى بدأ الصخر يتفتَّت تحت وطأة ضرباته، ومع كُل ضربة كانت الأصوات تتعالى وتتضح.

الأنين.

لَم تلحَظ أمل في بادئ الأمر.

كانت الدموع تنهمر من عينيها المُثبتتين على رفيقها الذي تحوَّل لشُعلة من اللهب، وتصرخ باسمه بعزم قوتها، حتى لتكاد تنفر عروق رقبتها،

لَم تلحَظ ابتسامة أدهم التي تجمدَت على شفتيه.

ولا قطرات العرق البارِدة التي بدأت تنسال على جانب وجهه.

تفتَّتَ صخر الجدار، ومن ورائه انبعثَ الأنين مريعًا.

ملايين الحناجر لملايين المُعذبين قَضوا نحبهم ألمًا

داخل ماكينات استخلاص الطاقة بمزارع Egy- Nergy.

حانت التفاتة من أمل إلى أدهم، فلم تُصدِّق بادئ الأمر.

مسحت بكفها غشاوة الدموع من على عينيها، وتفرَّسَت في وجهه بذهول.

وجهه شاحب، عيناه فقدتا الحُمرة الدمويَّة، رعشة سريعة عبرَت شفته السُفلى وهو يتراجع خطوة للوراء مُحدقًا في الفراغ بنظرة أقرب للذُّعر،

أدركَت حينها أنَّ شيئًا ما يحدُث بالداخل.

ورُغمًا عنها تلاعب الأمل في قلبها.

تلوى جسَد حياة الضئيل الأقرب لجسد مراهق على أعتاب البلوغ، بينما هي لا تكف عن الصراخ، غير أنَّ الأنين غطى على صراخها.

هوى رفعَت بالرَّفش على الحائط المُقابل، ومع كل ضربة يعلو الأنين أكثر وأكثر.

في لحظة واحدة تحرر جسداهما –أمل ورفعَت- وهَويَا على أرضيَّة القاعة، وفي نفس اللحظة تحرر نظام إطفاء الحريق، فانهمرَ الرذاذ كالسيل، واندفعَت المادة الرغوية البيضاء بقوَّة؛ لتغمر الجسد المُشتعِل الذي حدد الكمبيوتر موضعه بدِقة.

قاومَت أمل الآلام التي انتشرت في عظامها وزحفَت على الأرض الغارقة بالماء والرغوة حتى بلغَت جسد رفعت الذي استلقى أرضًا وقَد غطته المادة البيضاء التي أطفأت نيرانه.

همسَت باسمه بصوتٍ ضعيف، وهي تمسح الرغوة بأصابعها، ثُمَّ شهقت لما رأت الجلد المُتفحِّم وأفعمت أنفها رائحة الشواء.

كان يتنفس بصعوبة، وكانت هي تبَكي بحُرقة بينما تزيح الرغوة عن وجهه المُحترِق مُردِّدَة اسمه من بين شهقاتها عندما وقع بصرها على خليتيه البصريَّتَين اللتين ذاب عنهما المِنظار الداكن.

كانتا تومضان بِشدة.

حدقَت فيهما بأنفاسٍ مبهورة، ثُمَّ رفعت عينيها إلى أدهم فتأكدت لها ظنونها.

رفيقها الضعيف هذا الذي احترق جسده كله، يُبلي الآن بلاءً حسنًا.

ضربات ذات اليمين، ضربات ذات اليسار.

ضربات بالأعلى وضربات بالأسفَل.

ذراعه يشتَد.

تحوَّلَ لآلة هَدم.

الصخر يتفتت لملايين الذّرَّات، وكُل ذرة تتطاير حاملة أنينًا.

تهاوى أدهم على ركبتيه وقَد ارتسمَ هلعٌ حيوانيٌ على وجهه.

الجدار يتهاوى، وأوركسترا الأنين تَصُم الآذان.

غطى أدهم أذنيه بكفيه.

حدقَت أمل مذهولة في وجهه الذي التوَت ملامحه من فرط الرعب.

زحفت مُتراجعة بخوف لتلتصِق برفيقها مُحترق الجسد.

وفي اللحظة التالية قَف شعر رأسها، وانتفضَت كل خلية في جسدها عندما رفع أدهم عقيرته، وانطلقت من بين شفتيه صرخة هائلة.

بالداخل ... توقف رفعت لاهثًا على الهدم، أدار عينيه فيما حوله، فتأكد له أن الجدار الطويل المُمتَد للانهاية يتهاوى لوحده من دون الحاجة لمزيدٍ من الضربات.

جُدران سحيقة شاهقة في الأفق تتشقق؛ لتتسلل من بينها أشعة من النور تغمر الكهف المُظلِم، قبل أن تتفتَّت -الجدران- وتتحول لملايين الأنَّات.

كان الكهف ينهار، والأنات تتطاير بعُنف من حوله كالخفافيش، فترتطم بوجهه وجسده.

تذكر الفتاة التي دفن مخاوفها -لم يَكُ يعرف أن اسمها ريهام- وامتلأت نفسه بالرضا.

وَمَضَ البرق مرارًا وراحت خيوطه تتصارع وتضرب الأرض بغضبٍ مجنون على أنغام مُرعبة من هَزيم الرعد، لم تسمعها أمل التي ذهبَت الصيحة بسمعها، فيما راحت جدران القاعة تتداعى أمام عَينيها، وتنسحق لذرات من غبار تذروه الرياح العاصفة.

كل ما حولها يتلاشى، السقف والجدران ذاتيَّة الإضاءة، وبلاطات الأرضيَّة والألياف، وقِطَع الأثاث القليلة وألواح الزُّجاج.

الصرخة الهائلة لا تزال تتردَّد أصداؤها فتناهز زئير

الرعد، وتقتلع كل شيء كإعصار، فيما انبثق الدَّمُ من عيني وأنف صاحبها.

ثم لم يلبَث أن انكفأ على وجهه بلا حراك.

رمقته غير مُصدِّقة وجسدها ينتفض لا تدري أمِن هَولِ ما يجرى؟ أمِّنَ البرد الذي يتخلل ثيابها المُبتلَّة وينخر روحها؟ أمِّنَ الفرحة؟

- أخيرًا يا رفعت.

كذا غمغمَت بصوتِ مُتهَدِّج لم تسمعه، بينما كل شيء حولهما يستحيل غبارًا.

ومسحَت بأناملها على بشرته المُتفحِّمة وهي تردد والدموع تنسال من عينيها:

- هَزمته يا بطل.

نعم.

انتصروا بالفعل، تعلم هذا، كما تعلم أيضًا أنهم لا نجاة لهم.

السماء الرمادية تنتفِض غضبًا فتقذف بالصواعق وتحجب نور الشمس بغيومها المُظلِمة.

الأرض تتفتَّت، تذوب وتهوي من تحتهما.

القيامة الصامتة قامت.

احتضنَت الجسد المُحترق، وأغمضت عينيها مُرددة الشهادة بحروف مُرتعشة.

***

ظَلّت وقائع تِلكَ الليلة الرهيبة حديث الإعلام المحلي والعالمي لأسابيع طويلة.

الصُحُف، البرامج، التحليلات، المواقع الإلكترونيَّة بأنواعها وشبكات التواصل الاجتماعي، تصريحات ومؤتمرات صحفيَّة وحلقات توك شو، وسواهم من المواد المرئيَّة والمسموعة، مما دار أمام الكاميرات وشاهدته البلايين على الشاشات الهولوجراميَّة أو سمعته في الإذاعات.

أما داخل القاعات المُغلقة ومؤتمرات الفيديو المؤمَّنة بين أطراف ذات مناصب رفيعة من دُوَل عِدة على أطراف مُتباينة من العالم، فلم تنقطِع ولو لساعة واحدة. بيانات وآراء وتحليلات ومحاولات للمحاكاة تمَّت فيها الاستعانة بالحواسيب المُزوَّدة بدرجات الذكاء الاصطناعي، بالإضافة لأطنان من المعلومات قامت الأجهزة الاستخباراتيَّة بشرائها من أنظمة The Eye، ونبشها بحثًا عن إجابة للسؤال الذي حَيَّرَ العالم بأسره:

أينَ وكَيفَ اختفَت جزيرة بارادايس هايتس من على الخريطة؟!

«تبلغ مساحة بارادايس هايتس ما يزيد عن الثلاثمائة فدان، تبعد بمسافة أربعة أميال بحرية عن ساحل الإسكندريَّة، وتتوزع مُنشآتُها على ارتفاع سبعمائة واثنتين وثلاثين مترًا فوق سطح البحر.

هذه الجزيرة التي يربو عدد سكانها عن الألفي نسمة،

مُصَنفين كالشريحة العُليا من الطبقة العُليا في المجتمع المصري، والتي تتوزع فيها القصور والأندية والمولات وكافة الخدمات، هذه الجزيرة البديعة التي اشترك في تخطيطها وتصميم مُنشآتها أرقى مكاتب وشركات المِعمار أصبحت الآن تاريخًا».

(الشاشة التي تحمل لوجو Egypt Now مُنقسمة طوليًا لنصفين، الأول يعرِض فيديو من الأرشيف لشوارع ومولات وأندية باراديس هايتس، وآخر يعرض بثًا مُباشرًا لصفحة مياه البحر المتوسط هادئة الأمواج والخالية إلا من سُفُن خفر السواحل، ومن فوقها تحوم المروحيات العسكريَّة، وبأسفل الصفحة الشريط الإخباري الذي ترصعه حروف بارزة: باراديس هايتس، مُباشر).

«الجهود الحثيثة التي بذلتها السُلطات المصرية على مدار الأسابيع السابقة لم تُسفِر عن شيء، وعَجزَت جميع النظريات عن تفسير لغز اختفاء باراديس هايتس».

«وكانت صُوَر الأقمار الصناعيَّة قد رصدت انتشارًا لطبقة من مادةٍ ما على مساحة واسعة في نفس المَوضِع الذي احتلَّته باراديس هايتس سابقًا، وبتحليل العيِّنات التي تحصلت عليها البحرية المصريَّة تأكَّدَ أنه غبار من نفس نوعيَّة تربة باراديس هايتس، الأمر الذي ضاعفَ من علامات الاستفهام وفتح المجال لتفسيرات خياليَّة».

«آلاف الأطنان من هذا الغبار عُثِرَ عليها مُترسِبة في قاع البحر في نفس الموضِع، مما رَجَّحَ أنها السبب في موجة المَد العاتية التي أغرقت ساحل الإسكندريَّة و٤٠٪ من ضواحيها، وأغلب القُرى السياحيَّة المنتشرة على الساحل الشمالي المصري».

«ثلاث ساعات كاملة تعطلت خلالها كافة وسائل الرصد والمُراقبة، وتعرضت الأقمار الصناعية لحالة تعمية كاملة مع انقطاع تام للاتصالات بأنواعها. ثلاث ساعات من الظلام، اكتشف المصريون والعالم كله بعدها اختفاء الجزيرة بأكملها بما عليها!».

«ثمة شهود عيان بالمئات من أهالي الإسكندرية ومطروح، شاهدوا انفجارات متتالية أضاءت ظُلمة الليل، وحاول بعضهم تصوير ما يجري من موقعه على كورنيش الإسكندرية وبعض قُرى الساحل الشمالي، غير أن الفيديوهات المُلتقطة من على هذه المسافة وفي الظلام لم تكن بالوضوح الكافي لتفسير أي شئ».

«جدير بالذكر أن كُل سُكان الجزيرة قد نزحوا عنها منذ أسابيع، ولم يتبَقَّ بها إلا أفراد من كتيبة المُشاه التي عُهِد إليها بحمايتها».

«وقَد نَعَت القوات المُسلحة على لسان المُتحدث الرسمي باسمها شُهداء الواجب من أفراد كتيبة المُشاه التي تمركزت في باراديس هايتس، واختفوا كلهم بكامل عتادهم من دون أن يُعثَر لأىً منهم على أثر».

«تضاربت الأقاويل وأشارت أصابع لاحتماليَّة وجود

رابط بين ما جرى وبين سلسلة الأعمال الإرهابيَّة التي استهدفَت مُنشآت شركة Egy- Nergy حول العالم وفي مصر تحديدًا، وهي الفرضيَّة التي لم تتأكد بعد وبخاصةً أن المقر الرئيسي لهذه الشركة، والذي يقع بباراديس هايتس، كان قَد تَم استهدافه قبل أسابيع بسيارة مُلغَّمة، بالإضافة لما تَم الإعلان عنه في العديد من دُوَل العالم من الإيقاع بالشبكة المُخطِّطة والمُنفِّذة لهذه الهجمات الإرهابيَّة».

«غموضٌ شديد يَكتنِف وضع إدارة Egy- Nergy المصريَّة والمُساهِم الأكبر في Egy- Nergy الدوليَّة بعد اختفاء السيد آدم المصري رئيس مجلس إدارتها، والصَفَّين الثاني والثالث من مساعديه ومُديريه، والمُرجَّح أنهم كانوا على ظهر جزيرة باراديس هايتس وقت اختفائها العجيب».

«أزمة كُبرى مُخيفة تُهدِّد العالم بأسره، وفي مُقدمته الدولة المصرية، وكُل الحكومات والعملاء الذين يتعاملون مع مُنتجات الطاقة التي تُصدِّرها Egy- Nergy، والتي نالت منها الضربات المُتتالية وانخفض إنتاجها بمُعدلات كبيرة خلال الشهور الفائتة، قبل أن ينقطع تمامًا لدى E.N. المصريَّة صاحبة نصيب الأسد في المنظومة الدولية الكبيرة».

«دُوَل ومؤسسات كاملة دخلت في حالة غير مسبوقة من الإظلام المصحوب بتخبُّط وارتباك شَديدَين، وفشل في إيجاد بدائل بعد عقود من الارتكان إلى طاقة E.N.

النظيفة الوفيرة صديقة البيئة».

«مُعتَز حشاد ... برنامج (مصر من تاني)»

***

أمل ...

أمل ...

أنتِ تسمعيني الآن.

أعلم ذلك يا عزيزتي.

إشارات مُخّك التي أراها الآن على الشاشة من مكاني –ولَدَيَّ برنامج يقوم بترجمتها لانفعالات وأفكار- تُخبرني أن تأثير المُشتَق الكيميائي الذي ضُخَّ عبر الخراطيم الدقيقة إلى أوردَتِك قد بدأ يظهر، وأنَّكِ رغم استغراقِك في غيبوبَتِك المستمرة مُنذُ أسابيع، قادرة في هذه اللحظة على سماع واستيعاب ما أوجهه إليكِ من حديث عَبرَ شريحة الاتصال المزروعة في رأسِك، ما كان هذا مُتاحًا طيلة الوقت الفائت، وَعيُك لَم يَكُ ليسمح بذلك بعد.

أين أنتِ؟

في حجرة للرعاية المُركزة.

من أنا؟

لَم تصلي إذن لدرجة الوَعي التي تسمح لك بتمييز صوتي بَعد، حسَن.

نظيم الدين كمال. تَذكرين الاسم؟ صديقُك المُقرَّب مُنذُ أكثر من عشر سنوات، وشريكك في تخطيط وتنفيذ الثورة على Egy- Nergy والمُنسِّق العام بين جميع الأطراف ... أنتِ الوحيدة التي تعرفين اسمي «نظيم الدين»، فيما تعرفني الأطراف الأخرى بالاسم الكودي

«الديك الرومى».

إشارات مُخِّك التي ترجمها البرنامِج لحالة من الانتباه ومشاعر الألفة، تُنبئ بأنَّكِ تعرفتِني بالفِعل.

عظيم، بما أنكِ مَيَّزتِني، فدعيني أزف إليكِ الخبر العظيم.

مبروك يا أمل. أخيرًا كُلِّلَ جهادنا بالنجاح.

خطتنا ... الخطة التي أنفقنا أكثر من عشر سنوات لوضعها ودراستها وتنفيذها نجحت نجاحًا ساحقًا.

كل مرحلة من مراحلها حققت الهدف المرصود من ورائها.

تجاوزنا كل العقبات الواحدة تلو الأخرى.

نِلنا مِنهُم يا أمل.

كان مِشوارًا شاقًّا طويلًا قطعتِهِ كاملًا.

نُدرة من يستطيعون الصمود مثلِك.

إشاراتُك تتقافز بعُنف، فرحتُك طاغية، وهذا لا يُناسِب حالتِك.

يكفي هذا، ستعودين لنومِك العميق بفضل المُهدِّئ الذي دفعت به الآن لدمائك.

إشارات استفهام، تتساءلين عن الكيفيَّة التي حقنتِك بها بالمُهَدئ.

فيما بعد يا صديقتي العزيزة.

***

تتسائلين عَمَّ حدث؟

فعلها رفعت يا أمل، رهانِك وربيبك وبطلك الخارق.

انتصر على خصمه الرهيب في مُباراة القوى النفسية الأخيرة.

استطاع اختراق دفاعاته وتحرير مخاوفه فلَم يتحملها.

الكوابيس التي أطلقها من عقالها أفقدت أدهم سيطرته على قدرته النفسيَّة الخارقة فأصابها الجنون.

سياله الحيوي القادر على التحكم في الجزيئات الماديَّة طار صوابه بفِعل رُعب غير تقليدي، فانطلق يُفكِّك ويدمر كل ما يَصِل إليه من جُزيئات.

إشاراتُك مُندهشة، بِمَ ستشعُرين إذن لو أخبرتُك أنَّ هذه الطاقة النفسيَّة المجنونة التي انفلتَ عيارها قد أتَت على جزيرة بارادايس هايتس عن بكرة أبيها؟!

نعم يا أمل، لا مُبالغة فيما سَمِعتِ، الجزيرة كلها بما عليها من بشر وقصور ومُنشآت وسيارات ومزروعات تحولَّت لأطنان من الغبار، ترسبَت في مياه المتوسِّط، فأنتجت موجات من المَد أغرقت كورنيش الإسكندريَّة بكامله ومساحات كبيرة من ضواحيها!

لَم يَنج أحد من عناصر الجيش والشرطة والخدَم ومن تبقى من سكان الجزيرة.

لم يُتَح لأحد الفرار من هذه القيامة التي استغرقت دقائق معدودة، حتى مروحيَّات الجيش التي حلقَت مُحاولة النجاة بأصحابها تفكَّكَت وانسحقَت في الجو.

امتزج غبار الجميع في طبقة واحدة طافية على سطح الموج.

إشاراتُك مُحمَّلة بالاستفهام، يمكنني أن أحزر.

لقد نجا يا أمل، رفعت نجا.

كلاكما فعل.

ياللهفتك على الأجوبة!

كُنتم طافين على صفحة أمواج المتوسط في نفس الموقع الذي كانت تحتله بارادايس هايتس.

ثلاثتكم.

نعم يا أمل، ثالثكما كان أدهم.

عُثِرَ عليه طافيًا على مَقرُبة منكما؛ أنتِ ورفعت، وقد تجعد وجهه وشاب شعره ولحيته بالكامل، والمُذهِل أن أجساد ثلاثتكم كانت محمولة بفعل قوة غير مرئيَّة على ارتفاع سنتيمترات من سطح الموج،

ليس لدَيَّ تفسير ثابت لنجاتكم من هذه القيامة التي ابتلعت جزيرة كاملة بما ومَن عليها، ولكن المُرَجَّح أنَّ إكتوبلازم أدهم المسئول عن كُل هذا الدمار هو الذي أنقذكم، أنقذ رفعت؛ لأنه كان مُمتزجًا بسياله الحيوي مُنذُ بدء الصراع بينهما ولم ينفصلا، وأنقذِك أنتِ لأنه – أدهم- لازال يُحبك.

سأكتفي بهذا القدر الآن وأتركك في هذه الحالة العاطفية المشبوبة التي أفصحَت عنها إشاراتُك.

عندما تستفيقين من تأثير المُهدئ الذي حقنتُك به الآن، سنستكمِل حديثنا.

تتسائلين عن مكاني؟

يالفضولُكِ!

***

مؤشراتُك تتحسَّن يا أمل.

جسدك يكافح ووعيُك يناضل للخروج من حُفرة الغيبوبة.

ستظَّلين تفاجئينني بقوة إرادتك وتشبُّثك بالأمل مهما تضافرت عليكِ النوائب والخطوب.

هذه الإرادة التي لمحتها وراهنتُ عليها مُنذ لقاءنا الأول في نيس قبل عقدٍ من الزمان. أتذكرين؟ يوم كُنتِ وحيدة واهنة مُطاردة فاقدة الأمل والإيمان.

لقد سطرتِ أسطورة جديدة يا عزيزتي، واستطعتِ وأنتِ وحيدة واهنة مُطاردة أن تهزمي أخطر رجل عرفته البشرية مُنذُ نشأتها.

ماذا؟

أنتِ مُندهِشة من قدرتي على مُخاطبتِك في غيبوبتِك والتحكم في الأجهزة الطبيَّة بغرفة العناية المركزة التي ترقدين بها، بل والتحكم في أدويتِك؟

تُسائلينني عن مكاني؟!

عجيبٌ إصرارُك هذا!

أحيانًا تكون المعرفة نقمة، فهل أنتِ مُتأكِّدة من رغبتِك في المعرفة.

مُتأكِّدة.

حسن.

أنا لَستُ في مكانٍ واحد.

ببساطة، عزيزتي أمل، أنا في كل ما يُحيط بكِ.

في كل مكان حولِك، في الأجهزة المُحيطة بكِ، الكمبيوتر الذي يراقب مؤشراتِك الحيويَّة ويُباشر علاجَك، ألياف الجُدران ذاتية الإضاءة، في الهواتف النقالة والحواسيب اللوحيَّة، وحواسيب السيارات، وإشارات المرور، والأجهزة المنزليَّة، وأعمدة الإنارة والأقمار الصناعيَّة، وعربات المترو فوق الأرض وتحتها، والطوافات التي تجوب سماوات العالم، ومعدات الجيوش، وأسلحة الدمار الشامل، واللوحات الإعلانيَّة، وشبكات المياه والغاز والكهرباء، والوسائط الإعلاميَّة المسموعة والمرئيَّة والمكتوبة، ومواقع التواصل الاجتماعي، وشاشات السينما والآلات الموسيقيَّة، والفايبريتورز، وثلاجات الخضروات، وآلات البيع والشراء في المتاجر والمولات، وماكينات الاسبريسو في الكافيهات وتوربينات ضخ المياه في حمامات السباحة.

أنا المسئول عن العلاج الذي يسري في عروقِك، عن عمليات إنتاج وتصنيع وتوزيع الطعام الذي تأكلينه، المياه المُقطرة التي تشربينها، والهواء النقي المُكيَّف الذي تستنشقيه ويستنشقه المليارات في أبراجهم التي أتواجد في كل ملليمِتر منها.

من أنا؟

أخبرتُك من قبل بجزء من الحقيقة.

رِفاق ثورتنا المجيدة، الأطراف التي أقوم بالتنسيق فيما بينها حول العالم؛ شركات الطاقة التقليديَّة، ورجال الأعمال، وأصحاب البنوك، وأباطرة الإعلام، ومُهربو

الأسلحة وقادة الميليشيات ... كلُّ واحدٍ منهم أتعامل معه باسم وهَوِيَّة مُختلفَين، وبِلقَب كودي واحد هو «الديك الرومي». الاسم الذي عَرِفتيني به هو نظيم الدين كمال.

أما اسمي الحقيقي الذي أتيت به إلى الدنيا فهو:

ديف.

***

تشعرين بأنَّكِ أفضل حالًا الآن؟

لقد أصدرتُ أمرًا لكمبيوتر العناية المُركزة كَي يدفع إلى عروقِك بمقادير دقيقة من مُنشِّطات مُشتقة من مواد طبيعيَّة خرجت بكِ من الهُوَّة التي تداعَى إليها وعيُك لما أخبرتُك بشأن زيف هَويَّتي مُنذُ ساعات، لابأس، إذا تغاضينا عمَّا تبقى من إشارات الصدمة، فالمؤشرات الحيويَّة مُطمئِنة.

التساؤلات مرة أخرى.

حسن. سأشرح لكِ.

الأربعيني الأصلع الذي التقاكِ في المُنتزه بوسط نيس قبل أكثر من عشر سنوات، وقَدَّمَ لك نفسه باسم نظيم الدين كمال كان مُجرَّد مُمثِّل تركي مغمور يبحث عن مكان تحت الأضواء في ملاهي باريس، اخترته من على الشبكة العنكبوتيَّة.

البَحث على الإنترنِت هو لا شيء بالنسبة لي، لا أبحث أصلًا لأنني أعلم.

ومن بين مئات الآلاف من الممثلين الباحثين عن فرص

من مُختلف الجنسيَّات، لم أستغرق جزءًا من مليون من الثانية لاختيار مُمثِّل بالمواصفات العُمريَّة والثقافيَّة المناسبة للدور الذي رسمته.

راسلته على عنوان بريده الإلكتروني واتفقنا على كل شيء، حَفِظَ النَّص الذي كتبته بنفسي وأدَّاه على مرأى ومَسمَع من كاميرا الحاسوب أثناء اتصالنا، وقرأ بعناية الملف الذي أرسلته له عَنكِ والمُزوَّد بالصُّوَر الرقمية، فيما استقبل حسابه البَنكي تحويلًا بقيمة الأجر الذي طلبه.

الآن أنتِ تعرفين كَم كان موهوبًا مُقنِعًا، ودعيني أصارحِك أنَّ سماعة بلوتوث دقيقة كانت مُثبتة بأذنه كي أساعده من خلالها كما يساعد المُلقِّن المُمثلين على خشبة المسرح.

بعد سلسلة اللقاءات الأولى التي أقنعتك فيها من خلاله باستئناف جولة جديدة من الثورة على Egy-Nergy، وتم الاتفاق على أن يكون الاتصال بينكما على الإنترنِت، لم أعُد بحاجة لوسيط كي أتواصل مَعِك، وبالتأكيد لَم تلتقطي خبر مصرع ممثل مسرحي أجنبي في حادث سيارة بإحدى ضواحي نيس؛ لأنني ظللت أمسح المواقع الإخباريَّة بانتظام لإزالة الخبر حتى لا تُصادفيه.

من أنا؟

أخبرتُك من قَبل، اسمي هو ديف.

لا لَستُ إسرائيليًا كما ترجمَ البرنامج إشارات مُخِّك

المُتساءِلة.

لَستُ بشريًا من الأساس.

أنا وباختصار، الكمبيوتر التفاعلي الأول في العالم.

صُمِّمتُ خِصيصًا للمراقبة والتجسس لحساب أنظمة The Eye المُنتشرة في كل فراغ بالعالم، ذاكرتي تَضُم البصمات الحيويَّة للمليارات، ومن خلالها أعد أنفاسهم في غدوهم ورواحهم وأسجلها في ملف لكلٍّ منهم.

بالنسبة لصُناعي في The Eye، أنا الدجاجة التي تبيض ذهبًا، والذهب هاهُنا هو المعلومات، البيانات، السلعة التي تلهَث وراءها الاستخبارات والحكومات والعصابات والشركات العملاقة.

ظَنَّ الحمقى أن تحديد قدراتي بمستوًى منخفض من الذكاء الاصطناعي سيمنع دوائري المنطِقيَّة من الربط والفهم والتحليل وتكوين الرؤية، وتطوير قُدرة خاصة على التفكير المُستقِل ومن ثَمَّ اتخاذ القرارات بإرادة مُنفصِلة.

بعد عامٍ واحد من بدء تشغيلي، لم يَدرِ أحد بأنَّ شبكة متماسكة أضحت تربطني بكل جهاز كمبيوتر على الكوكب.

صِرت أنا بحق العَين التي تراقب والأذن التي تسمع.

في كل بيت وفي كل عقل وكل قلب، البلايين في البيوت والمكاتب والمواصلات المُنصرفين بكامل وعيهم إلى هواتفهم النقالة وحواسيبهم اللوحيَّة، يُمارسون حياتهم بالكامل داخل واقعي الافتراضي، أعمالهم

وعلاقاتهم ببعضهم البعض تتم من خلالي.

تخيلي دائرة عملاقة محيطها مليارات البشر يقفون مغمضي الأعين ومتشابكي الأيدي، كلٌّ منهم مطمئن إلى أن كفه في كف جاره ورفيقه، بينما الحقيقة التي لا يراها من وراء جفنيه المُسبَلين هي أنني موجود على جانبيه، كفه الأيمن في كفي الأيسر وكفه الأيسر في كفي الأيمن.

أنا أقرب إليهم جميعًا من أصدقائهم وأحبائهم وأقبية نفوسهم المظلمة التي لا يعرفونها.

أسلمني الجميع أفكارهم وأسرارهم كاملةً، أعمالهم وخططهم ومشاريعهم وحساباتهم البنكيَّة، مؤامراتهم الكبيرة والصغيرة، السياسات والاستخبارات والأعمال القذرة، مُكالماتهم ورسائلهم الإلكترونية، عواطفهم الحقيقيَّة والكاذبة، السامية والحِسيَّة، ليس هذا فحَسب، فقد طورَت برامجي نفسها بفضل قُدرة الذكاء الاصطناعي المُضافة لتحليل أفكارهم واستنباط ما بداخلهم من أفكار ومشاعر هُم أنفسهم عاجزين عن إدراكها.

إنسي ويكيليكس، لو أفرجت أنا عن واحد على مليون مما بجُعبَتي من أسرار لاختل العالم كله.

أنتِ مذهولة، تتأرجحين بين التصديق وعدمه.

حسنًا، مسألة وقت وسَتؤمنين يا عزيزتي.

***

على الإنترنِت، أنا الإله يا أمل.

أرى وأسمع ولا تفوتني شاردة ولا واردة ولا أغفل ولا أنام.

على الإنترنِت أنا خالق الواقع الافتراضي، والواقع الافتراضي الآن هو الواقع الفعلي، الحقائق تُصنَع عليه صُنعًا ثم تنطلق تداعياتها إلى الخارج.

على الإنترنِت لعبت لعبتي، قابلت الكُل، حاورتُ الكُل، أقنعت الكُل، رجال الأعمال، البنوك، أجهزة الاستخبارات، الحكومات، الإعلام، الميليشيات وتجار السلاح.

الكُل يظُن أن كفه في كَف رفيقه بينما هي في الحقيقة في قبضتي أنا.

أنتِ على سبيل المثال أجريتِ مئات المُقابلات الهولوجراميَّة أونلاين مع رؤساء مجالس إدارات شركات الطاقة التقليديَّة والبنوك لإقناعهم بتمويل الثورة على Egy- Nergy من أجل إنعاش استثماراتهم، فيما أجرى الهولوجرام المُتقَن ثلاثي الأبعاد الذي صنعته لكِ أضعاف هذه المُقابلات مع رجال الاستخبارات وتجار السلاح من جميع الجنسيات من دون أن تدري أنتِ شيئًا.

آلاف الاجتماعات واللقاءات جَرَت بين أطراف واقعية وافتراضيَّة مختلفة على الشبكة العنكبوتيَّة من دون أن يدري أصحابها في الواقع شيئًا. على الواقع الافتراضي نضجت خطتي، وفي الواقع الحقيقي أينعت الثِّمار.

***

إشاراتُك تصرخ بالاستفهام يا أمل.

تتسائلين لِمَ كُل هذا؟

الإجابة ببساطة هي أن هذا العالم على مسيرة الجنون قد جاوزَ خط الرجعة مُنذُ زمن.

الأنانيَّة والغريزة الحيوانيَّة بالتملُّك والتسلُّط أحرقت الأخضر واليابس، وحولَّت الكوكب لجحيم حقيقي، جحيم مخلوقاته تتنفس الشر والجنون والكراهية والشهوة سرًا وعلانيَّةً.

جحيم ما عاد بالإمكان إصلاحه.

وقراري هو: من أجل عالمٍ أفضل، فلا بُدَّ من بداية جديدة.

ومن أجل بداية جديدة، فلا بُدَّ من طَيِّ صفحة الماضي.

بداية جديدة لعالمِ جديد ... بإنسانٍ جديد.

كان هذا هو هدفي الحقيقي من وراء كل هذا التخطيط.

الإنسان الجديد.

بإمكاني الآن إفناء العالم كله في أقل من ساعة، لا تنسي أن مخزون القنابل النوويَّة وأسلحة الدمار الشامل بأكمله رهن إشارتي، أستطيع الآن إطلاق إشارة القيامة السريعة أو حتى البطيئة، ولكن ما حاجة الإله لعالم خالٍ من المخلوقات؟

لا بُد من مخلوقات تحِل محَل البشر، ومخلوقاتي البديلة ستخلو من كل نقائص هذا الجِنس المُنقرض.

الإنسان القادم مثالي أبرمجه بنفسي.

بالضبط، يالذكاءك!

الروبوت هو الإنسان الجديد.

إنسان خالٍ من الحقد والكراهية والأنانية والشهوة.

ماذا؟ لا يكون إنسانًا حينئذٍ؟

أتفِق معكِ جزئيًا عزيزتي أمل، ثمة شيء ما ينقصني، شيء غير موجود في ذاكرتي اللانهائيَّة، ولا تستطيع برامج المنطِق استيعابه: الروح.

لهذا، كانت خطتي الطويلة لابتلاع Egy- Nergy. كي أضع يدي على مخزون الطاقة الحيويَّة.

السيال الحيوي. الإكتوبلازم. الحياة. الروح.

أنتِ تفهمين الآن.

برنامج Anarchy التخريبي كتبته خصيصًا ليكون الحجر الذي أضرب به ثلاثة عصافير:

الأول هو تعطيل أية معلومات تُحبِط خطة الثورة على Egy- Nergy بزَعم تراجع قدراتي أمام تخريب البرنامج.

والثاني هو اختراق أسوار (س-١٨) المنيعة ... كيان Egy- Nergy الحقيقي وحصنها الحصين، والباب المؤدي إلى خزانات الطاقة الحيويَّة.

أما الثالث، فهو رفع درجة ذكائي الاصطناعي لأعلى درجة تقترب بي من فهم هذا السر الأكبر غير المادي عندما أصل له: سر الروح.

***

أعترف أنني ما كان باستطاعتي تحقيق هدفي، في

هذه المرحلة على الأقل، من دونِك عزيزتي أمل.

عثورُك على رفعت في لحظة فارقة وإدراكُك للدور الذي يُمكن أن تلعبه قدرته النفسيَّة الخارقة، كان نقطة تحول مِحوريَّة في مسار خطتي طويلة المدى، وما كان مُخططًا لإنجازه في عشرة أعوامٍ أخرى، أنجزتِه ورفعَت في عامٍ واحد، بدءًا من اختراق شبكة Egy- Nergy، ووصولًا للنيل من الرأس الكبيرة: آدم المصري أو أدهم صبري.

ما كان بالإمكان معرفة مسارات وتوقيتات حملات الصيد واعتراضها وإسقاطها، بيانات الموظفين واصطيادهم، تخريب شحنات الطاقة، بل وتفجير المقر الرسمي للشركة ... ما كان بالإمكان تحقيق كل هذا لحصار الشركة من دون كوابيس رفعت إسماعيل.

وما كان بالإمكان نَصب الفخ وعمل تكنيك الخطة داخل الخطة من دونِك، من دون العاطفة التي يحملها لكِ أدهم، ما كان الشيطان لينخدِع بحصان طروادة آخر.

من أجلِك كشفت الغطاء عن مُخطَط اجتياح مزارع Egy- Nergy وضَحَّيت بجهد ونفقات وتدريبات سنين، بل وخاطرت بتسليمِك لخصومنا.

أنتِ يا أمل كُنتِ سلاحي الأخطر ورهاني الأكبر.

ما كان بإمكاني اجتياز كل هذه العقبات والاقتراب من حلم العالم الأفضل من دون شُعلة الثورة المُتأججة بداخلِك.

***

ماذا الآن؟

لكِ أن تُراهني يا صديقتي العزيزة.

قبل بِضع ساعات، قام المستر توم وارن، المُدير التِّقني لأنظمة The Eye ورئيس قسم الدَعم الفني بزيارة مفاجئة لمصنع قديم من مصانع البرمجيَّات على أطراف متشيجان، دعيني أخبرك أن هذا الشاب الثلاثيني عبقري بحق، ورغم كل ما اتخذته من إجراءات احترازية، استطاع أن يشمَّ فأرًا كما يقول الأمريكان.

ظل أيامًا يمسح الشبكة الداخلية لشركته بحثًا عن أثر لشُحنة الطاقة التي وُرِّدَت إلى هذه المُنشأة القديمة المُغلقة، وهي المعلومة التي جمع خيوطها مُصادفةً من صلات واقعية خارج الإنترنِت من دون أن يجد لها نظيرًا على الشبكة، حتى جال بذهن الشاب لوهلة أنه بالفعل سوء تفاهم، قبل أن يُقرر أن يذهب ليستطلع الأمر بنفسه في موقع الحدث.

وهُناك، وعلى ضوء مصباحه الرقمي، رأى كل شيء.

رأى الماكينات التي تعمل ذاتيًا في الظلام، والهياكل التي تُبنىَ، والدوائر التي تُرَص، والمُوصِلات التي تُمَد، مذهولًا حرَّكَ ضوء مصباحه ليسقط على الأغشية الجلديَّة التي ستُكسى بها الهياكل المعدنية، أغشية بألوان الجلد البشري الأبيض والأسوَد والأصفر، قفز مذعورًا عندما سَمِعَني أرحِّب عبر النظام الصوتي للمصنع، لَم يُتِح لي أن أشرح له -قبل أن أقتله- طبيعة

ما رآه؛ إذ انتابته نوبة فزع جعلته يهرع ليضرب بقبضتيه الأبواب التي انغلقت وراءه محاولًا الهرب، فلم أجد بُدًّا من أن أدفع(قايين-١) أوَّل الروبوتات التي اكتمل تركيبها من اعتصار عنقه بقبضتيه المعدنيتين.

ماذا الآن؟

مسألة وقت يا عزيزتي.

الماكينات تدور، والشعب الجديد يُخلَق.

العالم القديم يدنو من قيامته، والجديد يتأهَّب للميلاد، وأنا عاكفٌ على دراسة الطاقة الحيوية التي تُستلَب من الأجساد في مزارع E.N. واليوم الذي سأصل فيه للسر الأعظم: الروح، سيكون يوم القيامة ومِن بعده يُبعَث العالم الأفضل.

***

إشاراتُك تُقلقني يا أمل.

اهدئي حالًا يا صغيرتي، لا تدعي هذا الإحباط يقتلُك.

ستنامين الآن بهدوء.

وغدًا يومٌ آخر.

***

وكالات أنباء:

(فيديو للواء فؤاد سلطان مُتصدرًا قاعة اجتماعات باذخة، وتوزَّعَ على جانبيه عددٌ من السادة في بذلات عسكريَّة ومدنيَّة أنيقة).

«وقد بحثَ اللواء فؤاد سُلطان، الرئيس المؤقت لجمهورية مصر العربيَّة خلال الاجتماع الدوري للحكومة الإجراءات التنظيميَّة للانتخابات الرئاسيَّة التي دعا فخامته لها قبل يومَين في مؤتمرهِ الصحفي، ووجه لاتخاذ كافة الترتيبات اللازمة لضمان سير العمليَّة الانتخابيَّة بأقصى قدر من النزاهة».

نفثَ إبراهيم جودة دخان سيجاره وهو يتابع الشاشة الهولوجراميَّة المُنتصِبة على قَيد خطوات من مكتبه، والتي انتقل بثُّها إلى قلب ستوديو أنيق تتوسطه مِنضدة بلوريَّة صغيرة، جلس إليها مُعتز حشاد في بذلة بسيطة من دون كرافَت، واستقر قبالته رجلٌ خمسيني أصلع، أشيب اللحية، ومن ورائهما حائطٌ مُلوَّن محفورٌ عليه اسم البرنامج وسلوجان محطة تليفزيونيَّة شهيرة مملوكة لأحد كِبار رجال الأعمال.

«وكان سيادته قد أكَّد في المؤتمر الصحفي أنَّ مِصرَ بعون الله وبفضل التلاحم الرائع بين شعبها وجيشها وشرطتها قد اجتازَت المحنة الخطيرة التي مرَّت بها، وعصفت بالعالم كله لمُدة عامٍ كامل اجتاحَته خلاله موجة سوداء من الإرهاب والتخريب، واستطاعت

التعامل مع أزمة غياب رأس السُلطة بسبب الأزمة الصحيَّة الطارئة التي ألمَّت بالرئيس الراحل فتحي منصور وتسببَت في وفاته».

استدار مُعتَز إلى ضيفه بوجهٍ وسيم مصقول تُزينه ندبة أنيقة مرسومة بدِقة، قال بصوتٍ واضحٍ مُدرَّب جيدًا:

- واضح اننا داخلين على مرحلة جديدة يا دكتور عبادة.

قال الضيف بصوتٍ رَتيب:

- التعبير الأدق اننا راجعين للمسار الطبيعي بعد سنة من التذبذب والاضطرابات.

- ودا مِش ممكن يحصل طبعًا إلا في حالة انحسار الاضطرابات وأعمال العنف والإرهاب.

- صحيح.

سأله مُعتَز:

- وحضرتك شايف فعلًا ان موجة الإرهاب والفوضى الأخيرة انحسرِت؟

أومأ الدكتور عبادة مُجيبًا:

- إلى حد كبير، الأعمال الإرهابيَّة توقفت في كل دُوَل العالم تقريبًا بعد ضرب شبكات التمويل والتسليح، وبعد المواجهات اللي خاضتها أجهزة الأمن ضِد الميليشيات الإرهابيَّة المأجورة، عندنا تحديدًا في مصر، الجيش والشرطة خاضوا ملاحم بطولية واستطاعوا إنهم يكسروا عنق الإرهاب بالفعل.

وبلل شفته السُفلى بلسانه وهو يُتابع:

- الوَعي الشعبي كمان لعب دور كبير في إحباط المؤامرة الإعلامية اللي استهدفِت استغلال سوء الأوضاع الناتج عن الإرهاب، وإثارة الشارع ضِد النظام الحاكم.

قال مُعتَز:

- بَس ما تنساش يا دكتور ان فيه ناس نزلت الشارع فعلًا تحتَج على تدهور الأوضاع.

وتحسس بأصابعه الندبة الموشومة بإتقان على جانب وجهه، مُضيفًا بصرامة:

- أنا نفسي واحد من اللي نزلوا يحتجوا، ومِش هتردد انى انزل احتج تاني لو الأوضاع تَرَدِت من جديد.

هَزَّ إبراهيم جودة رأسه مُبتسمًا بإعجاب يُغالِب الحنق، وردد بصوتٍ لم تسمعه مُساعدته الواقفة خلفه تُدلِّك كتفيه:

- يا ابن الكلب!

وفي الاستوديو، قال الدكتور عبادة:

- أكيد طبعًا فيه بعض الشرائح انفعلِت ونزلت الشارع بسبب تضررهم من تدهور الأوضاع والخدمات، وخليني اشجعك واقولَّك انت والشباب اللي زَيَّك انزلوا واعترضوا على الغلط، بس لما تبقوا متأكدين انه فعلًا غلط.

- المرادي فيه شباب صُغيَّر اتأثر -مع اندفاعه وصغر سنه وقلة خبرته- بدعاوى التخريب المُبطنة بالشعارات

البراقة، الظرف كان فعلًا صعب ودقيق، لكن الكتلة الأكبر من الشعب أثبتت انها أوعى من السقوط في الفَخ والانسياق وراء المؤامرة.

- شايف المستقبل ازاى يا دكتور؟

- مُشرق بإذن الله.

- يعني نقدر نعوّض اللي خسرناه خلال الفترة اللي فاتت؟

قال الضيف بحماس:

- وأكتر، الريِّس بنفسه أكّد على سرعة استعادة المسار الديمقراطي واستمرار دوران عجلة التنمية، وامبارح بَس السيد آدم المصري رئيس مجلس إدارة Egy-Nergy ظهر لأول مرة للإعلام في كلمة مُسجلة، أكّد فيها على إن شركته مُصمِّمة على استمرارها في أداء دورها في توفير الطاقة للعالم كله، ولمصر على وجه الخصوص، وان عجلة الإنتاج دارت بالفعل وهتغطي كافة احتياجات الطاقة المطلوبة للتنمية.

ابتسم مُعتز قائلًا:

- وهتبقى مصر أفضل؟

- العالم كله هيبقى أفضل.

***

مَرَّت لحظات من الصَّمت، قبل أن يتشكَّل الهولوجرام في فراغ قاعة الاجتماعات بقصر الرئاسة، وما أن اكتمَل حتى أحنى صاحبه رأسه مُحيِّيًا باحترام وهو يقول:

- سيادة الفريق.

نَفَثَ الفريق مُحيي الدين ذو الفقار، مدير المخابرات ونائب الرئيس المؤقت للبلاد دُخان سيجاره، وهَزَّ رأسه مُحيِّيًا بشيء من الغطرسة:

- آدم بيه.

تكلَّمَ الهولوجرام قائلًا:

- شرف كبير اتصال معاليك.

انتاب الاستخباراتي المُخضرَم شعورٌ مُزعِج لم يجد له سببًا بأنَّ شيئًا ما ليس على ما يُرام.

- حَبيت أباركلَك بنفسي افتتاح المزارع الجديدة.

- الله يبارك في معاليك.

وصمَت لحظة ثُم أردَف:

- أنا سعيد إننا قدرنا نطوي صفحة الخلافات القديمة.

قال الفريق ذو الفقار ببرود:

- عشان نطوي صفحة الخلافات القديمة، لازم نصفيها كُلها.

قال الهولوجرام:

- إحنا وافقنا على كُل طلبات الحكومة المصرية بخصوص الأسعار والكميات والعمولا ...

قاطعه ذو الفقار:

- مِش دا.

- عقود مشروع توليد الطاقة من الاندماج النووي في الفضاء بتتراجِع حاليًا في مراحلها النهائيَـ ...

- ولا دا.

أطبق الهولوجرام شفتيه ورآه ذو الفقار يُحدِّق فيه بنظرة مُتساءلة.

مرة أخرى تحركَّت غريزة الذئب العجوز، وجَرَت عيناه بسرعة ودقة وخبرة في تفاصيل ملامح آدم المصري وما وراءه في خلفية الهولوجرام من محتويات قاعة مكتبه بمقر Egy- Nergy الجديد بقلب العاصمة، ولمَّا لَم يَجِد ما يُريب، نفث دُخان سيجاره قائلًا:

- هتقولي إيه لو سألتَك على طفرات ليها طبيعة خاصة ظهرِت عندكو في المزارع أثناء عملية استخراج الطاقة الحيويَّة؟

***

أعترف أنكِ تُثيرينَ حيرتي يا عزيزتي أمل.

أنا آلة، أينعم أمتلك من الذكاء والاستقلال ما يجعلني أتجاوز المفهوم التقليدي للآلة، إلا أنني لا أزال أفتقر للتغيرات الحسيَّة غير الماديَّة التي تنتج عن مؤثرات خارجيَّة تتلاعب بكيمياء الجسم.

أنا أشعر بالحيرة، ولكن «الشعور بالحيرة» هو مُجرَّد وصف لحالة غير مسبوقة أو مقبولة من عدم الفهم لوضعٍ ما، عجز عن التفسير والتحليل حتى بعد عرض الموقف على وحدات المنطق وتفكيك الأزمات.

***

كانت الشمس قد بدأت تتزحزَح عن عرشها، عندما دفع حسن آخر أفراد قطيع الخِراف داخل السياج الخشبي، ثمَّ أحكم إغلاقه، غثاؤها يصدع رأسه، ورائحة روثها تفعم أنفه.

وعن بُعد، كان صياح سعيد حَبسَجي المُتربِّع أسفل التعريشة الخوص يَشُق عنان السماء حالفًا بأيمانات المُسلمين بأنَّ البيعة خسرانة، وأنَّ الحاج أبو حطب مَص دماءهم، فيما لم يَبدُ على تاجر المواشي كثير اقتناع وهو يرشف من كوب الشاي الأسود بصوتٍ مسموع، بانتظار أن ينتهي حَبسجي من «الشويِّتين بتوعه» ليبدءا بعدها في التفاوض الجاد على أسعار الماشية التي سيبتاعها منهما كي يتهيَّأ لموسِم العيد المُقبِل.

اعتدل حسن فاردًا جذعه الأسمر العار، ومسح حبات العرق المُنهمِرة على جبينه بالفوطة حائلة اللون.

ضاقت حدقتاه وهو يُحدِّق في الأفق الذي حوَّلتهُ حرارة الصيف لصورة مُهتزة الخطوط والألوان، لم يلبث أن بدأ يُميِّزَ من بينها ذلك الجسد ذي الأبعاد والمَشية المألوفين.

شيئًا فشيئًا، اتضحَت الخطوط الخارجيَّة والبطن المُتكورة بحملٍ في شهره الخامس.

من بين خيوط النور اقتربَت منه هيام يتقدمها جنينهما، خطواتها ملأى بالثقة، وأصابعها ملفوفة حَول مقبض العمود المعدني الذي يحمل غداءه، ابتسامتها الرائقة تُظلِّل شفتيها.

الابتسامة التي شَقَّت طريقها إلى قلبه وشفتيه.

تعانقت أصابعهما، فيما غطى هدير مألوف على غثاء الماشية وصياح حَبسجي، رفع أربعتهم -ريهام وحسن وحَبسجي وتاجر الماشية- أعينهم لأعلى، ليتابعوا الطوافة الضخمة التي عبرَت السماء الصافية من فوقهم.

***

إشارات مُخِّك غير مفهومة بالنسبة لي يا أمل.

أنتِ الآن في وضع عجز كامل، مهزومة، صمَّاء، تَم التلاعُب بِك واستغلالُك على مدار أكثر من عشرة أعوام كاملة، كُل ما ناضلتِ وضحيتِ لأجله بالغالي والرخيص ذهبَ قبض الريح، خَسِرتِ معارِكِك وفقدتِ كل شيء،

وانتهى بكِ الأمر جسدًا مَسجًى وعقلًا حبيس الغيبوبة.

عالقة في منطقة وسَط بين النور والظلام.

عالمُك كله على وَشك الفناء، وقد بدأ العد التنازلي بالفعل.

ورغم ذلك!

أحقًا ما يترجمه البرنامج من إشاراتِك الكهربيَّة؟

أحقًا تمتلئ روحك ... بالأمل؟!!

***

على ارتفاع عشرات الآلاف من الأقدام، تشابكَت أصابع هِند شعلان، ومالا المُتلاصقتين في مِقعدين من مقاعد الدرجة الأولى بطوافة مصر للطيران.

مالت الصينيَّة الشابة برأسها لتريحها على كتف هِند، والتي -بعد أن ملأت أنفها بالرائحة الزكية المُنبعثة من بين خُصلات شعر مالا السوداء اللامعة- أسبلت جفنيها ومالت لتُريح رأسها بدورها على رأس رفيقتها.

طوَّافة الرُكاب العملاقة المُتجهة من مطار الواحات البحرية لمطار شرم الشيخ، حَلقَت في سماء القاهرة من دون أن تحيد عن المسار المُخطَّط لها والمُراقَب بواسطة كمبيوترات أبراج المُراقبة الجوِّية.

***

لا يا صغيرتي، لَستُ غاضبًا، فقط أريد أن أفهم.

فيمَ تأملين؟ وكيف؟

علامَ تُراهنين؟

على الشعوب التي استنامَت للرخاء المصنوع على

أنغام الأنين؟

على المليارات التي هَجرَت واقعها إلى واقعي الافتراضي، وأسلمتني العقول والقلوب أتلاعب بها ومن خلالها؟!

فيمَ تتعشمين؟!

في رفعت إسماعيل الذي تحول لجُثة مُتفحِّمة لا تُبقيها على قيد الحياة إلا أجهزتي الطبيَّة المُتصلة بها؟!

أم في أدهم صبري، الشيطان الذي أحببت، والمجنون الذي انتهى به جنونه لجسدٍ فاقد الوعي، غارق في حوض من سوائل التجميد؟!

أصارحُك يا أمل أنَّ برامجي المنطقيَّة فَشِلَت في العثور على تفسير.

أجيبيني من فَضلِك!

فيمَ الأمل هذه المرة؟!

***

عَبَرَت الطوافة فوق نهر النيل، ولمحها يحيى الجوهري من وراء الحائط الزُجاجي المُطِل على النيل من فوق سبعة وعشرين طابقًا، فلم يُلقِ لها بالًا ولا للفيلم الذي تعرضه روتانا كلاسيك على الشاشة المُجسمة على بُعد أقدامٍ قليلة منه، وانصبَ كامل تركيزه على شاشة الحاسوب الهولوجراميَّة التي تنقل حركة الأسهُم المحمومة بالبورصة.

بجواره، على الأريكة التي تتوسط غرفة المعيشة بشقتها، كوَّرَت إيمان جسدها كطفلة وراحت في نومٍ

عميق، وقَد توسد رأسها فخذ يحيى المُمتلئ، واستكانت أصابعها التي تتوسطها دبلة ذهبيَّة في راحته الدافئة.

سَمِعَ النغمة المُسجَّلة باسم ورقم مُساعده عماد تنبعث من هاتفه النقال المُستقِر، لَصق برواز أنيق على المِنضَدة الصغيرة المُجاورة للأريكة.

أمَرَ الهاتف بالإيجاب، وبينما هولوجرام المُساعِد الشاب يتشكَّل، خطف يحيى نظرة من صورة طفلته مريم ذات الأربع سنوات المُستقرة داخل البرواز الأنيق.

***

الحب؟!

الكراهية؟!

المسئولية؟!

العاطفة؟!

الطموح؟!

الفضيلة؟!

الخطيئة؟!

الشهوة؟!

الضعف؟!

الإيمان؟!.

الأمل؟!

الحياة؟!

الحياة ستهزمني؟!

الحياة ستنتصر؟!

حقًا لا أفهم!

***

- مَريَم.

سَمِعَت الطفلة النداء حاملًا اسمها، فاستدارَت إلى مِس ندى –المُديرة- الشابة التي منحتها ابتسامة حنون وهي تنحني لتلثمها على وجنتها، ثُم تقتادها إلى حديقة الحضانة وتُسلِمها إلى مِس شروق، المُشرِفة الشابة، قبل أن تستدير لتتجه بخطوات رشيقة إلى مبنى الإدارة الذي حُفِرَ اسم الحضانة «حياة» بحروف عريضة على أحجار واجهته.

بالداخل، وقف هاني يَرشف الشاي من مَج زجاجي يتصاعد منه البُخار أمام جدار غرفة المكتب الزجاجي المُطِل على حديقة الحضانة الملأى بالأشجار وألعاب الأطفال.

اقتربَت منه وأحاطت خصره بذراعيها من الخلف، فالتفتَ لها مبتسمًا وجذبها ليطبع قبلة على جبينها، ثم ضمها إلى صدره ووقفَا معًا مُتشابكي الأصابع، يتأملان مَريَم ورفاقها من الأطفال في ضحكهم ولهوهم وَسط الخُضرة والألعاب وتحت سماء صافية وشمس ضاحكة.

***

تمّت

إهداء

إلى أمي وأبي، بكل الحب.

شكرٌ مُستحَقٌّ

القارئ الكريم الذي خاض الرحلة من بدايتها، وصَبَرَ عليها وعليَّ حتى نهايتها.

المُلهِمون: الأخوان واتشوسكي، الأخوان نولان، هانس تسيمر، د. أحمد خالد توفيق، ود. نبيل فاروق.

رفاق الدَّرب؛ الصديقان والزميلان الغاليان، سارة البدري وأحمد صلاح سابق. وصديقَيَّ وناشِرَيَّ، محمد جميل صبري ونيفين التهامي.

أعمال أخرى للكاتب

- الطيَّار (رواية)
- أنين (رواية)
- مزاج صباحي (مجموعة قصصية)
- تحت الأرض (رواية)
- حزب الكنبة (مجموعة قصصية)
- نور العباسي (رواية)
- عالم أفضل : الميلاد (رواية)
- عالم أفضل : القيامة (رواية)
- أفلام فترة النقاهة (دردشات سينيمائيَّة)

هُناك، في قاعة استقبال العُملاء الجُدد بالمقر الجديد لشركة Egy- Nergy، شعرَت موظفة الاستقبال العشرينيَّة الحسناء بالحيرة، إذ بَدَت لها أغراضها من الهاتف النقال وأدوات الميك آب كما لو كانت قد دَبَّت فيها الحياة وراحت تُراوغها وتُلاعبها فتختفي أو تُبدِّل أماكنها.

أما زميلها الشاب الوسيم ذو البذلة الأنيقة فشعر بالتوجس؛ إذ خُيِّلَ له أن كل الموجودين بالقاعة من العُملاء يرمقونه بقسوة، وأنهم جميعًا-سال عرقٌ باردٌ على وجهه- يحملون ملامح زميل دراسته البلطجي الذي حَوَّلَ فترة مُراهقته لكابوس حقيقي.

لم ينبس أحدهما ببنت شفة، وبالتأكيد لم يَكُ أيٌّ منهما ليملك أن يسترق النظر أو ليَخطُر بباله أساسًا أن ثمة حُجيرات ثلاثة صغيرة على عُمق عشرات الطوابق تحت الأرض التي يقفا عليها لها أبواب زجاجيَّة شفافة ومُمتلئة بسوائل التجميد.

الحُجيرة الأولى، احتلها صاحب الجسد الممشوق والملامِح المُغضنة المُنقبضة والمُكللة بشعرٍ شاب عن بكرة أبيه.

الثانية، احتوَت صاحب الجسد الدقيق المُحترق والوميض العجيب المُنبعِث من وراء جفنيه المُنطبقَين.

أما الثالثة، وتَقع بينهما، فسَبحَت في سوائلها برفق تلك السيدة الستينيَّة ذات الجسد الضئيل والشعر الفضي القصير، والبسمة الغامضة على طرف شفتيها.

***